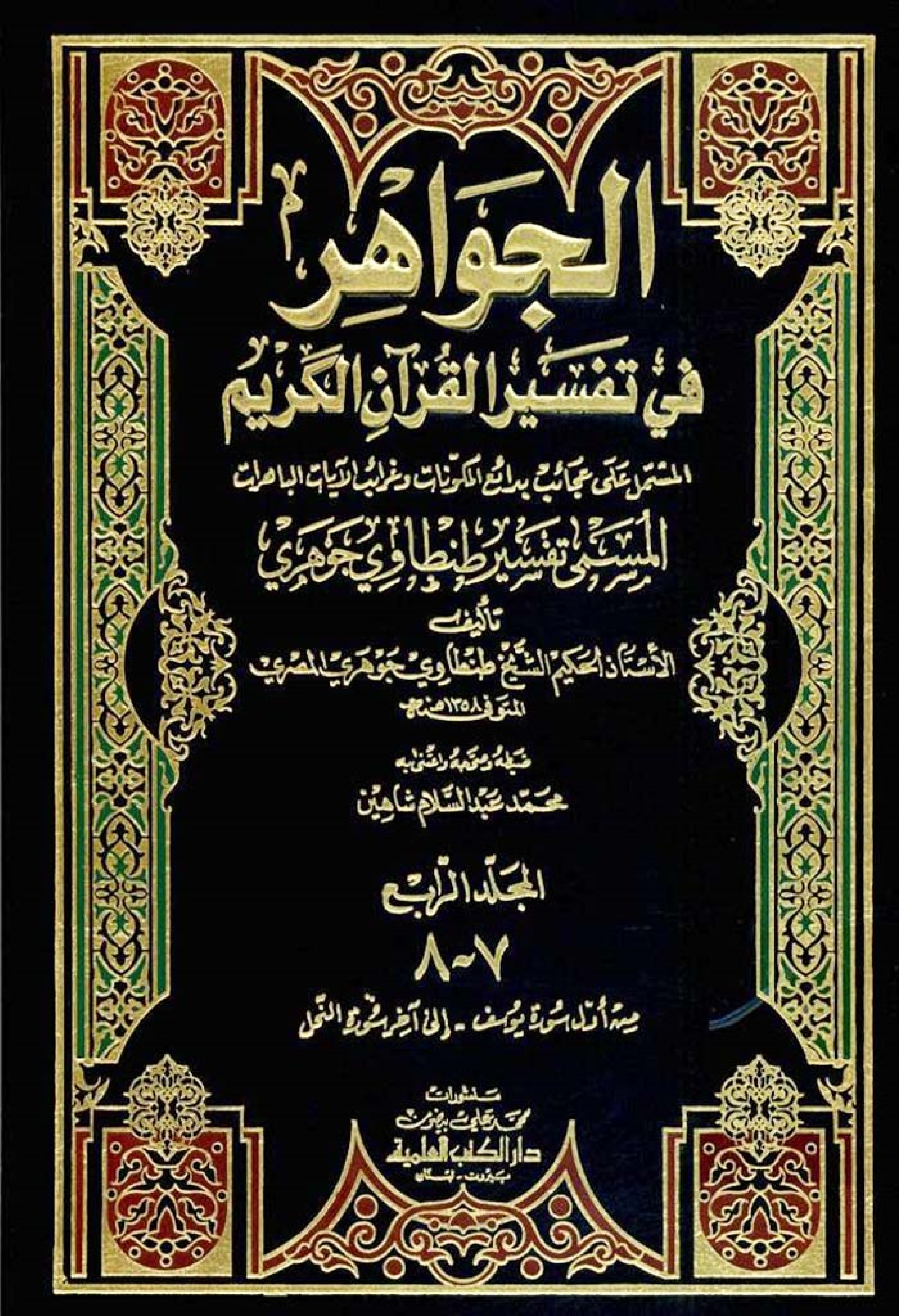

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الرابع
٧-٨
من أول سورة يوسف - إلى آخر سورة النحل
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر
في
تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين

الجزء الثامن

المحتوى:
سورة الحجر - وسورة النحل

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]

سورة الحجر

هي مكية، وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾
ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا
كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ
عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا
نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدْ خَلَتْ
سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا
سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ
شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ
﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ
وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ
﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن
صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾
إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي
أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ
لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا
جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا
فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ
وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ
الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ
إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ
الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

تفسير الكلمات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر ﴾ تقدّم الكلام على حروف أوائل السور إجمالاً في أول سورة « آل عمران »، وفي أول سورة « هود »، ولكن تفصيل الكلام على ﴿ الٓر ﴾ في أول سورة « يونس » و« هود » و« يوسف » و« إبراهيم » و« الحجر » هنا، وعلى ﴿ الٓمٓر ﴾ في أول سورة « الرعد » يعوزه تفصيل أتم هنا فأقول:

إنَّ سورة « يونس » لعلم ما في السماوات والأرض ولإنذار من لا يؤمنون من الأمم، وهذا كله تضمنه قوله تعالى فيها: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، فهذه الآية ملخص السورة.

فالآيات مذكورة في عالم السماوات والأرض الموضحة في أول السورة، والنذر في قصص الأمم كقوم نوح وقوم فرعون وهكذا، وهذا كله يشار إليه بلفظ النذر أولها « الـ » وآخرها « راء »، وإنَّما جاءت هذه الإشارة وأظهرها الله في هذا التفسير لأن المسلمين لا يقرؤون إلاَّ الأحكام الشرعية ولا يبالون بعوالم السماوات والأرض ولا بتاريخ الأمم المحيطة بهم، فذكر ﴿ الٓر ﴾ في أول السورة ليبين لهم بعد اضمحلالهم أنَّ الآيات المذكورة والنذر كلها أهم أسرار القرآن، وأما الاكتفاء بالمذاهب الشائعة في الإسلام في الأحكام الشرعية فإنَّما هو الغرور وهو الجهالة، هذا إنذار من الله للمسلمين بل هو آخر إنذار، وأما ﴿ الٓر ﴾ في أول سورة « هود » فإن هذه السورة جاء فيها أمران:

الأمر الأول: تدبير الأمور في هذا العالم الذي جاء عاماً لكل شيء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧]، ومن له العرش هو الذي ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ ﴾ [الرعد: ٢]، ومن ذلك آية ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ

إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[هود: ٥٦]، هذا السر قد سرى في غضون قصص الأنبياء في تلك السورة فارجع إليه هناك.

الأمر الثاني: إن فيها قصص الأنبياء كـ «نوح» مفصلة و«هود» و«صالح» و«إبراهيم» و«لوط» و«شعيب» و«موسى»، وختم ذلك بأن ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾[هود: ١٠٠] الخ.

هذان هما الأمران اللذان تضمنتهما السورة ويجمعهما آيتان في آخرهما وهما: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾[هود: ١٢٣] الخ، وقوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[هود: ١٢٠]. فأنباء الرسل وذكر الأمم لتثبيت فؤاده، ورجوع الأمر لله يستلزم العبادة والتوكل. إذن في السورة تثبيت القلوب بالتاريخ، ومعرفة العوالم العلوية والسفلية، ولحب الله ولعبادته والتوكل عليه، وللأول الإشارة بذكر: ﴿ ٱلرُّسُلِ ﴾ فيها ﴿ الٓر ﴾ متصلة، وللثاني الإشارة بلفظ: ﴿ ٱلْأَمْرَ ﴾ ولم يذكر في أول هذه السورة ﴿ الٓمٓر ﴾ كما ذكره في سورة «الرعد» فيما يأتي، لأن هذه السورة ليست خاصة بالعوالم الإلهية فحسب، بل فيها ذكر الأمم ورسلهم، فجمع بين الأمرين بما تقدم، وذكر ﴿الٓمٓر﴾ في سورة «الرعد» التي هي حروف الأمر، لأن المدار هناك على نظام العوالم وتدبير أمورها كما ستراه، وهذا كله متروك عند الأمم الإسلامية الآن، فلذلك ذكرنا بهذه الحروف اليوم، وظهر في هذا التفسير، وأما ﴿ الٓر ﴾ في أول سورة «يوسف» فذلك لأن هذه السورة اختصت بقصة يوسف، وقد جرى له ما جرى للأنبياء؛ وهو العسر أولاً واليسر آخراً؛ كما تقدم في قصص الأنبياء في سورة «هود» قبلها، وقد جاء في قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾[يوسف: ١١٠] الخ، وفي الرسل ﴿ الٓر ﴾ كما في السورة قبلها. إذن «يوسف» لإيضاح أحد الأمرين في «هود» فقط لا لهما معاً، إذ ليس فيها إلا قصص يوسف، وفيه تبيان أن المصلحين في آخر الأمر فائزون، فإن كل مصلح في الإسلام أحسّ في قلبه بحب النفع العام ينبغي له أن يطرد اليأس فإنه في آخر أمره فائز لا محالة، كما أن الرسل نصروا بعد اليأس.

فأما سورة «الرعد» فهي موضحة للقسم الثاني في سورة «هود»، وهو تدبير الأمر في السماوات والأرض الذي يلزم من العلم به التوكل على الله وعبادته، وهاك تفصيله في سورة «الرعد» التي جاء في أولها ﴿ الٓمٓر ﴾: اعلم أن سورة «الرعد» موجه أكثر العناية فيها إلى تدبير الأمر الذي ذكره بقوله: الذي ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ الخ، بعد ذكر العرش، فالمقام مقام تدبير ونظام العالم، مثل: (١) مدّ الأرض. (٢)و(٣)و(٤)و(٥) وجعل الجبال فيها والأنهار والثمرات من كل زوجين بتدبير محكم. (٦) والليل والنهار. (٧) والقطع المتجاورات. (٨) والحدائق. (٩) وأن ما في الأرحام بمقدار. (١٠) والسر والجهر معلوم عنده. (١١) وخلق الحفظة للإنسان. (١٢) ونظام البرق. (١٣) والسحاب. (١٤) والرعد. (١٥) وسجود الظلال بنظام سير الشمس. (١٦) وإنزال الماء في الأودية كل بقدر. (١٧) والمحو والإثبات بمقدار.

هذه مجامع النظام العام والتدبير المحكم، كل هذا رمز له بهذه الحروف، وهي ﴿ الٓمٓر ﴾، وهذه مجموعة في لفظ الأمر من ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾، والهمزة مكررة. فملخص السورة يرجع للفت المسلمين لمعرفة نظام ربهم في هذه المذكورات.

وأنا أحمد الله إذ استبان في هذا التفسير جمل لفهم هذه المذكورات كتبتها، وأنا أشهد الله على الأمم الإسلامية أني قد فتح هذا الباب على يدي، وكل من قرأ هذا مسؤول عن هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الزمان حتى يأخذ المسلمون حقهم في هذه الحياة ويتبوؤون مكانتهم تحت الشمس.

وأما ﴿ الٓر ﴾ في سورة « إبراهيم » فقد قدمت الكلام عليها في غضون تفسيرها، إذ استبان أن هذه السورة اتجهت العناية فيها إلى التذكير بأيام الله، والتذكير بأيام الله قد تقدم موضحاً بقدر الإمكان هناك في التفسير. وهناك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ [إبراهيم: ٢٨] الخ، والألف واللام والراء قد جاءت على هذا الترتيب مع الفصل في سبع كلمات في غضون الكلام على النعم، مثل البحر والقمر والأنهار والنهار، فكأنه قيل ليفكر المسلمون في هذه النعم، فإن لم يعرفوها أصابتهم النار وحلّ بهم البوار، وهذان اللفظان من تلك الألفاظ السبعة. ولقد جاء هناك ذكر البحر الميت الذي لم يعرف المسلمون النعم التي فيه إلاّ في زماننا فارجع إليه هناك.

وأما ﴿ الٓر ﴾ في هذه السورة فهو موجه إلى لفظ ﴿ ٱلذِّكْرُ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ [الآية: ٦]، وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الآية: ٩] « ال » في أولها و« الراء » في آخرها، وهذه السورة فيها ذكر: آدم، والملائكة، وإبليس، وإبراهيم وضيفه، ولوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، وكل ذلك ذكر وإنذار في لفظ النذير التي في أولها « ال » وآخرها « راء »، إذن الذكر هنا لتوجيه العقول إلى الاعتبار بالأمم والإنذار أن يصيبنا ما أصابهم. إذن هذه السور الثلاث كل منها لثمرة خاصة، وعلى المسلمين أن ينهجوا مناهجها، فلـ« الرعد » معرفة النظم العامة، ولـ« إبراهيم » التذكير بأيام الله، وأن يعرف كل قوم ما جاء في تاريخهم وتاريخ من حولهم، كما تقدم هناك من علم وتاريخ.

وهنا في هذه السورة حال أخرى؛ فإذن يجب على أبناء العرب من سكان شمال إفريقيا والسودان ومصر وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق، وهكذا الفرس وأهل الهند وأبناء جزيرة جاوة وسومطرة والجزائر حولهما وأبناء الملايو والترك، أقول على هؤلاء جميعاً أن يقوم فيهم رجال يؤلفون كتباً جميلة ذات رسوم جغرافية وأخرى سياسية، يذكرون فيها ما مر ببلادهم من أول ظهور تاريخها مع ذكر ارتباطها بالأمم الأخرى؛ إسلامية وغير إسلامية؛ ويبينون ما حلّ بها من شقاء وما أوتيت من نعم، ويحذرون أبناءهم مما وقع فيه آباؤهم، فيقرؤه الشبان ويكونون حذرين ناظرين لمستقبل بلادهم، وبغير هذا لا يكون لأمم الإسلام وجود. هذا كله يؤخذ من سورة « إبراهيم » وذكر ﴿ الٓر ﴾ في أولها، ويؤلفون كتباً أخرى جميلة نفيسة بهجة شيقة تفرح الشبان وتوقظ الوسنان، يذكرون فيها بهجة الطبيعة وجمالها وحسنها، ويعشقون الناس فيها، ويخصون بالذكر أعجب ما يرون، وهذا إجابة لنداء الله تعالى في سورة « الرعد » إذ يقول: ﴿ الٓمٓر ﴾ المشيرة لتدبير الأمر، ويؤلفون كتباً أخرى في التاريخ العام لبعض الأمم قديمها وحديثها بشرط أن تؤثر في العقول إجابة لقوله تعالى هنا في سورة « الحجر »: ﴿ الٓر ﴾، إذ ذلك من جهة ذكر ومن جهة إنذار. وهذه الكتب الثلاثة لظهور بعض السر في هذه الحروف التي خزنها الله في القرآن للأجيال الحاضرة والمستقبلة ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤].

انتهى الكلام على ﴿ الٓر ﴾، فلنشرع في تفسير كلمات السورة، فنقول: ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: ما تضمنته هذه السورة من الآيات ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: تلك آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتاباً؛ أو في كونه قرآناً. ﴿ رُّبَمَا ﴾ بالتخفيف والتشديد و« ما » كافة. وقوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ حكاية ودادتهم. ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أمر للإهانة. ﴿ ٱلذِّكْرُ ﴾ القرآن. ﴿ لَمَجْنُونٌ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿ لَّوْ مَا ﴾ هلا. ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلاّ تنزيلاً ملتبساً بالحق، ﴿ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ أي: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين، إذن ولم يؤخر عذابهم. ﴿ شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً في الفرق الأولين، والشيعة: الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة. ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ ﴾ سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته، إذا أدخلته فيها. ﴿ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ مضت طريقهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسلهم. ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء. ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون. ﴿ سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ سدت أبصارنا أو غشيت أو سكرت من: سكر الشراب ففسد نظرها؛ مثل ما يقع للرجل السكران. ﴿ مَّسْحُورُونَ ﴾ أي: سحرنا محمد وعمل فينا سحره. ﴿ بُرُوجًا ﴾ هي النجوم العظام، ومنها نجوم البروج المعروفة في علم الفلك التي هي ١٢ برجاً، ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ أي: بالأشكال والهيئات البهية، ﴿ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ المعتبرين. ﴿ رَّجِيمٍ ﴾ مرجوم فعيل بمعنى مفعول؛ أو ملعون مطرود من رحمة الله. ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: لكن من استرق السمع، أي: اختلس خلسة، ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: يلحقه نجم مضيء حارّ متوقد. ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها. ﴿ رَوَٰسِىَ ﴾ جبالاً ثوابت. ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾ في الأرض. ومعلوم أن الجبال منها؛ ففيها النبات أيضاً؛ كما تقدم في سورة « الرعد ». ﴿ مَّوْزُونٍ ﴾ مقدر بمقدار معين تقتضيه المصلحة. ﴿ مَعَٰيِشَ ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس، ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ عطف على « معايش ». ﴿ خَزَآئِنُهُۥ ﴾ الخزائن تمثيل، أي: وما من شيء ينتفع به العباد إلاّ ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾. وقوله: ﴿ لَوَٰقِحَ ﴾ يعني للشجر، يقال: لقحت الناقة وألقحها الفحل، إذا ألقى إليها الماء فحملته، فهي بمعنى ملقحات، ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات. ﴿ بِخَٰزِنِينَ ﴾ أي: بحافظين في الغدران والعيون والآبار. ﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ الباقون إذا مات الخلائق. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر. ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ آدم. ﴿ صَلْصَٰلٍ ﴾ طين يابس غير مطبوخ، ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ صفة لـ« صلصال »، أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ، أي: طين أسود متغير، ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي: منتن أو مصبوب لييبس ويتصور؛ كالجواهر المذابة تصبّ في القوالب، من السن وهو الصب، كأنه أفرغ الحمأ فصور منه تمثال إنسان أجوف فيبس، حتى إذا نقر عليه صلصل، ثم غير طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه. ﴿ وَٱلْجَآنَّ ﴾ المراد به الجنس كما هو الأظهر في الإنسان أنه الجنس، وإذا أريد آدم في الأول؛ يراد أبا الجن في الثاني. ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل خلق الإنسان، ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ أي: واذكر وقت قوله. ﴿ سَوَّيْتُهُۥ ﴾ أتممت خلقه وهيأتها لنفخ الروح فيها، ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ لا نفخ هناك، وإنَّما المعنى: وجعلت فيه الروح وأحييته، فهو للتمثيل. ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ الاستثناء منقطع، ﴿ أَبَىٰٓ ﴾ امتنع، وهو استئناف، أي: لكن إبليس أبى. ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي: أيّ غرض لك في أن لا تكون مع الساجدين.

﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ اللام لام الجحود مؤكدة للنفي، أي: لا يصح مني أن أسجد. ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من السماء، أو من الجنة، أو من جملة الملائكة، ﴿ رَجِيمٌ ﴾ مطرود ملعون، واللعنة هي الطرد من الرحمة والإبعاد عنها. ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ أي: أقسم بإغوائك إياي، ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ المعاصي ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في الدنيا وهي دار الغرور. ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ هذا طريق حق عليّ أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلاّ من اختار اتباعك منهم لغوايته. ﴿ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الضمير للغاوين. ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ أي: طبقات ينزلونها، ﴿ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي: لكل دركة قوم يسكنونها، فيجزئ الله أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل قسم منهم دركة من النار. ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: الذين اتقوا الكبائر. ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أي: يقال لهم: ادخلوها ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ حال، أي: سالمين أو مسلماً عليكم، تسلم عليكم الملائكة ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الخروج منها، والآفات فيها، وهذه حال أخرى. ﴿ مِّنْ غِلٍّ ﴾ حقد كامن في القلب، وطهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ووضع الله في قلوبهم التواد والتحاب. ﴿ إِخْوَٰنًا ﴾ حال، ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ تدور بهم أسرّتهم حيثما داروا فهم في جميع أحوالهم متقابلون، ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ حال من الضمير في «متقابلين»، النصب: التعب. ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ أي: ونبّئ عبادي وأخبر أمتك ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها بسخط الله تعالى وانتقامه من المجرمين. ﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أضيافه، وهو جبريل مع أحد عشر ملكاً، والضيف للواحد وللجمع. ﴿ سَلَٰمًا ﴾ نسلم سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿ وَجِلُونَ ﴾ خائفون.

﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ استئناف في معنى التعليل ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ هو إسحاق عليه السلام ﴿ عَلِيمٍ ﴾ إذا بلغ.

﴿ عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ ﴾ تعجب من أن يولد له مع مسّ الكبرياء إياه، ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فبأي أعجوبة تبشرون، فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء. ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: باليقين الذي لا لبس فيه. ﴿ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ الآيسين من ذلك. ﴿ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله وكمال علمه وقدرته. ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة.

﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني قوم لوط، ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي: أهل لوط المؤمنين، والاستثناء منقطع، ﴿ لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ مما يعذب به القوم، ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ ﴾ استثناء من آل لوط. ﴿ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم. ﴿ مُّنكَرُونَ ﴾ تنكركم نفسي وتنفر عنكم مخافة أن تطرقوني بشرّ.

﴿ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ كانوا يشكون فيه، وهو العذاب الذي توعدتهم به ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ باليقين؛ وهو عذابهم. ﴿ لَصَٰدِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به، ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ فاذهب بهم في الليل، ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ في طائفة من الليل، وقيل: آخره، ﴿ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ لينظر ما وراءه فيرى من الهول ما لا يطيقه. ﴿ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ حيث أمركم الله، ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي: أوحينا إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه وفرغنا منه، وهو مبهم يفسره: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي: آخر قوم لوط مستأصل في الصباح، والمعنى: أنهم يستأصلون من آخرهم في ذلك الوقت. ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط، ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط؛ والاستبشار إظهار الفرح والسرور. ﴿ قَالَ ﴾ أي: لوط لقومه. ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ يعني فيهم. يقال: فضحه، إذا أظهر من أمره

ما يلزمه العار بسببه، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوا الله في أمرهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تخجلون، ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قوم لوط ﴿أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أولم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك فإنا نريد أن نركب منهم الفاحشة. ﴿بَنَاتِيٓ﴾ أي: نساء قومه، لأن الأنبياء آباء والأمة أبناؤه وبناته. ﴿فَٰعِلِينَ﴾ ما أمرتكم به. ﴿لَعَمْرُكَ﴾ وحياتك يا محمد، والعمر مدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته، أي: لعمرك قسمي. ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ حيرتهم وضلالهم وغفلتهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين. ﴿ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ صيحة جبريل حال كونهم داخلين في وقت الشروق؛ وهو بزوغ الشمس. ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ عالي المدينة أو قراهم سافلها، فصارت منقلبة عليهم. ﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر. ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون بنظرهم حتى يعرفوا حقائق الأشياء. ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة أو القرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ طريق واضح معلم ليس بخفي ولا زائل، فآثار هذه القرى من عذابه وغضبه بطريق ثابت لم يدثر ولم يخف، والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من عذاب قوم لوط وما أنزل بهم ﴿لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين. ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾ وهي الشجر، وتسمى الغيضة، وأصحابها هم قوم شعيب. ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ لمشركين. ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ في الدنيا بالعذاب، ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ طريق واضح، والإمام اسم لما يؤتم به، فسمي به الطريق واللوح ومطمر البناء. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ يعني ثمود كذبوا صالحاً فكأنهم كذبوا الرسل كلهم، لأن الدعوة واحدة، والحجر واد بين المدينة والشام. ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ آيات الكتاب المنزل على نبيهم ومعجزاته كالناقة وشربها ودرّها، وما نصبنا لهم من الأدلة. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء. ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلاّ خلقاً متلبساً بالحق، فليس يناسب استمرار الفساد، فلذلك أهلكنا أمثال هؤلاء ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك فيها ممن كذبك يا محمد، ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء. ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم وبيده أمركم جميعاً، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم. ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ سبع آيات وهي الفاتحة التي تثنى وتكرر في كل صلاة، أو يثنى على الله فيها، وهي جمع مثناة أو مثنية، ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ من عطف الكل على الجزء، أي: أكرمناك بالفاتحة وبالقرآن كله. ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً من الكفار كالمشركين واليهود والنصارى والمجوس، فأنت أوتيت النعمة العظمى وهي الفاتحة والقرآن، فكل نعمة في جنبها صغيرة، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بهم الإسلام والمسلمون. وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضع لهم وارفق بهم. ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا، ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: مثل العذاب الذي أنزلنا على الاثني عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله يوم بدر، ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أجزاء جمع عضة، وأصلها: عضوة فعلة، من: عضا الشاة، إذا جعلها أعضاء، أي: قالوا في القرآن أقاويل مختلفة لمن يلاقونه من القادمين إلى الموسم، فبعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم: كهانة، وبعضهم:

أساطير الأولين، وبعضهم: كذب يختلقه من تلقاء نفسه. ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فاجهر به، من: صدع بالحجة، إذا تكلم بها جهاراً، أي: فاجهر بما تؤمر به ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ فلا تلتفت إلى ما يقولون، ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ بقمعهم وإهلاكهم، وأهمهم خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وهم كانوا يبالغون في إيذائه صلى الله عليه وسلم، والاستهزاء به، فمات الوليد بأهون سبب، إذ مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فتكبر أن يبعده عن ثوبه فأصاب عرقاً في عقبه فمات، ومات العاص بشوكة في أخمص قدميه، وأصاب عدي بن قيس مرض في أنفه فامتخط قيحاً فمات، وأصيب الأسود ابن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وعمي الأسود بن عبد المطلب. ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين. ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك، ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك. ﴿ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ من المصلين. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أغمه أمر بادر إلى الصلاة. ﴿ ٱلۡيَقِينُ ﴾ الموت، فإنه موقن به لا يشك فيه أحد، فهو مأمور بعبادة ربه في جميع أوقاته مدة حياته حتى يأتيه الموت. انتهى تفسير الكلمات.

التفسير

وهو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: في بدء الخلق ومقدماته، من أولها إلى قوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

القسم الثاني: في القصص ونتائج ما في السورة والإرشاد والإنذار وتسليته صلى الله عليه وسلم من قوله: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول

كأن الله يقول ما في هذه السورة من الآيات آيات الجامع؛ لكونه كتاباً كاملاً وقرآناً يبيّن الرشد من الغيّ، ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢]، قد يتمنى الذين كفروا لو أنهم كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وفي الموقف حينما يرون هول العذاب، وانصرف المسلمون إلى الجنة، وسيقوا هم إلى النار، وفي جهنم؛ والمسلمون المذنبون معهم قد عذبوا بذنوبهم ثم يخرجون منها ويبقى الكافرون في جهنم.

في هذه الأحوال الأربعة ربما ودوا أن يكونوا مسلمين، وهذا التعبير بالتقليل على مذهب العرب في قولهم: ستندم على فعلك، وليسوا يقصدون التقليل ولكن أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل، لأن العاقل يتحرز من التعرض للشر المظنون كما يتحرز من المتيقن، ومن القليل كما يتحرز من الكثير، فهؤلاء يا محمد قوم غافلون ذرهم في غفلاتهم يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها وتلهيهم الآمال عن الآجال؛ فيقول الرجل: غداً أنال الثروة وأحظى بما اشتهي ويعلو ذكري ويكثر ولدي وأبني القصور وأكثر الدور وأقهر الأعداء ويزول الداء وأفاخر الأنداد ويكثر العدد والمدد والكراع والسلاح، وهو غارق في بحار الأماني ولجج الخيال

يطلب المحال ويرقب السراب، وما مثلهم إلاّ كما قال طرفة:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن كان في حبل المنية ينقد

الطول ـ بكسر ففتح كعنب ـ الحبل.

فهؤلاء في حبلنا مأسورون وفي قبضتنا مقهورون، فمتى شئنا جلبناهم، وفي الأموات سلكناهم ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: ٣]، ولو شئنا لعجلنا العذاب فآبوا بالتباب ولكن ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٨]، فكل قرية لها كتاب معلوم، فشأننا الإمهال لا الإهمال، وسدل الأستار على هؤلاء الكفار، فغرهم ذلك الإمهال فأخذوا يناضلون عبدنا ويستهزئون بنبينا ﴿ وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾[الحجر: ٦] إن ما تقوله أملاه عليك الجنون، فليس له معنى معقول، وإنه مخالف لآرائنا، بعيد عن معتقداتنا، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول، ولا ترضاه الفحول من رجالاتنا الفخام وعشائرنا العظام؟ وإن كان ما تدعيه حقاً مقبولاً وقد أيدك الله وأرسلك، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بنبوتك، فمن يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه فيقويه بالملائكة.

حينئذ أجاب الله أن الملائكة لا ينزلون إلاّ بالحق، أي: إلاّ بالحكمة، وليس في حضور الملائكة من السماء تشاهدونها لكم فائدة تفيدكم، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم: إنهم بشر، لأنكم لا تطيقون رؤية الملائكة إلاّ على الصورة البشرية، وكيف تشاهدون ما لا يكون من عالمكم، ومتى قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم، وإذا أرسلناهم لغير ذلك فليكن لهلاككم، فأي حكمة في زيادة الإلباس في الأول وتعجيل الهلاك لكم في الثاني، ولو أنا أنزلناهم لهلاككم ما تأخر العذاب عنكم ساعة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾[الحجر: ٩] الخ، إنّما أنتم قوم مكذبون ضالون مستهزئون بنبينا فليس استهزاؤكم بضاره لأننا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه، فقولوا إنه مجنون، ونقول إنا نحفظ الكتاب الذي أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة وإبطاله وإفساده وسنقيض له علماء في الأجيال المقبلة يتولون حفظه ويذبون عنه ويدعون الناس إليه، وسيخرجون للناس ما كمن فيه من العلوم ليناسب العصر الذي هم فيه ليقبل عليه المتنورون ويقرأه الجهلاء والمتعلمون، فما قيمة نسبتكم إياه للجنون؟ فلا تبتئس يا محمد بما يقولون، ولئن بشرناك بحفظ القرآن في سائر الأزمان والأمم والأجيال لنقصن عليك نبأ الأمم السالفة، فلقد أصاب أنبياءهم ما أصابك به قومك فاستهزؤوا بهم كما استهزأ قومك بك، فنصرنا الأنبياء وكبتنا الأعداء، هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين، ويستهزئ بك المجرمون ثم ننصرك عليهم اقتفاء لسنتنا واتباعاً لطريقتنا، فهؤلاء لا يؤمنون وسيحل بهمْ ما حلّ بالأولين وننصرك بعد حين، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ﴾[الحجر: ١٤] الخ. وكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ويغرمون بما يخرق العادات من ملائكة يرونها وعجائب ينتظرونها، وهل تغني الآيات؟ وما فائدة تلك المعجزات؟ وهل هم بذلك يؤمنون؟ وهل النوع الإنساني يكفيه ما يبهر الألباب ويخالف العادات؟ كلا ثم كلا، وأيّ مناسبة بين الخوارق والعلوم.

إن الناس لم يخلقوا في الأرض سدى، إنهم خلقوا ليعلموا، وأي علم في تلك المقترحات؟ لا لا! فكم من نبي أيدناه بتلك الآيات فلم يؤمن قومه إلاَّ قليلاً، وما الآيات إلاَّ ما تفهمه العقول وتفحصه درساً وتنقيحاً، أما ما يشتبه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين فذلك موقع في اللبس، فالعامة وإن كانت تبهرهم تلك الخوارق فإيمانهم طائح وأمرهم ضائع، وليس للناس إلاَّ التفكير في عجائب الأرض والسماوات.

فهب أننا فتحنا عليهم من السماء باباً وقلنا اعرجوا فيه، وعرجوا أفواجاً، أفلا يقولون في أنفسهم ويقول بعضهم لبعض: إنَّما ﴿ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[الحجر: ١٥] فلعل محمداً سحرنا كما، يفعل علماء السيميا إذ يفعلون أفعالاً تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسي في هذه الأيام، فلقد رأيناه بأعيننا، وأن المنوِّم يقول للمنوَّم ـ بفتح الواو ـ أنت ملك، أنت امرأة، أنت راقص، أنت كذا أنت كذا، فتراه يفعل ويصدق كل ما قيل له، والنوع البشري في كل جيل فيه من لهم قدرة على استهواء العقول، فيتخيل الإنسان ما لا حقيقة له وهذا أصبح في هذه الأيام علماً يدرس ويقال في المراسح العامة، وهو في أوروبا وأمريكا، وقد جاء إلى مصر، فكيف يكون مثل ذلك صالحاً للدليل أو موجباً للتصديق، كلا، فأمثال هذا لا يقوم بهداية نوع الإنسان. وإذا كان موسى وعيسى اتبعهم قومهم فلأنهم رأوا بعد ذلك آيات البصائر وحكمة التشريع، ولو وقف الحد عند العجائب المذكورة لم تستقم الديانات ولم تثبت عليها الجماعات، فثبت من هذا أن أمثال ذلك لا تقوم به أمة ولا تحيا به سنة.

فصل في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

وإنَّما الذي تقوم به الجماعات وتثبت به الأمم النظر الصحيح والفكر الحق، وكيف يريدون ما هو خارج عن عاداتهم ونحن جعلنا في السماء النجوم الباهرة والبروج العالية والشموس الساطعة والأقمار النيرة والسيارات الدائرة والثوابت السامية ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٢]، وكيف يعرضون عما زيناه ويذرون ما نظمناه، ويطلبون ما لا نفع فيه من المقترحات؟ فهلا نظروا في الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها؟ وكيف كانت بها الفصول والسنون؟ وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة لا تبديل فيها ولا تغيير؟ بأمثال هذا يكون اليقين وبه يكون الدين.

وهذه العوالم الجميلة وآياتها البديعة التي زيناها فهي بهجة الناظرين وسعادة المفكرين، يراها البارّ والفاجر والبادي والحاضر، ولكن ما كل مكشوف القناع ينال، ولا كل ما رآه المرء بعينه له يحتال كلا، فالحسان يراهن الناظرون ولا ينال وصلهن إلاَّ المقربون، فالسماء وإن كانت مبذولة لكل ناظر معروضة لكل حي، فهي محجوبة المعاني عن الغافلين ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[البقرة: ٤٥].

إن العامة والجهلاء من كل أمة لا يؤمنون إلاَّ بما يروعهم، ولا يخضعون إلاَّ لما يدهشهم، أما العقول فهم عنها نازحون، وكما لا يخضع الجهال إلاَّ للسيف والعصا والنبل وللملوك القاهرين والحكام المسيطرين. هكذا لا يفرحون من العلم إلاَّ بما كان غريباً بعيداً خارقاً للعادات، وما هو إلاَّ كبرق خلب ثم يزول الأثر ويرجعون كما كانوا كافرين، كمثل أولئك الذين يتبعون الشيوخ الناقصين

في الأمة الإسلامية ، إذ يخبرونهم بالعجائب ويرونهم أنهم أصحاب خرق العادات ، ثم لا يلبثون أن يروهم كاذبين فيزول الأثر ويعظم الخطر ، فالناس في العلم ونوع الحكومات على طريقة واحدة ، وإذا كانت الحكومات مستبدة والهيئة العلمية نازحة عن المقصود إلى غيره دالت دولة الأمم ، ولم يكن لأهلها همم ، فلو أن دين الإسلام بني على أمثال ذلك لم يخرج فيه قادة حكماء ولا علماء عظماء ، بل كان يسود فيه الماكرون ويغلب أهله الدجالون ، وهؤلاء يسودون في كل أمة غلب جهلها وغفل أهلها ونام عقلاؤها وذهبت ريحها وغاب مجدها وسعدها ، فهل أمثال هؤلاء الدجالين ومن تبعهم من العامة أهل أن نكشف لهم عن عجائب السماوات ، أو أن نريهم ما لدينا من حساب وإتقان ، كلا ، فلقد حفظناها منهم ومنعناها عنهم شأن الذليل لا يكترث بما قرب إليه ولا يسعى إلاَّ لما منع عنه ، وهذه السماء مزينة لمن له عقل به يفكر ، وذهن به يتدبر ، فنحن طردنا هؤلاء أن يلجوا أقطار السماء بالرأي والعقل ، فلقد حفظناها من كل شيطان رجيم من شياطين الإنسان وشياطين الجن ، فإن الأرواح التي فارقت العوالم الجسمية إذا كانت في برازخها لم تترك آراءها ولم تبعد عن اعتقاداتها ، فهؤلاء وهؤلاء محبوسون في فهم ما لا يفيد وهم عن آيات السماء معرضون .

تحقيق في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ ﴾

اعلم أن الناس أقسام ثلاثة :

قوم هم المفكرون ؛ وهؤلاء هم الذين يدركون سر هذا الوجود على قدر الطاقة البشرية .

وقوم هم الجاهلون ؛ فلا يدركون له سراً إلاَّ ما تمليه عليهم قواهم الحسية من الملاذ والمطاعم .

وقوم بين هؤلاء وهؤلاء ؛ وهم الذين يتطلعون إلى ما وراء الحس بأن يسلكوا طريق الرياضة والجوع أياماً وشهوراً ، ويدخلون الخلوة ، أو بأن يحضروا الأرواح بالطرق الستة التي ذكرناها في كتاب « الأرواح » ، وإما بطرق أخرى غير ذلك ، وهي كثيرة .

وهذه الطائفة بأنواعها لا يخلو أصحابها من أحد خصلتين : إما أن يريدوا خلوص النفس حقاً ، وإما أن يريدوا الاستعلاء على الناس للشهوات الدنيوية ، فإن أرادوا بذلك ارتقاء عقولهم وخلوص نفوسهم ومعرفة الحقائق فهم قد يصلون على مقدار هممهم بشرائط مخصوصة ، وإن أرادوا بالذكر والخلوة أو استحضار الأرواح الأمور الدنيوية والحياة الفانية ؛ كأن أرادوا الاستحواذ على الناس والعلو عليهم لينالوا نصيباً من مالهم ؛ فهؤلاء يذوقون النكال ، ولا يسمع محضر الأرواح منهم إلاَّ أضاليل وأكاذيب ؛ كما هو واضح في الكتاب المذكور ؛ وتجيء لتلك النفوس أرواح على قدر هممهم من الأرواح البرزخية ، فتلقي إليهم الأوهام والأكاذيب .

أما أصحاب الهمم العالية الذين قصدوا ارتقاء نفوسهم فإنها توافيهم الأرواح العالية وتلقي إليهم ما يناسب حالهم ، وهكذا المصفون نفوسهم بالصيام والذين يجلسون في الخلوة بشروطها ، فهؤلاء إن صحت عزائمهم يلقى إليهم في أنفسهم ما يرقي نفوسهم ، ومع ذلك كل هذا يحتاج إلى التفكر والتعقل .

فهذه هي الخطفات التي يخطفها الناس من عالم الأرواح والعالم الأعلى الذي هو غير عالم الحس، فخطفة تعطينا علماً، وخطفة تكون سبباً للضلال لأنها من شياطين مناسبين لمن كلموهم، فقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[الصافات: ١٠] ذلك في القسم الثالث، فإن كانوا من المخلصين فالشهاب الثاقب يعطيهم نوراً وعلماً، وإن كانوا يريدون الحياة الدنيا كان لهم عذاباً، فإنهم إذا تمادوا في ذلك ذلوا في الدنيا وخاب فألهم لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه. واعلم أن هذا مشاهد معروف ولكن الناس عنه غافلون.

وإذا عممنا القول فلنقل إن العلوم التي عرفها الناس قديماً وحديثاً تراد لأمرين: معرفة الحقائق لإكمال العقول ونظام المعايش. والصناعات لتربية الأجسام.

وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[الحجر: ١٦]، وإلى الثاني الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾[الحجر: ٢٠] الخ.

هذان هما المقصودان من العلوم، فكل من خالف هاتين القاعدتين فهو على إحدى حالين: إما أن يريد ابتزاز المال من الأمة بالاستعلاء بلا فائدة، وإما أن يريد الذكر والصيت والشهرة لذاتها واعتقاد الناس فيه وذكر التاريخ له، وكلاهما لا نفع في علمه ولا فضل له، فمن أكثر الذكر لهذه المقاصد أو دخل الخلوة لأجلها أو قرأ العلوم ولم ينفع الأمة وهو عالة عليها، فهؤلاء داخلون في نوع الشيطان الرجيم، فمن يخبر ببعض ما في نفوس الناس من الأفكار بما يسمى الكشف، والذين يقرؤون العلوم لغاية الشهرة، كل هؤلاء مرجومون مبعدون عن إدراك حقائق الكائنات، وبعضهم يعذب في الدنيا بالذلة والإهانة والمرض وغير ذلك، وهذه الآية كآية الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فلا يعرفون حقائق الأشياء ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ بما ركب فيهم من الشهوات وما ابتلوا به من العادات وما أحاط بهم في هذه الدنيا من أنواع البلايا في المال والولد والأهل والأصحاب والأقران، وذلك كله بتدبير الله في العالم العلوي المشرف على الأرض، المخرج النبات بنور الشمس والقمر والكواكب والحرارة المنبعثة من تلك العلويات، فهذه نجم منها هذه العوالم الأرضية، فكانت سبباً لدحرهم وغمهم وهمهم، وهم في كرب من الحياة وأثقالها، وكيف يفرون من عذاب الحياة بالمال والولد والأعداء إلا بأن تكون نفوسهم راغبة في الحقائق لذاتها فيتسلون بذلك عما يصيبهم ويرضون بما قدر لهم.

ولكن هؤلاء غارقون في بحار الآمال، فتنتابهم الآلام وهم يتخبطون، وفي ديجور الظلام حائرون، وفي حالك الدهر عائشون. هذا قوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾[الصافات: ٨-١٠] كما قدمنا، فإما أن يكون الشهاب لهداه، وإما أن يكون لرداه، وظاهر الآية يشير للثاني، ذلك هو شأن من على الأرض فإما مهديون هادون، وإما أشقياء معذبون، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]. اهـ.

تنبيه في تفسير الآية السابقة المناسبة لما نحن فيه وهي من سورة الصافات [الآيات: ٦-١٠]

قال تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: القربى منكم ﴿ بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ بالإضافة أو بالتنوين مع جعل الكواكب بدلاً، ﴿ وَحِفۡظًا ﴾ أي: وحفظناها حفظاً ﴿ مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ خارج عن الطاعة؛ برمي الشهب، ثم استأنف فقال: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ وهو من التسمع؛ وهو طلب السماع، والملأ الأعلى: الملائكة أو أشرافهم، ﴿ وَيُقۡذَفُونَ ﴾ ويرمون ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا صعوده، ﴿ دُحُورٗا ﴾ أي: للدحور ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ ﴾ أي: عذاب آخر ﴿ وَاصِبٌ ﴾ دائم أو شديد؛ وهو عذاب الآخرة، ﴿ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ ﴾ استثناء من «واو» يسمعون أي: اختلس من كلام الملائكة مسارقة، ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ﴾ أي: تبعه شهاب وهو ما يرى كأن كوكباً انقض ﴿ ثَاقِبٞ ﴾ مضيء، كأنه يثقب الجو بضوئه.

فإذا سمعت هذه الآية الشريفة، أو سمعت آية: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾[الملك: ١]، ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السرج فيها ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ أي: شياطين الجن، أو جعلناها ظنوناً لشياطين الإنس وهم المنجمون، أو بسببها يتكون على الأرض ما به عذابهم النفسي ﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك: ٥] في الآخرة بعد إحراقهم بالشهب.

وإذا سمعت حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى الله أمراً في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض؛ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه؛ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال له: أليس قد قال لنا كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء». فإذا سمعت هذه الآيات وهذا الحديث وأمثاله فاعلم أن ذلك داخل فيما حققناه أن الأرواح في البرزخ تحن إلى أرواح بني آدم، ومتى كانت متشاكلة وبينها مناسبة وأمكن الإلقاء والتفاهم بالطرق المعروفة، إما بإحضار الأرواح، وإما بالجوع، وإما بأشياء أخرى كبعض الأسماء، وتلاقت روح الحي وروح الشيطان أو بعض الأرواح في البرزخ، وسألت الحية الروح الميتة عن أمر، فإن الروح البرزخية تخبرها بالحق والباطل لأنها من الملأ الذي يسمى أعلى، فقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ ظاهر واضح كما هو مقرر في علم الأرواح، ولكنهم يسمعون إلى الملأ الأدنى وهم ممنوعون عن العالم الأعلى كما يمنع السمك في الدنيا أن يجري على وجه الأرض، وكما منع الحصان والجمل أن يطير في الهواء، فهكذا هذه الأرواح الميتة وهي منحطة المنزلة لا تستطيع الصعود إلى أعلى من منازلها، وباتصالها بالأرواح الحية تلقي إليها ما عنّ لها حقاً أو باطلاً، وقد ثبت في علم الأرواح أن هذه الطبقة تتلمس المعارف الضئيلة بطرق تعرفها ولا تنال إلاّ ما يناسبها، ولها هناك عقاب على بعض ما تلقيه إلى إخوانها الإنس كما قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا ﴾[الأنعام: ١٢٨].

لطيفة في أن القرآن أقرب للعلم الحديث جداً من العلم القديم وبه وحده تعرف معجزاته

اعلم أن القدماء من حكماء الإسلام الذين نقلوا الفلسفة عن اليونان كانوا قرروا أن هذه الشهب التي تنزل من السماء في ليال مختلفة ليست من الكواكب، وإنَّما هي دخان خارج من الأرض ارتقى إلى الطبقات العليا في الجو ثم قرب من كرة النار فاحترق، وضربوا لذلك الأمثال كما سيأتي، واضطروا لهذا الرأي لأن السماء عندهم لا يمكن التئامها ولا خرقها فهي دائماً أبد الآباد ودهر الدهارير، فكانوا مضطرين حين يسمعون مثل هذه الآيات أن يقولوا هذه ظنون كما فعل الإمام البيضاوي.

وقد أظهر العلم الحديث بطلان هذا الرأي، وأصبح العلماء في أوروبا يرون أن الشهب إنَّما هي قطع كوكبية سماوية؛ كما سيأتي شرحه؛ وليس للأرض فيها من سبيل.

فانظر كيف ظهر أن لفظ القرآن جاء بالحقيقة، وكان الفلاسفة يرون أنه مستحيل، فإذن لم يبق إلاَّ مسألة حرق الشياطين، فإذا قال البيضاوي: إنه رجوم للمنجمين، وقلنا نحن: ورجوم لمن نحا نحوهم من كل من سار على هذا الدرب، فذلك للفرار من أن الشيطان يحترق بالكواكب، ولكن لا نقدر أن نجزم بامتناع هذا، بل نقول: إذا كان آباؤنا وحكماؤنا كبر عليهم أن يخالف القرآن علم الفلك في زمانهم، ولم يرض المفسرون منهم أن يبقوا على مذاهبهم الفلسفية بل مشوا مع القرآن، ثم ظهر بطلان المذهب القديم، فهل هناك من مانع يمنع أن تكون الكواكب محرقة أو مخبلة أو مؤذية لتلك الأرواح، ذلك نسلم به حتى تنظر المستقبل.

تحقيق الكلام على الشهب عند القدماء وعلماء أوروبا في علم الآثار العلوية من علم الحكمة

نقلاً من كتابي في علم الفلسفة العربية

الشهب: جمع شهاب، وهو ما يرى كأنه كوكب انقضّ. والنيازك: جمع نيزك، وهو معرب «نيزه» بالفارسية، ومعناه الرمح القصير ويطلق على الشهاب تشبيهاً. ويقال: شهاب ثاقب ونجم ثاقب لأنه يثقب الظلام.

إن ما يرى في الليالي قد انقضّ من السماء ليس كوكباً، وإنَّما هي أجسام صغيرة لا تزيد الواحدة عن حجم البلاطة. وهذه الأجسام كثيرة جداً، ومنها مجموعة تسمى الأسدية، وهي تتم دورتها حول الشمس في شكل إهليلجي في ٣٣ سنة، ولا يحصى عدد هذه الشهب، وقطرها ١٠٠,٠٠٠ ميل أو أكثر والأرض لا تخترق في سيرها هذه الأسديات إلاَّ ثلاث مرات كل مائة عام، وآخر مرة كانت سنة ١٨٦٦ وفي كل مرة تضيف آلاف الآلاف من هذه الشهب أو النيازك مما ينزل على سطحها، وما النور الذي ينزل من تلك الشهب إلاَّ من سرعتها واحتكاكها بمادة الجو كما يقدح الزناد، وهي أكثر سقوطاً في ليال معلومة، فهي تزيد في ١٠ أغسطس و٢٧ نوفمبر، وتقلّ في ٢٠ إبريل و٢٨ نوفمبر و١٨ أكتوبر و٦ و٩ و١٣ ديسمبر. ويقال: إن عدد الشهب التي نراها نحو ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠، وآلاف آلاف منها تصيب أرضنا وتبقى عليها.

الكرات النارية

هي أيضاً أجسام مضيئة تظهر وتختفي مسرعة كالشهب لكنها أبطأ منها، وتتمزق غالباً بالقرب من الأرض فتحدث فرقعة وقد يكون منها اهتزازات، وما يقع منها على الأرض يسمى الحجارة الجوية ويدخل في تركيبها الحديد والنيكل وغيره، وارتفاع الشهب من ٨ كيلومتر إلى ٦٠ و١٠٠ و٢٠٠ كيلومتراً وسرعتها متغيرة كارتفاعها، وقد تساوي سرعة الأرض بل تزيد عنها. ويقولون: إن هذه الكرات عبارة عن مادة قطعها الجرم صغيرة الجرم دائرة حول الشمس، ومتى قربت الأرض منها جذبت إليها بعض تلك القطع فتسقط على الأرض وتشتعل في الجو على هيئة شهب وتسقط إلى الأرض على هيئة حجارة جوية.

فتأمل! تجد الفرق بين القدماء والمحدثين؛ أن الأولين يزعمون أن تلك المذنبات والشهب والنيازك والكرات عبارة عن بخار أرضي قابل النار فاحترق، وعلماء العصر الحاضر يقولون: سلمنا بالاحتراق من الاحتكاك لا من كرة الأثير، فنحن لا نقربها ولكن نسلم أن المحترق هو البخار، بل هو أجسام صغيرة دائرة حول الشمس، تتخطفها أرضنا كأنه تتغذى بها بعد أن تطبخها في جوها بالحرارة، ثم تزدردها كما نزدرد نحن الحيوانات، وهذه الأجسام الصغيرة الدائرة حول الشمس تسقط على الأرض دائماً، ولكن لها أيام خاصة يكثر سقوطها فيها، إلى آخر ما تقدم وهذا آخر الكلام في تفسير آية: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الآية: ١٦-١٨].

الكلام على تفسير:

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾

بعد أن وصف الله بهجة السماء وزينتها، وأنها ازينت للناظرين المفكرين واحتجبت عن الغافلين، أخذ يشرح جمال الأرض وبهجتها، فذكر كيف مدها وثبت فيها جبالها وأنبت فيها من كل نبات موزون، فعناصره موزونة وأغصانه وأوراقه وأزهاره وثماره، ألا ترى إلى ما ذكرناه في سورة «البقرة» من أن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديراً.

ولقد ذكرت لك هناك أن الذرة مثلاً فيها البوتاسا الداخلة في الحب الذي نأكله ٣٢ في المائة، وهي داخلة في الفول بنسبة ٤٢ ونصف بالمائة، وفي القصب ٣٤,٣٠ في المائة، وهي في البطاطس ٦١,٥ في المائة، وفي البرسيم ٣٤,٦ في المائة. هذا عنصر واحد دخل في البرسيم وفي البطاطس وفي القصب وفي الذرة وفي الفول، فكان متراوحاً ما بين ٣٢, ٦١، وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكراً، والبرسيم لأن يكون قوت البهائم، والفول لأن يكون مشتركاً، والبطاطس لأن نأكله، والذرة لأن نقتات بها، ولو اختلفت تلك المقادير لاختل البرسيم والذرة والقصب الخ، فهذا اختلاف جزء واحد من الأجزاء الداخلة في تراكيب هذه النباتات، وهي البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا وحمض الفوسفوريك وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور.

فهذه الأجزاء داخلة في هذه النباتات بنسب مختلفة، والنبات المركب منها يمتص بعروقه من الأرض الأغذية المناسبة لها.

الجذور وامتصاصها

تأمل رعاك الله، تأمل وقل لي كيف يستخرج النبات غذاءه من الأرض، إنه لا يمتص إلاَّ بعروقه الضاربة فيها، يمصه ويرفعه إلى الساق والأغصان والأوراق والأزهار، كل ذلك بعد الامتصاص.

فيا ليت شعري، ما الذي جعل هذا برسيماً وهذا قمحاً وهذا بطيخاً ؟ أليست الأرض واحدة والنبات يمتص ؟ فلماذا دخل في الذرة من البوتاسا مثلاً ما لم يدخل البرسيم ؟ وما الذي وزن تلك المقادير التي رأيتها حتى أخذها النبات، ولم يزد عليها ولم ينقص ؟ وأين الميزان وكيف كان الوزن ؟.

يا عجباً ! ما الذي حدد المقادير وجعل لكل نبات مقداراً، ولماذا لم تخطئ الجذور الضاربة في الأرض؟ ولماذا تجد جميع الجذور تأخذ بمقدار محدد نوع البوتاسا مثلاً، فترى أنها في حب الذرة ٣٢ في المائة. الجواب: إن الذي حدد ذلك هو تلك الفتحات الشعرية التي في ظواهر الجذور، وكما أن للإنسان مسام يتنفس بها هكذا للزرع ثقوب دقيقة بها يمتص تلك الأصول من الأرض، وهاهنا محل العجب فنقول: بأيّ وضع صنعت تلك الثقوب؟.

إن أنواع النبات تقدر بما يزيد عن مائتي ألف نوع ولكل نوع أصناف، فكيف اختلفت تلك الثقوب اختلافاً دقيقاً ؟ حتى إن ثقوب كل نبات لا تسع إلاَّ المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد سواه لأنه لا يلائمها، وهذا محل العجب أن يكون ثقوب النبات وفتحاته كونت على هيئة بحيث لا تبتلع ولا تسع إلاَّ تلك المقادير بعينها. ذلك هو العجب، ومن هذه المسألة الجزئية تفهم قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾

هذه الآية بديعة من بدائع القرآن ومعجزة من معجزات العلم وحكمة باهرة وعجيبة ظاهرة.

إن هذا التفسير قد تجلى فيه نظام هذا العالم، وأصبح الوزن والميزان والحساب وحسن النسق من أخص أوصاف هذه الدنيا وهذا الوجود في كتاب الله تعالى. وحسبك ما تقرؤه في سورة «الرحمن» من قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ ﴾، وزن الله الكواكب في سيرها وفي وضعها وفي حركاتها وفي أضوائها، ووزن العناصر بمقادير مناسبة بعضها لبعض كأنها صفوف منظمة كما ستراه في سورة «العنكبوت»، وهاهو ذا يقول هنا: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾.

اللهم إنك أنت الذي أنزلت الكتاب، وأنت الذي نظمت وأحكمت ودبرت هذه الدنيا، وأنت القائل في المعنى: إن كل شيء موزون، وأنت القائل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس:١٠١] وهذا النبات الموزون مما في السماوات والأرض، ولقد خصصته بالبيان لتنير لنا الطريق التي نسلكها حتى نعرف منهج ميزانك في العوالم من نظام النبات وأوراقه وأزهاره وثماره.

إن الله أنزل القرآن وجعل فيه جمال البلاغة وحسن الإلقاء، كما خلق الحدائق والجنات في الدنيا وجعل فيها الفواكه الحسنة اللذيذة للآكلين. فهاهنا لذة الذوق للآكلين، وهناك لذة السمع للسامعين، وما أجهل الإنسان إذا وقف عند لذة السمع أو اكتفى بحاسة الذوق.

إن لذة القراءة بلاغة أو حسن إلقاء؛ يجتزئ بها الغافلون، والوقوف عند لذة الفاكهة والجهل بحقائقها شأن العاجزين، والله يقول في الأولين: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ

يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[الجمعة: ٥]، كما يقول: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ [البقرة: ٧٨]، ويقول في الآخرين: ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[محمد: ١٢].

ولما وصلت إلى هذا المقام جاء صديق ذكي صالح فقرأ ما سطرته الآن فقال:

س ـ نحن نعرف أن النبات خلق الله وهو حسن ومنظم وماذا نبتغي فوق ذلك؟.

ج ـ ليس يغني هذا، وإذا سمع الناس قوله تعالى: ﴿ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[البقرة: ٤٣]، فهل يكفي في ذلك أن يكرروا اللفظ وهم لا يصلون؟ أم الصلاة شيء ولفظها شيء آخر؟ ولفظ الصلاة يدل على أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم. إذن ليس يكفي في هذا المقام أن يقرأ القارئ: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾، ولا أن يرددها بصوت حسن، ولا أن يعرف أن « موزون » في الصرف اسم مفعول، وفي النحو صفة لشيء، ولا أن يعرف أن في الآية من البلاغة حسن الانسجام وموافقة اللفظ للمعنى وما أشبه ذلك، كما لم يكف أمثال ذلك في قوله: ﴿ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، ولا فرق بين قارئ القرآن العارف بتلك العلوم المطبق لها على القرآن من بلاغة وصرف ونحو، وبين آكل التفاح المتلذذ به، كلاهما واقف عند الظواهر جاهل بالبواطن.

س ـ ما هي هذه البواطن التي نسمع الصوفية يكررونها كثيراً؟ فلعل هذا من تعبير الصوفية الذي يذكرونه ولا يدري الناس ما مغزاه؟.

ج ـ كلا إنني اليوم أريد أن أقرر حقيقة عجيبة ظهرت في القرآن في هذه الآية، وهي أن كل نبات لا ينبت ورقه على أغصانه إلاَّ بنظام حسابي أو شكل هندسي، وأكثر الناس يأكلون ولا يحسبون، ويقرؤون القرآن وهم لا يعقلون.

س ـ صف لي هذا الحساب وصف لي هذه الهندسة.

ج ـ قبل أن أدخل معك في هذا الموضوع أحدثك حديثاً عن نفسي أيام الشباب، وأنا منقطع عن الأزهر وأتوق إلى الرجوع إليه أيام كنت أشك في أمر هذا الوجود:

ذلك أنني كنت أجلس على شاطئ نهر أبي الأخضر بجوار قريتنا المسماة « كفر عوض الله حجازي» وأنا حائر في هذه الدنيا، وأنظر إلى الأوراق على أشجارها وأقول: يا ليت شعري، ألهذا الورق نظام هندسي أو حساب، ومن ذا يوقفني على سرائره؟ أم من ذا الذي يعرّفني حقائقه؟ ومن أي شيء ركب ولعله ركب بحساب، الخ ما تراه مسطوراً في كتابي « التاج المرصع » الذي انتشر وترجم قبل نحو عشرين سنة، فانظر ماذا جرى اليوم.

أكتب هذا إليك وأنا حامد لموجد هذا العالم شاكر لنعمه، فقد عرفت اليوم ما لم يكن ليخطر لي على بال، وعرفت أن الورق منظم وضعه على الأغصان، أتدري من أين عرفته بها؟ عرفته من هذا الكتاب الذي أمامي الآن المسمى « علوم للجميع » بلغة الإنجليز، وأحسن من هذا أن يقال « موسوعات العلوم »، هاهو ذا الكتاب أمامي لمؤلفه الأستاذ « روبرت براون ».

إن الله منزل القرآن، خالق النبات بميزان، هو الذي ألهم قلوباً فأبرزت ذلك الميزان، فهو الذي أنزل القرآن بالعربية، وسخر قلوباً في بلاد الفرنجة لإظهار حقائقه؛ وإن كان المسلمون والفرنجة لا يعلمون أنه معنى القرآن. ولقد وفق الله اليوم واطلعت على هذه الحكم في ذلك الكتاب، وهاأنا ذا

أذكرها تبصرة للمسلمين، وتذكرة للتائهين لعلهم يتعلمون، حتى يعلم الأذكياء مصداق قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: ١٨-١٩].

الله أنزل القرآن، وهو الذي أبرز معناه على قلوب قوم آخرين، لأنه خلق نوع الإنسان للتعارف إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣].

سيدهش المسلمون حين يعلمون أن هذا المؤلف في صفحة ٧ من المجلد الثاني من كتابه قد أتى بمعنى هذه الآية وهو لا يعلم، وسيدهش أهل أوروبا حينما يرون أن خلاصة هذا العلم داخلة في مضمون هذه الآية، هذا هو سر التعارف، يتعارف الشرقيون والغربيون بالعلوم والمعارف ويتناكرون بالجهل وهم صاغرون.

س ـ قد عرفت مقدمتك، فهات المقصود من حساب النبات وهندسته على شريطة أن أراه مرسوماً أمامي ليكون تذكرة وتبصرة للمفكرين.

ج ـ خذ غصناً من نبات بعض الحشائش أو شجر الدردار المسمى بالفرنجة «إلم» بسكون اللام وغصناً من ضرب من «الزنبق» يسمى بالفرنجة «تيولب»، وغصناً من التفاح أو من الكرز، وغصناً من الكتان، وغصناً من أغصان نوع من الصنوبر، وغصناً من نوع يسمى بالفرنجة «لرش»، فهذه ستة أغصان من أشجار مختلفة كالحشائش والزنبق والتفاح والكتان والصنوبر و«لرش». ضع هذه الأغصان أمامك، ضعها وانظر فسترى عجباً.

ترى أوراق الغصن الأول منتظمة عليه بحيث تكون كل ورقتين متناظرتين على الجانبين لكل منهما نصف الدائرة على الغصن، والدائرة ٣٦٠ درجة والنصف ١٨٠، وهذا الكسر يبين ذلك وهو $\frac{١}{٢}$، فالبسط يبيّن أن الدائرة واحدة والمقام يبيّن عدد الورقات التي قسمت الدائرة بينها.

والغصن الثاني ترى أن فيه أوراقاً ثلاثة على الغصن متحاذيات الوضع، وقد قسمت الدائرة بينها ثلاثة أقسام، كل قسم منها ١٢٠ درجة.

والغصن الثالث من نحو التفاح والسنديان ترى عليه أوراقاً مبتدئة بأولاها من الأسفل وتليها خمس ورقات قد كونت دائرة تامة مشتملة على دورتين حلزونيتين، فتكون كل خمس ورقات لها هاتان الدورتان الحلزونيتان حول الغصن، والورقة السادسة قد جاءت محاذية للورقة الأولى، وهذه السادسة مبدأ دائرة ثانية تشتمل أيضاً على دورتين حلزونيتين، وهكذا دائرة فوق دائرة كل منها تشتمل على هاتين الحلزونيتين فتكون تلك الأوراق في الدوائر أشبه بسلالم المنارة، فإنها حلزونية الشكل، والكسر الذي يبيّن هذا هو $\frac{٢}{٥}$، فالبسط لعدد الدورات الحلزونية، والمقام لعدد الورقات.

وعلى هذا القياس تعرف الغصن الرابع كغصن الكتان، فدوراته الحلزونية ٣، وأوراقه في الدائرة التامة على الغصن ٨، فبسط كسره ٣ ومقامه ٨.

والغصن الخامس كغصن الصنوبر دوراته الحلزونية خمس، وأوراقه في تلك الدوائر ١٣، وبها تكون دائرة تامة الغصن.

والغصن السادس دوراته الحلزونية ٨ ، وأوراقه ٢١ ، وبهذه الأوراق والدورات تتم الدائرة الواحدة وهكذا ما بعدها.

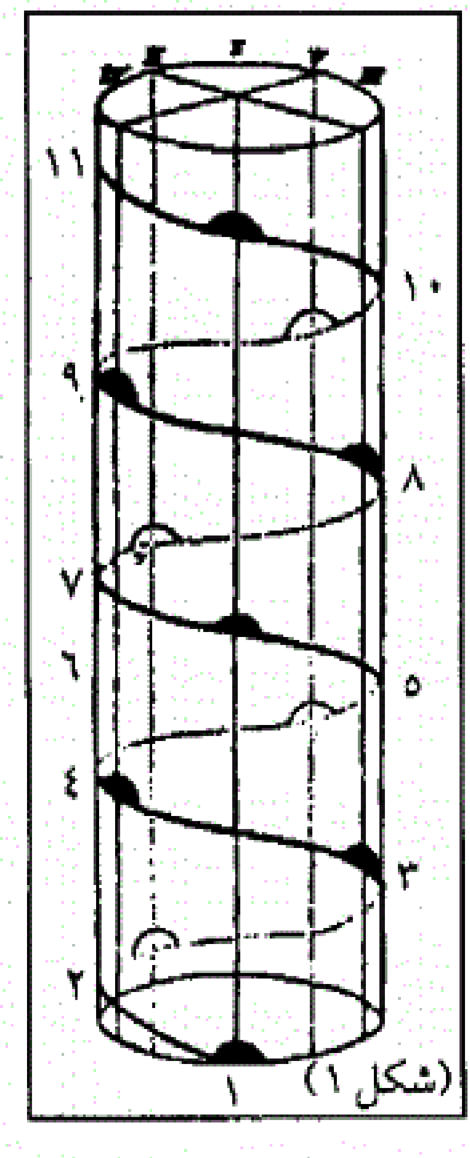
هاأنا ذا أيها الذكي ذكرت لك هذه الدوائر على تلك الأنواع الستة من الأشجار، وقد آن أن أضعها لك صفاً واحداً كما جاء في ذلك الكتاب:

١/٢ ، ١/٣ — ٢/٥ ، ٣/٨ ، ٥/١٣ ، ٨/٢١

انظر أيها الذكي لهذا العجب وتأمل في هذا الجدول الذي نقلته من ذلك الكتاب، فلأبيّن لك بعض ما عرفه العقلاء.

الله أكبر، جلّ العلم، وجلت الحكمة التي تناءت عن بلاد الشرق حيناً، وهاهي ذه أيامها قد أقبلت. فانظر وتأمل فإنك تجد الكسر الثالث وهو الممثل لغصن التفاح أو السنديان بسطه مجموع البسطين قبله فإنه (٢)، وهما مجموع البسطين قبله، وهكذا مقامه وهو (٥) فهو مجموع (٢) و(٣)، وهكذا الكسر الرابع الممثل به للكتان، فإن بسطه (٣) مجموع البسطين قبله (١)و(٢)، ومقامه مجموع المقامين قبله وهما (٥) و(٣)، وهكذا قل في بقية الكسور.

ثم انظر نظرة أخرى فإنك تجد بسط الكسر الثالث هي عين مقام الكسر الأول، وبسط الكسر الرابع هو عين مقام الكسر الثاني، وبسط الكسر الخامس هو عين مقام الكسر الثالث. إذن كل بسط لكسر من هذه هو عين مقام الكسر الذي قبله بواحد، وهذه قاعدة مطردة. هذا هو الذي قرأته في هذا الكتاب وأردت إيضاحه هنا، وهذه صورة الكسر الثالث الذي يكون في التفاح والبلوط.



(شكل ١)

هاتان الصورتان المرسومتان: أولاهما صورة لغصن التفاح أو البلوط، وقد دارت الأوراق عليه مبتدئة من الأسفل دائرة حول الغصن فالورقة الأولى المعنون عنها بعدد واحد تتلوها خمس قد صنعت دورتين حلزونيتين كما قدمنا، والخامسة منها التي هي السادسة في العدد تراها أمامك في الرسم فوق الأولى على خط مستقيم وهي تمام الدائرة الأولى، وتليها الدائرة الثانية ونهايتها، ومبدأ الدائرة الثالثة عدد ١١ وهكذا، هذا واضح في الشكل الأول.

ولكن لما كان هذا لا يظهر منه أن كل خمس ورقات دائرة تامة وجب رسم الشكل الثاني الذي يمثل الدائرة التامة من هذه الدوائر الخمس بوضعها الأفقي، لتظهر للناس فيعلموا أن هذه الأوراق الموضوعة وضعاً رأسياً هي دائرة تامة منظمة مقسمة خمسة أقسام بخمس ورقات كل قسم منها ٧٢ درجة تقسيماً عادلاً.

فانظر في الشكل الثاني فإنك تجد الورقات الخمس التي صنعت دورتين حلزونيتين قد ظهرت واضحة جلية، فالورقة الأولى عدد ١، والثانية عدد ٢، والثالثة عدد ٣، وهكذا إلى السادسة التي جاءت في

مقابلة الأولى على خط مستقيم، فهذان الشكلان قد أوضحا الكسر الثالث، وإياك أن تغفل عن أن هذا الكسر له علاقة بالكسرين قبله وبما بعده.

فيا ليت شعري، أين المسلمون وأين هذه العلوم؟ قرآن يقول الله فيه: ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ ونبات ترسم عليه الأشكال الحلزونية والدوائر التامة النظامية المدهشة، والناس يقرؤون ولا يعقلون، ويأكلون ولا يفهمون، أفّ لقوم لا يعلمون.

(شكل ٢)

انظروا أيها المسلمون، أليس هذا كلام ربكم، انظروا أليس يوجب أن تعم الهندسة ويعم الحساب ويعم علم النبات ويعم ويعم حتى يدرك الناس سر هذه الدنيا.

اللهم إن صنعك لعجب، نبات ونبات ونبات بين أوراقها حساب وحساب، انتظمت أوراق شجرة التفاح مثلاً وكونت حلزونيات ودوائر منتظمات، وكأن بين هذه الدوائر ونظائرها في نباتات أخرى مناسبات.

اللهم إن أهل الأرض ما داموا غافلين عن هذا فهم بنعمتك كافرون.

اللهم إن أهل الأرض إنّما تنافروا لجهلهم بصنعك، ولو أنهم كانوا مفكرين حق التفكر:

(١) لكانوا أمة واحدة، لأنهم إذا رأوا أن أوراق الأشجار بينها هذه النسب، يعرفون من باب القياس التمثيلي ومن باب الوجدان أن العوالم كلها وضعت بحساب ونظمت، وإذا نظم ورق النبات وجعل بينه نسب مقدرة في النباتات المختلفة؛ كما نظمت الكواكب وحركاتها، فهل هذا كله ينظم، وتبقى عقول الناس في الأرض بلا رابطة وبلا حساب، هذا غير معقول! فالمعقول أن عقول الناس في الأرض قد وضعت بحساب بحيث يكون في كل أمة من يكفون لعلومها ولصناعاتها، وبحيث يكون لكل أمة من أمم الأرض خواص بها تنفع الباقين. إن الناس قد أمكنهم درس النبات واستعماله في حاجاتهم وهو مسخر لهم، أما العقول الإنسانية وقواها فهم عن دراستها واستخدامها في المنافع العامة عاجزون، وما دام أهل الأرض لا يعرف بعضهم بعضاً، ولا يدرسون أحوالهم وخواصهم، فإنهم حقاً أذلاء، فأهل الكرة الأرضية لا يزالون في حرب وضرب حتى يقوم فيهم علماء يدرسون عقول الأمم وخواصها، ويتحد الجميع طوعاً أو كرهاً، وحينئذ تكون الإنسانية كلها أمة واحدة، كما أن أوراق النبات نسبة جامعة، انظر كتابي «أين الإنسان» وسترى ملخصه في سورة «الحجرات» إن شاء الله وهذا نهاية الأمر الأول.

(٢) ولكان المسلمون منهم أعلم الناس بجمال الحساب والهندسة وعجائب الدنيا، لأن العلوم كلها هي نفس دين الإسلام كما أوضحناه في هذا التفسير في هذا المقام وغيره.

(٣) ولعلم الإنسان أنه لا سعادة له إلاّ إذا كان نظامه في نومه ويقظته وجميع أعماله بحسبان، كنظام هذه الأوراق ونظام الكواكب في السماء.


(شكل ٣)

فلما سمع صاحبي ذلك، قال: إني أريد مثالاً آخر مصوراً بالتصوير الشمسي، فقلت: هاك صورتين، إحداهما صورة نبات يسمى باللسان الإفرنجي «هوس ليك» وهو نوع من الكراث وترجمته الكراث المنزلي، ونظيره في هذا الترتيب الخرشوف المسمى بالإفرنجية «أرتشوك» وأصله بالعربية في بلاد الأندلس «أرض شوك» (شكل ٣).

والثانية صورة زهرة الصنوبر وهو مخروط (شكل ٤).

وهذه الصورة الرابعة إنما هي للزهرة الأنثى في الصنوبر، أما الزهرة الذكر فهو أصغر، هذان الشكلان وهما الثالث والرابع يمثلان الكسر الخامس وهو ٥/١٣، فعدد خمسة هو عدد الدورات الحلزونية التي تشاهدها أمامك، وعدد ١٣ يبيّن عدد الورقات في الدائرة التامة، ولذلك تجد عدد ١٤ هو نهاية الدورات الخمس للدائرة الأولى، وهو مبدأ الدائرة الثانية ومبدأ الثالثة ٢٧، ومن عجب أن عدد ٥ وعدد ١٣ المذكورين يؤخذان أيضاً مما يأتي، وهو أن عدد ٥ ظاهر في الصف الذي فوق الواحد، وهو ٦ و١١ و١٦، فهذه أعداد يزيد كل واحد منها عما قبله بعدد ٥، وترى أمامك صفوفاً أخرى فوق الواحد أيضاً، فإنك ترى عدد ٩ وعدد ١٧ وعدد ٢٥، كل واحد يزيد عما قبله بعدد ٨ فتراهم يقولون: اجمع ٥ و٨ يكون عدد ١٣ الذي هو المقام، هذا ما قالوه.

(شكل ٤)

والمقصود من هذا أن في الأوراق نظاماً، ومن شدة إحكامه أن عدد (٥) في البسط وجد في صف من الصفوف، وعدد (١٣) أمكن أخذه من الأعداد المكررة في صفين وهذا حقاً من العجب، فمن ذا الذي كان يظن أن هذه الأوراق منظمة ولها جداول، ومن ذا الذي كان يظن أنها دوائر، وأن هذه الدوائر لها نسبة إلى دوائر أخرى في أشجار أخرى، بل إن الإنسان إذا عرف جميع أوراق النبات وعرف أوائل كل سلسلة منها أمكنه أن يعرف جميع السلسلة بدون أن يحفظ أعدادها، والدليل على ذلك أنك تقدر أن تعرف سلسلة الكسر المتقدمة بمجرد معرفة الكسرين الأولين، فما عليك إلاّ أن تجمع البسطين والمقامين، وتأتي بالثالث ثم تفعل هكذا مع كل كسرين.

إن هذه النبذة التي ذكرتها هنا تبيّن أن نظام هذا العالم عبارة عن نظام واحد وأن للعلم مفاتيح ومتى عرفت المفاتيح فتحت بها العلوم، فهاهنا مفتاح السلاسل الكسرية في النبات، وهما الكسران

الأولان، وبهما يعرف الجميع بالتدريج، وهذا مثل ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، فإنك تجد هناك أن الكواكب السيارة تعرف أبعادها عن الشمس بمضاعفة بعد كل واحد عما قبله، فارجع إليه هناك بالمضاعفات، وهنا يجمع الكسرين السابقين بسطاً ومقاماً، ومثل هذا يرى من السنين الكبيسة والبسيطة كما رأيته في آخر سورة «آل عمران» فمتى عرف الإنسان منها ٢١٠ من السنين عرف جميع السنين آلافاً وآلافاً إلى ما لا نهاية له، ولولا هذا ما أمكن الناس أن يضعوا جداول لحساب الأوقات، فحساب الأوراق ونظامها وحساب أبعاد الأفلاك وحساب دورات الأرض حول الشمس كلها ذات مفاتيح، والمفاتيح بها تعرف العلوم، فأما الغيب فمفاتيحه عند الله، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾[الأنعام: ٥٩].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: نحن الآن لم نعرف إلاّ سلسلة واحدة، وما عرفنا منها إلاّ ستة نباتات. فقلت: لا يصح إطالة الكلام، وقد جعلنا هذا رمزاً للسلسلة كلها ونظمها، فنحن الآن في مقام التفسير، والتفسير علم عال، والعلم العالي يختصر في العلوم الجزئية، ولا نطيل فيها، فكفى بالإنسان علماً أن يتقن ما ذكرناه هنا، فأما إذا أردت سلاسل أخرى وجداول فهاك ما جاء في هذا الكتاب بإيضاح هنا:

الجدول							
الجدول الأول	١/٢	١/٣	٢/٥	٣/٨	٥/٣	٨/٢١	١٣/٣٤
الجدول الثاني	١/٣	١/٤	٢/٧	٣/١١	٥/١٨	٨/٢٩	١٣/٤٧
الجدول الثالث	١/٤	١/٥	٢/٩	٣/١٤	٥/٢٣	٨/٣٧	١٣/٦٠

فانظر إلى هذه الجداول بعد أن عرفت الجدول الأول، وقد زدنا فيه واحداً فصار سبعة كأخويه، فاعجب لذلك وانظر فإنك ترى الثالث من كل جدول منها مقامه عبارة عن مجموع البسط والمقام لنظيره فما فوقه، فإن ٢ و٥ عبارة عن ٧، وهما البسط المقام لما فوقه، وهكذا في جميع الأعداد كل مقام لكسر يساوي مجموع البسط والمقام لما فوقه، وهكذا كل بسط في أي جدول وكل مقام هما مجموع ما في الكسرين قبله، مثل ما جاء في الجدول الأول، ألا ترى أنك ترى أن عدد ٢ في الكسر الثالث في الجدول الثالث هو مجموع البسطين قبله، وأن عدد ٩ وهو المقام في هذا الكسر هو عين المقامين قبله، وهما ٥ و٤. انتهى.

الله نور السماوات والأرض

هاهنا تبيّن جمال العلم، بل تبيّن جمال الله، بل هنا ظهر نور الله ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾[الزمر: ٦٩]، هذه هي الأرض وهذا هو النور، النور على قسمين: نور يعرفه الحيوان والإنسان، ونور يختص بالإنسان، فنور الحيوان والإنسان هو نور الكواكب والشمس، ونور الإنسان هو نور العلم ونور الحكمة، فهذا من أبدع أنواع الحكمة وأجلها وأبهرها.

اللهم إنا نحمدك على العلم، ونحمدك على الحكمة التي تجلت في هذه الدنيا، ننظر فنرى أنواعاً من النبات جعل العلماء لها جداول منظمة كجداول الميقات في حساب سير الكواكب، ثم نرى التسب بين أوراقه ودورات كل صف من النبات بينه وبين دورات وأوراق الصف الآخر مناسبة، ثم نرى أن هذه الجداول بينها مناسبات، حتى إن كل جدول منها يمكن استنتاج الجدول الآخر منه، فما

أبهج العلم! إنني وأنا أسطر هذه الجداول ناقلاً من الكتاب الفرنجي المتقدم ذكره، كنت أكتب الكسرين الأولين من الكتاب، ثم أكتب بقية تلك الكسور بطريق الجمع المتقدم بدون نظر للكتاب، وبعد إتمام الكتابة أراجعه على ما في الكتاب فأجده لا خطأ فيه.

أوراق الأشجار أصبحت ذات نظام به يعرف مجهولها من معلومها، وغائبها من حاضرها، هذا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] فالذكر باللسان ثم بالقلب، ثم يعقبهما التفكر، فالتفكر هو المقصود، وهذا من أبهج أنواع التفكر.

الله خلق هذا الإنسان ونظم له هذا الوجود وشوق خواصه للبحث، إن الخواص في كل أمة هم المسؤولون عن نظام هذه الأعراس.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أعراس، أين هذه الأعراس؟

فقلت: هل أحدثك عما سمعته في عالم الخيال من عالم يحدثني؟

قال عالم الخيال: نحن نبحث عن الحقائق وما لنا وللخيال؟

فقلت: إن الخيال جمال للحقيقة، وما الخيال إلاّ زينة لعرائس الحقائق، والحقيقة مختالة متكبرة فلا تظهر غالباً إلاّ في أثوابها القشب وزينتها وجمالها، لتبهر الأبصار بمظهرها.

فقال: نعم أحب ذلك. فقلت: أنشدني حي بن يقظان بيتاً من الشعر فقال:

الناس في مأتم والكون في عرس ... يختال بالحسن في الإشراق والغلس

فلما سمعته قلت: ما معنى هذا البيت، أين المأتم وأين العرس؟

فقال: اعلم رعاك الله أن هذا النوع الإنساني الذي أنت أحد أفراده قوم حبسوا في هذه الأرض وهم أشبه بأناس قد سجنوا في قصر الملك، والملك زيّن القصر بأنواع الزينة ورقشه وزوقه وعلق فيه القناديل المضيئة المتلألئة البهجة المشرقة التي يكاد سناها يذهب بالأبصار، وقد حضرت الوفود من سادات الأمم وأشرافها فأنزلهم في دار ضيافته يتمتعون بما لذ وطاب من أنواع الإكرام وأطايب الطعام والفاكهة والشراب وهم على سرر متقابلين، لا يسمعون هناك لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً، هذا ما كان من أمر الأشراف، أما أولئك الذين حبسوا فهم مقيدون في سلاسلهم مكبلون في قيودهم قد جعلت الأغلال في أعناقهم، فأنى لهم أن يروا جمال العرس وأن يمتعوا بأطايب الطعام والشراب والفاكهة والإكرام. فهذا العالم الذي تعيشون فيه أشبه بهذا العرس والوفود المقبلون، وأهل الأرض الذين معك أشبه بالمحبوسين. فقلت له: لم يتضح لي القول. فقال: إني أبيّن لك هذا من نفسك. فقلت: أريد ذلك.

فقال: ألست تحس في نفسك بهزة طرب وانتعاش وسعادة لا نهاية لها أثناء النظر في أمثال هذه الجداول النباتية والعجائب الحسابية في الأرض وفي السماء. أليس هذا هو الحسن الذي تعشقه عقول العلماء والحكماء والأنبياء؟ ألست ترى أن الشكل الأول من الأشكال الأربعة المرسومة في هذا المقام أشبه بعمود قد علقت فيه قناديل مضيئة في عرس عام، وهذه القناديل منظمة بحيث نرى أن كل خمسة منها تكون دائرة تامة، وهي قد دارت دورتين كوكبيتين كما تقدم في كلامك، ومع ذلك ترى أنها قد

كونت صفوفاً منظمة مستقيمة من أسفل إلى أعلى فتجد عدد ١ فوقه ٦ و١١، وعدد ٣ فوقه عدد ٨ وهما صف آخر على اليمين، وعدد ٢ فوقه عدد ٧ وهما صف واحد منظم، ثم عدد ٤ فوقه عدد ٩ وهما صف واحد، فالجمال مضاعف: جمال في الشكل الكوكبي وهو الحلزوني، وجمال في الدوائر التامة، وجمال في الصفوف المنظمة من أسفل إلى أعلى وهي هنا خمسة، وجمال في نظام الأعداد في الصف الواحد، فإن كل واحد هو خامس ما قبله بحيث لا يكون في ذلك خطأ، فهذا النظام يراه الحكماء نوراً يبهرهم ويزدرون بالأنوار الحسية، فإن ذوي البصائر إذا أدركوا أمثال هذا في نبات أو حيوان أو كوكب، ذهلوا عما حولهم، واستغرقوا في ذلك الجمال، وطربوا طرباً لا يحس به الناس حولهم، فالناس الذين يعيشون على هذه الأرض أكثرهم لا يدركون هذا الجمال، ويكتفون منه بالمآكل والمشارب والملابس، فهم محبوسون مقيدون بسلاسل الحواس، والحكماء والمستبصرون هم الذين يعقلون، فالعامة هم المحبوسون والحكماء هم الذين يرون هذا الجمال ويفرحون به، والله هو الذي مد لهم المائدة التي طلبوها وجعلها عيداً لأولهم وآخرهم، وجعلها آية منه ورزقهم.

فقلت: إن هذا القول نقلته أنا من كتب الفرنجة، فكيف تقول إنهم يقفون على الظواهر. فقال: إن الفرنجة الذين كتبوا هذا هم علماء النبات، وعلماء النبات من شأنهم أنهم مختصون بعلم واحد، ولكن ليس من شأن علماء النبات المباحث العامة التي تشمل نظام الوجود كله. إن أهل الأرض لا يزالون في حرب وضرب حتى يرشدوا، ولا يرشدون إلاَّ إذا ارتقى التعليم في الأرض، وارتقاء التعليم في الأرض أن تكون هناك صبغة عامة وهي صبغة الله، وصبغة الله هي الصبغة التي تصبغ بها قلوب كبار الأمم جميعها من عرب وعجم وشرق وغرب، فيتفنون في كل العلوم وينشرون في المدارس الجمال العام مثل الذي تذكره أنت الآن، لكل أمة على حسب ما يناسبها، وتكون الأمم كلها مشتركة في نظام التعليم العام مع مميزات كل أمة، ويعلم الصغار في المكاتب شرقاً وغرباً نظام الله العام وصبغته والفطرة العامة والميزان المنصوب، ويعلمون أيضاً أن الناس كلهم فوق الأرض متضامنون متناسبون كهذه النسبة المنتظمة في الكسور المتقدمة في كلامك هذا، وحينئذ يصبح نوع الإنسان كله في عرس ونور مبين، ويحب الناس بعضهم بعضاً أجمعين، فهم كلهم كرجل واحد.

فقلت له: ولكن ديننا فيه أن نغزو الكفار ونحاربهم. فقال: أنسيت قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾[محمد: ٤]، وهل نسيت قول العلماء: إن هذه الحال حينما لا يبقى في الأرض إلاَّ مسلم أو مسالم. إذن دين الإسلام الذي تحتج به هو الذي يحث عن السلم العام، وعلى أهله أن يكونوا قادة للأمم في سبيل السلام العام، حتى يصبح أهل الأرض كلهم كأسرة واحدة، وهذا هو الزمان الذي جاء في الحديث أن الإنسان يريد أن يعطي الصدقة لأحد فلا يجد فقيراً.

إن الشرائع سواء كانت بالوحي أم بالوضع، لا سلطان لها إلاَّ على المتنافرين، فأما الصالحون الذين هم متحابون فهؤلاء لا سلطان للشرائع عليهم، قوم لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يسرق بعضهم بعضاً، فكيف يسطو القانون عليهم، وقد نقلت أنت في هذا التفسير أن أهل سويسرا ربما لا يكون للقاضي إلاَّ ثلاثة أيام يقوم فيها بالقضاء لقلة الشكاوى، وفي بقية الشهر يبحث عن قوته بعمله، وإذا صح هذا في سويسرا فهو ممكن أيضاً في جميع الممالك شرقاً وغرباً، والمسلمون هم أحق الأمم بذلك،

لأنهم جاؤوا رحمة للعالمين، وهم اليوم في دور الجمود، وسيقومون بدورهم الموعود، وإذن يكون الناس كلهم في عرس مثل هذا الوجود. فقلت: هذا هو الذي جاء في كتابي «أين الإنسان».

فلما سمع ذلك صاحبي قال: هذا حسن، ولكن كيف تقيس الإنسان على النبات، وهل علم الحقائق يكون بالقياس والقياس علم ظني.

فقلت: وبالنص أيضاً. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[نوح: ١٧]، فجعل الناس نباتاً، والنبات كله موزون، فالوزن في الإنسان كالوزن في النبات، والنبات وزنه في أمور كثيرة أهمها أربعة:

(١) نظام الأجزاء الداخلة فيه بحساب كما قدمنا في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

(٢) ونظام توزيعه على المناطق الحارة والمعتدلة والباردة.

(٣) ونظام توزيعه على ما يحتاج إليه الإنسان والحيوان من غذاء وكساء ودواء وفاكهة.

(٤) ونظام أوراقه من حيث أوضاعها الذي كلامنا فيه.

ولا ريب أن الإنسان قد وزعت على أفراده وأممه القوى كلها توزيعاً كما قررناه في كتابي «أين الإنسان»، بحيث يحتاج أعلاه إلى أدناه، وشرقيه إلى غربيه وبالعكس.

فقال: ما تقول في حديث: «بني الإسلام على خمس»، فالشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج من أركان الإسلام، ولم يرد ما قلته في تلك الأركان.

فقلت له: إنَّما مثل الإسلام كمثل الإنسان، إن الإنسان مركب من هيكل عظمي مشتمل على ٢٤٨ عضواً، ومن عضلات وعروق وأحشاء ودماغ وحواس ظاهرة وباطنة.

فالقسم الأول: وهو هيكل العظام وهو أسّ هذا الإنسان، إذا عطل لم يكن له وجود، فهو أشبه بأركان الإسلام الخمسة.

والقسم الثاني: من اللحم والشحم والعروق الخ، هو المتمم للأول، فالأول كالأعمى والثاني كالمقعد، والأعمى يحمل المقعد والمقعد يريه مواقع المنافع، هكذا دين الإسلام، فهيكله الذي لا وجود له إلاّ به هو هذه الأركان الخمسة، ولحمه ودمه ومخه وحواسه وعقله الخ هو هذه العلوم والصناعات التي بعضها فرض عين وبعضها فرض كفاية.

وإني أحمد الله إذ أعانني فقررت ذلك في هذا الكتاب، وشرح الله صدري لذلك، وسيكون هذا إن شاء الله مورداً يرد إليه الأذكياء ويصدرون عنه حكماء، فإذا اكتفى المسلمون بما هم عليه اليوم من إقامة شعائر الإسلام فهم كهيكل منصوب بدون مخ ولا عروق ولا لحم ولا دم، فتتخطفهم الأمم من حولهم وهم نائمون، وتكون بلاد الإسلام أشبه ببيت بنيت فيه خمسة أعمدة مرفوعة ليس عليها سقف، فينصبّ عليهم المطر والحر والبرد، وتسطو عليهم الوحوش الكواسر، وهم في ذل عظيم، فهم اليوم عرضة للأمم من كل جانب، ذلك لأنهم ظنوا أن الإسلام خاص بالأركان الخمسة، وما هي إلاّ حافظة لشكله، ولولاها لم يبق هذا الدين، والشكل والهيئة لا يكفيان؛ وكما أن الإنسان لا يتم وجوده إلاّ بهيكل وبلحم وشحم ومخ وحواس الخ، هكذا لا يتم دين الإسلام إلاّ بجميع العلوم والصناعات

التي أوضحناها في هذا التفسير، والله ولي الصالحين، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، والله خير الناصرين. فقال: لقد أحسنت وأجدت. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

بعد أن كتبت ما تقدم حضر لي كرة أخرى ذلك الصديق الصالح العالم، وقال: لقد عنّ لي أمر فأرجو السؤال عنه. فقلت: سل. فقال: أريد إيضاح الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[نوح: ١٧] التي جاءت في الكلام عرضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[الحجر: ١٩].

فقلت: لقد ذكرت لك هناك مشابهة الإنسان للنبات من وجوه كثيرة فماذا تريد إذن؟ قال: إن الكلام في حاجة إلى إيضاح. فقلت: إذن إيضاحها في سورة «الفتح». قال: وما مناسبة سورة «الفتح» لما هنا؟ قلت: إن الله عزّ وجلّ ضرب مثلين للأمم الإسلامية:

المثل الأول: مثلهم في التوراة أنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] الخ.

المثل الثاني: مثلهم في الإنجيل، فشبههم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾[الفتح: ٢٩]؛ ولقد شبه الله الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة في سورة «إبراهيم»، فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[إبراهيم: ٢٤]، فالمثلان اللذان في سورة «الفتح» أولهما أنهم يقهرون الأمم ويعبدون الله و﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩]، وهذا هو الحاصل الآن، لأن أسلافنا نشروا الإسلام في آسيا وأفريقيا وبعض أقطار أوروبا وفي الأوقيانوسية وبعض أهل أمريكا مسلمون.

واليهود أصحاب التوراة قوم كانوا مغرمين بالحرب والضرب، ولكنهم من جهة أخرى لم يريدوا أن يكون دينهم عاماً، فلذلك قهرتهم الأمم وشتتوا في البلاد إلى الآن، وهم الآن ١٦ مليوناً، وكثير من ممالك أوروبا مكونة من أقل من عشرة ملايين، ولكن القوم عندهم كتاب سماوي وبه حاربوا، ولكن الله لم يسلطهم على الناس بالقتال، لعلمه أنهم لا ينشرون دينهم وإنما يريدون مجرد السلطان والقهر، لأن عقيدتهم أنهم سادات الناس وأن الناس كالحيوانات وهم ساداتهم، فمن هذه الوجهة سلط الله عليهم الرومان فأجلوهم الجلوة الكبرى بعد رفع المسيح عليه السلام إلى الآن.

أما الإسلام فإن الله أنزله ديناً عاماً وجاء فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]، ولكن اليهودي يقول: إن الإكرام خاص ببني إسرائيل. إذن ضرب المثل للمسلمين في التوراة بأنهم أقوياء أشداء على الكفار رحماء بينهم، مناسب لبني إسرائيل من وجهة واحدة. أما الوجهة الأخرى، فالمسلمون انتشروا في الأرض ولم ينشروا دينهم لأنهم جعلوه ديناً قومياً.

المثل الثاني: هو تشبيههم في الإنجيل بالزرع، والزرع له نمو وله ثمر، ونمو الزرع يحصل منه أمران: قوة النبات وإنتاج الثمر، والأمران هنا أولهما قوة الأمة وانتشارها، وثانيهما قوة العلم والحكمة اللذين هما نتيجة الإيمان، والدليل على ذلك ما ذكرناه من تشبيه حكمة الإيمان بالشجرة الطيبة في سورة «إبراهيم» وحديث الإسراء من قول إبراهيم عليه السلام لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

« أخبر أمتك بأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وغراسها سبحان الله الحمد لله» الخ، فإذن تحصل من هذا أن المثل الثاني فيه معنى الرقي العلمي والأخلاق بعد انتشار الدين والعبادة في المثل الأول.

وبعبارة أخرى: امتلأت القلوب بخشية الله وحبه بجمال العلم، إذ لا يخشى الله إلاّ العالمون بصنعته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] بعد ذكر الثمرات المختلف ألوانها، وهكذا الجبال والدواب الخ، إذن أمة الإسلام لها دوران:

الدور الأول: دور فتح البلدان، وهذا الدور قد كمل لأن المقصود دخول طوائف من الناس في أقطار الكرة الأرضية في دين الإسلام طوعاً أو كرهاً.

أما الدور الثاني: فهو المقصود من الدور الأول، وهو الفتح العلمي ونشر حب الله بالعلوم والمعارف، وإدراك نظام هذا الوجود، وهو المثل الإنجيلي، لأن الإنجيل إنَّما جاء لحب الله تعالى والغرام به، ولم يؤمر المسيح بحرب ولا ضرب، بل أصل الدين يرجع للأمور الروحانية، فهذا المثل ينطبق على الأمم الإسلامية في المستقبل بعض الانطباق.

إن الأمم الإسلامية المنتشرة اليوم في أنحاء المعمورة الذين أدخلهم الله في الإسلام ـ لعلمه أن هذا الدين عام ليس كدين اليهود ـ أصبحوا اليوم أجهل الأمم بهذا الوجود وليس لهم غالباً حظ من العلم إلاّ ظواهر الشريعة وقشورها، أما حقائق الأشياء فهم عنها غافلون.

إن الإسلام يشتمل على قسمين:

القسم الأول: ظواهر العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج، وهكذا السمعيات كالحشر والنشر والحساب والعقاب والنار والجنة، فهذا هو القسم الأول.

القسم الثاني: هي حقائق الوجود التي ملئ بها هذا القرآن وأكثرها الله فيه، وصرف عنها أكثر عقول المسلمين قديماً، وهاهو ذا أخذ يفتح لهم باب لفهمها والوقوف على حقائقها من الآن.

فالقسم الأول أوشك أن ينتهي دوره، والقسم الثاني هاهو ذا قد أقبل زمانه، وجاء إبانه وحضر موسمه، وأشرقت شمسه، وفاح عبيره، وآنس أنسه، وأبهج محضره، وسر مخبره، وابتهجت حدائقه وأزهرت أشجاره، وأينعت أثماره، كما ترى في هذا التفسير وفي هذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ [الحجر: ١٩].

إذن عرفت أيها الذكي قولي لك: إن تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [نوح: ١٧] يظهر سره في سورة « الفتح »، إن سورة « الفتح » قد ختمت بالمثلين المذكورين: أولهما لنشر الأمم الإسلامية على وجه الأرض وقد تم، وثانيهما لرقي العلوم والأخلاق، وأوانه يبتدئ من زماننا هذا.

إن الملك إذا أراد أن يزور قرية أرسل إلى أهلها فأعدوا له العدة، وفرشوا الأماكن والطرق واحتشدوا، هكذا الله عزَّ وجلَّ أراد ــ ولا رادَّ لقضائه ــ أن يعم الأرض بنعمه، ويغمرها بإحسانه، والمسلمون وهم سيكونون صفوتها خير من ينعم عليهم بالعلم والحكمة، فهو أولاً: بشرهم بالفتح الظاهري، وثانياً: ملأ أوروبا وأمريكا واليابان والصين بالعلوم التي كلها هي معاني آيات القرآن كما اتضح في هذا التفسير، فهذه كلها نشرها الله في الأرض وقال اليوم للمسلمين: هاأنتم أولاء قد انتشرتم

في الأرض شرقها وغربها وجنوبها وشمالها، وهاهي ذه العلوم تحيط بكم من كل جانب، وكتابي يطلبها كلها، وليس طلبه ذلك لآيات قليلة، بل مئات من الآيات، فلم يبق إلاّ أن تترجموا تلك العلوم كما هي وتدرسوها جميعها، ويكفيكم في ذلك ٢٠ سنة لا غير، ثم بعد ذلك ادرسوا هذا الوجود بعقولكم دراسة أتم، لأن القسم الأول من الدين تقليدي يؤخذ بالتسليم فتصلون وتصومون، وليس لكم حق أن تقولوا لم كان كذا ولم كان كذا، وهكذا تؤمنون بالبعث والحشر الخ وتسلمون بذلك تسليماً.

أما القسم الثاني فهو لب اللباب، وهو الجوهر المكنون، وهو المقصود الأتم من دينكم المجيد، فإذا قرأتم ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١] نظرتم بعقولكم أحراراً كما نظر أهل أوروبا واليابان وأمريكا وأهل الصين، تنظرون بعقولكم أحراراً، إذ ليس ذلك مناقضاً للقسم الأول بوجه من الوجوه، فإذا قصرت أكثر الأمم الإسلامية في هذا القسم في العصور المتأخرة، فإني أيها المسلمون لم أترككم تتخبطون في ديجور الظلام، بل ألهمت الأمم فأبرزت العلوم، وأمرتها فقاتلتكم ونشرت لغاتها في بلادكم، وذلك لأوقظكم إلى علومي ومعارفي التي أنا الصانع لموضوعاتها، وأنا الشارح لصدور الناس ليدرسوها، فهأنا ذا سهلت لكم السبل وذللتها.

خالطتم الأمم طوعاً أو كرهاً وهم يحملون علوم مخلوقاتي التي أمرتكم بها في كتابي، تلك العلوم التي لا سبيل لمعرفتها إلاّ بالعقل المحض، بخلاف القسم الأول الذي لا سبيل إلى تغييره ولا تبديله، والاقتصار على القسم الأول من قسمي الدين مؤذن بالخراب مؤد إلى الجمود مهلك الأمم. أما القسم الثاني فهو المقصود الأعظم من هذا الوجود وهو المقصود من مثلكم في الإنجيل وأنكم كزرع أخرج شطأه الخ.

فتبيّن من هذا أيها الفاضل الذكي هنا أن الفتح فتحان فتح البلدان وفتح العلوم، وكلاهما جاء في آخر سورة «الفتح»، وفتح العلوم هو المقصود الأتم وهو المناسب لتفسير آية: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]. فإن المعاني المدرجة فيها فتح علمي لا فتح البلدان، إن فتح البلدان قد خاف منه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» الحديث، وقد تقدم عن الشيخين في سورة «الأنفال».

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول إن هذا أخوف ما يخاف علينا، والمخوف منه قد تحقق فعلاً، فليس في قدرته صلى الله عليه وسلم رد قضاء الله وقدره، وقد قضى الله بأن ما خاف منه النبي صلى الله عليه وسلم قد كمل وتم، وذلك أن فتح البلدان يورث التنازع على الملك وعلى الغنائم وعلى المال وعلى اللذات والشهوات، وينتهي بذلك زوال الملك، وقد حصل هذا كله أيام بني أمية وبني العباس، وانتهى الأمر بضعف المسلمين وانحلال العزائم ومن أعظم ما خافه صلى الله عليه وسلم ما جاء في البخاري: «ويل للعرب من شر قد اقترب»، وسيأتي إيضاح هذا المقام في آخر سورة «الكهف» عند ذكر يأجوج ومأجوج، إذ ترى هناك أن الأمم الإسلامية فوجئت بالتتار الذين دخلوا بلاد الإسلام في نحو القرن السابع الهجري، وأهلكوا الحرث والنسل. هذا هو الفتح الأول من الفتحين، وهو الفتح الذي خافه صلى الله عليه وسلم الذي جعل مقدمة للفتح العلمي الذي سيكون بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله، إذ ستطلق العقول من عقالها وينطلق المسلمون إلى شرق البلاد وغربها لدراسة الأرض

والسماء، كما انطلق آباؤنا في شرق البلاد وغربها لفتحها، فهاأنا ذا أدعو المسلمين لجني ثمار الفتح الأول وذلك بالفتح الثاني.

نحن الآن جئنا في زمان وجدنا الأمور ممهدة لنا والسبل مذللة، وإذا ذلل الله للنمل سبلها وهي حشرات فهاهو ذا سهل لنا سبلنا، ونحن من نوع الإنسان، سهل الله لنا السبل فلسنا نحتاج إلى حرب ولا ضرب، وهذا التفسير مثلاً ينتشر في بلاد إفريقيا وآسيا وغيرهما، لأن الطرق مذللة والفتح الإسلامي الأول مهد لهذا التفسير ولأمثاله أن يقرأ، فالعلوم ونشرها اليوم فتح علمي بعد الفتح الأول للبلدان، وعلى كل من قرأ هذا التفسير أن يكون أمة وحده يهدي الناس إلى العلوم ومعرفتها ونشرها، ومن فهم ما كتبته في هذا التفسير فقد شاركني في الرأي والفهم، فوجب عليه ما وجب عليّ بل عليه أن يفعل كل ما في طاقته، أما أنا فليس في طاقتي إلاّ ما صنعته ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٣٣] فربما كلف غيري بما لم أكلف به إذا كان على استعداد أتم في مال أو جاه أو علم، والله هو الولي الحميد.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد أفدت إفادة تامة، ولكني أرجو أن تزيد القول إيضاحاً، أما أنا فقد اكتفيت، ولكن كلما تضافرت الأدلة على المدلول ازداد المعنى إيضاحاً، وأرى أن هذا المقام شائق والله واسع العلم، فاطلب من الله يزدك علماً فيزيد النور. فقلت: قال الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾[سورة النصر]. إن هذه السورة هي ملخص ما تقدم، ألم تر أنه أمره بعد النصر والفتح ودخول الناس أفواجاً في الدين أن يسبح بحمد الله ويستغفره؟ فيا ليت شعري، ما التسبيح والتحميد؟ أليس الأول تنزيه الله عن الشرك، والثاني اختصاصه بالحمد؟ وقد عرفت أن الحمد يرجع لسائر العلوم إذ لا حمد إلاّ على نعم، والنعمة المجهولة يكون الحمد عليها نفاقاً وكذباً وزوراً.

ومن حمد أحداً بلا نعمة يعلمها فهو منافق أو مستهزئ ورجل زور. ولقد كان صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة يكثر من التسبيح والتحميد، يا ليت شعري، أليس معنى هذا أنه يعلمنا؟ وهل هذه السورة جاءت لنقرأها نحن مجرد قراءة أم جاءت لنقتدي بنبينا صلى الله عليه وسلم، ونبينا صلى الله عليه وسلم بعد الفتح كان يحمد الله وهو قد أفرغت عليه سائر العلوم، أما نحن فلم تفرغ علينا العلوم وإنَّما نحن مأمورون بالاجتهاد في العلم، كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ ونحن على أثره: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، فنحن اليوم مأمورون بالعلوم لنحمد الله بحق بعد انتشار الإسلام في الأقطار.

الأمم الإسلامية اليوم يجب عليها حمد الله، ولا معنى لحمد الله بغير علم بالمحمود عليه، وهي سائر المخلوقات التي إذا جهلت كان الحمد عليها رياء وكذباً، فهذه السورة يؤخذ منها بطريق الإشارة والرمز أن الأمم الإسلامية تجدّ في آخر الزمان في العلم والحكمة وتعرف العلوم، ولذلك كثر الحمد في القرآن، وتسمع المسلم في صلاته يقرأ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ في كل ركعة، والحمد جاء في أول سورة من القرآن من حيث ترتيب السور في القرآن، والمسلمون يسمون الحمادين، يحمدون الله في السراء والضراء وبعد الأكل والشرب وعند النعم والنقم، ويقول المسلم في صلاة الصبح: «فلك الحمد على ما قضيت» الخ، قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠]، ونبينا

صلى الله عليه وسلم له مقام الحمد، والله يقول لنا: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣]، وهذا يدل دلالة الإشارة أن آخر هذه الأمة يوقفهم الله على عجائب صنعه فيعرفونه وهذا أوانه، وإني أحمد الله عزَّ وجلَّ الذي وفق لهذا التفسير، ومنح وهدى وأعطى، وهو سبحانه سيلهم كثيراً من قرائه ببذل النفس والنفيس والمهج في سبيل نشر العلم وتعميم التعليم للعلوم كلها والصناعات وحب الله تعالى.

إن الأمة الإسلامية كلما زاد علمها بهذا الوجود ازدادت ثمراتها في الحياة، وأصبحت قدوة للناس شرقاً وغرباً.

إن الأمم اليوم تقرأ العلوم ولكنها لا تقول إنها موافقة لأديانها، أما ميزة الأمم الإسلامية؛ بعد انتشار هذا التفسير ونحوه؛ فإنها تقرأ العلوم وهي موقنة أنها مقصودة من الدين، بل سيقرؤونها ويعلمون أنه لا نسبة بين تلك العلوم وبين العبادات.

إن العالم بعلوم هذه الدنيا أفضل من العابد بما لا حصر له، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وقد ذكر ابن عباس أن بين العالم والعابد درجات كثيرة؛ كل درجة منها كما بين السماء والأرض، إذ من ميزة الأمم الإسلامية المستقبلة أنها تقرأ العلوم وهي مستغرقة في حب الله، فإذا كان ظاهر علوم الفلك أو علم النبات مثلاً يرجع لأمور الحياة، فإن عجائبه وبواطنه كما رأيته في هذا التفسير يرجع للغرام بالله تعالى، وكلما ازداد الناس علماً دنيوياً ازدادوا بجانبه علماً بربهم، وعلى مقدار سعادتهم بعلوم الدنيا تكون سعادتهم بربهم وبجنته وبرحمته الواسعة.

والدليل على ذلك ما مر آنفاً في هذا المقام في تفسير: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر: ١٩]، فإن نظام الأوراق لم نصل لحسن إبداعه فوق الأشجار المختلفة إلا بعد نقل ذلك من كتب الفرنجة، والمؤلف لذلك الكتاب يقول: إن هذا العلم نقله عن علماء النبات.

إذن جمال النبات وغير النبات لا يعرف إلاَّ بعد استيفاء نفس العلم بمصالح الدنيا الذي هو فرض كفاية في ديننا. أما النظر العام في جماله فذلك فرض عين على من قدر عليه لأمرين: للتوحيد وللشكر. ففي علم النبات ثلاثة فروض: فرض كفاية لمصالح الدنيا، وفرضا عين هما: التوحيد والشكر لأمر الآخرة، وبعبارة أخرى: لارتقاء النفس والحب والبهجة، وهذا العلم على هذا النحو هو المقصود من هذه الدنيا، بل لذة العلم هي المقصود في الدنيا والآخرة، بل القرب من الله إنَّما يكون بالعلم. وهذه المعاني ليست في أكثر كتب الفرنجة، بل هم يقرؤون العلم من حيث هو، ولا مقصد لهم سواه، لأن دينهم ليس فيه حض على العلم بوضوح كما في القرآن، فإذن أمم الإسلام متى عرفت هذا النظام ترقى أكثر من الفرنجة بعد ترجمة علومهم.

فدين الإسلام قسمان:

قسم هو العلوم كلها، بها يتقرب العبد لله ويكون من أوليائه، وبهذا يصبح الأولياء والصديقون في الأمم الإسلامية والطبقة الراقية كلها يشاركون أوروبا وأمريكا واليابان في علومهم ولغاتهم، وفي التاريخ والآثار وعوالم الكواكب والنبات والحيوان الخ.

والقسم الآخر يختص بالمسلمين وهو : العبادات ونحوها ، وبهذا يصبح المسلمون أغنى من جميع الناس في العلم وفي الدنيا وفي الدين ، وكيف لا يكون كذلك والدين أصبح هو نفس هذه المدنية بعينها ونصها ، والقربى إلى الله بنفس هذه العلوم كما رأيت فتكون علومهم شارحة لصدورهم ، مقربة لربهم ، نافعة لأبناء نوعهم من الآدميين .

سيكون في العالم أمة إسلامية خليفة لربها يقتدي بها المقتدون ، تشارك الأمم في علومها وتزيد عليها العشق والحب والغرام بهذا الوجود الذي تعيش فيه ، ويصبح فيهم حكماء ، فإن الحكمة أولها حب العلم ، ووسطها معرفة العلوم ، ونهايتها حب الله والتخلق بجميل الأخلاق .

ففز بعلم تعش حيًّا به أبداً — الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه — والجاهلون لأهل العلم أعداء

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد أجدت وأحسنت ، ولكني أريد أن تلخص لي ما تقدم كله في بضعة أسطر ، وتزيد عليه كيف عميت هذه الحقائق عن أكثر المتقدمين . فقلت : إن محصل ما تقدم :

أولاً : إن آية النبات ووزنه ظهر سرها في كتب الفرنجة ، وأنهم قد عرفوا الأوراق وترتيبها وترتيب دوائرها ، بحيث جعلوا لها جداول مرتبات منظمة من الكسور الاعتيادية ، وبين هذه الكسور مناسبة كالتي بين الجداول المتقدمة .

وثانياً : أن الأمم في نظامها كالنبات في إتقانه ، فالناس لو فطنوا لأدركوا أنهم في نظامهم محتاج ومتوقف بعضهم على بعض في جميع الكرة الأرضية ، ولا يزالون في ذل حتى يصلوا إلى هذه النتيجة .

وثالثاً : أن الله جعل الإنسان نباتاً ، وضرب المثل بالزرع في سورة « الفتح » للمسلمين .

ورابعاً : أن الفتح فتحان : فتح بلاد وقد تمّ أمره ، وفتح علوم وهو الذي سيكون بعد نشر هذا التفسير وأمثاله ، وفتح البلدان خاف منه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وفتح العلم أمرنا بالزيادة منه ، فالفتح العلمي مأمون العواقب وهو الزمان المستقبل الذي تعم فيه الصفة المحمدية المسماة بالعيسوية تصطلح فيها سائر الأمم ، ويستحيل اصطلاح الأمم والمسلمون والأمم معاً جاهلون .

أما قولك : كيف عميت هذه الحقائق على كثير من أسلافنا ، فاعلم أن الله هو الذي قال : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِي ﴾[الأنبياء : ٣٧] ، وقال : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل : ٩٣] .

إن الله عزَّ وجلَّ لا يخلق الأمور إلاَّ في أوقاتها المناسبة ، وهذا الزمان أنسب الأزمنة لذلك ، لا سيما بعد أن ذاق المسلمون ذل الجهل وتجرعوا صعابه وأوصابه ، فالأجيال المقبلة سيقبلون على هذه العلوم بعد إدبار آبائهم عنها ، ويحرصون على تحصيلها حرص آبائهم على تركها والتبري منها ، وعلى مقدار اقتراب بعض المتقدمين لله بمعاداة هذه العلوم يكون اقتراب أبنائنا لله تعالى بحجة هذه العلوم والانغماس فيها .

الكلام على نحو الفتوحات المكية لابن عربي

واعلم أن الأمم الإسلامية لما أفل نجمها ، وغابت شمسها ، وأدبر سعدها ، وأقبل نحسها ، أذلت العلماء ومحت آثارهم ، كما حصل لابن رشد بالأندلس ، ولكتاب «الإحياء» في تلك الأرجاء من الإحراق والتمزيق ، لذلك أخذ الخلف منهم يعلمون العلوم باسم التصوف كما ترى في «الفتوحات

المكية» لابن عربي وفي «الفصوص» له، فالكتاب بحر متلاطم الأمواج في وحدة الوجود ونحوها، وقد كان الأذكياء من علماء الإسلام يقرؤون هذا الكتاب فيخيل إلي أنهم أشبه بذباب غرق في العسل.

إن ذلك الكتاب بحر لجي لا ساحل له بقلم فياض، ولكن القارئ له ينصرف بالكلية غالباً عن العلوم المحيطة بالناس في السماوات والأرض، وليس معنى هذا أنه ليس فيه هذه العلوم؛ كلا، بل إنه هو كان يعرف الفلسفة القديمة معرفة تامة وكذلك الشريعة الإسلامية، وهما في يديه معاً يتصرف فيهما بالإنشاء، ولكن غلبت على الكتاب الأمور الغائبة عن العيان، فكان القارئ له يضيع بقية الحياة في حل رموز الكتاب ويرى نفسه ليس أهلاً لفكر آخر ولا لاجتهاد.

واعلم أن الله عزّ وجلّ ألهم بهذا التفسير لتتزن القوى في الأمم الإسلامية، فإن هذا التفسير وأمثاله يجعل في الناس شوقاً إلى معرفة العوالم العلوية والسفلية ومشاركة الأمم والعلو عليها في علومها، ولكن الفتوحات وأمثال الفتوحات كثيراً ما تلقي في وهم القارئ أنه ليس أهلاً لأي فكر ولأي اجتهاد، لأن ما في الفتوحات فوق متناول العقول البشرية فتقف العقول غالباً، والله أسأل أن يهدي بهذا التفسير أمماً وأمماً وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. انتهى.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾[الآية: ٢٠]

يقول الله تعالى: إن أنواع معايشكم التي تغذيكم وترويكم وتلبسكم وتداويكم قد سخرناها لكم في الأرض، فلا السمك في البحر غذيتموه، ولا الطير في جو السماء ربيتموه، ولا غيرها من أشجار الجبال وغابات الأرض وعجائب البر والبحر خلقتموه.

إن في خزائننا من أنواع المعادن النفيسة والمخلوقات البديعة ما لا حصر له، ولكنا لا نعطيه لكم إلاّ بمقدار ولا نمنحكم إلاّ بحساب. ألم تروا إلى الرياح كيف جرت لحكمة دبرناها وآية بيناها؟ فهي تحمل السحاب وتلقح الأشجار، وما الرياح إلاّ الهواء أثارته الحرارة الشمسية فكان ما كان من الرياح وأقلها يجتاز قدمين في الثانية الواحدة، والنسيم سرعته خمسة أقدام فيها، والمعتدل من الرياح من ١٠ إلى ١٦ قدماً في الثانية، وقواصف المناطق المعتدلة من ٦٠ قدماً في الثانية إلى ١٠٠ قدم، وهي في المناطق الحارة من ١٠٠ قدم إلى ٣٠٠ قدم، والكلّة التي تخرج من المدافع تقطع ٦٠٠ قدم في الثانية باعتبار الوسط، وفي أول خروجها ضعف هذا، أي: نحو ١٣٠٠، فأعظم الرياح يجري كنصف متوسط تلك الكلّة، والصوت الذي يجري مع الريح في اتجاهه يقطع ١٠٠ قدم في الثانية، والضوء يقطع ١٨٦ ألف ميل، وإنّما قرنت لك سرعة الهواء بسرعة المدفع وسرعة الصوت وسرعة الضوء لتطلع على خزائنه التي أبرز بعضها لنا، وترى أن تلك السرعات المختلفة جاءت لمصالحنا وهي مما أبرزه من خزائنه.

أفلست ترى أن سرعة الريح لو كانت دائماً أشبه بالعواصف في البلاد الحارة، لم يستقر الحيوان والإنسان، ولساءت الحال ولم يتم العمران.

أوَلست ترى أنه لو بقي الهواء ساكناً لم يتم لقح النبات، ولم ينتظم، ولم تجر السفن، ولم يسعد الناس؟.

ألست ترى أن اعتدال النسيم تارة وقصف القواصف وعصف العواصف في بعض الأوقات بعض الخزائن المخزونة التي أخرجها الله بحكمة لإسعادنا؟.

أوَلست ترى أن سرعة الضوء لو لم تكن بهذا المقدار لكانت الأرض مختلة النظام في حياة من عليها، أعني: أن الضوء لو كانت سرعته كسرعة الريح لم يصل لنا ضوء الشمس سريعاً كما يصل الآن، فتأمل هذا المخزن الذي أمامك، وهو مخزن الحركات التي في الرياح، وقل لي: أليس الهواء لولا حركته ما جرت السحب بالرياح، ولولا الرياح لم يلقح الشجر.

إن حياتنا وديعة أودعها الله في الأرض وأوصى عليها الهواء، وقال للحرارة: حركي الرياح بحيث تزجي السحاب في أوقات معلومة، ولو أن الرياح كانت ساكنة لم نعش البتة، فما الذي يحمل السحاب فينزل المطر؟. وقال أيضاً: احملي أيتها الرياح لقح الأزهار التي هي ذكور إلى الأزهار التي هي إناث. يقول الله لها: احملي طلع الذكور وضعيه على الإناث من كل نبات، لتخرج الثمار والفواكه للناس، سيري أيتها الرياح بلطف ولا تكوني كالقواصف ليستقر الطلع في الأماكن التي وصل إليها، ولتسير السفن في البحر فلا تكسر قلوعها بسرعتك الشديدة، وحركي أيتها الرياح الأشجار لتدفعي عنها ما علق بها من الغبار وليكون ذلك رياضة للشجر وللزرع؛ كرياضة الحيوانات؛ لينفذ الغذاء في المسامّ، فالنبات بتحريكك له والحيوان باختياره في الحركات الحربية والحركات الرياضية، فهذه خزائني أيتها الرياح أودعتها فيك لأهنئ مخلوقاتي على الأرض وأجعل جريك بقدر مقدور.

هذه بعض خزائن الله في الهواء ذكرها الله هنا ليبيّن للناس كيف كانت الخزائن في بقية المخلوقات وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[الحجر: ٢١-٢٢].

ومن خزائن الهواء الرياح الدائمة المنتظمة والرياح الدورية والرياح المختلفة. فالرياح المنظمة تذهب من الشرق إلى الغرب ومن القطبين إلى خط الاستواء، فالتي تذهب من المشرق إلى المغرب تكون بين مدار السرطان ومدار الجدي، جاءت من حرارة الشمس ومن حركة الأرض حول محورها فحرارة الشمس تجعل الهواء خفيفاً فيعلو ويسير، والهواء في المنطقة المعتدلة والمنطقة المتجمدة في نصفي الكرة يجري إلى ما بين المدارين ليحل محل الهواء الذي خف وارتفع، فجري الرياح هناك دائم ولا يستشعر به إلاَّ على بعد مائة فرسخ من الساحل الغربي لإفريقيا.

ومن عجب أن فوق طبقات الريح المنتظمة يجري تيار مخالف له، فاعجب لنظام بديع، خف الهواء بين المدارين فارتفع إلى أعلى وجرى، فكان ذلك سبباً حرك الرياح من الربع الشمالي والربع الجنوبي، فجرت على عجل لتحل محل ما خلا من الهواء في تلك الأقطار، وكأن تلك الرياح قوم من البشر ذهبت أرواحهم إلى عالم الأرواح فجاء آخرون حلوا محلهم، والحركة بين هؤلاء وهؤلاء دائمة فحرارة الشمس بتأثيرها في الأقطار الاستوائية وما والاها رفعت الهواء إلى أعلى الطبقات، كما ترفع الأرواح من عالم الأرض إلى عالم السماء، وتخلو أمكنتها فيحل محل هذا الهواء نظيره من نصفي الكرة، كما يحل أناس في الأرض محل الذاهبين.

إذا فهمت هذا فتعجب كيف أتى بعدها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]، لأن حركات الحياة والموت كحركات الرياح المنظمة، وأما الرياح الدورية فهي التي تسمى ريح الموسم، وهي تكون في البحر الهندي، وهي تهبّ ستة أشهر من مهب واحد من السماء،

وفي سنة أخرى تهب من جهة مقابلة لها، وهي دائماً تتجه جهة نصف الكرة الذي سخنته الشمس بأشعتها، ولا تتجاوز الدرجة العاشرة أو الثانية عشرة من العرض الجنوبي.

انظر خزائن الله في الهواء، وانظر خزائنه في الماء الذي حمله الهواء، وانظر إلى البحر كيف خزن الماء فيه والحرارة أثرت فيه، فحمله الريح من البحار الملحة ومن الآجام والمواضع الرطبة، وذلك بقدر يقول الله للحرارة كما يقول للرياح: لا تلحي أيتها الحرارة على البحار إلاَّ بمقدار حتى يكون بخار على قدر الحاجة فيكون سحاب، وإذا نزل المطر على الأرض فاحفظيه يا جبال لعبادي، ويا حرارة أذيبيه قليلاً قليلاً ليزيد في الأنهار، ويا ثلوج قفي فوق الجبال وانتظري الحرارة حتى تذوبك قليلاً قليلاً لتزيدي في الأنهار، ويا عيون انبعي بقدر معلوم وليبق الماء مخزوناً في جبالي وفي أرضي وفي المجاري التي تحت أرجل الناس في طبقات الأرض، ولتكن قريبة حتى يسهل لهم إخراجها عند الحاجة، هذه هي بعض خزائني، فإياك يا بحر أن تطغى على اليابسة، وإياك يا أنهار أن تعمي الأرض دائماً بالماء، بل لتكن زيادة، وليكن نقص، على حسب ما أرسلت لكنّ من حرارة الشمس، هكذا أمر الله، فهذه الحركات الجوية والمائية وتعاقبها، واهتياج الرياح وارتفاعها إلى أعلى بين المدارين وحلول الرياح الآتية من المناطق المعتدلة والباردة أشبه بما في حركة الأحياء وحلولهم محل الأموات كما قدمنا.

إن هذه هي المقدمات المعيشية للناس في الأرض، فليس يكون الناس إلاَّ حيث يكون هذا الهواء وهذا الماء، وإلقاح الشجر والإنسان هو الملك الذي توّجه الله على ملك الأرض.

فلما أتم الكلام على نظام المعيشة والحياة، شرع يذكر حياة الإنسان وموته التي هي نتيجة هذا كله، بدأ يذكر الحياة والموت، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾[الحجر: ٢٣]، كما جعل في الرياح تيارات عليا فوق الرياح المنتظمة لأن هواءها أخف فكان أعلى.

يقول الله: إن حركات الأرواح في الحلول بأرضكم والارتحال عنها إلى عالم ألطف من عالمكم لا تخالف ما على أرضكم من الحركات، فهواؤكم يحمل السحب فيرفعها، وقد كان ماؤها في أرضكم هكذا أنا أحييكم بإقامتكم في أرضي، وأميتكم بإخراجكم منها، لتوسعوا الطريق إلى من بعدكم، وليطلع على خزائني أمم كثيرة تأتي بعدكم، وليس إحياؤكم وإماتتكم بلا قانون مسنون، بل لها طريق معلوم، وإذا علمتم ما سنناه في الماء والهواء فاعلموا ما سنناه في الحياة والموت، فنحن نحيي بقدر ونميت بقدر، فعلمنا المستقدمين منكم وعلمنا المستأخرين، كما علمنا ارتفاع السحب والرياح، وقدرنا انخفاضها وانحطاطها في أوقات معينة، ثم بعد ذلك نحشركم جميعاً.

هاهنا آن أن نشرح لكم الحياة الدنيا وأن نشرح لكم الحياة الأخرى بعد ما بينا المعايش التي لا بد منها في حياتكم الدنيا.

كيف كان خلقنا؟

وهنا أبتدئ بذكر خلقكم وأشرح كيف خلقناكم لنبيّن الحياة، ثم أشرح كيف تكون حالكم بعد الموت على سبيل اللف والنشر المرتب، أما حياتكم فإني أمثلها بما تصنعون، إنكم تصنعون من الطين أباريق وأواني مما تستعملونه لأموركم المعيشية، فتبدؤون بتصوير الطين ثم تضعونه في النار فيحترق، وذلك هو الفخار.

هكذا أنا صنعت الإنسان، ذلك أني سويته من العناصر الأرضية التي يتغذى بها النبات، ويتغذى بذلك الإنسان ويصير في دم الحيض الذي يغذي الجنين، ثم إنكم تأكلون الطعام المكون من الطين فيصبح الطعام من جملة جسمكم الإنساني والماء معه، فالذي يقوم مقام الطين في صنع الفخار هنا شهوتكم المركبة فيكم.

فإن هذه الشهوة بها جبلتم المواد النباتية التي تأكلونها وتصير من جملة أجسامكم بعد هضمها إني جعلت الشهوة هي التي تقوم بعملية تصوير أجسامكم بعناية وحكمة دبرناها، والذي يقوم مقام نار الفخار لإحراقه هو ما ركبته فيكم من قوة الغضب التي بها تحافظون على أجسامكم ومدنكم وقلاعكم وأعراضكم فلا تفتضحون. فهذه القوة الغضبية فيكم مقابلة للنار التي تحرق الفخار فيصير قوياً؛ إذا نقرتموه صوّت، وهذه الحرارة أكسبته البقاء ولولاها لتكسر، هكذا قوة الغضب جعلتكم تدفعون بها عن أنفسكم ما يؤذيها من السباع والأعداء، وهكذا الحر والبرد بالاستدفاء، فإن المراد بهذه القوة المحافظة سواء أكان مع حدة أم لا.

والدليل على أن هذه القوة كالحرارة في الفخار أنك ترى الرجل إذا غضب تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه ويثور الدم ويحمر وجهه ويغلي ويفور كل ما رطب من جسمه، فهذا دليل على أن قوة الغضب نارية، كما أن قوة الشهوة أرضية، لأنها تميل إلى الأرض وإلى التعاطي من أغذيتها ومائها، هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[الحجر: ٢٦].

ولما كان هناك عالم ألطف من عالمنا وكان ذلك قسمين: قسم وجد لإيذائنا وعدم طاعتنا، وقسم خلق لمصلحتنا ونعمنا، كما أن من النبات ما هو شوك يؤذينا، ومن الحيوان حيات تميتنا وعقارب لإيذائنا، وهكذا منها نخل وورد وغزال وبقر لمصلحتنا، هكذا كان في العالم الروحي من هو مؤذ لنا، كما آذانا المكروبات من الحيوانات والآساد، فوجد عالم الجن الذين هم أرواح إما مفارقة للأبدان الإنسانية وإما غيرها، توسوس للناس وتغويهم كما ثبت في العلم العصري بأوروبا ونقلناه في كتاب «الأرواح»، ووجد عالم الملائكة الذين هم نافعون لنا وحافظون لحياتنا، فعالم الجن مخلوق من النار الحارة الشديدة الحرارة، قد عظمت فيه القوة الغضبية، كما نرى الآساد في عالم الحيوان قويت فيها القوة الغضبية فلم تخضع للإنسان، وهكذا نرى أشرار الناس لا يريدون إلا الأذى.

خطاب الله للملائكة والجن

وهنا تجلى المقام في المحاورات الإلهية بين الملائكة وربهم وبين الجن وخالقهم، فقال الله للملائكة الأرضيين الذين هم قائمون بتدبير العالم الأرضي حينما أراد خلق الإنسان: أيها الملائكة هذه هي الأرض، وهذه هي الحيوانات، وهذه هي النباتات، وهذا هو المطر والرياح والسحب.

أفليس هذا النظام حسناً؟ بلى، هو حسن ولكني أريد أن أجعل لهذا الملك العظيم من يقوم بنظامه ويتصرف في جميع ما ترون، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٢٩] وقدموا له كل منافع الأرض من ماء وحيوان ومن جميع المعايش التي قدمنا ذكرها، فامتثلت الملائكة، وهاهم أولاء يقدمون للإنسان أنواع الحيوانات والنبات والماء والهواء، كل ذلك يتمتع به الإنسان، والملائكة هم القائمون بالتدبير، إذ ليس يعقل أن هذا النظام المحكم يسير بحرارة عمياء وريح أصم

ومطر وسحاب لا يعقلان، كلا، بل هناك عالم الملائكة والعقول العالية المحكمة للعمل، فكما قام الملائكة بنظامنا قامت الحيوانات على الأرض بخدمتنا، بل هي أنفسها من النظامات التي قامت بها الملائكة، فهذا هو سجود الملائكة للإنسان، فالسجود باق كما كان، فهو في هذا الزمان وفي كل زمان بهذا المعنى، فأما الأرواح المسميات بالجن فإنها لم ترتق عن درجة القوة الغضبية في الإنسان، فالغضب يحرك فينا عواطف الانتقام، أما العلماء منا فإن نفوسهم نورانية يحبون نوع الإنسان كله ويودون سعادته، فعقولهم ملكية نورانية، فالشياطين طبائعهم نارية كطبائع الناس الذين لم يهذبوا، والملائكة هم نفوس عالية طبائعهم كطبائع الأنبياء والحكماء في الأرض، فيهتمون بمصلحة الناس، ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٣٢] فترفّع وتعاظم أن يسجد لمن خلق من طين، وهو مخلوق من النار، ونظيره ما يرى من الآساد والنمور لا تلين قناتها ولا تخضع للإنسان حتى يركبها ويذللها للحمل والركوب ونحوها، كما خضعت الإبل والحمير والبغال، فالملائكة إذن كالأنبياء والعلماء، والشياطين كأشرار الناس وكالآساد.

فترى الرجل الذي غلب عليه الحقد والغضب يهز عطفه إذا ذكرت له فضل العلماء وفضل أبويه مثلاً في حالة غضبه، ولا يبالي بأحد مطيعاً للقوة الغضبية التي تحجبه عن المودة والمحبة، فلذلك خاطب الله إبليس فأمره بالخروج، ونظيره ما نفعل بالشوك فنخرجه من أرض العمران، وما نفعله بالآساد والنمور والذئاب والناس والحيات والعقارب، فإنا نجدّ في إبعادها عنا لأن طبعها الأذى، وكما نجتهد في حبس الأشرار سفاكي الدماء، هكذا أخرج الله الأرواح التي غلب عليها الغضب عن مساعدتنا، بل جعلها توسوس لنا وسوسة تريح تلك الأرواح كما يستريح الغضوب بإيذاء من غضب عليه، كما هو مدون في كتاب «الأرواح» الذي ألفته، وهذا قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الحجر: ٣٤-٣٥]، وهذا لا شك فيه، لأنه ما دام الإنسان على الأرض فلا بد من بقاء الأرواح الخبيثة التي لا تفتأ توسوس للناس، كما لا بد من بقاء الناموس والحيات والعقارب، ولا يخلص الناس من الناموس والآساد وأمثالها إلاّ بحفظ مدنهم واتقاء الأخطار برفع القاذورات من دورهم وردم المستنقعات والبرك ووفور العمران، فهناك تهابهم الآساد والنمور وغيرها وتموت الحشرات المؤذية.

هكذا هنا متى طهر الناس أخلاقهم وتهذبوا ذهبت عنهم الرعونة الشيطانية، وصارت قوتهم نورانية لا نارية شيطانية، وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[الحجر: ٣٦-٣٨]. فهذه المحاورة أشبه بحكاية حال هذا العالم الجثماني والروحاني والمادي والمعنوي، ساقها الله هنا ليعرّف المسلمين كيف بدأ خلقهم وكوّن طباعهم وجعلها بمثابة محاورة بينه وبين ملائكته، ليقرأها الجاهلون تعبداً ويفهمها العلماء تفكراً، فإذا حصل لهم فيها شك وريب عمدوا إلى كتب الحكمة ففتحوها، وإلى دروس الطبيعة فاستوعبوها، وإلى علوم الإنسان والحيوان فدرسوها، وإلى علوم التشريح فاستوعبوها، وإلى قصة الأرواح التي ظهرت في العالم اليوم فكشفوها.

يا أيها المسلمون، هذا كلام ربكم، يا أيها المسلمون هذا هو القرآن المنزل لتدرسوه، أما التلاوة البحتة فقد مضى وقتها، فأما دراسة العلوم فهذا أوانها، ولن تعرفوا أنفسكم وتنظموا مدنكم وتوقنوا إيقان الحكماء بالحقائق إلاَّ بأمثال هذه الدراسة.

ثم انظر بعد ذلك في القسم الذي أقسم به إبليس إذ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٢] وعبر بالعزة لأن العزة هي الغلبة، والشيطان لم يحظ من الحياة إلاَّ بحب التسلط، وقد حرم من النفع العام، فحلف بالعزة الإلهية لما كان في نفسه هو من عزة شيطانية، وفرق بين العزتين كالفرق بين البقة والفيل، ولكن هكذا كان حلف بعزته ليغوين بني آدم إلاَّ العباد المخلصين، كما نرى الذباب والبراغيث وسائر الحشرات تتخطى الذين نظفوا أجسامهم ومدنهم، ولا تؤذي إلاَّ من أهملوا شؤونهم وكانوا كاسلين، فأجابه الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر: ٤٢] الخ، لأن الشيء لا يأتي إلاَّ لما يناسبه، فالصالحون لا يؤثر فيهم الشيطان ولا يغويهم لأنهم ليسوا من طباعه، كما لا يقع الذباب إلاَّ على الأعين القذرة الوسخة، وهيهات هيهات أن يقع على الأعين النظيفة لأنه لا غذاء له فيها. هكذا الشيطان من شياطين الإنس والجن لا يوحي بشرّ إلاَّ لمن يجد فيه قبولاً لشره وأنساً بقوله واستماعاً لنصحه. هنالك يكون لقوله سميعاً ولنصحه مطيعاً ولامتثال أمره سريعاً.

هذه هي قصة الإنسان من يوم أن ولد إلى أن يموت، وهذا إيضاح لأحد شقي الآية السابقة، وهي: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾[الحجر: ٢٣].

ولما فرغ من الكلام على حياة الإنسان في الدنيا شرع يتكلم على حياته الأخرى، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٤٣] الخ.

هاهنا ذكر الجنة والنار، ولم تخرج هذه الحياة عن التي قبلها إلاَّ في ذهاب الأجسام الحالية، وبيانه أنك رأيت أن الناس على وجه الأرض مخلوقون من طين ومن نار، وعرفت أن القوة الغضبية غلبت في الفجرة والجاهلين، وهي من نوع النار، وعلمت أن الله لا يجعل دنيا ولا آخرة إلاَّ بنظام وحكمة، فإذا أدخل قوماً جهنم فلم يعدل بهم عن السنن المعهودة، إن طباعهم لا تستحق إلاَّ جهنم لأن أخلاقهم نارية غضبية، فالشياطين خلقوا من النار كما نرى في أشرار العالم الإنساني وجهالهم، فلا جرم وضعوا في جهنم لما غلبت عليهم الطباع النارية، ومن باب أولى إذا كانوا في طباع أخسّ منها بأن كانت طباعاً شهوية.

أما أولئك الذين دخلوا الجنة فهم إما طباعهم نورية وإما مصقولة بالأنوار والآداب التي علمها لهم أصحاب الطباع النورية من الأنبياء والعلماء والحكماء والملائكة.

بماذا وصف النار وبماذا وصف الجنة؟

وصف النار بأن أهلها سبع درجات في سبع طبقات، كل قوم غلب عليهم نوع من الشهوات المقسمة على الأعضاء الجسمية.

أما أهل الجنة فانظر ماذا حصل؟ نزع الله من قلوبهم الغل والحسد، ومعلوم أن الغل هو من طباع القوة الغضبية، فهاهنا نظف الله أهل الجنة من تلك القوة التي يكره بها الإنسان من عداه من الناس، وهي طبع الشياطين وطبع أهل الشر من الإنسان، فإذا خلق الله الإنسان من نار وطين فإن

العلوم والدين والتهذيب قد تصقله وتصفيه وتبعد عنه رجس الأخلاق الشيطانية الإبليسية التي نحن الآن نقع بتعذيبها لنا في القضايا والمشاكل والعداوات، فنكون إخواناً ولا نخرج من الجنة. اهـ.

فانظر كيف ابتدأ بذكر المعايش في الأرض، وشرح الهواء والسحاب، ثم قفى بذكر خلق الإنسان وما تلا ذلك من الشياطين والملائكة، ثم أتى بالنهاية من حياته حتى انتهى إلى آخرها في جنة أو نار، وهذه هي قصة العالم الذي نحن فيه باعتبار طبيعته ولم يبق شيء بعد ذلك. وإياك أن تظن أن هذا ينافي ظاهر الآية، فإن هذا رأي الذين لا يعلمون، فإذا حدثتك نفسك بهذا فقل إن علم البيان فيه الكناية، وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، كقولك: فلان طويل النجاد، أي: علاقة السيف، فهذه العبارة لم يقصد بها مجرد أن علاقة السيف طويلة، بل القصد أنه هو طويل، والمقصود هو الثاني مع صحة المعنى الأصلي، فهكذا هنا نقول محادثة الله مع الملائكة ومع إبليس تشير إلى المعنى الذي ذكرناه، هذا المعنى هو المقصود.

فقل لمن يدّعي علماً ومعرفة عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

وإلى هنا انتهى تفسير القسم الأول، وهاهنا لطائف:

اللطيفة الأولى في هذا القسم في قوله تعالى:

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾[الآية: ١٩] إلى قوله: ﴿ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾[الآية: ٢٠]

عجائب مما رزقنا الله ولسنا له برازقين

العجيبة الأولى: جاء في الجرائد المصرية يوم الخميس ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ ما نصه: تقول إحدى جرائد غرب إفريقيا: إنه بينما كان القارب البخاري «سجوف» ماخراً بجانب الساحل الإفريقي الغربي إذ وقف فجأة في فجر يوم فظن من فيه أن هذا شاطئ رملي خفي، وعندما انبلج الصباح عرفوا أنه قطيع كبير من الأسماك، ومن كثرته واجتماعه في مكان واحد لم يتمكن القارب من اختراق تلك الكتلة، ثم تبيّن البحارة أن السمك الصغير كان يحيط به من كل جهة كثير من أفراس البحر التي كانت تعمل بسرعة متناهية في أكل تلك الكتلة.

العجيبة الثانية: الفحم وعجائبه: إن الفحم الحجري يقطر ويستخرج منه غاز الاستصباح، ومعنى هذا أن الفحم يوضع في أفران ويوقد عليه ويخرج منه جسم هوائي لطيف دخاني، وذلك الجسم الدخاني يجري في أنابيب تمتد في المدن وتوقد بها المصابيح، وذلك بأعمال وشروط خاصة لا يسعها المقام، وبتلك العمليات يخرج منه قطران بواسطة مرور ذلك الغاز على ماء في أوان مخصوصة في طريقه، كما يمر دخان التبغ في الأعواد التي يشرب فيها الناس الدخان، ثم تكون بعد ذلك بالتدريج غير القطران أنواع من الزيت الطيار، ومن أنواع هذه الزيوت يستخرج أمور عجيبة مثل البنزين والإتيلين وحمض الفينيك والأنتراسيين.

ثم وصل ما استخرجه العلماء من ذلك القطران ونحوه من هذه المادة الفحمية ثلاثمائة مادة، ولكن أهمها: البنزين، والسيلين، والنفتالين، والفنيول، والكريسول، وهناك مواد أخرى من هذه الثلاثمائة هي أساس الأصباغ، أي: أنواع النيلة، وأيضاً هي أساس جواهر أخرى مفيدة للطب وللتجارة.

فيا عجباً كيف خزن الله الفحم الحجري في الأرض آلاف آلاف السنين، ثم كيف أبرزه في هذه الأيام؟ ثم كيف جعل منه نور بيوتنا بما يسمى الغاز الذي يجري في الأنابيب ويضيء الشوارع، ومنه يكون حمض الفينيك الذي يطهر الأمكنة، وهو سم ناقع قتال، ومنه تكون الأصباغ وألوان الثياب المختلفة وأنواع الطب والتجارة، أليس هذا هو المخزن الذي خزنه الله؟.

فيا سبحانك اللهم، خزنت الفحم في الأرض دهوراً ودهوراً، وأظهرته فأجريت به القاطرات، وأنرت به البيوت والطرقات، ونظفت به القاذورات، وأجريت بالبنزين منه العجلات، ولونت به الثياب الغانيات، وأفدت به في الطب صحة المخلوقات ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]. فهذا هو المخزن وهذه هي المخزونات.

يا الله، كما خزنت الفحم قروناً وقروناً وأفدت به الأمم اليوم عموماً، هكذا خزنت في القرآن خزائن وحفظتها للمسلمين في الأجيال المقبلة.

وهانحن الآن يا الله تفتح خزائنك للمسلمين كما فتحت خزائن الأرض وأبرزت جواهرها للعالمين، وإني لأرجو وآمل أن ينتفع المسلمون بخزائنك الأرضية متى عرفوا أنك منحتهم هذه العطية والمفاتيح في القرآن، وهاهي ذه نفتح بها ما انغلق على الأفهام، وحرم منه قوم ظنوا الدين بريئاً من خزائنك بعيداً عن جمال بدائعك فحرموا من الثمرات، فلك الحمد على أن فتحت الخزائن اليوم، وتشرق الأرض بنور ربها للمؤمنين، وهاهو ذا كتاب الله نور للمؤمنين، فهذا كتاب الله وهذه خزائنه، فليفرح المسلمون فهذا أوان الانقلاب والأخذ بالأسباب، فلله الحمد في الآخرة والأولى والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في الرياح وإلقاحها

هذا أنقله من كتاب «الزهرة» الذي هو مقدمة كتاب «نظام العالم والأمم» تأليفي منذ عشرين سنة تقريباً.

جمال النبات وبهجته في الأزهار ونظامها

تأمل يا أخي معي، ولعلك قد رأيت الأمثلة الأخيرة التي شرحناها الآن في تركيب النبات، وكيف وزنت بميزان منظم لا تغيير له ولا تبديل، وهكذا الجماد والأفلاك، وتأمل كيف ترى النظام بادياً على ظاهر الأوراق والأزهار في تركيبها وشكلها ولونها والحشرات الواردة عليها ونومها ويقظتها ولنشرح لك ذلك كله في هذه الرسالة الصغيرة، فنجعل لك الفائدة قبل قراءة الكتاب الكبير، وننقل لك ما قاله العلامة «جون لبك» الإنكليزي في هذا الموضوع لتقف على ما رآه الغربيون في الزهرة:

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد زانه ... زهر الربا فكأنّما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حلّ الربيع فإنّما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نوراً تكاد له القلوب تنوّر

قال العلامة ما ملخصه: كان العلماء في غابر الأزمان يذكرون في رواياتهم أن الأرواح كانت تهدي الأزهار إلى من تحبهم، أو تود مكافأتهم، عطفاً عليهم وتلطفاً بهم، وكان يظهر ذلك في بادئ

النظر أنه بضاعة مزجاة لا قيمة لها، وكيف تساوي هذه الزهرة الصغيرة الهدايا الثمينة والتحف الغالية ولكنها عند أولي الألباب قد جمعت حسناً وبهاء من جمال الطبيعة يؤدي إلى النفوس سعادة، وإلى القلوب مسرة، وإلى العيون بهجة، وإلى الصدور انشراحاً، وإلى الأفئدة انعطافاً، تفوق السعادة بها وبالتأمل في جمالها سعادتنا بالذهب والفضة والأحجار النفيسة واللؤلؤ والمرجان. يقول كاتب هذه الرسالة وقد لمح تلك المعاني من خلال سطور الكائنات وملامح جمال المناظر الشيخ صفي الدين الحلي:

ورد الربيع فمرحباً بوروده ... وبنور بهجته ونور وروده
فصل إذا افتخر الزمان فإنه ... إنسان مقلته وبيت قصيده
يا حبذا أزهاره وثماره ... ونبات ناجمه وحبّ حصيده
فالورد في أعلى الغصون كأنه ... ملك تحف به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجنيّ كأنه ... طرف تنبه بعد طول هجوده
والسحب تعقد في السماء مآتماً ... والأرض في عرس الزمان وعيده

ولنرجع إلى كلام العلامة «جون لبك» قال: فما ألذ أويقات نصرفها في الفلوات والخلوات وتأمل جمال الطبيعة والذهب المنبعث من ضياء الشمس يكسو وجه الطبيعة حلة ذهبية تسر الناظرين وليس هذا نهاية ما ترتاح له النفوس من الأزهار، فهناك عقول ارتقت عرش العلم، ولبست تاج الأدب واستوت على ملك المعارف، وتطلعت من شرفات الحكمة، فنظرت في بساتينها أزهار جمالها، فأخذت تتأمل فيما وراء ذلك من أشكال وألوان وصور حتى وقفت على أسرارها.

ولعمري إننا إذا أدركنا سر الزهرات الصغيرات دخلنا منها إلى معرفة كثير من أسرار الكائنات. إن الوقوف على أسرار الطبيعة لا يناله إلا الذين صرفوا أوقاتهم في تحصيله، مع الصبر والعناية التامة والاحترام والمداومة أمد العمر، ومع ذلك هذا لا يغني شيئاً، ولو وهبنا مواهب قدسية وعقولاً سامية كما وهب «أرسطاطاليس» و«أفلاطون»، إلا إذا وقفنا على كلام الأوائل وحادثنا التاريخ وناجينا ما وعته الدفاتر، وقابلنا الرجال، فهناك ننال من هذه العلوم حظاً وافراً، فإن الإنسان وحده لا يستطيع أن يصل إلى ما يريد إلا بمشاركة غيره من أبناء جنسه. اهـ.

لطيفة

جلست أنا وصديق لي وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا، وكنا إذ ذاك نطل على أزهار باسمة، فاصغ إليها لتقف على جمال الأزهار ومحاسنها، وتعلم سيدي كيف حسن وضع تلك الصور الجميلة وانتظم شملها ووزنت بميزان الحكمة والاعتدال لتفهم قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩]، وكيف وزن في فروعه وأغصانه وأوراقه وأزهاره كما وزن في تركيب أجزائه فيما ذكرناه وهذا ملخص من كلام السر «جون لبك» وضعناه لك بلسان عربي مبين لتقف منه على ما تريد في كتابنا «نظام العالم والأمم». قال صديقي ونرمز له بحرف (أ) وأنا (ب):

(أ) صديقي، انظر إلى شجر السنط، والغار، والصنوبر، والصفصاف، لم جردت أزهارها عن الزينة والجمال، وجملت أزهار الأشجار المتوسطة فحسن منظرها، وتأرّج ريحها، وابتسمت ثغورها، واحتوت عسلاً صافياً في أسافلها تقتات منه الحشرات، فهل تعلم لذلك من حكمة؟.

(ب) سيدي، قد جعل الله الأشجار الكبيرة لا تحتاج إلى الرائحة الأريجة، ولا جمال الهيئة، ولا العسل، بل هي غنية عن هذا كله، أما غيرها من الأشجار فإنها تحتاج لذلك، بل لا حياة لها إلاّ بعسلها، وجمالها، ورائحتها، ولولا هذه المزايا الجميلة لانمحت من صحيفة الوجود كما ينمحي وجود النوع الإنساني بانقراض سنة التناسل بينهم.

(أ) أرجو إيضاح هذا المقام، فإن القول غامض عليّ، وكيف يكون جمال صورة الزهرة سبباً لبقاء النبات؟.

(ب) اعلم أن الزهور على اختلاف أجناسها وتباين أشكالها وتنوع أصنافها يحتاج بعضها إلى بعض، فمنها ما خلق الله فيها الطلع ومنها ما يقبله، وكما أن النخل فيه ذكور وإناث وطلع الأول يلقح الثاني، فهكذا جميع الأشجار ذكرانها تلقح إناثها، فمثل الورد والرمان تلقح بواسطة الحشرات، والحشرات لن تتعب أجسامها وتطير في الهواء بلا داع يدعوها إلى ذلك، وهل من باعث أقوى من العسل الذي تشربه من أسفل الزهرة، والرائحة التي تدلها عليها وقت الغلس، وجمال اللون وبهجته التي تهديها في أوقات الضياء والنور.

أما الأشجار الكبرى كالصنوبر والغار فإنها اكتفت بتدبير آخر، وهي الرياح التي سخرت تحمل اللقاح من ذكرها لأنثاها، وقد دبر الله ذلك اللقاح فجعله كثيراً جداً، حتى إذا حملته الرياح وتبعثر منه أهم أجزائه فما بقي كفى إناث الأزهار من ذلك النوع، وإذا كان بعض الزهر فيما لا يحتاج إلى الريح قد تخرج الواحدة منه ما بين ثلاثة وأربعة ملايين خردلة من اللقاح، فما بالك بما يحتاج للريح، فلا بد أن يكون أضعاف هذا بما لا يتناهى، وبهذا التدبير في الأولى والآخرة تخرج الأثمار والحبوب، ويخلق شجر آخر، وقد شوهد في بلاد «اسكتلندة» غبار من طلع بعض الشجار يمر في الهواء كأنه سحب تزجيها الرياح، ثم يؤلف بينها ثم تصير ركاماً، ويراها الناس بأعينهم تلقح إناث تلك الأشجار كما ينزل المطر على الأرض فتحيا بعد موتها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[الحجر: ٢٢].

ومن معاني هذه المادة الحمل، فهاهي تحمل الماء واللقاح والأصوات لتصل إلى الأرض والأزهار والآذان، وهذا كله يجري ونحن ساهون لاهون، والقوم في بلادهم تبرز معاني كتابنا المقدس على أيديهم ونحن غافلون، ومدبر الكائنات من فوقنا يلقح أشجارنا ويحكم أمرنا ولا دخل لنا ولا قوة، ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[النمل: ٦٠].

(أ) هاأنت أفهمتني ظاهرة إلقاح الرياح للأزهار، ولكني لا أعلم كيف تحمل الحشرات اللقاح وهل تقصد ذلك، وهل عندها علم وإدراك حتى تنقد أثمان العسل والتمتع بالأزهار، بأن تنقل الطلع من شجرة إلى أخرى؟.

(ب) اعلم يا سيدي أن الزهرة مركبة من أوراق خضر تغلفها من الظاهر، ويسميها علماء النبات بالكأس، داخلها أخرى ملونة بالألوان الجميلة يسمونها «التويج» تصغير تاج تشبيهاً لها بتيجان الملوك المرصعة بالجواهر الثمينة، وقد علمت مما ذكرناه آنفاً أنها أرفع قيمة عند الحكماء، وفي

داخلها سوق تحمل الطلع في حصن حصين بما أحاط بها من تلك الأوراق، وفي أسافلها عسل، فترى الحشرات تلك الألوان الجميلة فتسرع طيرانها إليها ليلاً، أو تشم رائحتها في الظلام فتشرب العسل، فتلمس ظهورها ذلك الطلع فيرش عليها كالدقيق، فتذهب إلى الزهرة الأخرى من ذلك النوع فيحصل تلقيحها، ولا علم للزهرة بذلك ولا للنحلة، وإنَّما كانت تسعى لمنفعة أنفسها، وإنَّما ذلك بتدبيره تعالى، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وهذا قد كنا أوضحناه في كتابنا «جواهر العلوم»، ولكن الأمر المدهش هنا تركيب الزهرات لمناسبة الإلقاح وترتيبها وتزيينها، حتى قيل: إن الأزهار مدينة للحشرات في جمالها وعسلها.

فلعمرك لولا طواف الحشرات عليها ما منحتها يد القدرة الإلهية ذلك الجمال، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، وما الحشرات إلاَّ كنواطير البستان «بستانيين» فإن ناطور البستان يختار من أجمل الأشكال وأحسنها ليبدع في إتقانها ويزيد في تنظيمها وجمالها، فكذلك هذه الحشرات بطوافها على هذه الأشجار زينت بتلك الزينة تشويقاً لها، لكن الناطور يختار بتمييزه، وهذه بعناية الحكمة الإلهية. وأعجب من هذا تدبير أشكال الأزهار على وفق هذا الإلقاح.

(أ) وكيف ذلك؟.

(ب) تعلم أن أوراق التويج قد تنظم فتصير كأنها أنبوبة في داخلها تلك الأعضاء التي ذكرناها آنفاً، وقد يشاهد في بعض الزهر أنابيب حولها شعرات قريبات من العسل في أسفل الزهرة على جوانبها من الداخل، وتلك الأنبوبة مستطيلة ضيقة، وما ذلك إلاَّ لتنبذ كل حشرة من الفراش تريد الدخول، وذلك أن ضيق الأنبوبة وبروز تلك الشعرات كافيان في منع الحشرات من ذلك، ما عدا النحل فإنها أعطيت قوة بها تقتحم تلك الأنبوبة ولا تبالي بأسنة الوبر، وما عدا النحل من الحشرات فلا قدرة له على حمل الطلع في ذلك النبات، فلهذا منع من الدخول.

فالحكمة الإلهية قضت أن الغنم بالغرم، وإذا كان ما عدا النحل عاجزاً عن حمل الطلع في شجر مخصوص فمنعه أمر محتوم.

أوَ ما ترى الأزهار ما من زهرة ... إلاَّ وقد ركبت فقار قضيبها
والطير قد خفقت على أفنانها ... تلقي فنون الشجو في أسلوبها
تشدو وتهتز الغصون كأنَّما ... حركاتها وزن على تطريبها

وقال القاضي أبو الحسن بن زنباع:

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها ... وتسربلت بنضيرها وقشيبها
واهتز عطف الأرض بعد خشوعها ... وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت في عنفوان شبابها ... من بعد ما بلغت عتيّ مشيبها
وقفت عليها السحب وقفة راحم ... فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ... ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللاً تجر ذيولها ... من لدمها فيها وشق جيوبها
فلقد أجاد المزن في إنجادها ... وأجاد حر الشمس في ترتيبها

الكلام على الزهر

ذي الأقفال والمفاتيح، والزهر ذي الحراس، والزهر ذي السياسة الحقيقية والوهمية، والزهر ذي الجند

الزهر ذو المفاتيح والأقفال، والزهر ذو الحراس

(أ) بلغني أن في بلاد أوروبا زهراً له مفاتيح وآخر له حراس، فهل لذلك حقيقة؟.

(ب) هناك زهر يسمى «سلفس» وآخر يقال له زهر «الأشراف والنساء»، فالأول ذو المفاتيح والثاني ذو الحراس، الأول وضع الله فيه على فم الأنبوبة المكونة من أوراق التويج ساقاً معرضاً على فمها كأنه مغلاق لذلك الباب، فأي حشرة تريد الدخول عجزت عن ذلك، فإذا جاء صاحب الأمانة ألا وهو النحل أزال ذلك الساق من مكانه ودخل فشرب، وفي أثناء دخوله يكون هناك ساق آخر محكم الوضع على ظهره، يحمل الطلع فينزل عليه منه مقدار فيحمله إلى زهرة أخرى.

فتأمل سيدي كيف جعل أحد الساقين قفلاً لباب الزهرة، والآخر كأنه يد ملأى بدقيق الطلع فتضعه على ظهر النحلة، والأمر الأعجب من هذا أن هذه النحلة عينها إذا ذهبت إلى الزهرة الأنثى رأت أمراً عجيباً، رأت الأوراق العليا منها مرتفعة هي وعضو التأنيث، حتى إن تلك النحلة إذا دخلت تشرب العسل لم يتيسر لها مسّ عضو التأنيث لارتفاعه جداً، فانظر ماذا حصل، وضع في نهاية عضو التأنيث ذراع طويل إلى أن يلامس النحلة فيمسح ظهرها ويأخذ الطلع الذي التقطته ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠].

أليس هذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، كأن وجود الزوجين من النبات داع حثيث للتأمل في هذا العالم، كأنه يقول هذا أمر خفي فتذكروا وجدّوا فيه، ومتى عرفتموه قربتم من الله تعالى، وهذا بعينه ما صرح به العلامة «جون لبك» الإنكليزي: «أن من وقف على أسرار الأزهار أمكنه أن يفتح كنوزاً من الأسرار الخفية».

فتأمل وانظر كيف جدّ القوم في فتح كنوز مقفلة في القرآن، ونحن عنها غافلون. ولقد صرح به القرآن في آية أخرى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾[ق: ٧-٨] فانظر كيف ذكر الأزواج في النبات وقال إنه تبصرة وذكرى، ولكن يا للأسف إننا تركنا التبصر فيه، وإني لفي غاية العجب من هذا السر الخفي كيف يذكر في القرآن وكيف يبحث عنه علماء الغرب، وكيف يقول عالمهم إن هذا سر به تفتح أسرار الطبيعة. ألا فليتأمل معي أهل العقل والعلم وليتفكروا ولينظروا، فإني أقول هذا وأنا محترق الفؤاد على ضياع العلم من بلادنا ورضانا بالقشور ونبذ اللب، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦].

الزهر ذو الحارس

(أ) عرفت الزهر ذا المفاتيح والأقفال، فما زهرة الخفراء؟.

(ب) هذه الزهرة موضوعة على هيئة قارورة يحمل فمها شعرات واقفات، فتأتي الحشرات الصغار إليها من الذباب والفراش الجاهلات لتقيها الحر والبرد، ولا يدخلها النحل لعلمه بما فيها من

الخطر، فإذا دخل الذباب وقفت لها تلك الشعرات بالباب ومنعتها الخروج، فأخذت تثب وتسقط في وسط الزهرة، وهناك الأعضاء الملقحة الذكور وتحتها الملقحة الإناث، وقد أينعت الأولى وحان قطافها ولم يأن للثانية أن تلقح، فإذا اضطرب ذلك الذباب سقط الغبار الذي في أعضاء التذكير على ظهوره، وفي الوقت عينه تذبل تلك الشعرات الخافرات على فم الزهرة، فيخرج الذباب آمناً في سربه طائراً في الهواء ذاهباً إلى زهرة أخرى قد فعل بها مثل هذا، فيدخلها للاحتماء بها، فيقع الطلع على الأنثى ويخرج الذباب آمناً مطمئناً، أليس هذا مما صدق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢-٣].

هذا وبعض الزهر تفتحه النحل بأرجلها فتشرب العسل ثم يقفل على الطلع ليحفظ حتى تأتي نحلة أخرى. والزهر ذو الحارس يسمى زهر الأشراف.

الزهر ذي السياسة الحقيقية والوهمية

عجيبة عن الحشرات والنحل وأنها كالدول في السياسة

جعل الله تعالى في الأزهار سياسة تضارع سياسة الأمم بإيهام ضعفاء العقول لتنال غرضها منهم لقصر أنظارهم، فهكذا زهرة الأشراف قد خدعت الذباب بجهله فدخل فيها احتماء بها، فلقي منها ما لقي مجير أم عامر، وكما أن النحل ذو ذكاء فلا يخدعه خادع، فهكذا لا تراه يحوم نحو تلك الزهرة الجوفاء الخاوية، بل تراه يحوم أني يجد العسل، ولم تبخل يد العناية الإلهية أن تزوده العسل وتطعمه الشهد استحقاقاً وعدلاً، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

أما الذباب فترى العناية الإلهية قد دبرت له ما يناسب جهله، حتى إنك ترى بعض الأزهار يحمل أنابيب قد توجت برؤوس كقطرات من العسل في شكلها ولونها، فإذا أسرعت إليها الحشرات لن تجدها شيئاً، وحملت الطلع ولم تنل ثمناً، فأشبهت الأمم الجاهلة المغرورة بمجرد القول دون الفعل.

فانظر كيف حوت الزهرة مجمل علم السياسة، وكيف ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧-٨].

الزهر المنظم كالجند

(أ) قد سمعت أن في بلاد أوروبا زهراً له ثلاث صفوف تقف بانتظام على ثلاثة أيام، كل صف في يوم، فهل عندك علم بذلك؟.

(ب) اعلم أن هناك زهراً أصفر ذا ثلاث صفوف، كل صف خمس زهرات، فترى أول صف فيها يظهر مساء مظهراً جمال صفرته في غسق الليل لتأتي الحشرات إليه سراعاً، وترى رائحته تتأرج فتأخذ الحشرات منها حظها، فإذا انفلق عمود الصباح وأضاءت الشمس رأيتها ذبلت وأصبحت هشيماً كأن لم تكن بالأمس، يظنها من رآها أنها؛ أي الشجرة؛ قد أدبر شبابها وأقبل هرمها، فإذا كان مساء اليوم الثاني رأيت الخمس الأخر التي كانت مغمضة الأجفان قد استيقظت من نومها وبعثت من مرقدها وقامت بالمظهر الذي فعلته ما قبلها، ورجعت الشجرة كالعروس تتجلى في الظلمة حتى تتزود

الحشرات من طلعها كما كانت في اليوم الأول، فإذا جاء صباح اليوم الثالث ذبلت، وفي المساء الثالث تظهر الإناث منتظرة الحشرات محضرة لها الطلع من زهر آخر، كما حملته من ذكور هذه الشجرة في اليومين السابقين، وهذا من فوائد تلقيح الحشرات بحيث إن الأنثى من زهرة تلقح من ذكور الأخرى وبالعكس.

زهر عجيب محكم التركيب

(أ) من الورد نوع يشاهد الناس في زهره أنابيب التذكير مستطيلة تساوي أوراق الزهرة في الطول، وأنابيب التأنيث تصل إلى نصف تلك المسافة، وأزهار أخرى من ذلك النوع بالعكس، فترى أنابيب التأنيث تستطيل إلى أطراف أوراق الزهرة وأعضاء التذكير على النصف من ذلك. لو نظرنا مائة شجرة من هذا النوع لوجدنا النوعين من ذلك الزهر متساويين، بحيث تكون ذات الإناث الطويلة تساوي في العدد ذات الذكور الطويلة، فهل تعرف سيدي هذا؟.

(ب) إن هذا الزهر وضع مناسباً للنحل، وذلك أن النحلة إذا مدت خرطومها الطويل وصل إلى أسفلها لشرب العسل ولامس عضو التذكير الطويل، فحمل منه طلعاً، فإذا راح إلى ذات عضو التذكير القصير أخذت الأنثى المستطيلة ذلك الطلع لمرور الخرطوم بحذائها لمساواتها الأوراق، وهكذا في الأعضاء القصيرة، فيأخذ النحل بخرطومه من كل عضو إلى ما يناسبه في الزهرتين.

فتأمل كيف تساوى عدد النوعين من هذا الزهر، وتعجب كيف كان طولها واحداً في جميع الأزهار إما للأنصاف أو للنهاية، وكيف كان خرطوم النحلة إذا لامس عضواً في زهرة يلامس نظيره في الأخرى بحيث لا يختل شعيرة في مقدار طولهما.

ولعمري لو سئلت هذه الزهرة لقرأت بلسان الحال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ولو سئلت تلك النحلة لقرأت: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، ولقرأت: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، إذ أنه تعالى وضع مقداراً لكل شيء في أم الكتاب عنده، فلا يضيع حشرة ولا دابة ولا حيواناً صغيراً ولا نباتاً حقيراً ولا زهرة، ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

نوم الزهر

(أ) رأيت في بعض الكتب أن الزهر ينام، فهل لهذا حقيقة وإذا صح فلم ينام؟ النوم في الحيوان سببه معروف، وليت شعري ما سبب النوم؟ يجدّ الحيوان في قوته ويتعب في تحصيله، فإذا جنّ الليل خارت قواه فتعب فنام، أما النبات فما سبب نومه؟ وبعض النبات لا ينام أبداً، وآخر ينام صباحاً ويستيقظ مساء، وآخر بالعكس، ومن الأول ما يستيقظ في الساعة الرابعة صباحاً أو السابعة أو الثامنة أو التاسعة أو العاشرة، ثم تغمض أجفانها بعد الظهر في أوقات مختلفة، إما في الساعة الثانية أو الثالثة أو الرابعة وهكذا، ما الحكمة في ذلك؟.

(ب) يختلف نوم الزهر وانطباق أوراق الزهرات باختلاف الحشرات التي تأكل منها؛ فالنحل يعتاد اليقظة نهاراً؛ فترى الأزهار التي خصصت له تفتح عيونها نهاراً حتى يشرب منها العسل رفقاً

بالفريقين ومنفعة للطائفتين، أما الأزهار المخصصة للحشرات الأخرى فلا تفتح أوراق أزهارها غالباً إلاّ مساء في الغلس، إذ لتلك الحشرات غدوات وروحات في ذلك الحين، فلا جرم تفتح لها.

ولعمرك لو عكس الأمر فانفتح النهاري الصباحي بالمساء، والمسائي بالصباح، لسرق العسل، فأخذه ما لا يبذل له ثمناً ممن يخصص لذلك العمل، ويعتدي كل فريق على ما للآخر، فيتضرر الحيوان ولا يلقح النبات، فتمت الحكمة.

فمفاتيح هذه الأزهار بيد القدرة الإلهية تفتحها وتقفلها، لا دخل للشمس ولا للقمر فيها، وإلاّ فلماذا تنام الزهرة المسماة «حنا ذهب لينام» في وقت الهجيرة، حتى إن أولاد الفلاحين في أوروبا يعرفون مواعيد الغذاء بنومها، فلو كان للشمس دخل في تفتيح الأزهار لكان أولى الأوقات بانفتاحها وقت الظهيرة، والحشرات تختلف أوقات قيامها لطلب معاشها في ساعات النهار، فكل زهرة تفتح في الوقت المعين لحشراتها التي خصصت لها بالحكمة الإلهية. وكأن الشاعر العربي الأندلسي نظر لهذا المعنى فقال:

وعلى سماء الياسمين كواكب ... أبدت ذكاء العجز عن تغييبها
زهر توقد ليلها ونهارها ... وتفوت شأو خسوفها وغروبها

«ذكاء»: الشمس، وهذا باعتبار المجموع لا الجميع.

(أ) من الأزهار ما هو أحمر وأصفر وأبيض وأزرق، فهل لهذا من حكمة؟ وبعضها ذو ريح دائماً والآخر لا تذكو رائحته إلاّ وقت المساء. ينسب إلى عنترة العبسي هذه الأبيات من زهرية له:

زار الربيع رياضنا وزها بها ... فنباتها حليت بأنواع الحلي
يزهو بأحمر كالعقيق وأصفر ... كالزعفران وأبيض كالسنجل
وبنفسج يزهو إذا عاينته ... آثار نقش في ذراع ممتلي

(ب) إن الزهرات الحمر والزرق خصصت غالباً بالنحل، وهو مغرم بهذين اللونين عاشق لهما فكانا داعيين إلى الافتتان بهما، ولا جرم أن في الأحمر والأزرق من الجمال ما ليس في الأبيض والأصفر أما الآخران فإنّما يكونان في الأزهار التي تمتص منها بقية الحشرات غالباً، وقدمنا أن الحشرات أغلب ما يكون خروجها مساء، ولا ريب أن اللون الأبيض والأصفر يناسبان وقت الغلس إذ تجتلي فيه الصفرة والبياض، أما الحمرة والزرقة فسلطانهما إنّما يكون بالنهار، فاقتضت حكمته جلّ جلاله أن يتناسب الزهر واللون والحشرات في الصباح والمساء، ويتجلى البياض مساء والحمرة والزرقة نهاراً، وهكذا تلك الزهرات الصفر والبيض تذكو رائحتها مساء لتهدي إليها حشراتها وتساعد الرائحة اللون على جذبها، ولو أبدل البياض بالحمرة لم تعرفها الحشرة، أو لم تذك الرائحة لضعف الداعي:

تأمل في رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... على ورق كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

نهاية

نقل السر «جون لبك» عن «أرسطاطاليس» اليوناني أنه شاهد أن النحلة تذهب من زهرة إلى أخرى من نفس ذلك النوع، وقال إنها منفعة للفريقين: النبات والنحل، أما النبات فإن الطلع الذي

من الذكر لا يضيع بسقوطه على زهرة من نوع آخر، وأما منفعته للنحلة فإنها تعرف طريقها ولا تغيره ولا تضيع الزمن في أخذ دروس جديدة عن كل زهرة، وتجارب حتى تضيع وقتها ويذهب زمانها سدى، وهذا بعينه ما قاله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٦٨-٦٩]. فقوله: ﴿ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ أي: إن طرق ربك في الأزهار مسهلة لك من الله لا تلتبس عليك لأنها من نوع واحد من الأشجار التي أرادتها في الزمان المخصص لها، والله أعلم.

وإني لموقن أن هذا هو عين التوحيد، وكيف يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]، وترى جاهلاً يقول: هذا خارج عن الدين، مع أنه لا يقين ولا إيمان إلَّا بمعرفة هذه البدائع، وهذا سر تأخر المسلمين اليوم عن مصافّ الأمم، وعندي أنه يجب على علماء الإسلام قاطبة أن يتعلموا هذه المعارف التي أجلها علم الكيمياء، والطبيعة التي هي سر التوحيد.

ويا ليت شعري كيف انعكست الأحوال وأصبح ما هو أصل الدين خارجاً عنه، حتى ظن المسلمون أنها خاصة بالإفرنج، وفي كتابنا هذا وكتبنا السالفة ما فيه غنى للأذكياء، فمن أرادها للعلم فبها ونعمت، ومن أرادها لليقين فهو أفضل. ولقد أطلنا في الزهر وعجائبه وغرائبه ووضعناه في قسم النبات تعجيلاً للفائدة وإحضاراً للمسرة في الأذهان. انتهى ملخصاً من كتاب «الزهرة» الذي هو مقدمة كتابي «نظام العالم والأمم».

فائدة في الحلم

إنني في هذه الليلة ليلة الأحد التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما أنا أكتب في هذه العجائب بعد العشاء، إذ أخذتني سنة من النوم، فاستغرقت حالاً وأنا غير متأهب للنوم ولا متدثر، ومن عادة النوم إذا فاجأني على تلك الحال أن يصيبني فيه برد، وأكثر ما يصيبني المرض من أجل ذلك، فانظر ماذا حصل؟ شعرت في النوم كأني سائر في الطريق ناحية «الجمالية» بمصر، وعليّ ثياب نظيفة بيضاء وفوقها سربال بني اللون مخلولق تستبين منه الثياب، صرت أشعر في الطريق بأمرين معاً: البرد الشديد والعار من كون الثياب غير لائقة، وقد وقع في نفسي أني سأقابل صديقاً في محطة القاهرة، وأنه سيلاقيني بهذه الثياب التي لا تليق، فهذه ثلاثة أشياء: برد وخجل من الناس وخجل ممن سأقابله، فوق ذلك ندم على أني تركت عباءتي، فهذه الأربعة اجتمعت في نفسي، ولما لم أستيقظ مع هذا كله جاء كلب أسود سريعاً ليقدم على عض رجلي، هنالك استيقظت وعلمت أن ذلك للمحافظة على صحتي فتدثرت حالاً وصليت العشاء ونمت هادئاً.

لعلك تقول: وأي علاقة لهذا بالزهرات في الشجرات، ولم تكتب حلماً لا تفسير له؟ أقول: إن هذه الأحلام التي في الحقيقة أضغاث لا تأويل لها قد أعطتني درساً أرقى من الدرس الذي كتبته الليلة في الزهر والإلقاح وأرقى جداً.

(١) أن هناك تدبيراً تاماً لحفظ أجسامنا.

(٢) أن قوتي العاقلة نائمة، فمن ذا الذي دبر هذا كله حتى أيقظني.

(٣) أن هذا العمل ناتج من قوة عاقلة .

(٤) لنقل إن البرد الذي في المنام هو الذي أحس به ، فما الذي أحضر لي الملابس المخلوقة لتحدث عندي خجلاً لأستيقظ .

(٥) ومن ذا الذي وضع في نفسي أني سأقابل صاحباً أخجل أمامه لثيابي الرثة .

(٦) ومن ذا الذي أحضر صورة كلب ليكون أدعى إلى استيقاظي خوفاً من نجاسته ومن عضه .

(٧) وإذا كنا نرى في مسائل الزهر المتقدمة أن الذباب يضغط عليه البرد فيفر داخلاً إلى الزهرة المجوفة ، وهناك يضطر لحركات توجب عملاً نافعاً للإلقاح ، أفليس ما هنا أدق وأحسن صنعاً ، وأن الحيلة هنا أتم ، لأنها مركبة من أعمال خيالية أثرت في النفس فأيقظت الجسم .

إن هذه أضغاث أحلام ولكنها أعمال معقولة منظومة ، كما قال تعالى : ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[الطارق : ٤] ، وقوله : ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد : ١١] ، وما يدرينا أن تكون هذه الأضغاث قد ألقيت إليّ لأضعها هنا وأقارن فيما بينها وبين الحيل العجيبة المختلفة في عالم الزهر وإلقاحه ، ولتكون باباً لاستخراج أهل العلم ما في نفوسهم من الكنوز التي تمر عليهم وهم عنها غافلون .

وكأن الله بهذه يقول لنا : أنتم نظرتم في النبات والزهر ، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢١] . ويقول الله لنا : كيف غفلتم عما فيكم من العجائب وأنتم أرقى من الزهر والنبات . ويقول : إنا لما عذبناك في حال نومك بالبرد وبالخزي من الفضيحة الحالية والمستقبلة وبإرسال كلب عقور عليك ، وبندمك على أنك لم تلبس عباءتك ، لم يكن ذلك التعذيب منا غضباً حقيقياً وإنّما هو رحمة ، هو في ظاهره عذاب وفي باطنه رحمة ، هو في ظاهره أننا سلطنا عليك كلابنا وآذيناك بالبرد وأعريناك وأخزيناك ، وفي الباطن أيها العبد أزحنا عنك أسباب المرض بيقظتك وراحة بدنك وصحتك لتتوفر على هذا التفسير الذي أردنا أن يخرج على يديك لعبادنا ، كما أريناك في المنام من عشرات السنين وأخبرناك به ، وألهمناك أنه سيكون للمسلمين شأن بعد ظهوره ، فهانحن أيقظناك وساعدناك ، فهل هذا عذاب ؟ كلا ، بل هو نعمة ، وإذا فهمت هذا أيها العبد فقل لعبادي كل عذاب أنزلته بكم في الأرض فهو كعذابك الذي رأيته ، فـ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[الحجر : ٤٩-٥٠] ، وما ألمه إلاّ على هذا النحو ، فما ناري ولا إيلامي لبني آدم إلاّ لإسعادهم وراحتهم ، وحاشا أن أفعل غير ذلك ، « إن رحمتي سبقت غضبي » ، وانظر قولي : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] .

نعم إن هذا سيشكل عليكم في مسألة عذاب الكفار ، ولكن في عذابهم سر لا تعرفونه إلاّ بعد ارتقاء نفوسكم ، وهناك تفهمون .

هذا هو الذي خطر بالنفس بعد هذا الحلم كتبته تذكرة للإخوان ليعلموا أن الله معهم ، وأنه مع كل نفس ، ولكن أكثر الناس لا يلحظون مثل هذا ، وفي نفس كل امرئ من العجائب التي تمر عليه وهو يزدريها أضعاف أضعاف ما يتصوره في الكتب ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور : ٤٦] .

انتهى .

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

مع قوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن من أعز النعم وأشرف المزايا وأسعد الأحوال أن يقف الإنسان على الحقائق، وتتصل العلوم وتتحد ويعمها ناموس واحد، هذا هو نهاية مقاصد هذا النوع الإنساني.

إن شعور النفس بالحقائق الثابتة ابتهاج لها وسعادة قصوى، أنا أكتب هذا وفي النفس من البهجة والجمال والسرور ما لا حد له، أنا لا أقدر أن أصف شعوري وبهجتي حينما أردت أن أكتب هذا الموضوع، ألا حيا الله العلم والحكمة، وإني أسأل الله عزّ وجلّ أن يجعل إشراق العلم عاماً في الأمم الإسلامية حتى يتبوؤوا مقاعدهم في الحياة الدنيا بين الأمم وفي العالم الباقي بعد مبارحة هذه الدار.

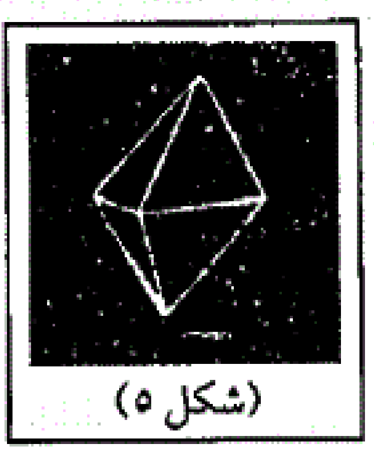
هاأنا ذا الآن أدخل في موضوع الآيتين، ولكن علام أتكلم ومن أي علم أقتبس؟ أما الذي وقر في نفسي الليلة فهو عجائب السوائل التي تتكون وعجائب الجوامد التي تكون بهيئة بلورات منتظمة، وذلك أن بعض المواد إذا ذويت ثم أعيدت جوامد تأخذ هيئات هندسية منتظمة قانونية، وهذا العمل في عرف علماء الطبيعة يسمى تبلوراً، فهذه كلمات اصطلاحية، ومثاله ما تقدم في أشكال الثلج المسدسة المذكورة في سورة «الرعد»، وهناك أشكال أخرى في سورة «آل عمران»، ولكن الأولى أجمل وأوضح شرحاً وبياناً، ولأذكر لك منها مسائل فأقول:

(١) مثال السائل المذكور إذا مزجت ماء بالكحول وألقيت في هذا المزيج نقطة من الزيت فإنها تثبت في وسطه وتصير بهيئة شكل كروي، وهكذا كل سائل ترك وشأنه يكون على هيئة كروية كقطرات الندى والمطر والزئبق، ذلك بسبب جاذبية الملاصقة، وجاذبية الملاصقة خاصة بالمادة التي من نوع واحد كالماء وكالزيت وهكذا، فجاذبية الأرض لا تؤثر بل المؤثر فيها دقائقها مع بعضها فتصير كروية.

(٢) إن كل نوع من المادة له بلورات ذات شكل وزوايا خاصة، فمن المواد ما بلوراته دقيقة إبرية وزواياه صغيره، وبعض آخر بلوراته مكعبة وهكذا، ومن أذاب أجساماً مختلفة في إناء واحد ثم جمدت وبحث فيها، أمكنه تمييز بعضها من بعض بأشكالها، بل يعرف ذلك وإن لم يعرفها حين إذابتها إلاّ أن هذه الأشكال متقنة الصنع بديعة النظام، جميلة الهيئة حسنة الوضع، يحار فيها اللب، ويعجب اللبيب من الألماس البديع، والعقيق البهي، والياقوت، وسائر الأحجار الكريمة، ففيها من دقة الصنع وغرابة الوضع ما يدهش الألباب.

وإذا أردت أيها الذكي اللبيب أن تطلع على ذلك فهناك ثلاثة أمثلة:

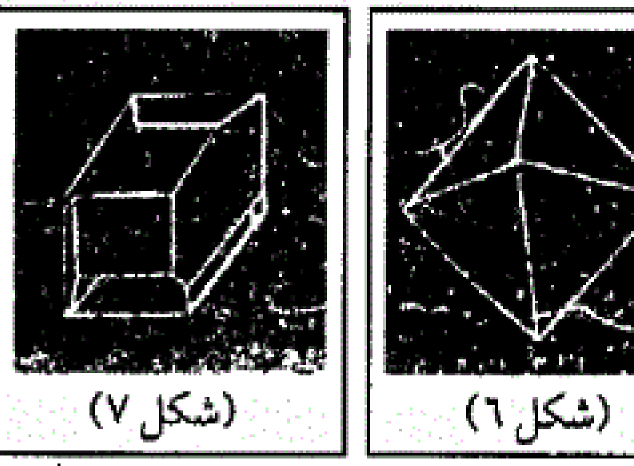
المثال الأول: ركب كأساً صينياً أو بلورياً على منصب حديد وضع فيه عشرة دراهم ماء، واغل الماء بقنديل الكحول، ثم اجعل فيه حوالي عشرين درهماً من الصودا الكاوية، إذن ترى الصودا تذوب جميعها في الماء الحار، ثم أطفئ النار واتركه حتى يبرد، هناك ترى بلورات على هيئة منتظمة مختلفة المقادير مع حفظ الشكل كما في شكل ٥.



(شكل ٥)

المثال الثاني : أعد العمل واجعل بدل الصودا شباً أبيض، فتكون البلورات على حسب هذا الشكل ٦ .

المثال الثالث : فإذا أعدت العمل بالشب الأزرق «كبريتات النحاس» بدل الشب الأبيض فإنك ترى البلورات تتكون على هذه الهيئة شكل٧.


(شكل ٦) (شكل ٧)

ثم إنك إذا مزجت ٦ دراهم مثلاً من مسحوق الشب الأبيض مع مثلها من الشب الأزرق ومزجت المسحوقين معاً في هاون، ثم ذوبت الجميع في عشرة دراهم من الماء الحار، فإذا تركته حتى يبرد أمكنك تمييز بلورات الشب الأبيض بهيئتها من بلورات الشب الأزرق بهيئتها، وبهذه الطريقة وهي أن كل مادة لها هيئة بلورية خاصة، ترى كل مادة لا يمكن أن تخلع شكلها وتلبس غيره، وقد ذاب في الأرض من قديم الزمان أنواع بلورات من السليكا والماس والياقوت والجمشت والفلور، ويمكننا أن نضع مثل ما تقدم من ملح البارود وملح الطعام، فأما ملح الطعام فقد تقدم شكله في آخر سورة «آل عمران»، وأما ملح البارود فإنه يتكون على هيئة إبر منشورات .

إن الإنسان ليعجب جد العجب من أنه يرى أمثال العقيق؛ كما تقدم؛ وسائر الأحجار الكريمة كلها بهيئة منتظمة صاغها الله وأبدعها وأحسنها ونظمها، وهكذا قطع الثلج كما تقدم، وقد يظن الإنسان أن الصقيع وقطع الثلج على الأرض ليس لها نظام كالذي ذكرناه، ولكن إذا تأمله الإنسان ألفى ما هو متجمد متكاثف على الأرض مركباً من بلورات متقنة الصنع غريبة الشكل حسنة الهيئات وهكذا من يراقب سطح الماء وهو آخذ في الجمود يرى البلورات فيه تظهر من جوانب الوعاء مرتبة في أشكال حسنة .

قال صاحب كتاب «فلسفة الطبيعة»: وأكثر تراب الأرض مؤلف من بلورات متكسرات أو متحللة من تأثير الماء والصقيع ونحوهما، هذا ما أردت ذكره في هذا المقام .

ألا فلتعجب أيها الذكي أشد العجب، وكيف لا تعجب من عقول بني آدم ؟ هؤلاء الذين يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يعلمون، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١] .

اللهم إنك أنت الذي خلقت الجمال وجعلته يا الله محيطاً بنا من كل جانب، وأفرحت قلوبنا وشرحت صدور جهالنا وعلمائنا معاً للأحجار الكريمة والمناظر البهجة، كل ذلك منك لتلفت عقولنا إلى الجمال والحكمة والنظام الذي أنزلته، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١]، يعلمون ظاهراً من الحياة الصغيرة، حياة الحيوان من مأكل ومشرب وزينة، فيتزين المرء بالأحجار الكريمة وقلبه خال من زينة العلم، فهو عن الحقائق المودعة في تلك الزينة من الغافلين، والحقائق هنا تلك الأشكال المنتظمة، نحن نرى الثلج ونضعه في الماء ليبرده، ونحن لا نفكر أن هذا الثلج أشكال منظمة متراكمة بعضها فوق بعض كأنها قطع من الماس .

اللهم إنك قد أحطتنا بالجمال في العوالم التي حولنا، وأريتنا في الصودا الكاوية المتقدمة بلورات على هيئة هرمين سطوحهما متساوية بينهما قاعدة واحدة مستطيلة وهما مائلان عليها، وأريتنا

في الشب الأبيض هيئة الهرمين المتساويين، ولكنهما قائمان على القاعدة المشتركة بينهما، وأريتنا في الشب الأزرق شكلاً مكعباً، وأريتنا في الثلج شكلاً مسدساً، وهكذا من أشكالك البديعة في نظام الأحجار الكريمة.

يا الله هذا هو قولك: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾[الحجر:٢١] الآية، هذا هو التقدير والميزان المنصوب، وهذا هو الحكمة والحفظ في آيات تعد بالعشرات كلهن ناطقات بحكمتك وعدلك ونظامك.

اللهم إن هذا كله مستمد من اسمك الحفيظ، فأنت واضع الميزان في العوالم، وأنت الحفيظ، وهذا الحفظ وهذا الميزان هما المعبر عنهما في الطبيعة بكلمة «جاذبية الملاصقة»، فجاذبية الملاصقة التي وضعتها في الماء وفي العقيق وفي الشب الأزرق والأبيض والصودا الكاوية، هي التي نسميها الحفظ والوزن في قولك: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨]، ونسميها الإمساك في قولك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾[فاطر: ٤١].

اللهم إن الفراغ لا نهاية له وهكذا الزمان، الفراغ الذي وضعت فيه كواكبك لا آخر له، وهكذا الزمان لا أول له ولا آخر، فهذه المخلوقات لو تركت وشأنها لتبددت، ولكنك أنت جعلت في المادة قوتين: قوة الجذب وقوة الدفع، فالحديدة لا نقدر على فصلها كما لا تقدر على ضغطها، مع علمنا أن الفراغ في داخلها عظيم وهي المسام، كما أوضحناه في غير هذا المقام، ويمكننا أن نقوي قوة الدفع بالحرارة، فهناك يقل الجذب ويكثر الدفع ويصير الحديد سائلاً، وإذا أبطلنا الحرارة قويت قوة الجذب فرجع جامداً، ومثل هذا يقال في الماء والثلج، وقوة الجذب من أهمها قوة الملاصقة المذكورة وهي التي بها تبقى الأجسام محفوظة، هذه الملاصقة إذا قلت أصبح الجسم سائلاً، وهكذا إذا زاد نقصها أصبح غازاً، فهذه القوة بقلتها وكثرتها كانت الجوامد والسائلات والغازات، ومن قوى الجذب قوة الالتصاق وهي التي تكون بين جسمين مختلفين مثل الجاذبية الشعرية التي في الورق النشاف والتي في جذور النبات. ومثل هذا الجاذبية العامة كجاذبية الأحجار الساقطة على الأرض المشروحة في أول «آل عمران» بإيضاح وحساب.

اللهم إن هذا هو النظام العام في السماوات والأرض، نظام واحد، تدخل في الذرة وفي الجبل وفي الكوكب، وفي كل شيء، وهذا هو نفسه قولك في هذه السورة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

اللهم إنه لا فرق بين ذرات القطرات المطرية في اتحادها وتكونها كرة، ونقطة الزيت فوق بعض السوائل، والهرمين المتكونين من الشب الأزرق والأبيض، المختلفين من حيث الميل والقيام والشكل المكعب في غيرهما، والشكل المسدس في الثلج.

أقول: لا فرق بين هذه كلها وبين انفصال المجرمين من الصالحين، أنت تقول: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[ص: ٢٨]، وتقول: ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[يس: ٥٩]، وتقول: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الدخان: ٤٠]، وتقول: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾[الشعراء: ٩٤-٩٥]، وتقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[الطور: ٢١].

اللهم إنه لا فرق بين الآخرة والأولى، لا فرق بين الدارين، هاهي ذه القطرة من المطر تتجاذب ذراتها وتتحد فتصير كرة ولا تطيح في الجو، أليس هذا بعينه قولك: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[الصافات: ٤٤] ولماذا هذا؟ لأنهم متجانسون، فهنا نسميها في أشكالنا الطبيعية «جاذبية الملاصقة»، وهي إحدى الجاذبيات الثلاث، والأخريان «الجاذبية الكيمائية» و«جاذبية الالتصاق» كما تقدم، ولكنها بالنسبة للنفوس البشرية تشاكل الطباع والأخلاق كما قلت ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، وقلت: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[الصافات: ٢٢] الخ، فهناك تجمع الأشكال إلى أشكالها معاً، وتوضع في الأماكن المعدة لها، كما نرى الأشكال عندنا، تمتاز العناصر حتى إنك ترى في عملية وضع الأشكال المختلفة وغليانها فيما تقدم تصير متمايزة إذا بردت، فيمتاز كل نوع بالشكل الخاص به، كما قلت في كتابك: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء: ٨٤]، وفي المثال العربي: «إن الطيور على أشكالها تقع»، هناك أمر عام جمع الأشكال المتماثلة وتفريق المختلفة.

هذا هو الذي نراه فنرى الناس يذرون القمح في الهواء فيصير براً معزولاً عن التبن، ونرى الرمال متراكمة في الصحراء، والماء مجتمعاً في أمكنة خاصة نسميها البحار، والهواء فوق الماء، فكل طائفة من عالمنا نراها مجتمعة لأجل المشاكلة.

فإذا عاش الناس في هذه الأرض وهم عمي عن هذا الجمال، فإنهم أولى بعالم الذرات والبهائم ولا حظ لهم في الإنسانية، لأن الإنسان أعطي عقلاً به يميز الجميل من غيره، والحسن من القبيح، فإذا مات وهو لم يدرس ما استعد له بعقله تنزل إلى أدنى دركات الحيوانية، لأنه جهل المقصود من وجوده فعلم ظاهر الحياة؛ وهو أن يعيش بما يغذيه، وجهل حقائقها التي تنبئ عن سر خفي ونظام بديع يرشد النفوس إلى عالمها، وهؤلاء هم الذين قيل فيهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾[الروم: ٧]، وعالم الآخرة هو سر عالم هذه الدنيا، لأن هذا الجمال الذي رأيته في هذه العجالة هو السر الذي تعشقه النفوس، وبه تصير أعلى من المادة وتستأهل أن تكون ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[القمر: ٥٥]، وتحب أمثالها وتعيش معهم بسلام كما في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[الحجر: ٤٧] الخ. انتهى.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

إلى قوله:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وموازنته بلغز قابس في أن جهل الخير والشر هو سبب شقاء الناس

اعلم أن هذه القصة ذكرت في القرآن مكررة بطرق مختلفة، وقد جاءت في التوراة أن هذه القصة يتلوها ويؤمن بها نحو نصف النوع الإنساني وهم اليهود والنصارى والمسلمون، كل هؤلاء يؤمنون بأن آدم وحواء قد أغواهما الشيطان فأكلا من الشجرة، وهذه الشجرة لا تعيين لها، وأعم قول رأيته فيها أنها شجرة معرفة الخير والشر، وهنا أقول:

إن الله عزّ وجلّ بذر العلوم والمعارف في أرضنا بذرا، ونشرها نشراً، سبحانك اللهم وبحمدك أريتنا عجائب صنعك في نباتك وحيوانك وشموسك وأقمارك، فدهشنا لتفننك فيها وإبداعك، ورأينا أنك لم تذر صغيرة ولا كبيرة من هذه المخلوقات إلا وزنتها ونظمتها وراعيتها حق رعايتها، وهاهو ذا النوع الإنساني قد أريته هذه المخلوقات جميلة المحيا، بهجة المنظر، تريد بذلك شوقه لها وشوقه لعلمها، ومن أبدع ما صنعته أنك ألقيت لهم الحكمة العملية من طريقين: طريق الدين، وطريق الفلسفة بهيئة لغز واحد.

أنزلت يا الله هذا اللغز في أرضك على ألسنة الفلاسفة وعلى ألسنة الأنبياء، فأما الأنبياء فللمؤمنين بهم، وأما الفلاسفة فلمن نظروا بعقولهم، إذن أنت أنزلت علم الحكمة النظرية على جميع الناس مقلدهم ومفكرهم وجاهلهم وعالمهم. فقلت لأتباع الأنبياء إن آدم وحواء أكلا من الشجرة فطردا من الجنة وأصبحنا نحن في الأرض نذوق العذاب ألواناً فيها وتركتها للناس يقرؤونها ويفهمونها وألهمت فلاسفة اليونان؛ كما سيأتي في سورة الإسراء؛ أن يقولوا في خرافة يتناقلونها كابراً عن كابر «إن سفينكس كانت تلقي ألغازاً على الناس الذين يمرون عليها، فمن فهمها تخلص منها ومن لم يفهمها قتلته فتقول لهم ما الخير وما الشر، وما الذي ليس بخير ولا بشر» وقد جاء في الكتاب المنسوب إلى «قابس اليوناني» المعاصر «لسقراط» المسمى بـ«لغز قابس» أن قابس كان يتمشى في هيكل «زحل» فرأى صورة غريبة الشكل قد رسم فيها حظائر ما بين كبيرة وصغيرة، وفيها صور رجال ونساء، وجموع كبيرة وأحوال مختلفة؛ سيأتي شرحها في سورة الإسراء كما قدمت لك؛ فجعلوا هذه الصور هي لغز الحياة فمن فهمها كان سعيداً ومن لم يفهمها كان شقياً. وبعبارة أخرى: أن «سفينكس» المتقدم ذكرها وهي «أبو الهول» المشهور في مصر كان يقتل حالاً من لم يفهم لغزه ويبقى من فهم.

فأما هنا فلا يكون الموت حالاً، بل من جهل الخير والشر في هذه الصور التي رآها «قابس» في هيكل «زحل» قتله جهله قتلاً تدريجياً وهو في ذل وهوان مدة الحياة، لا كما فعلت «سفينكس» بالقتل حالاً. وملخص هذا أن أصل كل شر في الإنسان عند هؤلاء الفلاسفة هو الجهل بالخير إذ لا يمكن لذي بصيرة وعقل أن يختار الشر وهو يعلم أنه شر، وليس يختاره إلا لأنه تخيل شيئاً من الخير فيه فيرجع الشر في الإنسان إلى مجرد الغلط والقصور في العلم، وهذا المذهب تلقاه الرواقيون من «سقراط» فهم معدودون من أتباعه، فالجهل بالفضيلة هو منشأ الشر، ومن علم الأشياء على ما هي عليه لا بد أن يتبع علمه، فالحكمة عندهم راجعة للعلم والعمل معاً، فالخير عندهم قسمان: خير في ظاهره؛ وليس هو بخير في ذاته كالمال والصحة والجمال والولد والصيت؛ أي كل ما هو موقوف على العوارض الطارئة، فهذا تارة يكون خيراً وتارة يكون شراً، وذلك بحسب استعمالنا إياه، والخير الحقيقي: هو الحكمة والخلق الكريم الذي نتصف به، فهذا موقوف على إرادتنا، داخل في قدرتنا، لا يسلبنا إياه سبب طارئ، وذلك لأنه ملكة راسخة في نفوسنا لا تختلف باختلاف الأوقات والأحوال ولا يتصور فيها سوء الاستعمال، فمن فاز بذلك فقد فاز بالسعادة طول حياته، إذ لا يحتاج فيها إلى شيء من الخيرات المحسوسة الخارجة عن قدرته المنوطة بالبدن والمال وهكذا، وعلى هذا يكون الناس عندهم قسمين: حكماء سعداء، وجهال أشقياء، هذا ملخص هذا المذهب الفلسفي.

أما الشجرة التي أكل منها آدم فإنها في الحقيقة ترجع إلى هذا المعنى بهيئة أخرى، وبيانه كما قلنا إن الشجرة أعم الأقوال فيها أنها شجرة معرفة الخير والشر، وهذا هو العجب.

اللهم إنك عممت العلم ولم تقتصره على طائفة، نشرت الحقائق وبذرتها في أرضك، ولكن نوعت طرقها؛ فالفلاسفة يقولون: من جهل الخير والشر عاش شقياً، لماذا؟ لأنه يتناول الشيء ظاناً أنه خير محض فيكون شراً عليه، إلى آخر ما تقدم.

هكذا هنا آدم لما قيل له إياك أن تقرب شجرة الخير والشر، فلما قربها حصل له ولبنيه ما هو معلوم من النصب والتعب، إن شجرة معرفة الخير والشر ترجع في نتيجتها إلى ما تقدم، ولكنها عند الفلاسفة بهيئة غير ما هنا، فهناك يقال أصل الشر الجهل بحقيقة الخير والشر، ولكن هنا يقال له إياك أن تعرف الخير والشر وهذا عجب، هناك يكون الذل يتبع الجهل بالخير والشر، وهنا تكون المعرفة شراً.

أقول: إن النتيجة واحدة لأن معرفة الخير والشر في قصة آدم معناه فهم الخير والشر فهماً سطحياً ظاهرياً، والفهم الظاهري الذي يرجع إلى ما يتصوره الناس بسبب حواسهم وخيالهم هو نفسه جهل.

فالمعرفة هنا هي الغرور بالظواهر فهي معرفة ظاهراً جهل حقيقة، وأضرب لك مثلاً بضروب الشهوات من الولوع بالمآكل والمشارب، وباقي اللذات، والإكثار من المال، فكل هذا عند أكثر الناس سعادة ولكنهم فعلاً به أشقياء في هذه الحياة الدنيا وهذا معروف فلا أطيل به وإنما أذكر لك ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: إن هيئة القوى في الإنسان كهيئة شمعة كبيرة، وهذه الشمعة قد وضعنا فيها أربع فتائل، وهذه الفتائل الأربع لو أضأناها ساعة لفنيت الشمعة، ولو أضأنا واحدة فقط لكانت الشمعة لا تفنى إلا بعد أربع ساعات طبعاً.

هكذا أكثر الناس ينهمكون في لذاتهم ويعدون هذا الانهماك سعادة فيشربون الخمر ويزاولون الشهوات البهيمية ونحو ذلك، فتكون هذه السعادة الظاهرية في نظرهم القصير ضعفاً لأبدانهم وخللاً في عقولهم وضياعاً لمالهم وتقصيراً لأعمارهم، وهم نادمون.

فالانهماك في اللذات كإشعال الفتائل الأربعة في الشمعة وهو شقاء باطناً وسعادة ظاهراً، والعفة يظنها الجاهل شقاء وهي في الحقيقة صحة البدن والعقل، وسرور النفس، فهي أشبه بإشعال الفتيلة الواحدة في الشمعة المذكورة.

المثال الثاني: يقال إن علم النوع الإنساني اليوم أوسع مما تعلمته الأمم السابقة، حتى قال بعض أطباء القرن العشرين: إن الناس تعلموا في هذه السبع والعشرين سنة التي مضت من هذا القرن أكثر مما تعلمه من قبلنا في خمسة آلاف سنة في الطب، وهذا القول وإن كان فيه مبالغة لا يمنعنا من قراءة علومهم بل هو يغرينا بها، فهاك مثلاً واحداً مما قاله الأطباء في عصرنا لتبتهج وتسعد في صحتك الجسمية كما تبتهج وتسعد بصحتك العقلية فيما تقدم: يقولون إن الجسم الإنساني مركب من ست عشرة مادة:

١ ـ الجير: الذي يغذي العظم ويشفي الجروح، وهو في: الكرنب، واللبن، والجبن التي لم ينزع زبدها، والسبانخ، والبصل، والمشمش، والتين، والبامية، والطماطم، وهكذا، فهذه كلها فيها مادة الجير التي تقوي العظم كما علمت.

٢ ـ المغنسيوم : وهو يساعد العضلات ، ويمنع الفتق ، وهو في السبانخ ، والخيار ، والطماطم ، والبرتقال ، والشعير ، والذرة ، والقمح ، والليمون ، والبامية .

٣ ـ الكبريت : ينظف الدم ، وهو ضد للروماتيزم ؛ الذي هو من الأمراض الباردة وهو في السبانخ ، والقنبيط ، واللفت ، والفجل الأحمر ، والطماطم ، والقرلة ، والجزر ، والبصل .

٤ ـ الفسفور : يغذي المخ ، وهو في سمك البحر ، والخس ، وصفار البيض ، والسبانخ ، وكشك الماز ، والفجل ، والخيار ، والبسلة ، والعدس الخ .

٥ ـ الحديد : يقوي الدم ويعطيه لون الحمرة ، وهو ينفع من فقر الدم ، وهو في الكرنب الأحمر والسبانخ ، والزبيب ، وصفار البيض النيء ، والبرقوق ، والطماطم .

٦ ـ الكلورين : يساعد على الهضم ، وينظف المعدة كتنظيف الصابون للثياب ، وهو في الكرنب والجزر ، والسبانخ ، واللبن ، وسمك البحر المالح ، والفجل ، والجبنة .

٧ ـ الملح العادي .   ٨ ـ الصودا .   ٩ ـ الرمل .   ١٠ ـ الفحم .

هذه المواد العشرة من (١٦) التي تركب منها جسم الإنسان ، ونحن بعملنا وحركاتنا نفقد من أجسامنا من هذه المواد ، فعلينا إذن أن تكون مآكلنا محتوية على هذه المواد جميعها ، ومتى نقص منها واحد اختلت قوانا واعتلت صحتنا .

إن هذا الكتاب تفسير للقرآن ، وليس كتاب طب ، ولكن يجب علينا أن نشرح هذا الموضوع مختصراً ليكون القارئ على بينة منه ، وليخرج بفائدة علمية وعملية في آن واحد .

هذه المواد الست عشرة كلها لا بد منها في طعامنا ، فلو أن الطعام نقص الجير مثلاً ؛ فإن الدم يسرق ذلك الجير من العظم والأسنان ، فإذا سمعت أن رجلاً أسنانه ضعيفة فمعناه أن طعامه ليس فيه جير كاف ، وإذا رأيت طفلاً مقعداً فاعلم أن لبن أمه ليس فيه جير يكفي ، وذلك بسبب أن طعام أمه ليس فيه ما يكفي منه ، وهكذا . ويقول العلماء : إن في هذه المواد ثلاث قوى تسمى كل منها « فيتامين » وهذه القوى لها مقادير معينة لا بد منها في الطعام . إن هذه المواد جميعها خلقها الله في القمح بالمقادير المعينة في الدم ، القمح على حاله الطبيعية فيه الست عشرة مادة ، وفيه القوى الثلاث المغذية .

الله أكبر ، تركيب القمح كتركيب الدم ، فماذا فعل الناس بالقمح ؟ انقسم الناس فريقين : أغنياء وفقراء ، فترى فريق الأغنياء في أكثر العالم ينخلونه فيكون لهم منه دقيق ناعم أبيض ، ويتركون ما يسمى في مصر « السن والنخالة » ، وهذا الدقيق اللطيف الأبيض الجميل هو الذي تأكله هذه الطبقة ، وأما فريق الفقراء فإن منهم طائفة تشتري هذه النخالة وهذا السن ويأكلونهما ، فماذا يقول علماء الطب في هذا ؟ يقولون : إن الدقيق الأبيض اللذيذ الطعم المذكور قد فقد $\frac{١٢}{١٦}$ اثنتي عشرة مادة من الست عشرة مادة ، ولم يبق فيه إلاّ أربع منها وهو الربع ، فتحتاج هذه الطائفة إلى تكميل ذلك من غير القمح مثل السبانخ والفجل والكرنب ، وهكذا مما تقدم ، وأيضاً هذا الدقيق يكون سبباً في الإمساك ، أما الذي فيه الردة والسن ـ أي الذي لم ينخل ـ فهو الذي لا إمساك فيه .

إذن الدقيق الذي لا ينخل فيه فائدتان : القوة التامة في التغذية ، وعدم الإمساك ، والدقيق المنخول فيه ربع التغذية وفيه الإمساك .

نتيجة هذا البحث

هاهنا يظهر معنى خطايا بنـي آدم في جهلـهم بـالخير والشر على رأي الفلاسفة ، أو في علمـهم الناقص بالخير والشر كما في الدين .

انظر إلى أهل مكة فإنهم كما بلغنا لا ينخلون الدقيق ، وصحتهم أرقى وأقوى من غيرهم ، ثم تأمل في هذا النوع الإنساني ، هذا النوع الذي يتبع آخره أوله جهالة ، نخل زيد الدقيق فاستحسنه فقلده عمرو ، فتتابعت أجيال وأجيال ، فصار ذلك عادة راسخة ، ولذلك تجدنا في مصر اعتدنا أن ننخل الدقيق وترى الطبيب ؛ الذي يعلم هذا ؛ والجاهل كلهم يأكلون على هذه الطريقة ، وهـم يرون بأنفسهم كما يقرؤون في كتبهم أن هذه طريقة رديئة ، ثم لا يتوبون ، ويموتون وهم لا يذكرون .

ثم تأمل كيف كـان الناس في عصرنا جهلاء أشد الجهالة ، فترى الحكومة المصرية تعطي المسجونين خبزاً غير منخول الدقيق ، فيخرج المسجون مفتول السواعد قوي العضل ، ونفس الطبيب لا يأكله مثله ، وهكذا بقية الأمم أبدانهم ضعيفة ، وأكثر الناس مرضى بضعف المعدة وهم يرون المسجونين وعرب البادية وأهل مكة في صحة جيدة ، فالمترفون اتبعوا اللذة وسواهم لم ينالوها ونالوا الصحة والعافية .

الإنسان الأول والإنسان الحالي والإنسان في المستقبل

يظهر أن الإنسان الأول عاش عيشة فطرية ، فأكل من الأشجار وأكل الحبوب بفطرتها ، فقلّت أمراضه وهمومه ، ونظيره عرب البادية ، أما الإنسان بعد ذلك فإنه أخذ يستعمل عقله في استجلاب اللذات ، وترك الطبيعة ظهرياً ، واخترع ضروب المسرات من تلقاء نفسه ، هنالك هـوى وضلّ وغوى ، وأخذت العداوات تزداد بازدياد اللذات وطلبها ، وهي المعبر عنها بمعرفة الخير والشر في الديـن ، أو هي جهل حقائق الخير والشر في الفلسفة .

اللهم إن هذا الإنسان تمادى في شهواته ، وهو يجهل حقيقـة الخير والشر ، فأخذ يجدّ في لذاته الظاهرة ، وأخذ كل يحارب كلًا ، لماذا ؟ لينال اللذة الظاهرة ، فهم دائماً متحاربون مختصمـون لأنهم إلاّ قليلاً يبحثون عن ظواهر السعادة ، فترى الرجل قد يملك آلاف الأفدنة من الأرض وهو لا يحتاج إلاّ إلى أقل جداً من ذلك ، فهم في جشع مستمر ، وما مثل ما يملكون المال إلاّ كمثل ما يأكلون فوق الشبع ، كل هذا وذاك وبال عليهم .

اللهم إن الإنسان اليوم تمادى في الجهالة بشـهوته وغضبـه ، فترك النـاس مواهبـهم العقلية فلم يربوها ، ومزايا الأرض ومنافعـها فلـم يظهروها إلاّ قليلاً . إن النـوع الإنسـاني اليوم معذب لأنه لـم تستخرج بالتعليم قواته المخبوءة فيه الكامنة ، ولو أنها استخرجت لاستخرج بها فنون النعم المخبوءة في الأرض ، فالناس لجهلهم يقاتل بعضهم بعضاً ، يريد كل أن يخطف ما في يد الآخر ، وكان خيـر لـهم أن يقفوا جميعاً صفاً واحداً متعلماً ، ويستخرجوا ما في هذه الأرض من المنافع فذلك يكفيـهم جميعـاً ، إن الله خزن أرضنا وملأها بما ينفعنـا على قدر حاجتنـا ، فإذا نحـن لـم نبـق كآبائنـا الأولـين علـى الفطـرة فنكتفي بما في الطبيعة من النعم كما هي حالنا اليوم ، فليس لنا حيلة إلاّ بالتعليم لسائر الأمم من جهـة ، ومن جهة أخرى نستخرج منافع كل أرض في الدنيا ، فالإنسان الأول كان في سعادة لأنه اكتفى بالفطرة

والإنسان الحالي شقي لأنه لم يكتف بالفطرة ولم يصل لنهاية العلم، وإنّما اتبع الظواهر فضلّ، والإنسان في المستقبل هو الذي ينال العلم بما في أرضنا، وإذن يسعد على مقدار علمه، فإذا رأى الدقيق المنخول قال: لا آكله بل آكله بنخالته، فلا أكون كآبائنا الجهلاء الذين كانوا يرمون منه القوة المغذية النافعة لهم في صحتهم لجهلهم، فالسعادة في الدنيا إما بالرجوع إلى الطبيعة؛ وإما باستكمال العلم استكمالاً تاماً.

فأما الإنسان الحالي فلم يكتف بالطبيعة ولم ينل غاية العلم، بل هو استعمل قواه العقلية فأتت بخليط من حسن وسيئ، وما مثل هذه المراتب الثلاث إلاّ كمثل الإيمان، فمن الناس من يؤمنون بالأنبياء بلا بحث وهم العامة، ومنهم من يشك في كلامهم، وهذا الفريق قسمان: قسم وصل إلى الحقيقة فصدقهم بعلمه فرأى أن نهاية العلم تشابه ما فطر عليه العامة، وقسم أخذ في البحث ثم قال: خير لي أن لا أبحث بل أكذب، وهذا الفريق مسكين، فلا هو مع العامة ولا هو مع الخاصة، فهذا كذب بلا دليل وأخذ في اتباع الشهوات، فكان العامي أفضل منه، هكذا نرى الأعراب في البادية الذين مآكلهم أقرب إلى الفطرة أصح أجساماً من أبناء المدن، وأبناء المدن لا يسعدون البتة إلاّ إذا وصلوا في العلم إلى أعلى الدرجات، فالأولون بالطبيعة قانعون، والآخرون بالعلم التام مرتقون، وسوى هذين بين هؤلاء وهؤلاء مذبذبون معذبون.

المثال الثالث: ما يزاوله الناس من أكل السكر الصناعي مع أن الفاكهة أفضل منه، وما يقترفون من الغش في اللبن والدقيق والخبز.

قد ذكرت لك ما فعله هذا النوع الإنساني في الأغذية كالقمح، وأذكر لك الآن ما وقفت عليه أنا بنفسي وجربته، ذلك أني قرأت منذ بضع سنين مقالاً للدكتور «جاستون دورفيل» يقول: إن السكر من الأغذية المهلكة لأجسادنا، وإن الناس في عصرنا قد اعتادوا أن يتناولوا منه أربع قطع إلى ست فوق الغذاء الكثير، ولا جرم أن ذلك يحكم على الجسم بازدياد الحركة بإفراط بمرض مميت.

إن أكل السكر الصناعي يحدث فينا أرقاً شديداً، قال: ولقد منعت من شكوا لي الأرق من أكل السكر فشفوا منه وناموا مطمئنين.

إن السكر ليس يكون إلاّ دواء وليس يكون غذاء، إذن هو ضار ونافع، فليتجنبه المؤلفون والسياسيون وجميع ذوي الأعمال الجلوسية، أما ذوو الأعمال الجسدية كالزراع والصناع فهو نافع لهم، وعلينا أن نمنع الأطفال من هذا السكر الصناعي، ذلك السكر الذي لم يكن معروفاً لآبائنا ـ يريد الأوروبيين ـ منذ ثلاثة أجيال، فكانوا أبطأ منا انحطاطاً في قواهم وأقوى أجساماً، ثم عطف على السكر وضرره ضرر المشروبات الروحية، فجعل خطر السكر يقرب من خطرها.

ويقول الدكتور «كانتون» في كتابه «ثلاثة الأغذية المميتة»: إن ما يستهلكه الناس من اللحم قد بلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل ثلاثين سنة، وهذه الزيادة في اللحم يضاف إليها المقادير المأكولة من السكر ومن المواد الكحولية، ولذلك نشاهد أن السل الرئوي والسرطان يجتاحان ١٣٠ ألف نسمة كل سنة، والمجانين كانوا سنة ١٨٦٥م ١٤ ألف نسمة، فصاروا ٧١٥٤٦ سنة ١٩١٠، والمنتحرون بلغوا ثمانية أضعاف ما كانوا عليه منذ بضع سنين.

وأجاز الدكتور «جاستون» لأصحاب الأعمال الجلوسية أن يتعاطوا من السكر كل يوم قطعتين ومعهم منه ومن الأغذية الاحتراقية كالنشاء والعجينيات مساء، ويقول: إن السكر الطبيعي يكفي حاجاتنا وهو موجود في الفواكه فهو فيها ذائب حي، أما في السكر الصناعي فهو محروم من الحياة ومن القوة المغناطيسية فهو غذاء مميت.

هذا ملخص ما اطلعت عليه في هذا الموضوع الذي يجعل السكر واللحم والخمر أخوات في الإهلاك، ولكن جعلوا السكر واللحم دواءين، فهما ينفعان ويضران، وضررهما منصب على أصحاب الأعمال الجلوسية مثلي، ومنفعتهما لغيرهم على تفصيل فيه، فانظر أيها الذكي حالي إذ ذاك.

كيف كانت حالي عند قراءة هذا الموضوع

كانت لي سن من «الثنايا» التي في مقدم الأسنان وهي مقلقلة «متعتعة» تريد أن تسقط، ولا يمر أسبوع حتى تعطيني إنذاراً وهذا صورته «اقلعني»، فكنت أضع إصبعي عليها فتميل ميلاً شديداً حتى أظن أنها ساقطة لا محالة، ثم أتركها وهكذا مدة شهور كثيرة لا أذكر عددها، وفي آخر إنذار وضعت يدي عليها لأسقطها، وكان أهل بيتي أمامي، فقالوا لي: إنها لا تريد السقوط دعها فقد كنت تعالجها فتثبت بعد ذلك، فتركتها ناوياً الرجوع، فاتفق أني اطلعت بعد ذلك على ما كتبته لك الآن، وقد كنت إذ ذاك أشرب القهوة والشاي وأضع السكر فيهما، وهكذا كنت أتعاطى قطع السكر، وأنا رجل مدرس ولي بعض مقالات إذ ذاك وكتب، فرأيت القول منطبقاً عليّ، فتركت القهوة والشاي والسكر وقلت: إن هذه تمنع نومي وتضرني ضرراً شديداً، وما كنت لأعلم أن اللثة وضعفها حاصل من تعاطي السكر، وأن ميل سني للسقوط من ذلك الضعف، فمرت أسابيع وشهور وهذه الثنية على حالها ثابتة، بل هذه سبع سنين ولم أتلقَّ من هذه السنّ إنذاراً كما كانت تفعل سابقاً، بل لا أفرق الآن بينها وبين ما حولها، هذه هي حالي الآن وأنا أحمد الله إذ أقلعت عن هذه العادة فكانت النتيجة قوة عامة في الجسم، ونشاطاً لم أعهده من قبل، وقوة في المعدة.

تذكرة

اللهم إنك أنت الذي خلقتنا وجعلتنا في هذه الأرض، وجعلت الجهل هو الداء الأكبر لنا.

اللهم إني تعلمت في الأزهر العلوم الدينية، وتعلمت في المدارس العلوم التي يسمونها دنيوية، وألفت كتباً واطلعت على كتب الأوروبيين، ومضت لي سنون وسنون وأنا دائب مجدّ، ومع ذلك بقيت جاهلاً، جهلت أن السكر يضرني، جهلت ذلك لأن العادة المستحكمة وسوء الملكات وشيوع أكله بين الناس جعله أمراً مألوفاً.

اللهم إنك أنت الذي خلقت الفواكه وأنت الذي ملأتها سكراً، وقلت للحيوان وللقرود ولأهل البادية: كلوا فواكهي وكلوا حبوبي، فأكلوها ولم نر ضرراً عند هؤلاء الناس ولا الحيوان إلاَّ قليلاً.

لقد أبان العلامة ابن خلدون أن أهل البادية الذين هم أقرب إلى الفطرة أبعد عن المرض.

ويقول علماء البيطرة: إن الحيوان الذي لم يذلّله الإنسان بعيد عن المرض، والمرض لا يفترس إلاَّ الحيوان الذي يعيش معنا، فالمرض تابع للمدنية وهذا بيت القصيد، الإنسان خرج على الفطرة والطبيعة واستخرج السكر، ذلك السكر الذي خلقه الله في الطبيعة بحال متوسطة، فرأى الإنسان أن

يستعجل اللذات فاستخرجه فأكله فأضر به. ذلك لأنه لم يفعل ما فعل الحيوان والإنسان الفطري، فاتبع اللذة ولم يقف عند الفطرة، ترك الإنسان فطرته الأولى وحرم من الشمس التي كانت تعطي قوة لآبائه، فأخذ الأطباء يقولون: لتكونوا في الشمس زمناً ما لتقووا، وأمروا التلاميذ بالحركات التمرينية لتعوضهم ما فقدوه من الحركات المقوية للجسم عند طلب المعاش. الإنسان خرج عن الفطرة الأولى، وهو الآن بين فكي الأسد وقد كثر الضر والمرض.

عقاب الله للناس أكثره على الجهل

هاأنت ذا أيها الذكي رأيت الله عاقبني، عاقبني على جهلي لأني جهلت أن السكر يضر اللثة فأكلته فأضر بها، وأقول: إنك أنت اليوم معاقب على أمور كثيرة تجهلها وأنا كذلك، إذن العقاب على الجهل هو العقاب العام، وإلاّ فكيف أعاقب بقلقلة سني وأنا مجدّ في العلم، ولكن جهلت هذه المسألة أنه عقاب معجل عجله الله في الدنيا، وهكذا سيكون له نتائج في الآخرة.

ألم تر أن الإنسان إذا اختلت صحته تسوء أحواله؟ ومتى ساءت أحواله ساء خلقه وقصر في أمور كثيرة مع أهله وولده وأصحابه وأعماله، وهذا يتبعه ذم في الدنيا وعقاب في الآخرة، كل هذا سر أكل آدم من الشجرة، هي شجرة معرفة الخير والشر.

فآدم وأنا وأنت أكلنا من شجرة معرفة الخير والشر، لأننا عرفنا أن السكر ألذ من الفاكهة، فقلنا: هذا خير منها فأكلناه، فهذه المعرفة السطحية التي يقول الله فيها: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾[الأعراف: ٢٢]، هي التي أوقعتنا في الأمراض والآلام وذل الحياة.

إن الإنسان ترك الفطرة وعاش في المدن وأخذ يتناول الشهوات استعجالاً لها، فقال الله لبعض عباده: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾[الأحقاف: ٢٠] وقال في سورة « الأعراف » استتباعاً لقصة آدم وأكله من الشجرة: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[الأعراف: ٣١]، والإسراف من نوع الاقتراب من شجرة معرفة الخير والشر التي هي الجهل بحقائق الخير والشر عند الفلاسفة كسقراط وتابعيه كما تقدم.

ولا جرم أن الخير ينمو في النفس، والشر كذلك، كما قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[البقرة: ١٠]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[محمد: ١٧].

إذن الخير ينمو كما تنمو الشجرة، والشر كذلك، لذلك سمي شجرة، والناس ذاقوا اللذات الظاهرية فعدوها خيراً فانكبوا عليها، وهاهم يذوقون العذاب ألواناً، وأخذ كل يحتال على لذاته بإيذاء غيره، وقد عم الجهل جميع الطبقات في نوع الإنسان، كل ذلك بسبب اتباع اللذات الظاهرية، وسأبينها في فصول:

الفصل الأول: غشّ اللّبَن

حرص الناس على الدرهم والدينار فأخذوا يغشون اللبن بالماء، وقد أثبت العلامة « هوار » أن اللبن سبب في إصابة ٥٠ في المائة من الذين يمرضون كل سنة بالحمى التيفودية، و١٤ في المائة من أصحاب الحمى الحصبية، و٧ في المائة من الذين تعتريهم الدفتريا، وقال: إن السبب أن اللبن يمتلئ بالحيوانات الذرية التي تحدث هذه الأمراض، وهذه الحيوانات تكون في الماء الذي يضيفه الباعة إليه، ويزيد الطين

بلة : (١) إذا نزعت منه قشدته . (٢) أو خلط ما حلب منه اليوم بما حلب أمس . (٣) أو أضيف إليه النشا أو الدقيق أو بياض البيض .

الفصل الثاني : الغش في البُن

البن المسحوق الذي يباع عند « البدالين » يضاف إليه مسحوق « الآجر » الطوب المحرق وبعض الأتربة ورماد الفحم الحجري ، فأما حب البن الأخضر فإن أهل « لندرة » لم يجدوا من ٩١ منه سليماً من الغش إلاَّ ١٣ ، والباقي بن صناعي يصنع من نشارة الخشب العادي ، ورمل ، وخشب « الأكاجو » ، وحجر الطلق ، وحجر « البلومباجين » الذي تصنع منه أقلام الرصاص .

الفصل الثالث

مباحث الدكتور « بارودي » الكيماوي بوزارة المعارف المصرية

لقد بحث الدكتور المذكور اللبن وقال كما تقدم ، والزبدة ، فقال : إنه وجد كثيراً منها مغشوشاً ، وأنه اشترى سمناً من ٤٣ بقالاً فوجد الغش في ٤١ منه وواحد مشكوك فيه وواحد فقط لا غش فيه . وقال في الزيت : إنه زنخ إما ظاهراً وإما غير ظاهر زناخته ، أي : تغير رائحته واختفاء الرائحة بأعمال خاصة ، وقال : ما زيت الزيتون إلاَّ خيال وهكذا . وقال في الملح : إن فيه ١٥ في المائة من كربونات الصودا وهذا غش يجعل المعدة قلوية لا تستطيع الهضم . وقال في الخل : إنه غير خل وإنَّما هو حامض الخليك مخفف بالماء وفيه حوامض معدنية تحدث في الجسم ضرراً بليغاً . وقال في البن : إنه لم يجد فيه المادة الفعالة في البن « الكافيين » ، بل هذه المادة استخرجت منه قبل السحق ، ووجد في البن طيناً وفي بعض آخر مسحوق الفول . وقد وجد المستر « مورس » في أبي قرقاص نوعاً من البن مركب من الفول و « الشكوريا » يعني « السريس » والطين . وقال في المشروبات الغازية : إن فيها الزرنيخ وحامض الكبريتيك والنفتة ، وهكذا من المواد السامة المعدنية أو العضوية ، والماء الذي تصنع منه غالباً يكون قذراً . وقال في الدقيق : إن الناس في مصر لو شاهدوا صنع الخبز الذي نأكله ما أكلوا منه لقمة واحدة ، وذكر أن المحال التي يصنع فيها الخبز تكون مظلمة ، ويوضع في العجين ماء قذر ، وأنه وجد أنواعاً من الدقيق فيها مواد غريبة ٢٠ في المائة من « الطلق » نوع من الحجر ، وكذلك أنواعاً أخرى معفنة ، وهذا كله يجعل الدقيق مضراً مهلكاً من الوجهة الصحية .

هذه هي الصورة المصغرة لحياتنا في المدن ، وبها يظهر أن لبننا ، وبننا ، وخبزنا ، ودقيقنا ، والمواد الغازية التي تأتي لنا فنشربها ، كلها قاتلات لنا ، يقول المؤلف : عند طبع هذا حصل إصلاح كبير جداً في الخبز .

خطابي لأمم الإسلام

أيتها الأمم الإسلامية ، هذا كتاب الله تعالى ، والله يقول فيه : إن آدم لما عصى ، أي : وعصى بنوه ، اعتراهم الذل ورجعت معصيتنا لاتباع الشهوات ، فكان ذلك بذراً ، وكانت سائر الشهوات مفرعة كفروع الشجرة .

أيها الذكي انظر لما حصل لي : جهلت أن السكر ضار باللثة فلم يغفر الله لي هذا الجهل فتقلقلت ثنيتي ، ولم يعف الله عني حتى علمت فتركت السكر ، وما أنا وما سني التي تقلقلت ؟ أنا

رجل كبير السن إن لم أمت اليوم فغداً، وسني تذهب معي، ولكني اليوم أكتب لكم أيها المسلمون، أنا لست بطبيب ولكن الصورة المكتوبة هنا من كلام الأباء في مصر وفي غير مصر، والكتابة رسمية، فلأبن عليها كلامي مع المسلمين وأقول: إن الله لم يغفر لي جهلي بالسكر وضرره.

فلتعلموا أيها المسلمون أن الله لا يغفر لنا جميعاً جهلنا بما تقدم، انظروا انظروا، نحن نشرب اللبن والبن ونشرب المواد الغازية من زجاجاتها ونأكل الخبز المصنوع عند الخبازين، وقد ثبت الغش ثبوتاً لا يشك فيه ويتبعه الأمراض المتنوعة، أليس هذا هو عين قوله تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢] الخ، وهاهي ذه سوءات الإنسان بدت في الشرق والغرب. لماذا هذا؟ لأننا قديماً خرجنا عن الفطرة وتصرفنا في أمور الحياة.

دواء هذا الداء

لا دواء لهذا الداء إلاّ باتباع قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، ومعنى هذا أن الخباز وبائع اللبن والجندي والأمير والفلاح، كل منهم موقوف على الآخر، فليقم في كل قطر من أقطار الإسلام قوّامون على الشعب يفتشون كل صغيرة وكبيرة ويعاقبون الخباز واللبان وكل ذي صناعة حصلت منه هفوة صغيرة، وليكن في الأمة علماء بكل حرفة وفن، وفوق ذلك لتتعلم الأمة كلها تعليماً إجبارياً، وليجعل كل متعلم فيما يميل إليه، والله خلق الأميال والغرائز على مقتضى المصلحة؛ كما في كتابي «أين الإنسان».

المسلمون مأمورون بالصلاة جماعة وإن لم يفعلوا ذلك عاقبهم الإمام، هل كان ذلك في الدين عبثاً؟ ألم تر أن المصلي إذا كان مريضاً لا يعقل الصلاة وربّما انقطع عنها، والصلاة واجبة، وعلى الحاكم أن يجمع الناس لها، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، ومستحيل أن تتم الصلاة إلاّ بصحة ولا صحة لمن أكلوا وشربوا سموماً كما ثبت رسمياً في الشرق والغرب.

نحن الآن نشرب السم، ونأكل السم في بلادنا، فهل هذه الحياة تطاق؟ وإذا كنا نأكل ونشرب ونحن جاهلون الضرر فالله يؤاخذنا وإن كنا لا نعلم، لماذا؟ لأن الجهل هنا غير مغتفر، وإذا كان جهل المسلم بفروض الوضوء يعاقبه الله عليه يوم القيامة، فجهله بأمور الصحة التي تتوقف عليها الصلاة لم يرد في الدين أنه يعاقب عليها، ولكن الله يعاقبنا فعلاً في الدنيا، فالله عجل عقاب الجهال بأمور الحياة والصحة في نفس الدنيا، فليس ذلك يحتاج إلى رسول يرسل لنا ويقول احفظوا صحتكم، بل أخذ يعاقبنا على جهل الصحة قبل مجيء الرسل وبعد مجيئهم، والرسل أكدوا ذلك بأمرنا بالمحافظة على الصحة، وليس معنى هذا أنني وأنت نعرف كل علم فهذا مستحيل، وإنّما أنا وأنت كالبنيان يشد بعضه بعضاً، بل الأولون والآخرون كالبنيان لأني أنا قرأت كتب المتقدمين ويقرأ قولي هذا المتأخرون، وعلى ذلك يفيض كل امرئ من علمه على غيره، ويعم التعليم العام ونشرات الأطباء ومحافظة الحكومات وهذا كله داخل في دين الإسلام الذي أمر بالصلوات وهدد بالعقاب عليها وعلى بقية أركان الإسلام والله هو تولى عقاب المقصرين في أمور الحياة، فمن عطل أرض الله ومنع زرعها لينتفع بها الناس فهو ظالم مذنب، والأمة التي تعطل مواهب بنيها فلا تعلمهم تذل بين الأمم.

عموم الغش في المدنية الحاضرة وقوله تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]

هاهنا ظهر تفسير هذه الآية، يقول مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي الشيرازي في كتابه المسمى «القاموس المحيط» في قوله تعالى: ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾، أي: فأبين أن يخنها وخانها الإنسان. انتهى.

فيصير معنى الآية أن الشموس والكواكب والجبال وجميع ما خلق الله حفظت الأمانة التي استودعتها، فلا خيانة عند السحاب ولا الهواء ولا الجبال؛ الجبال فيها مخازن المعادن، والبحار فيها الماء، فرأيناها تعطينا أماناتنا ولا تجحدها، والطبيعة كلها قائمة بالصدق، فنحن نبذر القمح فلا يكون فولاً، والفول فلا يكون قطناً.

عبرة

هاأنت ذا أيها الذكي تقرأ هذا الكتاب وأنت ذو صفة ما، إما زارع، أو تاجر، أو صانع، أو قاض، أو سياسي، فإن كنت في المدن فإن الخبز الذي تأكله من السوق، أو من عند الخباز، واللبن، والبن، وجميع ما في الزجاجات المقفلة كالغازوزة، كل ذلك فيه غش ولا علم لك به، وهناك الضرر المتوالي الذي ينتهي بمرض وآلام، مع الجهل بسببه.

الله تعالى أوجب أن يكون الناس جميعاً متضامنين، وهذا هو المسمى فرض الكفاية، فلتنتظم أحوال الأمة كلها، إن الإنسان ظلوم جهول، قد ظلم الناس بغشهم فيما يأكلون وما يشربون، وهذا الغش أضرّ من الغش في المحرمات الظاهرة، فعقابه أشد لأن ضرره أعمّ، وإذا عوقب الإنسان لفعلة قوم لوط بسبب الابتعاد عن النساء الذي به يكون الولد فما أكثر الموت والعقم، والخراب بغش اللبن والخبز والدقيق، ويكون العقاب أشد من الله على الغاشين، فالإنسان بهذا ظلوم وهو أيضاً جهول، لأنه بهذا قتل أبناء جنسه جهالة لمنفعة حقيرة، فإن كنت في المدينة فاسع في النظام العام مع بقية الهيئة الحاكمة، وإن كنت في القرى فأنت أقرب إلى السلامة، لأن الخبز واللبن لا غش فيهما لأنهما من منزلك، وإن كنت في البادية فالغش أبعد عنك، وخير للذين في المدن أن يكون خبزهم بأنفسهم وإن كان فيه مشقة عليهم، وأن لا يشربوا من تلك الزجاجات الغازية، ولا من محال شرب القهوة المعروفة.

يا الله، ما أكثر العلم في المدن وما أعظم الجهل وأكثر الغش. انتهى القسم الأول من السورة.

القسم الثاني

قد علمت أيها الذكي أن القسم الأول جمع زبدة هذا العالم، فذكر المعاش من نبات وحيوان وهواء وسحاب، ثم ذكر الإنسان وتدرج به إلى أن أوصله إلى جنة أو نار، هذا وصف الدارين، ثم أخذ هنا يرتب على ذلك قائلاً: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[الحجر: ٤٩-٥٠]، وذلك حاصل ما ذكر في الجنة والنار المذكورين. ولما كان ذلك يدعو إلى طلب برهان حسي لأن الآخرة لم نرها ولم نطلع عليها، شرع سبحانه يذكر لنا قصتين حصل العذاب

فيهما في الدنيا للمكذبين، فهذا كالدليل التاريخي على ما سيحصل في الآخرة، فقال: ونبئهم عن الملائكة الذين نزلوا عند إبراهيم فسلموا عليه، فقال: إني وجل منكم فاذهبوا، فبشروه بإسحاق، فتعجب من بشراهم وكيف يرزق بولد وقد مسه الكبر، وهذه عجيبة، ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٥٥] فلا تكن آيساً إنه لا يقنط من رحمة الله إلاً من ضل فلم يعرف نعمته العامة وفضله الشامل، ثم قال: ما شأنكم أيها المرسلون؟ فأخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط لإهلاكهم، ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾[الحجر: ٥٩]، ما عدا امرأته فإنها مع قومها، ثم دخلوا على لوط فأنكرهم وأوجس منهم خيفة، فقالوا له: قد جئنا لعذاب قومك، ثم أمروه أن يسير بالليل هو وأهله ولا يلتفت منهم أحد إلاً امرأته، وكان ما كان من أهل المدينة، وأنهم أرادوا فعل الفاحشة بهؤلاء الأضياف، وكيف تألم لوط وجرت بينه وبينهم محاورات وهم يأبون إلاً أن يفعلوها، وهو يدافعهم بالحجة ويقارعهم، وذكرهم أن الزواج بنساء قومه أفضل وأشرف، فأنزل الله بهم العذاب، وهذا ملخص القصة إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الحجر: ٧٧]، ثم أتبعها بقصة أصحاب الحجر إلى قوله: ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[الحجر: ٨٤].

ولما أتم القصتين أخذ سبحانه يبيّن ما يترتب على هذا من علم الأخلاق، فأفاد أنه إذا كانت هذه صفة الإنسان وأنه مثاب ومعاقب، وأن ذلك حاصل فعلاً في الدنيا وتتبعها الأخرى، فإذن الأمر متقن لا خطأ فيه ولا خطل ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، فلا بد لكل عمل من جزاء كما تقدم في عجائب المخلوقات ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾[الحجر: ٨٥]، فلا نترك هفوة ولا ذنباً إلاً حاسبنا فاعله عليه وعذبناه، فلا تهتم بهم و﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]، إن ربك خلاق الخلق عليم بهم فكيف يترك المذنب بلا عقاب، كلا.

ولما كانت هذه النتائج التي مرت في هذه السورة بديعة محكمة، فمن خلق المعاش، إلى نبات إلى حيوان، إلى إنسان، إلى جنة ونار، إلى تاريخ، إلى راحة النفس، من هذه النتائج أن كلًّا ينال ما قدمت يداه، كان ذلك داعياً أن توقن أن هذا القرآن عجيب وعظيم، وأنه ليس غيره أعظم منه، ولذلك أمره أن لا يمدّ عينه صلى الله عليه وسلم إلى ما في هذه الدنيا من المال، وأن لا يحزن على عدم اتباعهم دين الإسلام لأنه سعيد بما أعطى، إن القرآن غني بما لديه من البرهان.

ولما أثلج صدره بما لديه من الثروة العظيمة والغنى العلمي، وأن هذه الثروة العقلية فوق كل ثروة وغنى، ونهاه عن اعتبار ما سواه، أمره أن يتواضع للمؤمنين لأنهم أعوانه على بث هذه الثروة العقلية في سائر الناس، فهذا تنمية لها في هذا العالم الإنساني، وأمره أن ينذرهم أن من خالف يعذب في الدارين كما حصل لأولئك الاثني عشر الذين اقتسموا أطراف مكة، وكل منهم ينفر الناس من الدين بوجه من الوجوه، فهذا يقول: ساحر، وهذا يقول: كاهن، إلى آخر ما تقدم.

ثم أقسم الله بذاته وبربوبيته ليسألن هؤلاء المقتسمين جميعاً عما قالوه في القرآن وفي الرسول، ثم أمره أن يجهر بما أمر به وأن يكف عنهم ولا يلتفت إلى لومهم على إظهار الدين وتبليغ الرسالة، وكيف تلتفت إليهم أو تخاف منهم وقد رفعنا عنك مؤنة المستهزئين ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: ٩٦] عاقبة أمرهم، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾[الحجر: ٩٧]

باستهزائهم وقولهم الفاحش، والجبلة البشرية تأبى ذلك فيضيق الصدر فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك شرهم ويكشف الغم عنك، أو نزهه عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق وقل سبحان الله وبحمده وكن من المصلين، ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر؛ أي: فزع إلى الصلاة، ويقول العارفون: إن الصلاة متى كانت بحضور القلب أشرق الباطن وزال الحزن عن القلب، وينفسح وينشرح الصدر فتعلو النفس عن هذه المادة. واعلم أن مثل هذا لا يعرف إلا بعد التجربة، ومن لم ينل هذا الحظ لا يتصوره، فإذا أردت ذلك فصلِّ وأنت حاضر القلب وهناك ما يسرك، فالعبرة بالعمل.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

المتوسمون هم المتفرسون، والفراسة ـ بالكسر ـ اسم من قولك: تفرست في فلان الخير، وهي إما ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس ويكون لهم إصابة حدس ونظر وتثبت، وإما ما يحصل بدلائل التجارب والخلق، وبذلك أيضا تعرف أحوال الناس، فالمتوسم هنا هو الناظر في سمة الدلائل وسمات الأشياء وصفاتها وعلاماتها.

يقول الله: إن فيما جاء في قصة لوط الذين تركوا النساء واتبعوا الفاحشة الشنعاء في الرجال، فأخذتهم الصيحة فصار عالي القرية سافلها لآيات لأصحاب الفراسة، وهنا ينظر المسلمون ويفكرون هل هذا القرآن نزل لأجل هذه القصص وحدها، ولا متفرس في الإسلام إلا فيها، فإذا قرأ المسلم القرآن يغض النظر عن أحوال الأمم المحيطة بنا وعن أحوالنا، ويقول: إن قوم لوط أهلكهم الله بفعل الفاحشة ووضع الشيء في غير موضعه، أم المسلم المتوسم يقول بفراسته وعقله المضيء المشرق، لماذا أهلك الله قوم لوط، ويجيب بأنه أهلكهم بإخلال نظام الأمة، ذلك أن النساء إذا تركن تعطلت الأرحام وقل النسل واكتفى الرجل بالرجل، وهذا هو الهلاك، لأنه إذا قل النسل شيئا فشيئا بهذه المخازي ضاعت الأمم، ثم يفكر هذا المتوسم فيرى أن قوم هود هلكوا بمعاص مثل قطع الطريق وإتيان المنكرات، وقوم شعيب هلكوا بسبب نقص الكيل والكيزان، ونتيجة ذلك خراب مدنهم، فيستنتج المتوسم من ذلك نتيجة واحدة وهي أن هلاك المدن وضياعها يرجع لأمر واحد وهو الإخلال بالنظام العام، وتحت هذا ما لا حصر له من المعاصي، ومعلوم أن عذاب الآخرة بعد عذاب الدنيا.

ثم يقول المتفرس في الإسلام: لأنظر حال الأمم اليوم إسلامية وغير إسلامية، وأحكم أيهم أحق بالبقاء وأيهم أقرب إلى الهلاك، وإنما يقول ذلك لأن المتوسمين ليسوا في كل الأمم إلا مسلمين، كلا، بل الله الذي خلق الناس خلق المسلمين، وقد جعل لكل أمة متوسمين، فهل يكون في الأمم متوسمون، والمسلمون يحرمون من هذا النوع ؟ كلا ثم كلا، بل المسلمون أولى بهذه الصفة، ألم يقل الله فينا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، فإذا كنا خير أمة فمتوسمنا خير متوسم، بل ورد في حديث غريب عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾» أخرجه الترمذي.

وحينئذ يقول المتوسم المسلم: أنا أولى بالتوسم والفراسة، بل أنا المؤيد من الله، والحديث يشهد لي، فيقول: لأنظر نظراً صادقاً لأمم الإسلام وأمم الفرنجة.

موازنة بين أمم الإسلام اليوم وأمم الفرنجة بطريق الفراسة الخاصة بالمتوسّمين

الفرنجة قد أحاطوا الكرة الأرضية بأسلاك برقية، ومدوا فيها طرقاً حديدية، واستخرجوا نعم الله المعدنية وغيرها من باطن الأرض، وفوق ذلك استعملوا الأمواج الكهربائية التي لا سلك لها في أوروبا وأمريكا.

اللهم إنك أنت ذو الجلال وذو الجمال، أنت الذي ملأت الأرض والجو والسماء بنعمك، ولكنك متكبر لا تعطي النعمة إلا لمن يطلبها وهذا من رحمتك، ولو أنك أعطيت النعم لنا جزافاً لجهلنا قدرها وأضعناها، كأبناء الرجل الغني الذين ورثوا أرضاً وملكاً، وهم لم يتعبوا فيه، فصاروا أذلاء في الطرق والشوارع وهم خاسرون، لهذا أنعمت على القوم الذين طلبوا نعمك المخبوءة، تلك المواهب التي خزنتها في جوّنا فوق رؤوسنا وفي الهواء المحيط بنا، هناك قوة كامنة بديعة هي قوة الكهرباء، تلك القوة اللازمة لما يسمى «الأثير» ذلك الأثير الذي يملأ هذه الدنيا وقد غرقت فيه أرضنا وشمسنا وكل كوكب وكل قمر، هذه الكهرباء تقوم الآن بإذاعة الخطب والأنباء والقصص والأغاني والموسيقى، فمن تكون عنده آلة لاستقبال تلك الكهرباء الحاملة لما ذكر سمع الخطيب والمغني وأمثالهما، وبين القائل والسامع جبال وبحار وقارات، فيسمع من في برلين نغمات من في الولايات المتحدة، وهكذا تنتقل الصور من بلاد إلى بلاد، ويخاطب الناس بعضهم بعضاً بالتليفون بين أوروبا وأمريكا، ويرى المتخاطبان صور بعضهما، وهاهم الآن لا يريدون الاقتصار على ما ذكر بل يريدون أن يرسلوا الكهرباء من محطات خاصة فتنبعث في الجو ويستعملها من يشاء لما يشاء في أي مكان وزمان، بحيث تدور به الآلات في المصانع والمعامل، وبه تضاء المصابيح في كل مكان، وبه تجري السيارات بلا بنزين ولا احتراق داخلي، والمصابيح المضاءة تتخذ ضوءها من الهواء، ومتى تم هذا ــ وهو قريب ــ ترى الناس يطبخون ويغزلون وينسجون ويديرون آلات الحراثة وسقي الأرض والطحن والخبز والقطر البرية والسفن البحرية، كل ذلك كما يشاؤون بآلات تصنع لذلك، فلا فحم ولا بنزين ولا بترول، بل هناك الكهرباء وهي القوة الخفية التي نجهل كنهها ونعرف عملها، وليس هذا أمراً خيالياً بل ابتدأ الناس يصنعونه، فقد أثبت الدكتور «فيلبس توماس» المهندس بشركة «وستنهوس» الكهربائية الأمريكية في خطبة خطبها أمام جماعة من المهندسين الأمريكيين في يونيو الماضي سنة ١٩٢٧ أن هذا الموضوع خرج من حيز الفكر إلى حيز العمل، وبرهن على ذلك بأن أخذ مصباحاً كهربائياً غير متصل بسلك، ولكنه متصل بقضيب من النحاس طوله نحو متر، ووقف على مسافة مترين من أنبوب مفرغ، فلما أديرت الآلة المتصلة بالأنبوب المفرغ وخرجت منه مجاري القوة الكهربائية التي التقطها القضيب النحاسي من الفضاء، فأنار المصباح الكهربائي المتصل به، هذا هو الذي تم في نفس تلك الخطبة منذ ثمانية أشهر.

ومعنى هذا: أن الكهرباء أمكن انطلاقها في الهواء بلا سلك، ولم تقتصر على نقل الخطب والصور والكلام، كلا بل أضاءت المصباح وغداً ستضيء مصابيح على أبعاد مختلفة، وتدير الآلات في المطاحن والمخابز والمحاريث وآلات سقي الأرض الخ.

الطرق التي يبحثها القوم اليوم لنقل الكهرباء

يقول المهندس « يلرد » إنه يبني برجان : أحدهما على مقربة من القطب الشمالي ، والثاني على مقربة من القطب الجنوبي ، وهذان البرجان تولد فيهما الكهرباء بما في تلك الأصقاع من الفحم المخزون والبترول ، وهذان لا يمكن نقلهما إلى الأصقاع المعمورة لطول الشقة وبعد المسافة ، وتلك الكهرباء المرسلة منهما تمر في الجو المرتفع في طبقات الهواء العليا ، وهو أصلح موصل لأمواج القوة الكهربائية ، وهي طبقة لطيفة لا تفقد الأمواج كثيراً من قوتها في اختراقها ، فأما عند اختراقها الهواء عند سطح الأرض فإنها تفقد كثيراً منها .

وهناك اقتراح آخر وهو أن تبنى أبراج على قمم الجبال الشاهقة مثل جبل « مكنلي » في ألاسكا وجبل « هوتني » بكاليفورنيا ونحو ذلك ، ولكنهم يفضلون الأول لما تقدم . ومتى تم ذلك تنتقل الإنسانية من حال إلى حال ويعيش الإنسان في جو مشحون بالكهرباء فيستخدم ما شاء منها بلا تعب ولا مشقة . هذا نظر القوم في أمر الكهرباء من جهة عمومها لسائر الأقطار مع سهولتها للعموم في جميع الأعمال ، وهذا أمر لا يزال في معرض البحث والتفكير كما رأيت .

كيف تجري الطيارة ألف ميل في الساعة ؟

وهاهم الآن يفكرون في سرعة الطيارة التي تطير الآن عشرات الآلاف من الأميال في الساعة ، ويريدون أنها تطير ألف ميل ، ومعلوم كما ستراه في أول سورة « النحل » عند قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أن الطيارات على قسمين : طيارات ترتفع في الجو وتطير بسبب خفتها عن الهواء كأن تكون مملوءة بالأودروجين ؛ والأودروجين أخف من الهواء ؛ وعلى ذلك ترتفع فيه إلى حد ما ، وهذه تسمى « بالونات » ، وطيارات لا تكون أخف من الهواء بل هي أثقل منه ، فهي أشبه بالطير في جو السماء ، ومعلوم أن الطير أثقل من الهواء لأن الهواء أخف من الماء ٨٠٠ مرة ، والطير يقرب ثقله من ثقل الماء ، وهذه الطيارات يرفعها في الجو ويسيّرها تلك المحركات الدائمة التي تدفع الهواء بسرعة حركاتها ، فترتفع الطيارة وتسير إلى الأمام في الجو بحلولها محل الهواء الذي طردته تلك المحركات في الطيارة ، هذا ما هو عليه الطيارات اليوم ، ولكن القوم الآن يقولون : معلوم أن الكرة الأرضية محيطها حوالي ٢٤ ألف ميل ، وهي تجري في الساعة الواحدة من الغرب إلى الشرق حوالي ألف ميل ، فما المانع إذن من أننا نرتفع بالطائرة إلى أمد بعيد في الجو بحيث لا يكون للأرض على الطيارة سلطان الجاذبية ، إذ الجاذبية تقل كلما ابتعد الجسم عنها ، ومتى وصلنا إلى ذلك المكان أوقفنا الطيارة ، وحينئذ نتربص الدقيقة أو الثانية التي وصلت فيها الأرض في جريها إلى المكان الذي قصدناه ، ثم ننزل بالطيارة على ذلك المكان في الأرض بلا كلفة ولا تعب ، وعلى ذلك يمكن الإنسان أن يسافر ألف ميل في كل ساعة ، وفي الساعتين يقطع ألفي ميل وهو لم يبرح مكانه ولا أضاع مالاً في جري الطيارة ؛ فالأرض قامت بجريها مقام الطيارة ، ومعلوم أن الأرض تقطع في جريها في كل ساعة ١٥ درجة من الدرجات الأرضية . انظر الدرجات الأرضية المذكورة في سورة « البقرة » عند الكلام على اختلاف الليل والنهار في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١٦٤] الخ ، هذا ما ابتدأ القوم يفكرون فيه .

اقتراب تعميم التلفون الأثيري

أما الأمور التي اقتربت أن تعم وقد قطعت شوط الفكر وشوط العمل كما تقدم هنا فهي التلفون الأثيري « المسرة » التي في الأثير، وهاك ما جاء في جرائدنا المصرية يوم الاثنين ١٦ يناير سنة ١٩٢٨ في باب التلغرافات :

نيويورك في ١٤ يناير سنة ١٩٢٨ : شهد عدد من العلماء أمس عرضاً الغرض منه الدلالة على أن نقل الصور الأثيري قد بلغ من التقدم درجة تؤهله للاستعمال العام في المنازل، فرأوا اللوحة الموضوعة فوق التلفون الأثيري قد أضيئت وظهر فيها وجه رجل يعالج بيده آلة في بعض المصانع الكهربائية على بعد ثلاثة أميال من مكان العرض، وكان يدخن سيجارة يتصاعد منها الدخان، وسمعت أقواله بوضوح تام، ثم ظهر وجه شابة تعزف على « المندولين » وكان اللحن الذي تعزفه مسموعاً واضحاً، ثم تناولت بيدها كتاباً مصوراً ظهرت صورته للحاضرين جلية، وكان القرار أن الجهاز ليس معداً تماماً للأسواق، ولكنه أفضل من أي جهاز آخر من هذا النوع عرف للآن . اهـ . هذا ما سينظره المتوسمون في أمم الإسلام من جهة أمم الفرنجة .

أمم الإسلام في نظر المتوسّمين من علماء الإسلام

ينظر هؤلاء المتوسمون فيعجبون ويقولون إن المسلمين في أقطار الأرض اليوم هم الموسومون بالجهل، بحيث إنك ترى غير المسلم في كل أمة هو المتعلم، والمسلم غير متعلم، فترى الرجال والنساء في إنكلترا وألمانيا وأمثالها وهكذا الممالك المتحدة، كل هؤلاء رجالهم ونساؤهم متعلمون، وعلى قدر ازدياد العلم تزداد الثروة، ثم ينظرون فيجدون اليابان التي هي أمة شرقية قد قرأت علوم القوم وصارت مثلهم، بل غلبت دولة من دولهم، ثم ينظر المتوسمون فلا يجدون أمة إسلامية لحقت بتلك الأمم إلاّ قليلاً، فلماذا هذا، أهذا طبيعة الدين؟ كلا، فالدين هو الذي حرك تلك الأمم بالواسطة كما تقدم في سورة « التوبة » موضحاً عن العلامة « سديو » الفرنسي، فاقرأه هناك إن شئت، أم هذه طبيعة هذه الأمم، كلا، فهذه الأمم هي التي كان لها القدح المعلى في المدنية، إذن من أين هذا ؟ فيجدون أن هذا من جهل القائمين بأمر الدين وطريقة تدريسه من عهد بعيد وقرون تبلغ نحو تسع كما هو واضح في مواضع من هذا التفسير، ثم يضرب هؤلاء مثلاً بما حصل أيام طبع هذه السورة، وهو أن ملك الأفغان « أمان الله خان » قد خرج من أوطانه ليرحل في أرض الله شرقاً وغرباً، فزار الهند ومصر، وهو الآن عند كتابة هذه الأسطر في إيطاليا ويتوجه إلى إنكلترا وأمم أخرى، وقد فرح به المسلمون في مصر فرحاً شديداً لأنه أخرج الأعداء من بلاده فصارت بلاده مستقلة تمام الاستقلال، فيقرؤون في الجرائد المنشورة بمصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٧ ما نصه :

«يقول المهندسون : إن بلاد الأفغان غنية بالمعادن، وآخر تقرير لهم في ذلك هو تقرير المهندسين الطليان في سنة ١٩٢٣ ، وقد جاء فيه أنواع المعادن وأمكنة وجودها، وهي الفحم الحجري، والحديد، والفضة، والذهب، والياقوت الأحمر، والكبريت، وسلفات النحاس، والملح، وملح البارود، والزئبق وقد عثروا على ينابيع المياه المعدنية، ولكنهم لا يلتفتون إليها كثيراً، ولم يستخرج حتى الآن شيء من تلك المعادن، وأرادت الحكومة أن تمنح الشركات الإيطالية والأمريكية بعض الامتيازات ولكنها عدلت

عن ذلك مراعاة لشعور الشعب الذي كره الأجانب، لذلك فكرت في إرسال بعثة علمية صناعية إلى أوروبا للاختصاص في أمر المعادن واستخراجها». اهـ.

هذا ما يقرؤه المتوسمون من علماء الإسلام ويوازنون بين أمم وأوروبا وأمم الإسلام، وإنَّما يوازنون بين الفريقين، لأن المانع الذي منع أمة الأفغان من سرعة الرقي ليس خاصاً بها، بل هذه صفة عامة في الأمم الإسلامية المتأخرة.

إن الملك «أمان الله خان» يريد الإسراع في الرقي، وهكذا كل المتنورين في أمم الإسلام يريدون ذلك، فإذا عاونهم رجال الدين؛ بأن فهموا أمثال ما يكتب في هذا التفسير؛ أسرع الرقي إلى بلاد الإسلام، كما أسرع سابقاً في بلاد اليابان، وإن تباطأ علماء الدين وبقيت دراسة الإسلام على ما هي عليه هلكت هذه الأمة هلاكاً لا مناص منه، كما هلكت أمتان عظيمتان في زماننا وهما أهل أمريكا الأصليون، وأهل استراليا الأصليون، فهؤلاء لما دخلت عندهم المدنية الأوروبية ولم يجاروا القوم هلكوا وانقرضوا إلاَّ قليلاً.

ثم يقول المتوسمون في بلاد الإسلام من علمائهم: إن الله أهلك قوم لوط بسبب أنهم ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾[إبراهيم: ٢٨]، وما هي نعمة الله؟هي أرحام النساء التي تربي لنا الأجنة ليعمروا أرض الله، فتركها الناس وأتوا الرجال، فلا تكون ذرية، إذن هذه قاعدة وهي: أن كل من بدل نعمة الله كفراً يهلك، وهذا كما في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٧]، ولا معنى لشكر النعمة إلَّا علمها والانتفاع بها، ومن لم يعرف النعمة لم يشكرها، فإذا كان من عطلوا أرحام الناس أهلكهم الله فمن باب أولى من عطلوا ما في باطن الأرض من المعادن وما في الجو من الكهرباء وما فوق الأرض من قطع متجاورات مملوءات بالخيرات.

ألا إنَّما مثل المسلمين في نومهم عن خيرات ربهم إذا داموا عليها كمثل دابة نامت في معلف الدواب على التبن، فلا هي منتفعة به، ولا هي تركت الدواب تأكله. ثم يوازن المتوسمون المسلمون:

(١) بين قوم استخرجوا ما بأرضهم من المعادن ووجهوا وجهتهم شطر القطبين يريدون أن يملؤا الدنيا نوراً من نور الله المخبوء في القطبين، لأن لله هناك فحماً وبترولاً لا يمكننا الانتفاع بهما إلا بما قدمناه.

(٢) وبين آخرين قصروا في كل شيء، حتى إن معادنهم المخبوءة في أرضهم منعوا أنفسهم ومنعوا الناس منها، أفليست هذه الأمم إذا دامت على ذلك ــ لا سمح الله ــ يغضب عليها أشد من غضبه على قوم لوط وقوم هود وقوم شعيب، لأن أولئك الهالكين عطلوا نعماً لله أقل من تعطيل المسلمين اليوم لنعم ربهم، ومن هذا ما تقدم ذكره في سورة «إبراهيم» قريبا من أن دولة خلفاء بني عثمان التركية ملكت بلاد فلسطين وملكها قبلهم دول إسلامية، وهم جميعا يجهلون ما بالبحر الميت من العناصر والمواد النافعة لرقي المسلمين، ومنعوا الأمم الأخرى أن تستخرجها حتى إذا دخل الإنجليز عرفوا قيمتها، وهاهم الآن يستخرجونها وفيها ما قيمته تتجاوز ما عند جميع المسلمين في الأرض من المال.

إذن الجهل عام في أمم الإسلام غاية الأمر أن « أمان الله خان » ملك الأفغان يريد رقي بلاده عاملاً مجداً وليس خاملاً كملوك بني عثمان، فعسى أن يكون من المفلحين، ثم بحكم هؤلاء المتوسمون حكماً عادلاً على أمم الإسلام فيقولون الآراء التي في هذا التفسير وأمثالها قد أخذ المسلمون يتلقونها بالقبول، فأغلب الظن أنهم أخذوا يسيرون في سبيل الرشاد، وهذه الآراء جميلة، فستعم رجال الدين في أقطار الإسلام قريباً.

وسيقوم المسلمون قومة رجل واحد لحوز علوم الأمم، فأكثر الظن أنهم قريباً فائزون، فإن لم يصدق الظن باتباع هذه الحقائق فإنهم والعياذ بالله هالكون وأول الرأيين هو الأولى. والحمد لله رب العالمين. اهـ.

خطاب المؤلف لأمم الإسلام

أيتها الأمم الإسلامية: هذه المذكورات هنا حقائق، وعلى من اطلع على هذا من أهل العلم في أمم الإسلام أن ينشرها في المساجد والمجامع وفي كل مكان، فلا يترك مجلساً ولا نادياً ولا جماعة إلا أذاع هذه الآراء بينهم.

أيتها الأمم الإسلامية، إن ربكم عدل، وهو بالمرصاد، عطلتم نعم الله في الأرض، ومنعتم أنفسكم وعباد ربكم عن الانتفاع بها، فهل ظننتم أن الله خلقها لتعطلوها ؟ كلا، والله إن الله لا يغفر للناس منع كرمه وفضله عن عباده.

وهاأنتم أولاء ترون بأعينكم أن الأمم القوية تسعى فتملك الضعيفة المعطلة لنعمة الله، وهذا أمر محتم، نعم استقلت دولة الأفغان ودولة إيران ودولة الترك ومملكة الحجاز، وهكذا نجد، وهكذا بلاد اليمن.

فلتعلموا أيها المسلمون أن هذا الاستقلال لا يدوم إذا بقيتم على ما أنتم عليه من جهلكم بنعم الله في أرضكم، فلا بد أن تؤخذ منكم عاجلاً أو آجلاً، أما إذا حفظتم أمانة ربكم واستخرجتم كنوزه ونفعتم أنفسكم والناس، فأنتم شاكرون باقون في أرضه.

ألم تعلموا أن الله يجعل الأضعف طعمة الأقوى، خلق الله في الأرض نباتاً وخلق في النبات دوداً يأكله، والدود حيوان والحيوان أرقى من النبات، ولكن الدود لا سمع له ولا بصر ولا شم ولا ذوق، وإنَّما يمتص بجلده فهو ضعيف، فخلق الله له طيوراً تأكله كأبي قردان، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن هذا الدود ضار بالزرع، والزرع نافع للإنسان، والإنسان أرقى من في الأرض، لذلك أرسل الله هذا الطير لأكله.

الأمر الثاني: أن هذا الدود ضعيف، وأبو قردان مثلاً قوي، فجعل الضعيف طعمة للقوي، فللطيور أعين وآذان تمتع بنور الشمس، وتسمع بواسطة الهواء، وتمتع بالأرض والهواء، ولا شيء من ذلك للدود، لذلك جعل غذاء للكامل، هكذا إذا بقي المسلمون ـ لا سمح الله ـ كما كانوا في القرون المتأخرة، فإنهم يكونون أشبه بالدود والأمم أشبه بطير أبي قردان، ولنا وطيد الأمل أن المسلمين سيرتقون، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١]. و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الزمر: ٧٥]. اهـ.

جوهرة في قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

لقد علمت فيما سبق أن السبع المثاني هي «الفاتحة والقرآن الكريم» معطوف عليها عطف الكل على البعض، إذن يكون ملخص الآيات: إنا أعطيناك العلم فإياك أن ترغب في لذات الدنيا أو تزاحم أهلها، وكيف ترغب في ذلك وقد أوتيت القرآن الذي فيه غنى عن كل شيء، فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينظر إلى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾[الحجر:٨٨]، أي: ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا، أو: لا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا.

روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «انظروا إلى من هو اسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعم الله عليكم». قال عوف بن عبد الله بن عتبة: كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثرهما مني، كنت أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت.

واعلم أن هذه الآية موافقة لما جاء في أول السورة إذ يقول الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر:٣]، فهناك احتقار للذات والمال، وهنا تصريح بطلب غض الطرف عن تلك الأموال والأحوال.

عجائب الفلسفة اليونانية والرومانية
وكيف أتى بها وبخير منها القرآن بعد اضمحلالها
وهذا من أعجب معجزات القرآن

يقول الله هنا: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴿٨٨﴾﴾ الخ، ويقول في أول السورة: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾، ويقول في أول سورة «الكهف»: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾، ويقول في سورة «الكهف» أيضاً: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾، يعني وهذه الزينة لا بقاء لها وإنما الباقيات الصالحات من الأعمال أفضل، ويقول في سورة «البقرة»: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ وهكذا أكثر سور القرآن تذكر فيها هذه المعاني.

فلننظر الآن إلى علوم الأمم السالفة السابقة على النبوة المحمدية، ذلك أن اليونان والرومان كانوا هم القائمين بالفلسفة قبل التاريخ المسيحي، ونبغ من بين اليونان «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطاطاليس»، ثم إن أمة الرومان احتلوا بلاد اليونان وأخذوا فلسفتهم وقرؤوها ونبغ فيها نابغون مثل «شيشرون» و«سنيكا»، ولقد كان من حكماء الرومان رجل يقال له «أبيكتاتوس» وكان عبداً بروما لصاحب الشرطة على عهد الإمبراطور «نيرون»، ولما رآه سيده أنه فيلسوف تركه يقرأ الفلسفة

والحكمة، وكان على مذهب «الرواقيين» وذلك سنة ٩٤ للميلاد، فلما صدر أمر الإمبراطور «قرمطيانوس» بإخراج الفلاسفة من إيطاليا هاجر إلى بلاد اليونان ومات بها، ولا يعلم تاريخ موته، وهو من أشهر المتأخرين من الرواقيين، وله حكم ما تزال متداولة بين الناس من القرن الثاني إلى الآن، ومحاورات نشرها تلميذه «أريانوس» والموجود منها الآن في العالم أربع مقالات من الثمانية الأصلية فمن حكمه: «إن روح الإنسان لها نسبة إلى نور الإله بل إنها شرارة من ذلك النور» هذا تعبير مجازي وفيض من ذلك الجوهر، وأهم ما في الفلسفة أن نبحث عن تطهير أخلاقنا لنكون أحراراً.

وملخص مذهبه يرجع إلى كلمتين اثنتين: الصبر على ما يؤذينا، والصبر عما فاتنا، يقول: إن الحرية أن يكون الإنسان متصرفاً في أفكاره كما يشاء، والعمدة في ذلك أن يفرق بين ما هو متعلق بقدرتنا وما هو غير معلق بها، أما ما هو معلق بقدرتنا فهو ضميرنا وأفكارنا وإرادتنا، وأما الباقي فهو من غير المقدور لنا، فعلينا أن نتحمل ما يلحقنا من الأذى إذا عرض وأن نصبر على ما فاتنا إذا فات؛ وبالجملة عدم الاكتراث بالأشياء الخارجة عنا التي هي غير مقدورة لنا، ويجب علينا أن نظهر الباطن ونجدَّ في ذلك حتى نحسَّ بالنور الإلهي فينا الذي حجب عنا، ثم علينا أن نعين الإخوان من سائر النوع الإنساني لأن الله هو ربُّ الكل وجميعهم تحت كلاءته ورحمته.

إذن ملخص مذهبه: صبر على أذى، وصبر على ما فات، وحب لله، وحب للناس، وهذا كله لا يتم إلا بتطهير الباطن، وهاك بعض حكمه:

الحكمة الأولى: كل ما في الطبيعة فهو إما أن يكون موقوفاً على قدرتنا، أو غير موقوف على قدرتنا، أما ما هو بقدرتنا فهو اعتقاداتنا وعواطفنا وأميالنا ومكروهاتنا وجميع الأفعال الصادرة منَّا، وما هو غير موقوف على قدرتنا هو البدن والمال والصيت والمناصب، وبالجملة كل ما ليس من فعلنا.

الحكمة الثانية: إن ما يتعلق بفعلنا لا عائق له، وما لا يتعلق بقدرتنا فهو ضعيف مضطرب أجنبي عنَّا.

الحكمة الثالثة: ينبغي لك أن تذكر أنك إذا تخيلت فيما هو غير حر، وفيما هو ليس بقدرتك أنه بقدرتك، فإنك لا تزال مضطرباً حزيناً شاكياً الله والناس، بخلاف ما إذا اعتقدت فيما هو لك أنه لك، وفيما هو لغيرك أنه لغيرك، فقد لا تجد لأفعالك عائقاً، ولا تفعل شيئاً وأنت كاره، ولا يكون لك عدو، ولا يلحقك ما يؤذيك.

الحكمة الرابعة: إذا أردت إدراك هذه الغاية الشريفة فعليك بالاجتهاد، وعدم التواني، والزهد في بعض الأشياء، والإمساك عن بعض، والمراقبة على نفسك، فإنه لا يمكن لك أن تجمع بين طلب ما هو خير في ذاته وطلب المال والمناصب، فإن فعلت فقد يفوتك كلا طرفي ما تقصده، أما المال والمناصب فلأنك قد طلبت الخير الحقيقي، وأما الخير الحقيقي فلأنك قد طلبت المنافع الأخر.

الحكمة الخامسة: إذا عرض ما يؤذيك فقل له إنك لواهم ولا شيء غيره، ثم اعرضه على الأصول السابقة وخصوصاً على الأول، فانظر هل هو في قدرتنا، أو مما ليس في قدرتنا؟ فإذا كان من غير المقدور فلا يلزم أن يمسك بشيء.

الحكمة السادسة: لا تنس أن القصد من كل ميل طبيعي إدراك ما نشتهيه، والقصد من كل تطور اجتناب مكروه، فالإنسان قد يكون شقياً سواءً فاته ما طلبه أو وقع فيما كان يحذره، وعلى ذلك فإذا كان ما تحذره من المقدور عليه فإنك لا تقع فيه أبداً، بخلاف ما إذا كنت على حذر من المرض والفقر والموت، فإنك لا تزال شقي الحال، فلا يكن حذرك إلا بما هو في قدرتك، وكن مطمئن البال فيما سواه.

الحكمة السابعة: انظر في الأشياء التي تستعملها، وفي كل ما تحبه ما هي صفته وحقيقة ذاته من أحقرها فصاعداً، فإذا تعلق حبك مثلاً بإناء من خزف فقل لنفسك إن ما تحبينه هو إناء من خزف فإذا انكسر لا يسوؤك تلفه؛ ومثل ذلك يقال في ولدك وزوجك تذكر أنها من البشر الميت، فإن عاجلتهم المنية لم يتكدر ضميرك.

الحكمة الثامنة: عليك قبل الشروع في فعل أن تنظر فيما أنت فاعله، فإذا أردت الحمام مثلاً ينبغي لك أن تستحضر في فكرك كل ما يعتاد وقوعه في الحمام من ازدحام الناس، وتلاكم بعضهم ببعض، ورش الماء على المارين، والمشاتمة، وسرقة الثياب. فإذا تصورت ذلك في فكرك لم يضطرب ضميرك. وقلت لنفسك إني أريد الحمام وإنما أريد البقاء على حريتي، وذلك يستوجب تحمل ما تقتضيه الطبيعة في خصوص ذلك الفعل، فإذا صدك عائق عن الاستحمام فقل إني كنت أقصد الحمام إلا أني كنت أريد أيضاً البقاء على حريتي ومروءتي، فإذا لم أكن أصبر على ما يفعله الغوغاء في مثل تلك المحافل ما بقيت حراً.

الحكمة التاسعة: أغلب ما يضطرب من أجله أفكار الناس هو ما يتخيلونه من الحوادث لا الحوادث نفسها، فالموت مثله ليس بشرّ إذ لو كان شراً لاستعظمه «سقراط» أيضاً، فخوفنا الموت ليس السبب فيه إلا ما تخيلناه في حقه، وكذلك إذا أحسسنا من نفسنا القلق والحزن فلا نلوم أنفسنا؛ أي: ما فينا من الظنون الكاذبة، ومن لام غيره على ما يطرأ له فهو جاهل، ومن لام نفسه دون غيره فقد شرع في الحكمة، أما الحكيم فلا يلوم نفسه ولا غيره.

الحكمة العاشرة: لا تعجبن بما هو أجنبي عنك، فإن الفرس مثلاً إذا أعجب بجماله يحتمل ذلك منه، وأما أنت فإذا أعجبت بجمال فرسك فقد افتخرت بما ليس لك، إذن لا حظ لك منه إلا الظن والوهم. نعم إذا قدرت أن تجري أفكارك على وفق الطبيعة فلك العجب به لأن ذلك لك ومنك.

الحكمة الحادية عشر: إنا معاشر الناس كراكب السفينة، فإن الراكب إذا بلغ مرسى على طريق سفره ونزل للبر ليتزود ماء فأعجبه شيء من العشب والحصى فلا مانع من أن يلتقطه، ويجب عليه مع ذلك أن لا يغفل عن سفينته، ويلتفت أحياناً ليبصر أين هي، حتى يكون مستعداً مهما أشار له رب السفينة بالرجوع فألقى جميع حمله وأسرع، وكذلك المسافرون في هذه الحياة إذا أعطوا زوجاً أو بنين مكان العشب والحصى فلا مانع من قبولهم إياها، وإنما إذا ناداهم الرب فإن عليهم بالتلبية والمسارعة وترك جميع ما بيدهم بدون التفات، ثم إن كنت شيخاً فلا تبعد عن السفينة لئلا يتعذر عليك إدراكها عند ما يدعوك ربها.

الحكمة الثانية عشر: إذا أردت أن تعيش هنيئا فلا تطلب أن تكون الحوادث على وفق مرادك بل فليكن مرادك على وفق الحوادث.

الحكمة الثالثة عشر: إن المرض يعوق البدن؛ وليس بعائق للإرادة إلا إذا وافقته، إذا كنت أعرج مثلا فهذا نقص يعوق رجلك؛ ولا يعوق حرية باطنك، فإذا تأملت في بقية الحوادث تجدها كلًّا منها يعوق شيئا مخصوصا، وليس بعائق لك في فكرك.

الحكمة الرابعة عشر: كل ما عرض لك من الأمور الخارجة عنك فانظر في نفسك تجد أن لك فضيلة خاصة لمقاومته، فإذا كان عليك امرأة جميلة فابحث في نفسك تجد فيها العفة تعودت ذلك ولم يكن لأوهام خيالك قدرة عليك أبداً.

الحكمة الخامسة عشر: لا تقل في شيء أتلفته، بل قل إني أرجعته، فإذا مات ولدك فقل إني أرجعته، فإذا قلت إنه قد تعدى علي غاصب جبّار؛ فأقول لك فما يعنيك على يد من استرده من كان فقد أعطاه لك، فما دام بيدك فتصرف فيه كما يتصرف في مال الغير، وكعابر الطريق يتصرف في متاع المنزل الذي حل فيه.

الحكمة السادسة عشر: إذا أردت أن تتقدم في الأخلاق الكريمة فلا يرد عنك قول الناس فيك أنك معتوه سفيه لعدم اكتراثك بالمكاسب والمال، ولا تجتهد في أن يراك الناس عالماً، وإذا أخذوا في احترامك فكن على حذر من نفسك، واعلم أنه يصعب الجمع بين استقامة الباطن وشغل البال بالمكاسب؛ إذا ما تعلق الباطن بأحدهما أهمل الآخر.

الحكمة السابعة عشر: إذا طلبت أن زوجك وأصدقاءك يعيشون على الأبد فإنك من السفهاء إذ ليس ذلك إلا لطلب من أراد أن ما ليس بقدرته يكون بقدرته، وأن ما لغيرك يكون لك، وكذلك إذا أردت من عبدك أن لا يأتي بخطأ أبداً فإنك على مثل ذلك من السفاهة إذ تريد أن لا يكون طبيعة العبد على ما هي في الحقيقة، وإذا أردت أن تبلغ مرادك فلا تريد إلّا ما في قدرتك.

الحكمة الثامنة عشر: إن كل من قدر على منع ما نريده، أو إكراهنا على مالا نريده فهو ربنا، فإذا أردت أن تكون حراً فلا تطلب شيئاً مما لغيرك، وإلا فقد تكون عبداً لا محالة.

الحكمة التاسعة عشر: كن في الحياة كمن دعي إلى وليمة، فإن قدم لك الطعام فخذ منه قدر حاجتك ولا تزد، وإذا أبعد عنك فلا تمسكه، وإذا لم يأت به بعد فانتظر واصبر، ولا ترفع صوتك في نداء الخادم، فكن مثل ذلك فيما يتعلق بالزوج والبنين والمال والمناصب جديراً بمنادمة الملائكة، فإن كان في قدرتك التمتع بذلك فاحتقرته وزهدت فيه فقد لا تكون نديم الملائكة بل شريكهم في الملكية.

الحكمة العشرون: إنك في هذا العالم كالشخص في الملعب، لتمثيل الشخص الذي عينه لك رب الملعب، فلا يعنيك كونه طويلا أم قصيرا، فماذا عين لك تشخيص الفقر فليس عليك إلا أن تقوم بذلك، وكذلك إذا فرض عليك أن تشخص أعرج أو سلطانا أو إنسانا من جمهور الناس فليس عليك إلا الوفاء بخطتك على قدر طاقتك، وأما تعيين الشخص فهو من غيرك.

الحكمة الحادية والعشرون: إن أحببت أن لا تغلب فلا تدخل من القتال إلا ما تيقنت الغلبة فيه.

الحكمة الثانية والعشرون: إن الأذى الذي يلحق الضرب والشتم ليس من الضرب والشتم بل مما تتخيله من ذلك، وإذا أغضبك أحد فاعلم أنه ليس هو المغضب لك بل ما تعلق بك من التصور، وعلى ذلك فاجتهد حتى لا تكدرك أوهام خيالك، فإذا دفعتها وانتظرت برهة من الزمان فقد تيسر لك أن تكبح نفسك وتتصرف فيها كما شئت.

الحكمة الثالثة والعشرون: ليكن نصب عينيك دائما الموت، والجلاء عن الوطن، وسائر ما يستعظمه الناس من المهولات لا سيما الموت، فلا يدخل ضميرك شيء من الأفكار الخسيسة، ولا تكن حريصا على شيء مزيد حرص.

الحكمة الرابعة والعشرون: إنك إذا تفرغت لطلب الحكمة فلا تلبث وقد أخذ الجمهور في السخر منك والهزؤ، يتساءلون عنك أنه لقد صار فيلسوفاً من يومه، من أين له هذه الحكمة وهذه النخوة، أما أنت فاسكت عنهم، ولا يأخذنك الكبر والعجب، والزم ما تراه أفضل، وأحسن قدر طاقتك، وأعده مرضاً قد فرضه عليك الإله؛ كالجندي جعل له مكانا يحرسه ولا يبرح عنه؛ واعلم أنك إذا داومت ولم تتوان في جهدك سيعجب بك من كان بك يسخر، بخلاف ما إذا راعك قولهم فتوانيت فقد لا يزيدهم ذلك إلا استهزاء منك واحتقاراً.

الحكمة الخامسة والعشرون: إذا أحببت أن تعرف وأن يعجب منك الناس فقد انحط بك حالك إلى أسفل ما كنت عليه، فاقنع بأن تكون حكيماً، وإن أحببت أن ترى حكيماً فلعين نفسك.

انتهى ما نقلته مما كتبه الأستاذ «ستلانة» الطلياني الذي ترجم هذا من اليونانية.

ويقول علماء الفرنجة: إن هذه الآراء هي الشائعة؛ وأمثالها في كلام الصوفية في الإسلام. ويقول «أبيكتاتوس» المذكور أيضاً هو وقابس اليوناني المذكور فيما سيأتي في سورة الإسراء؛ وهكذا فلاسفة الإسلام مثل الإمام الغزالي في الإحياء ما ملخصه: إن الخير المحض هي الحكمة، والشرّ المحض هو الجهل، أما المال والولد والصيت وقهر العدو وأمثالها فهي ليست بخير ولا بشرّ، ويكون الخير والشرّ بحسب ما يقارنها لا بها هي؛ كما يرى كثير من ذوي المال والصيت في شقاء مستمر، والعكس بالعكس.

هذا ما أردت ذكره بمناسبة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١]، وهكذا ما يناسبها من آيات القرآن. وهكذا قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦] الخ. ويقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] ويقول: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] الخ.

فيا عجبا! هذا القرآن نزل في جزيرة العرب وبلاد العرب قاحلة من كل حكمة إلا ما جاء في الأشعار، وبلاد الروم خاوية من حكمة الحكماء، وحكمة هذا الفيلسوف قد جعلت في خبر كان لما علمت من تحريم الفلسفة في تلك الدولة لأجل الدين المسيحي.

انظر وتعجب من آيات القرآن التي أتت بحكمة كانت مخبوءة عن الناس، ولعمري إن هذا وحده معجزة، وهذا ربما يعرف من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، فاللذين أوتوا العلم من الحكماء جرت على ألسنتهم وقلوبهم هذه الحكمة، فإذا سمعوا القرآن عجبوا من حكمة لم يسمعها الناس في زمانهم بل محيت من الأمم المتمدينة الراقية إذ ذاك لتحريم الفلسفة في الدين المسيحي. ويقول الحكماء إذا سمعوا هذا القرآن إن أعظم الأشعار المنقولة عن العرب أيام النبوة في الحكمة ما روي عن زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة	يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه	وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه	ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن يجعل المعروف في غير أهله	يكن حمده ذما عليه ويندم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده	فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

هذه أحسن ما في حكم زهير بن أبي سلمى، وحكمه أشهر ما عند العرب، إذن هذه الحكمة مجهولة عند العرب، ومكتومة ممنوعة عند دولة الرومان أيام النبوة المحمدية، فنزولها في القرآن بهذا المعنى في سور كثيرة هي المعجزة العلمية التي لم تعرف إلا في زماننا، هذا الزمان الذي ظهرت فيه حكم الأمم القديمة وترجمت حديثا للعربية، والحمد لله الذي وفق لنشر ذلك في التفسير.

وانظر إلى حكم ذلك الفيلسوف الروماني المتقدم فإنك لا تجد فيها ما جاء في هذه الآيات في السورة إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨] الخ.

فقد جعل الله في القرآن مخرجا من الهم بالتسبيح والحمد والصلاة، ولكن الفلسفة المذكورة لم تفتح هذا الباب للنوع الإنساني، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة.

انتهى تفسير سورة الحجر.

سورة النحل
مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

وهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من أول السورة، إلى قوله: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[الآية: ٥٠].

القسم الثاني: من قوله: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[الآية: ٥١] إلى قوله: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[الآية: ٨٩].

القسم الثالث: من قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾[الآية: ٩٠]، إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ

كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾
إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ
وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾
ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ
نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ
عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟
ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ
وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كان المشركون يستعجلون العذاب مستهزئين به، ويقولون إذا صح ما يقوله فإن الأصنام تشفع لنا يوم القيامة وتخلصنا من الهلاك في الدنيا، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وعبر بالماضي وإن كان مستقبلاً لتحققه كتحقق الماضي، فالأمر الموعود به محقق كما أن الماضي محقق، ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وكيف تستعجلون ما هو محقق سيحصل بعضه يوم بدر والباقي يكون يوم القيامة، ثم ردَّ عليهم في الشق الثاني قائلاً: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تبرأ سبحانه عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم، ولئن سألتم أي طريق به عرفت يا محمد أن هلاكنا محقق لنقولنَّ الوحي هو الذي أخبر به، وهذا قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ ﴾ بالوحي الذي هو في الدين قائم مقام الروح من الجسد، ويحيي القلوب الميتة بالجهل، ﴿ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ بأمره ومن أجله، ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ الأنبياء؛ أي: أن يتخذه رسولاً، ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ ﴾ أي: بأن أنذروا؛ أي أعلموا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ أن الشأن ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ ولو كان لي شريك لم يكن النظام الذي سيأتي الآن في خلق السماوات والأرض على أحسن ترتيب، فإن العمل المتقن فيهما دالّ على وحدة العمل وتمازج المنافع واتصال العالم العلوي بالسفلي، فلو كان هناك ثان في العمل لكان هذا العالم غير متفق المشارب، ولا متحد المقاصد، ولا صادق الوجهة الغائية، وهذه صفحة بيضاء من عالم السماء والأرض، قال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ على نهج متين تقتضيه الحكمة، ولا يسوغ أن يكون له شريك في خلقهما، ﴿ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

ولما كانت السماء والأرض قد نشأ منهما معاً خلق ما على الأرض؛ وأشرف ذلك الإنسان، وذلك أن العوالم الأرضية تدرجت في الخلق من أدنى نبات إلى أعلاه ومن أعلى نبات إلى أدنى حيوان فأعلاه؛ وهو الإنسان، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا حسّ لها ولا حياة

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ منطيق مجادل مناظر منكر على الله البعث، وقد نسي ما كان عليه من المهانة وهو نطفة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ للحجة، ثم إني قد كنت كتبت تفسير هذه الآيات إجمالاً في الخطاب الذي أرسلته لسائر المسلمين في الشرق والغرب وسميته « القرآن والعلوم العصرية » فلأذكره الآن كما هو هناك لاختصاره فأقول: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ما يدفأ به فيقي البرد ﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾ نسلها ودرها وظهورها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي: تأكلون ما يؤكل منها كاللحوم والشحوم والألبان، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ زينة ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها من مراعيها إلى راحتها بالعشي، ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها بالغداة إلى مراعيها، فإن الأفنية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها، ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ أي: تحمل أحمالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بكلفة ومشقة، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم، ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ ﴾ ذوات الحوافر، أي: وخلق لكم هذه ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ أي: لتركبوها وتتزينوا بها، ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ غير هذه الدواب التي تركبونها، وإنما ذكر هذه بعد البغال والحمير والخيل التي نركبها وتتزين بها؛ ولم يذكرها بعد الأنعام من الإبل والبقر والغنم؛ ليدلنا على ما كنز في أرضه وما دفن في باطنها من الحديد والفحم، وأن هذه ستخرجون منها قطاراً سائراً على البر وآخر مثله في البحر، فإن هذه القطر الجارية الحاملة لأمتعتكم التي تركبون عليها من بلد إلى بلد، والمناطيد الهوائية التي تسير في الجو، والغواصات التي تجري تحت الماء، مما سأخلقه لكم بعد حين، تقوم مقام الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، وكما أبحت لكم هذه الحيوانات وأنعمت عليكم؛ هكذا أبحت لكم القطرات وفحمها المخزون في الأرض والبترول وما أشبه ذلك، فلكم أن تنتفعوا بها وتشكروني و﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] والشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله. ولا جرم أني أنعمت عليكم بالقطرات والطيارات والفحم الحجري والبترول وسائر المعادن، فإذا تركتم نعمتي وأبيتم قبولها فإن ذلك منكم كفر لها وعدم شكر ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] عليكم في الدنيا بالذل وفي الآخرة بجهنم وبئس المصير لتستوفوا العقاب.

واعلم أن العلوم في القرآن للهداية، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق، ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ مائل عن القصد والاعتدال ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ السحاب ﴿ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي: ما تشربونه ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون، يقال: سامت الماشية وأسامها صاحبها، ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ هو السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كاللؤلؤ والمرجان تلبسها نساؤكم، ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ جواري فيه تشقه بحيزومها؛ من المخر؛ وهو: شق الماء، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ أي: جبالاً رواسي ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، ﴿ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا ﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً وطرقاً ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم وإلى معرفة الله تعالى، ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾ معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل وريح، والبوصلة المعروفة في السفن والبر ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ بالليل في البراري والبحار، ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ والمراد من «من لا يخلق» أي: الأصنام، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن تستطيعوا القيام بشكرها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . هذه الآيات ذكر فيها الإنسان والحيوان والنبات والبحر وما فيه، وذلك كترتيب علماء الطبيعة الذين جعلوا العالم العضوي والجمادي هكذا: الإنسان ثم الحيوان ثم النبات ثم المعادن.

يقول الله: خلقتكم من نطفة، وأودعتكم في الأرحام، وجعلت أعضاءكم مفصلة منظمة من أعضاء بطش كاليدين والرجلين، وأعضاء حس من سمع وبصر وذوق ولمس، ومن فكر وذاكرة وحافظة ومخيلة، ومنكم من يوحى إليه، ومنكم الحكماء، كل ذلك من نطفة، وسخرت لكم جميع الأنعام، وكل ما تركبون من الدواب، وأبحت لكم ما في باطن الأرض من الفحم الحجري والبترول والمعادن لتركبوا قطرات الطرق الحديدية التي لا تعلمونها من قبل، وهيأت لكم الطيارات الهوائية، والغواصات البحرية، لتشاهدوا عجائب الجو وبدائع البحر، وتروا ما لا عين رأت قبلكم ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب آبائكم الأولين، وجعلت لكم الزرع والشجر وبدائع الخلقة وعجائب الطبيعة، أنشأتها لكم مختلفات الألوان، بديعة الأشكال والخواصّ والطعم والرائحة، ومنها الحلو والحامض والعفص والمر والحريف والقابض والسام والقاتل والشافي والمغذي، ومنه طعام الآدميين، ومنه ما خلق للدواب مما لا يعلمه إلا أولو الألباب، وأنعمت عليكم بالبحر لتأكلوا سمكه ولتستخرجوا الدرّ والمرجان منه، ولتسيروا السفن تمخر عبابه، جاريات في بحر الظلمات بين أوروبا وأمريكا وفي المحيط الهادي والبحر الأحمر والأبيض المتوسط وبحر الروم وبحر نيطش والبحر الأسود وبحر البلطيق وبحر الهند وبحر الصين، كل ذلك سخرته لكم لتبتغوا من فضلي بطلب التجارة، ولم أخص الفرنجة به بل عممته للناس أجمعين.

أقول: ألم يأن للمسلمين أن يعقلوا ويتفكروا وينظروا ويذكروا أن المرجان في البحار والتجارة بالسفن فيها في يد أمم الفرنجة وهكذا الأمريكيون، أما المسلمون فلا ينقصون عن ٣٥٠ مليوناً. أوَليس من العجب أن المرجان في يد الفرنجة وسفن التجارة والحرب لهم وحدهم، وليس للمسلمين من ذلك إلاّ القليل، فألهم اللهم رجال أمتنا الإسلامية روحاً بها يستيقظون من غفلاتهم، ويرجعون مجدهم إنك على ما تشاء قدير.

إيضاح لتفسير آية

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

فذكر اللحم الطري؛ وهو السمك المستخرج من البحر، وذكر عجائب الجمال وبدائع الصنعة من الدر المخلوق في صدفه العائش في البحار، وكذا المرجان الذي ينبت في قاع البحر، ولعمرك لا ينال

مغنمه ولا يحظى بمكسبه إلا الفرنجة. ألا ترى إلى فرنسا فإنها تحصد حقول المرجان التي أمام تونس والجزائر، وهي حافظة لها، ومتى تم ينعها حصدتها وباعتها، والمسلمون نائمون لا يعلمون شيئاً، أولئك هم النائمون.

يقول الله: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾، والمسلمون كأنهم لم يقرؤوا القرآن، وكأنهم لم يخلقوا في هذه الأرض، وكأنهم أموات لا أحياء، يقول الله لهم: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ وتتحلى بها نساؤكم وهم يقولون: يا ربنا نحن لا نستخرج وإنَّما نشتري من المستخرجين من الأرض، فكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح، فحرموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم؛ بل أوجبه عليهم باعتبار أنه فرض كفاية؛ ولا كفاية لدينا ولا علم ولا عمل.

اللهم أنقذ أمتنا من هذا النوم العميق، وأيقظهم إنك أنت السميع العليم، واجعل كتابي هذا نوراً يستضيء به المتقون، ونبراساً يهتدي به الصالحون إنك عليم قدير.

إيضاح هذا المقام

اعلم أن شواطئ بلاد الجزائر تنقسم إلى عشرة أقسام، ويحصدون المرجان من كل قسم منها في سنة، ولا يصل الدور إلى آخرها حتى يكون قد نما أولها، لأنه يبلغ أشده في عشر سنين. وقد كان عدد الزوارق التي اصطادت المرجان في بعض السنين من شواطئ الجزائر ٣١١ زورقاً فيها ٣١٥٠ نوتيا.

ويبلغ ثمن ما اصطادوه منه ١١٣،٠٠٠ جنيهاً وهذا سنة ١٨٧٣، وفي سنة ١٨٨٦ غنم الإيطاليون من المرجان المذكور ٥٦ ألف كيلو غرام ثمنها أربعة آلاف فرنك ومائتا ألف فرنك. وغنم أهل فرنسا وأسبانيا ٢٢ ألف كيلو غرام ثمنها ألف ألف وخمسمائة وخمسون ألف فرنك، فيكون ما صيد من المرجان كله تلك السنة ٧٨ ألف كيلو غرام ثمنها خمسة آلاف ألف وسبعمائة وخمسون ألف فرنك.

كل ذلك والمسلمون لا يعلمون، ويقرءون القرآن وهم نائمون، والله سائلهم وهم لا يشعرون. وهذه صورة المرجان في البحر.



شكل (٨)
هذه صورة المرجان
ظهرت فيها ثغور حيواناته ضاحكة مستبشرة كأنها أزهار النبات

فصل في بقية تفسير الآيات في هذا القسم

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث أكثر النعم عليكم ولم يمنعها بسبب تقصيركم مع أنه يعلم سركم ونجواكم، فإذن لم يمنعه عن عقابكم إلا رحمته الواسعة بكم، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ من أقوالكم وأفعالكم وسأجازيكم عليه متى حان وقت الجزاء.

ولما أتم الكلام على ما خلق سبحانه شرع يذكر الأصنام، وأنها لا تخلق فكيف تجعل آلهة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ هم ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ ولو كانت الأصنام آلهة لكانت أحياء دائماً لا يجوز عليها الموت، ولكن هذه أموات لا حياة لها ولا حسّ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: وما تشعر الأصنام متى يبعث عابدوها، فإذا لم يكونوا للعالم خالقين، ولا بالحياة موصوفين، ولا يبعث عابديهم عالمين، فكيف يعبد الجاهلون مخلوقين، أمواتاً جاهلين بالبعث؟ ولا جرم أن هذا برهان على التوحيد، ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ للوحدانية ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباع الحق اتباعاً لأسلافهم وجرياً وراء المألوف ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي: حقاً ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فيجازيهم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾. وفي حديث مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»، ومعنى «بطر الحق»: أن الإنسان يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله، ومعنى «غمط الناس»: احتقارهم. يقال: غمطت حق فلان، إذا احتقرته ولم تره شيئاً، وكذلك معنى «غمصته» بالصاد، أي: انتقصته وازدريته. وهاهنا شرع يبيّن صفات هؤلاء المستكبرين وكيف يبطرون الحق ويغمطون الناس، فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: أحاديثهم وأباطيلهم، وكأنه جيء بهذا بعد ذكر العجائب والنعم في السماوات والأرض والزرع والنبات ليكون برهاناً ساطعاً أن هذا ليس أساطير الأولين، وإنّما هي حجج الحكمة وبرهان الطبيعة، وعلوم هذه العوالم التي يشاهدها الخلق أجمعون، وهم فيها لا يفكرون، ولذلك رتب عليه ما بعده فقال: فقالوا ذلك ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وبعض أوزار الأتباع الذين أضلهم المتبوعون؛ حال كون الأتباع لا يعلمون أن ما اتبعوهم فيه من العقائد الزائغة ضلال، وهذا يفيد أن جهلهم بأنه ضلال لا يعدّ عذراً، لأن العقل هو الميزان لا اتباع الرؤساء، ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي: ألا بئس ما يحملون، وهذا وعيد شديد.

ولما كان جميع الأنبياء على سنن واحد معروف؛ وذلك أن أعداءهم يمكرون بهم فيهلكهم الله؛ فهم جميعاً كقوم شيدوا بنياناً وأقاموه على عمد، فضعضع الله البنيان بأن تعتع العمد التي تحته، فوقع عليهم السقف فهلكوا، وهم لا يتوقعون ما أصيبوا به، وهذا هو تاريخ كل من كذبوا الرسل، كما تقدم في سورة «إبراهيم»، وهذا قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ أي: قصد تخريب بنيانهم من أصوله، فضعضع العمد التي بنوا عليها ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ

﴿ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ سقط عليهم السقف فأهلكهم ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ وهم آمنون مطمئنون، وهذا كقول القائل:

فلو بغى جبل يوماً على جبل ... لدك منه أعاليه وأسافله

وقولهم: «من حفر بئراً لأخيه يوشك أن يقع فيه».

وهذا الجزاء حصل لكل أتباع الأنبياء الذين خالفوهم في الدنيا، ولأهل مكة يوم بدر وما بعده، هذا عذاب الدنيا ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الأشهاد، ويقول: ﴿ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ ﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ وهم الأنبياء والعلماء تقريراً للحقيقة ﴿ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ﴾ العار والفضيحة ﴿ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ ﴾ العذاب ﴿ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فيزيد ذلك القول في خزيهم، ألا وإن عذاب الخزي يوم القيامة والافتضاح أشد أنواع العذاب، وقد أوضحناه في سورة «آل عمران»، ونقلنا أقوال علمائنا رحمهم الله في ذلك، وهذا مشاهد في الدنيا، فإن الناس لولا خوف الفضيحة لكانوا أسعد حالاً، فهم جميعاً ـ إلاَّ من رحم ربك ـ يسترون عوراتهم وفقرهم وسوء حالهم بالتظاهر والتباهي، فيضيعون ما اقتنوا من المال ويذيبون مهجهم في عداوات ومشاحنات وحرب خيفة الشماتة والعار، إن الناس يفضلون الموت على العار؛ كما يفعل كثير من الناس ويقدم على الموت ولا يعيش ذليلاً، فهكذا هؤلاء يخزيهم الله ويفضحهم، فإنهم لمَّا خرَّ بنيانهم الذي بنوه من فوقهم وأتاهم العذاب لم يكن لهم عذر، ويقول الذين أوتوا العلم بأن درسوا هذا الوجود المحكم المنظم الذي هو دائم النظام فاستقرت عقولهم واطمأنت نفوسهم وعرفوا الحقائق. وانظر إلى هؤلاء كيف سقط عليهم بنيان بنوه بلا روية وهو بنيان الاعتقادات الفاسدة، فأصبحوا في نظرهم أهل جهالة، حينئذ يكشف الغطاء، ويقول العارفون بخلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان والنبات والبحار ونعم الله التي لا تحصى مما هو مذكور في هذه السورة وغيرها: إن هؤلاء عارون عن الكلمات، وأفئدتهم هواء فهم لا يعقلون هذا، هذه المعاني كلها دخلت في قوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾، ولم يقل المؤمنين لأن الذين أوتوا العلم هم من أصحاب الأعراف، وهم الذين ﴿ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ ﴾ [الأعراف: ٤٦] فهؤلاء هم الذين يلمون بأحوال أهل الدارين فيصفون الكافرين بالخزي والسوء.

ثم وصف الكافرين فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ بالكفر ﴿ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ ﴾ استسلموا وانقادوا وقالوا: ﴿ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ ﴾ أي: ما أشركنا؛ وذلك من الهلع؛ ﴿ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ فهو مجازيكم ولا فائدة لكم في الإنكار ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أي: فيقال لهم ذلك، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ ﴾ مقيمين فيها لا يخرجون منها ﴿ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الحق فلا يؤمنون، وهذه الصورة التي يقابل بها المشركون يوم القيامة، ويقابلها ما يناله المؤمنون وهو قوله: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ ﴾ أي: أنزل خيراً، وأبدل منه قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ ﴾ مكافأة في هذه الدنيا كالنصر والفتح والرزق الحسن، ﴿ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ ﴾ وما أعدّ لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا، ﴿ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ الذين اتقوا الكفر والفواحش ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ بساتين إقامة وهو مخصوص

بالمدح ﴿ يَدۡخُلُونَهَا ﴾ حال ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ أي : تجري الأنهار في هذه الجنات من تحت دور أهلها وقصورهم ، ﴿ لَهُمۡ فِيهَا ﴾ في الجنات ﴿ مَا يَشَآءُونَۚ ﴾ أي : ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ هكذا ﴿ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

ثم وصفهم في مقابلة وصف الكافرين بالخزي وحكم أهل العلم عليهم أنهم مخزيون معذبون فقال فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ في اعتقادهم ورأيهم وخلقهم وأعمالهم وأقوالهم ، مبرئين مما خبثت به طباع أهل الخزي الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي : الملائكة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ في مقابلة قول أهل العلم لظالمي أنفسهم ﴿ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ الخ . قيل : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك الموت ، فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام ، ويبشره بالجنة ، ويقال له في الآخرة : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أي : بعملكم في الدنيا ، وهذا كترتب الشبع على تعاطي الطعام ، واستقامة العقل بالنهار في الدرس على استيفاء النوم ، وكل من عند الله ، فالعمل من عند الله ، والجزاء من عند الله ، فصح أن دخول الجنة بأعمالنا ، وصح حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » كما في الصحيحين ، وهذه التحيات المرسلة من الله للإكرام الذي هو أشرف أنواع اللذات ، في مقابلة الإخزاء لظالمي أنفسهم بذكر أنهم لهم الخزي والسوء فهذا هو الجزاء العقلي مع الجزاء الجسمي ، وهما أقوى أثراً في التعذيب والتنعيم .

ثم أخذ يشرح حال الكفار المارّ ذكرهم ، فأفاد أنهم بهذه الأعمال والعقائد لا ينتظرون إلاّ أن تقبض الملائكة أرواحهم فيموتون ، وتقوم القيامة فيعذبون ، وهكذا كانت الأمم قبلهم فأهلكوا ، ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ أي : جزاؤها وأحاط بهم جزاء استهزائهم ، ثم ذكر بعض الحجج التي يدلون بها إذ يرجعون إلى القضاء والقدر فقال : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ قالوا مستهزئين : يا محمد ، إن الله هو الفاعل المختار ، فكفرنا بمشيئته وكذلك آباؤنا وهكذا تحريمنا ما أحل الله على زعمك كالسوائب المذكورة في سورة « الأنعام » ، فلولا مشيئة الله ما فعلنا شيئاً من ذلك ، فعلام العقاب والتهديد ؟ وهم بهذا أنكروا البعثة ، وكذبوا الرسل ، وهم يستهزئون بهم ، وهذه الحجة من الحجج التي يدلي بها أكثر الناس ، وقد علموا أن من ترك الطعام اتكالاً على الله ، أو قصد الوقوع في بئر ، أو شرب السم ، أو تعرض للأسد ، أو أنزل نفسه في البحر بلا عوم ، أو قطع ذراعه بسيفه ، وهو في كل ذلك يقول : هكذا أراد الله ، فإن مثل هذا لا إجابة لكلامه بل يترك وشأنه ويموت غير مبكي عليه ، هكذا هنا ذكر الله حجتهم ولم يرد عليهم وأراهم أن هذه حجج الأمم الهالكة ، وهكذا كل أمة فتحت على نفسها باب القضاء والقدر خسرت ، وكان ذلك علامة خرابها ودنوّ أجلها وأفول نجمها ، فأجابهم الله بمعنى ذلك كله بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ فهم أدلوا بحجة القضاء والقدر وجهلوا حال هؤلاء الذين يذرون الأعمال النافعة ويحتجون بالقضاء والقدر ، وليس لهذه الحجج قيمة ، لأن الأسباب العادية من تعاطي الطعام والشراب وغيرها يلام صاحبها أشد اللوم إذا مات بتركها ، وهكذا من يتعرضون لخطر الموت بلا فائدة ، أو يغرقون أنفسهم ، فكل هذه أسباب عادية أخذاً أو تركاً .

أفليس إبلاغ الرسل من أسباب الهداية ؟ وأيّ فرق بين تعاطي الطعام وتفهم العلم في حصول الشبع والفهم، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي: إلاّ الإبلاغ الموضح، وليس على من وجبت عليه الزكاة أو أراد الصدقة إلاّ أن يحضر المال للفقير ويقدمه له، فإذا أضرب عن أكل الطعام فليس على المتصدق ملام فقد أخذ بالأسباب، هكذا الأنبياء والعلماء يرشدون الأمم فإذا ضلت فليس عليهم ذم ولا ملام، وهذا هو الذي كان في الأمم السالفة، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ كما بعثنا محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ والطاغوت اسم كل معبود من دون الله ﴿ فَمِنْهُم ﴾ أي: فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل ﴿ مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أي: هداه الله إلى الإيمان ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ أي: وجبت عليه الضلالة فمات على الكفر على مقتضى الاستعداد السابق الذي تعلق به القدر ﴿ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ معتبرين متفكرين لتعرفوا كيف أهلكنا الأمم المكذبة قبلكم ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ من الأمم السابقين، وإذا كان استعداد الكفار غالباً عليهم، والقضاء نافذاً فيهم، فالله لا يهديهم وإن حرصت على هداهم، وهذا قوله: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ أي: من يريد إضلاله، أي: من حقت عليه الضلالة ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ أي: من يدفع عنهم العذاب ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ معطوف على ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾، يقال: حلف الرجل جهد يمينه؛ إذا حلف بالله، ﴿ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ ﴾ أي: يبعثهم، وهو إثبات لما بعد النفي ﴿ حَقًّا ﴾ هو مصدر مؤكد لما دل عليه ﴿ بَلَىٰ ﴾، فقوله: ﴿ يَبْعَثُ ﴾ وعد منه تعالى، ولا جرم أن الوفاء بهذا الوعد حق ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لجهالتهم بما حولهم من آيات الله تعالى أنه إذا أوعد لا يخلف، فهو يجعل كل نبات يلد مثله، وكل شجر يأتي بثمره الخاص به، ويجعل الأيام والليالي والشهور والسنين في مواعيدها التي سنها، ولا جرم أنه بهذا يفي للناس بما عاهدهم عليه بمقتضى جريان عادته بها، فهكذا هنا وعد الله على لسان رسوله فهو حق، كما كان كل ما حولنا حق، فإنه يعد بمقتضى الحال ولا يخلف الميعاد، وإذا كان عدد النبات على وجه الأرض مائتي ألف نوع، وبعضهم زاد كثيراً، فقد صدق وعده ولم يخلف وعده، بحيث أثمر كل نبات ما هو منتظر منه، وهل بعد هذا وفاء ؟ هذا وعد الله وهذا وفاؤه، إنّما يبعثهم ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو الحقائق العلمية ويرون كل ما جهلوه، فيفصل بينهم ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴾ فيما كانوا يزعمون لظهور الحقائق لهم، وكيف ينكر البعث، و﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، وإذا كان كذلك فلا تعب عليّ في إحيائهم وبعثهم، فأجازي هؤلاء المنكرين، والمؤمنين المهاجرين بالقسط ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وقوله: ﴿ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي: في حق الله ولوجهه، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ مباءة حسنة وهي المدينة ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا، وكان عمر رضي الله عنه إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لو علم الكفار أن الله يجمع للمهاجرين خيري الدنيا والآخرة لوافقوهم، هم ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على مفارقة الوطن

وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله تعالى ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: يفوضون الأمر إلى ربهم راضين بما أصابهم في دين الله، ولما قالت قريش: الله أعظم من أن يرسل بشراً، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ ﴾ فإن كنتم في شك من ذلك ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ ﴾ الذين يعرفون ذلك، إما بما ورد في كتبهم كعلماء اليهود والنصارى، وإما بما بحثوا في الحكمة كعلماء الحكمة وعلماء الأرواح، إذ يعلمون أن الروح لا يتجلى للناس إلاَّ في أحوال خاصة بشروط يستحيل أن تتوافر في الأحوال التي يكون فيها الأنبياء، ولا بد أن يكون الأنبياء من البشر، وقد مر تحقيق ذلك في سورة «الأنعام»، ﴿ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ الخطاب لأهل مكة، وهنا يرد سؤال فيقول القائل: بِمَ أرسل الله الرسل؟ فأجاب الله تعالى: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ ﴾ أي: أرسلناهم بالمعجزات والكتب ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلذِّكۡرَ ﴾ القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ في الذكر بواسطة إنزاله عليك، فيعرفون المأمور به والمنهي عنه والمتشابه، ومعنى تبيينه أنه ينص على المقصود تارة ويرشد إلى القياس أخرى، ويعول على العقل ثالثاً ﴿ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تنبيهاته فيعرفوها، أي: وإرادة أن يتأملوا فيه فيقفوا على المقاصد الحقة، وهنا أوضح الوعيد الواقع على الذين عاندوا ولم يؤمنوا بالذكر ولم يتفكروا بل مكروا مكراً سيئاً فقال: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وهم احتالوا لهلاك الأنبياء ﴿ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ كما خسف بقارون ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ ﴾ أي: متقلبين في متاجرهم ﴿ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ ﴾ أي: على أن ينقص شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم. يقال: تخوفته إذا انتقصته. روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب هذا في أشعارها؟ فقال: نعم. قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منها تامكاً قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ إذ لم تبتلعكم الأرض، ولم ينزل عليكم من السماء عذاب، ولم تأخذوا في متقلبكم، ولم ينتقصكم شيئاً فشيئاً، بل أبقاكم سالمين، فلا سماء تزعجكم، ولا أرض تبلعكم، ولا أحوال تعرض بينهما فيها هلاككم، لا، بل النعمة عليكم أتم، والمنن عليكم أعظم، فإننا بدل أن نسلط عليكم عذاباً من فوقكم ومن تحتكم ومن حولكم، جعلنا ذلك كله نعمة عليكم حافظاً لكم. ألم تروا إلى الأشجار كيف أظلتكم بظلها الظليل، وإلى الجبال أكنتكم في كنفها من الحر الشديد؟ فهذه الظلال أرسلناها لكم لتأووا إليها من حر الشمس التي هي من أجلّ النعم عليكم، فكان هذا الظل ملطفاً لفعلها حارساً لكم من سمومها وهو من المعقبات التي تحيط بكم لدرء الشر عنكم، فلم نقتصر في نفعكم وحفظكم على السماوات وخيراتها، والأرض ونعمها، والسحاب ومطرها، بل الظلال التي هي أعراض حالة في أقطارها أرسلناها إليكم، فأي رحمة أعظم من ذلك وأي سعادة أكمل، وليس ذلك بمستعص علينا، فالأجسام والأعراض طوع إرادتنا فحولناها

إلى منافعكم ولم نجعلها نقمة عليكم . ألم تروا أن ما في السماوات وما في الأرض خاضعون لنا مسخرون لقدرتنا مطيعون لأمرنا ؟ فترى ظلال الجبال وظلال الأشجار وظلال كل نبات وحجر وشاخص تمتد صباحاً ثم تتقلص ، ثم تمتد مساء ، وتزيد إلى منتهاها ، وهي ساجدة خاضعة ولاصقة بالأرض لصوق جبهة المصلي بها ، ذلك تبع للشمس المسخرة بأمرنا الساجدة لقهرنا ، الدائرة هي وأمثالها من الشموس والكواكب الجاريات في مداراتها ، وهن صاغرات خاضعات ، كما خضع وسجد كل ملك حافظ لهن مهيمن على سيرهن ، وهكذا كل مخلوق من معدن ونبات وحيوان فوقهن ، كما ترون في أرضكم مع اختلاف الأحوال ، فإن الكواكب الثوابت لا تساوي شمسكم بالنسبة لها شيئاً ، وحولهن أرضون لا تقل عن ثلاثمائة ألف ألف أرض فيها عوالم لا تعلمون أشكالها وأوصافها ، كل هؤلاء مسخرون صاغرون سواء أكانت الأحياء الحيوانية أم الأحياء الملكية وهم الملائكة ، ولم يكن خلوصهم من المادة وقربهم من ربهم مانعاً من خوفهم منه ، بل يشتد الخوف كلما ازداد القرب ، ولذلك يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ استفهام إنكار ، أي : إلى الذي خلق الله ، و﴿مِن شَىْءٍ﴾ بيان له ، ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ يرجع من موضع إلى موضع ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ عن الأيمان ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ جمع شمال ﴿سُجَّدًا﴾ حال من الظلال ، ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون ، حال من الضمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ لأنه في معنى الجمع ، وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل ، وجمع بالواو والنون للتغليب ، والدخور : الاستسلام طبعاً أو اختياراً . ويقال : سجدت النخلة ، إذا مالت لكثرة الحمل ، وسجد البعير ، إذا طأطأ رأسه ليركب عليه .

ثم قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ بيان لما في السماوات وما في الأرض ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطف العالم المجرد من المادة على غير المجرد منها ، فكأنه قال : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الدواب والملائكة في السماوات والأرض ، فالقسمان في المكانين ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ هذه الجملة حال من الضمير في ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ، أي : لا يستكبرون خائفين ، وقوله : ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي : غالباً لهم قاهراً ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فهم مكلفون بأعمالهم بين أمر ونهي وخوف ورجاء . انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول .

البلاغة

وإذا فرغت من التفسير اللفظي لهذا القسم ، فهاك موازنة بين أول معلقة طرفة بن العبد ، وأول سورة « النحل » من كتابي « أدبيات اللغة العربية » صفحة ٤٥ . قال طرفة بن العبد :

إن لخولة محبوبتي أطلالاً ، جمع طلل ، أي : ما شخص من آثار الديار حتى يرى بأرض ذات حجارة مختلفة الألوان ، يعبر عنها ببرقة بمكان يقال له « ثهمد » لبني دارم ، وتلك الآثار تبرق كأنها الوشم في ظاهر اليد ، وقد وقف أصحابي مطاياهم لأجلي ، وقالوا : لا تهلك من أجل حزنك عليها وتجلد ، وكأن الهوادج المخصوصة المسماة بالحدوج تحمل تلك الفتاة من بني مالك في أوائل النهار سفن عظام في مسيل الماء الجاري في المكان المسمى « دد » ، وهذا معنى قوله :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ

كَأَنَّ حُدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُدْوَةً ... خَلَايَا سَفِيْنٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ

الحدوج : جمع حدج ، مركب من مراكب النساء المالكية من بني سعد بن مالك . خلايا : جمع خلية ، السفن العظام . والنواصف : جمع ناصفة ، وهي مسيل الماء المتسع . ودد : اسم مكان .

ثم قال : كأن هذه السفينة من سفن « عدولي » وهي قرية بالبحرين ، أو من سفن ابن يامن ملاح من أهل البحرين ، وتلك السفينة يجور بها الملاح فيضل الصراط السوي تارة ويهتدي أخرى فيسير ، وإن حيزومها ، أي : صدرها يشق زبد الماء وموجه ، كما يقسم التراب الرجل الذي يصنع الفيال بيده ، وذلك أن توضع الخبيئة في تراب أو رمل ويقسم بيده ، ففي أيهما كانت الخبيئة فالحكم تابع في القمار له أو عليه ، هذا معنى قوله :

عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِيْنِ ابْنِ يَامِنٍ ... يَجُورُ بِهَا المَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا ... كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

وإذا سمعت ابتداء معلقة طرفة بن العبد ، فاسمع الآيات في مبدأ سورة « النحل » ، وتعجب كيف جاء المبدأ مباينا لما يقرع آذان العرب في أفصح كلامهم ، قال : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] إلى قوله : ﴿ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : ١٩] ، ألا تتعجب كيف ذكر خلق الإنسان من ماء مهين ، ثم تلاه بخلق الحيوان ، ثم أتبعه بالنبات متدلياً من أعلى إلى أسفل مع ذكر الماء ، ثم ترقى في أسباب هذه المواليد الثلاثة ؛ فأخذ يشرح عجائب الليل والنهار والشمس والقمر ، ثم عمم فذكر بقية الدراري اللامعات في السماء ، فقال : ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [النحل : ١٢] ، ثم تلاها بالبحار الملحة ذات الزخارف والزينة من المرجان والجواهر المضاهية في جمالها والمشاكلة في حسنها تلك اللوامع والنجوم المشرقة والأصباغ البهجة في النبات الناجم والشجر البهج البديع .

أفليس عطف البحر لما فيه من الجمال والبهاء والزينة على ما فيه الألوان البهجة من النبات والنجم من أعجب ما سمعه أولو الألباب ؟ ثم تلاه بالجبال والسفن والأنهار والسبل والاهتداء . ولا جرم أن السفن تناسب الأنهار لتمخرها ، وتوافق السبل والاهتداء بالنجم في البر والبحر ، وللسفن بالنجم أشد العلاقات ، إن في ذلك لآيات .

تعجب من هذه المعاني وطف من بعد ما بيناه آفاق القصائد في الجاهلية ، فهل ترى إلا الظعائن والحدوج والنياق وبرقة ثهمد والأطلال التي تشبه الوشم كما في قول طرفة بن العبد المتقدم ، وكما تراه في قول زهير بن أبي سلمى إذ ابتدأ قصيدته بذكر أمّ أوفى وهي محبوبته ، إذ يقول :

أمن منازل محبوبتي أم أوفى دمنة

أي آثار مسودة بالبعر والرماد سألتها فلم تتكلم ، وتلك الدمن بمكان غليظ ، أي : الحومانة التي بالمكان المسمى بالدرّاج والمكان المسمى بالمتثلم ، ثم قال : ولها دار بين روضتين ؛ وهما الرقمتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة ؛ كأن تلك الدار إذا عفت آثارها ما على ظاهر اليد من الوشم المكرر في نواشر المعصم ، والنواشر : أعصاب الذراع واحدتها ناشرة ؛ فهذه الدار ترى العين ، أي : البقر الوحشي ذات العيون الواسعة ، والآرام : الظباء الخالصة البياض ، يمشين ويخلف بعضهن

بعضاً وإنهن يتمن أولادهن، وإذا ظنن أن أولادها خلت أجوافها صوتن بهن، فينهضن من كل مجثم: أمكنة نومهن فيرضعن، وهذا معنى قوله:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ
وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا العَيْنُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاَؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

المعصم: موضع السوار من اليد. العين: جمع عيناء، البقر الوحشي لسعة عينها. الأطلاء: جمع طلا، وهو ولد الظبية والبقرة.

وازن هذا المبدأ الذي لا يتعدى بيت أمّ أوفى، والدمنة التي لا تتكلم، والأرض الغليظة، وبقر الوحش والظباء يتبع بعضها بعضاً وهن يرضعن أولادهن، افهمه وتأمل مقاصده وكيف تقاربت أوائل القصائد في تلك المعاني العاكفة على البيداء وأطلالها، والبطحاء وبعرها، والبقر وأطلائها، لا تجدها تتعدى دائرة ضاقت فلم توسع نطاق العقول، وعريت عن أكثر جمال الطبيعة، فحادوا عن اتساع نطاق المدنية، وظلوا في البيداء متشاكسين، وانظر أول «النحل» هنا كما تقدم، وما يقاربه من أول سورة «الأنعام» إذ يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ابتدأ بالحمد على أنه خلق السماوات والأرض، وهما العالم العلوي والسفلي وما يحيط به من أنوار النهار وظلمات الليل، ومع ذلك ترى الكفار يعدلون بالمبدع لهذا الجمال سواه، وكيف تكفرون به وهو الذي خلقكم من طين فجعله نباتاً فأكله الحيوان، فصار الطائفتان طعام الإنسان، فصار الطعام ماء دافقاً فنشأ منه بشر سويّ، فجعل له أجلاً لموته وله أجل آخر لحياته الأخرى، ثم أنتم أيها الناس بعد هذه العجائب والحكم تكفرون؟ وكيف تكفرون به وهو الذي أحاط علمه وشملت قدرته أكناف السماوات ونواحي الأرضين؟ فلا جرم يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تفعلون من خير ومن شر.

أليس في ذكر الظلمات والنور تشويقاً لنفوس الناشئين إلى جمال الأنوار فيعشقون محاسن أنوار النجوم والأقمار وبهاء الشمس، وتنطبع على ألواح قلوبهم صور الأنوار المتلألئة من النار والشرر المتطاير من الزناد ومن نور الكهرباء وجمال المصابيح وغير ذلك.

لن تقوم أمة الإسلام إلاّ بالكلام البليغ المملوء حكمة وصوراً جميلة من المعاني البديعة، إن نقش صور العجائب السماوية والأرضية وإنارة العقول بفهم الجمال في أكناف العوالم إحياء لها وإخصاب لمزارعها وإنماء لما أجنت من الفضيلة والحكمة.

إن الأمم توابع لما يسمعون وهم أبناء ما يعطون، ألا إن الجمال في الإنشاء واختيار أحاسن القول والتطواف بالقارئ في الأنوار والظلمات والنجوم والبر والسهل والجبل، وإيرائه دقائق الأشجار وبدائع الأزهار وأعاجيب الثمار وتلألؤ الأنوار وبهجة الأصباغ، إن ذلك لمحيي نفسه وشائق روحه إلى التطلع إلى درجات المعاني، فيرى الفضيلة خير ما يبتغي ويحيط علماً بأمته ويتعالى عن السفاسف ويتهيأ للحكمة ولقيادة الأفكار في القرى والأمصار.

اعلم أن هذه السورة أشبه بما قبلها من سورة «الحجر» و«إبراهيم» و«الرعد»، حافلة بالعجائب، غنية بالحكم والبدائع، مرصعة بالجواهر الفلكية والآراء الحكمية والدرر الطبيعية، فهذه السور المكية التي تليت على الجماهير في مكة ساقت الناس إلى الإيمان، وتشابهت في أسلوبها، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الحكمة، الموعظة الحسنة، المجادلة، فترى في «الرعد» وفي «إبراهيم» وفي «الحجر» وفي هذه السورة الحكمة مفصلة واضحة.

ما هي الحكمة، وما هي الموعظة الحسنة، وما هي المجادلة؟

أما الحكمة فهي نظام هذا العالم وجماله، ففي «الرعد» ذكر البرق والرعد والسحاب والمطر، وأرحام النساء وازديادها ونقصها، وما أشبه ذلك. وفي «إبراهيم» ترى ذكر الثمرات، والأنهار والشمس والقمر الخ. وفي «الحجر» ترى إلقاح الأشجار، والهواء، والمخازن المودعة في الطبيعة بأمر خالقها، وخلق الإنسان وبعثه وجنته وناره. وفي هذه السورة تجد الترتيب بهيئة غير ما في السورة التي قبلها، ففي «الحجر» ابتدأ بذكر المعايش، وقفى بخلق الإنسان وانتهى إلى نهايته. فأما في هذه السورة فإنه ابتدأ بما انتهى إليه هناك، فإنه انتهى في «الحجر» بالبعث، وابتدأ هنا به نفسه، فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وأعقبه بخلق الإنسان ثم الحيوان ثم النبات ثم الماء والهواء والسفن الجاريات والبحار، فهناك ابتدأ بالمعايش وختم بالإنسان والبعث، وهنا ذكر البعث فالإنسان فالمعاش، هكذا كان الأسلوب هناك والأسلوب هنا، وهذا تنبيه وإيقاظ كأنه يقول: هذه سلسلة متصلة لها أول وآخر، وكأنها شخص واحد وإنسان واحد ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨]، فهذه السلسلة المنتظمة عندي كأنها شخص واحد بحيث يفتقر أعلاها لأدناها ويخضع أدناها لأعلاها، والجميع في السجود لي والخضوع لي كإنسان عابد خاضع، وهذه هي العلوم الشائعة اليوم المسماة بمسألة «النشوء والارتقاء»، وهي التي درسها المتقدمون وتعلمها المتأخرون، وهي تسمى في كتب العرب دائرة الوجود وتسمى في العلم الحديث: «النشوء والارتقاء»، فعلماء الفلسفة قديماً وعلماء الطبيعة حديثاً جميعاً يرتبون هذه العلوم كترتيبها في سورة «الحجر» من أدنى إلى أعلى، وذكرت هناك كذلك ليدل على أسلوب التعليم، فإن المبتدئ يجب أن تلقى إليه أبسط المسائل ثم يرتقي لأعلاها، فلما أنس المتعلم بهذا النظام وفهمه في سورة «الحجر» كرَّ راجعاً إليه فأعطاه إياه مبتدئاً بأعلاه كما يدرس له معلم الحساب بسائط الأعداد ثم مركباتها، وبعد ذلك يعطيه المسائل مركبة فيحللها إلى بسائطها ويرجعها إلى أوائلها، وهكذا على النحو والصرف وجميع العلوم. وفي هذا المقام سبع لطائف:

اللطيفة الأولى: في دائرة الوجود.

اللطيفة الثانية: وفي تعريف البهائم والأنعام، وفي قوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾.

اللطيفة الثالثة: وفي النبات.

اللطيفة الرابعة: وفي الحلية المستخرجة من البحر.

اللطيفة الخامسة: وفي النجم والاهتداء به.

اللطيفة السادسة: وفي السفن وجريها بالرياح.

اللطيفة السابعة: وفي الظلال.

اللطيفة الأولى

دائرة الوجود المشتملة على مملكة المعدن والنبات والحيوان

لست في هذا المقام بمكرر ما مضى، كلا، وإنَّما أنا الآن أقدم لك وصف هذه الممالك في كتب الطبيعة، وكيف رتبوها على النسق الذي في سورة «الحجر»، وجعلوه دائرة أولها صائر إلى آخرها؛ وآخرها راجع لأولها، وذلك أنهم يقولون: إن العناصر التي تركب منها هذا العالم هي ما نشاهد من أجزاء الأرض، وقد امتاز عن هذه الأجزاء المعدن ويليه النبات ويليه الحيوان ويليه الإنسان، والإنسان أدناه أقرب إلى البهائم وأعلاه أقرب إلى الملك، والملك قريب من الله، والله هو الذي خلق العناصر ومنها تكون المعادن فالنبات إلى آخره.

أفلست ترى أن القرآن في سورة «الحجر» ذكرها على هذا الترتيب من أدنى إلى أعلى، وهنا كرّ عليها من أعلى إلى أدنى، وهذا النظام عينه هو الذي استخرجه الحكماء في العصور الأولى وفي هذا العصر.

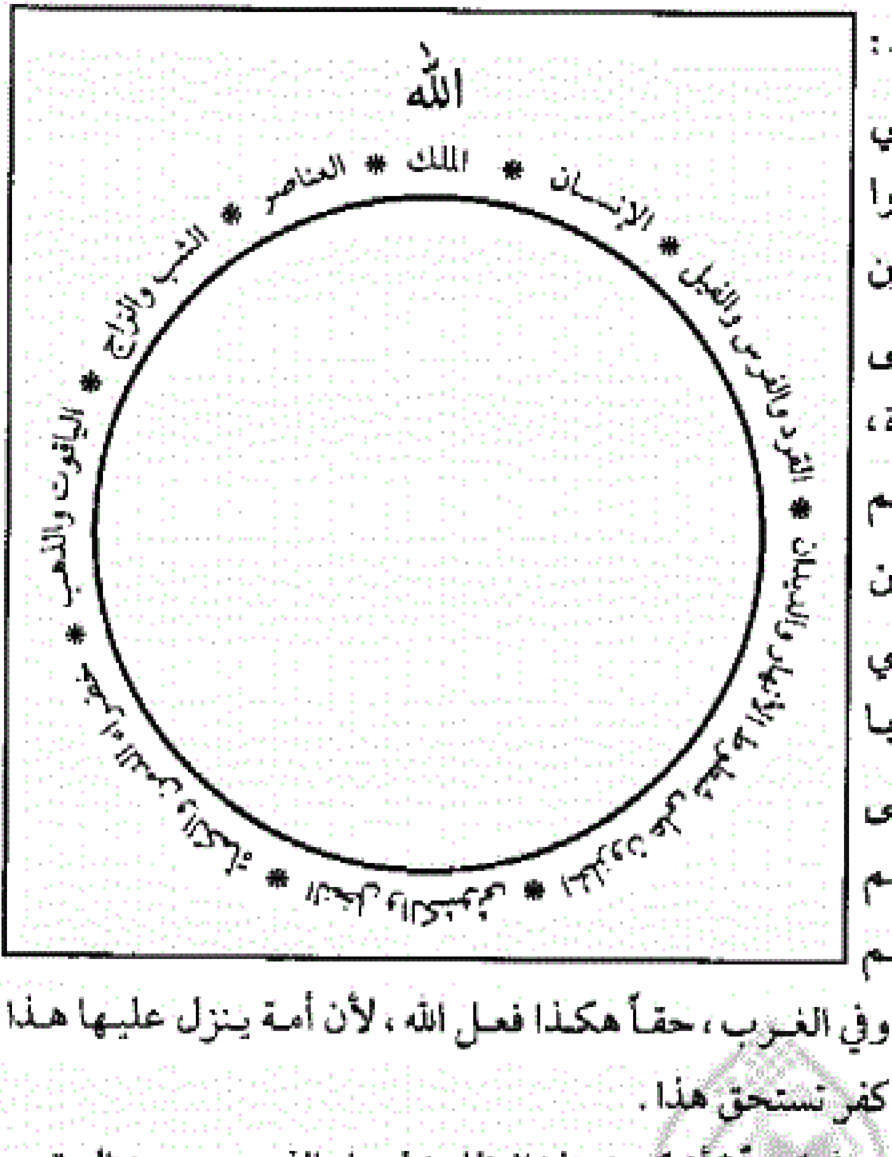
أيها المسلمون حرام عليكم، فوالله ما كنت لأعلم قبل هذا اليوم أن هذه الأعاجيب في القرآن، أي أن تكون الدائرة في سورة من أدنى إلى أعلى، ثم في التي بعدها تكون من أعلى إلى أدنى، وهذه صورتها:

فانظروا كيف ابتدأ بهذه الدائرة في سورة «الحجر» من الله، ومر بها على العناصر حتى انتهى إلى آخرها، وهو البعث ورجوع الأرواح إلى عالم أشبه بالعالم المجرد وهم الملائكة، فلما كانت سورة «النحل» ابتدأ من البعث، أي: النقطة التي وصل إليها في سورة «الحجر» فقال: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ١]، وذكر الملك ثم الإنسان فمرّ بها من جهة اليمين على الحيوان والنبات والدر والمرجان وهما من المعادن، ثم الجبال وهي من العناصر الأصلية وفيها المعادن أيضاً.

فيا معشر المسلمين، أمة هذا كتابها ترجع القهقرى وتقول: إن الله حرم عليّ النظر في علم الطبيعة؟ وهل علم الطبيعة علم غير هذا؟ هذا علم الطبيعة أوله وآخره، وهذا هو عينه المذهب المشهور في أوروبا وأمريكا الذي يسمونه مذهب «داروين»، والناس أكثرهم لا يعقلون مقصود هذا المذهب، وكيف يعلمون ما يجهلون؟ ومعرفة معناه الوقوف على الحقائق.

إن هذه العوالم كأنها شخص واحد، آخرها مرتبط بأولها، وأولها مرتبط بآخرها كما أريناك، فهل تحب أن تقف على بعض التفصيل في هذا الترتيب؟

المعدن أدناه الجصّ والزاج والشب وأعلاه الياقوت والذهب، والنبات أدناه خضراء الدمن والكمأة وأعلاه شجرة النخل وأمثالها والكشوثى التي تنبت على غيرها، والحيوان أدناه الحلزون وهي دودة في جوف أنبوبة، وتلك الأنبوبة تنبت على الصخر في سواحل البحار فليس لها إلاَّ حاسة اللمس ومثلها سائر الدود، وأعلاه ما أشبه الإنسان في شكله كالقرد، أو ذكائه كالفيل، أو أدبه كالفرس،



ولأعد لك الدائرة كرة أخرى، وهاهي ذه:

هذه هي الدائرة المنظمة التي أوضحها الفلاسفة والحكماء، وجعلوا أولها مرتبطاً بآخرها، وذكرها القرآن مرتين من يمين وشمال. إن هذا القرآن نزل إلى أمم أرقى ممن جاؤوا في الأعصر الأخيرة، ألم يكن منهم رجل رشيد؟ ألم يقم فيهم منذرون؟ نعم جاء فيهم كبار الحكماء كابن رشد والرازي والغزالي وابن سينا والفارابي فكفروا بهم وكفروهم، فأهلكتهم أوروبا وطردتهم من بلاد الأندلس، فرجعوا إلى الشرق خائبين، ثم أرسل وراءهم الأوروبيين فدخلوا عليهم ديارهم، فهاهم أولاء في ديارنا في مصر وفي شمال إفريقيا وفي الغرب، حقاً هكذا فعل الله، لأن أمة ينزل عليها هذا الكتاب وفيه نظام الطبيعة ويزعم قوم أنه كفر تستحق هذا.

يا سبحان الله، أيكون النظر في فعل الله كفراً؟ أفيكون هذا النظام الجميل الذي هو عين الترتيب الذي رتبه العلماء كفراً؟ أفلا نقول إن هذا هو جمال الله، وهذه هي معرفة الله، وبها حب الله، وبها السيادة في الأرض والتسلط على أهلها، ومن قرؤوا هذه العلوم أحبهم ربهم لأنهم درسوا ما عمل، وإذن يسلمهم قيادة الأمم على شرط أن يريدوا الخير لها، فإن لم يريدوا الخير لها سلبهم ملكهم، والمسلمون الأولون سلطهم الله على الناس لما كانوا خير أمة أخرجت للناس، فلما طغوا وجهلوا وتنعموا أذلهم الله وجعل غيرهم خيراً منهم.

والآن ظهر أن الأمم التي سلطها الله من الفرنجة قد طغت وليست خير أمة أخرجت للناس، فهاهو ذا يريد إرجاع المجد للمسلمين ويعلمهم سائر العلوم بطريق دينهم، وهذا التفسير من الكتب التي أراد الله بها إنقاذ هذا الشعب من جهالته العمياء وضلالته الكتعاء ونومته البلهاء، فيصبح سائداً مرتقياً على أكثر الناس إن شاء الله.

إيضاح كلمات مضت في الدائرة

خضراء الدمن: تكون في غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار، ثم تصيبه الأمطار وأنداء الليل، فيصبح بالغدوات مخضراً، وهو نبت كالزرع والحشائش، فإذا أصابه حر الشمس نصف النهار جفّ ثم يصبح من غد مثل ذلك، وهذه والنبات المسمى بالكمأة يكونان أيام الربيع في البقاع المتجاورة، ويقال لخضراء الدمن معدن نباتي، وللكمأة نبات معدني.

النخل: أقرب إلى الحيوان، فهو نبات حيواني إذا قطع رأسه مات، وقوة الذكورة منفصلة عن قوة الأنوثة، وهاتان الصفتان للحيوان، فجسمه نباتي ونفسه حيوانية.

والكشوثى: نبت يتعلق بالأشجار ويلتف عليها وعلى الزرع والشوك، فيمتص ويغتذي من رطوبتها.

الحلزون: دودة تقدم تعريفها قريباً، نصف شخصها من الأنبوبة، وتنبسط يمنة ويسرة، وتطلب مادة تتغذى بها، فمتى أحست برطوبة انبسطت، وإذا أحست بخشونة انقبضت ودخلت في الأنبوبة، وليس لها إلا حاسة اللمس.

القرد: صورته تقرب من صورة الإنسان.

والفرس: قد بلغ من أدبه أنه لا يبول ولا يروث ما دام بحضرة الملك أو حاملاً له، وفي هذا التفسير ذكر الحصان الذي جمع وطرح وضرب وعرف النقود. وقال الشاعر العربي:

وإذا شكا مهري إليَّ جراحه ... عند اختلاف الطعن له أقدما

لما رآني لست أقبل عذره ... عض الشكيم على اللجام وهمهما

هذه هي دائرة الوجود، وفيها مجلدات ضخمة تدرس في الشرق والغرب، ومنها اشتق مذهب «داروين» الذي جاء فيه الكلام على النشوء والارتقاء، وأن العالم يسير إلى الرقي، ولا يبقى إلا الأقوى، الخ ما هنالك.

اللطيفة الثانية: في البهائم والأنعام وما شاكلها
وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

الأنعام: كل ما له ظلف مشقوق؛ كالبقر والجاموس والغنم والمعز، والبهائم: كل ما له حافر؛ كالخيل والبغال والحمير، والسباع: كل ما لها أنياب ومخاليب، والوحوش: ما كان مركباً من ذلك، والطيور: ما كان لها أجنحة وريش ومنقار، والجوارح: ما كان لها أجنحة ومنقار مقوى ومخاليب معقربة، وحيوان الماء: ما يقيم فيه ويعيش، والحشرات: ما يطير وليس له ريش، والهوام: ما يدب على رجلين أو أربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه. وفي هذه السورة من هذه الحيوانات الأنعام والبهائم والحشرات كما سيأتي عند الكلام على النحل، وأما الطير ففي سور أخرى كـ«النور»، ويدخل فيه الجوارح.

قد ذكرنا في تفسير هذه الآيات المختومة بقوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أن الله إنما ذكر هذه الجملة بعد الأنعام وركوبها، لعلمه أنه سيخلق علوماً بفهمها يركب الناس في البر والبحر بلا دواب وبلا شراع للسفن، وقلنا: إن قوة البخار قامت مقام الدواب في تسيير القطرات وفي إدارة الآلات النافعة للإنسان، فلأوضح هذا المقام بعض الإيضاح فأقول:

إن الدواب هي التي كانت تحملنا وحدها، وهي التي بها نوصل البريد من بلد إلى بلد، وندير الآلات الطاحنة الساقية لأرضنا، فأرسل الله نوراً من عنده على بعض العقول الإنسانية فأظهروا للناس بعض العجائب، فكان ما نراه من البخار الضاغط بارتفاعه من الحرارة الواصلة إليه، فأجرى المركبات وأدار الآلات، وفوق ذلك فتح الله للناس باب الكهرباء، وقد ذكرناها في أول سورة «الأنعام» مفصلة، بحيث يكون عمود النحاس مع التوتياء يحدثان تلك الكهرباء بشرط أن يكون هناك سائل ملحي، فهذه الكهرباء هي التي أتمت ما ابتدأه البخار فأدارت وحركت وسقت وأغنت، فهذه مما

ذكره الله بقوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ بعد مسألة الأنعام. ولقد استبان للناس بعض السر في الطبيعة وكلما ازدادوا علماً ازدادوا غنى وسعة وراحة بحسب الظاهر، واتصل الناس بعضهم في أقرب وقت.

إن الكهرباء تحملنا كما يحملنا البخار، وتوصل لنا الأخبار وذلك بالبرق «التلغراف» وبالمسرة «التلفون»، فأصبح الإنسان يكلم أخاه وأحدهما في الشرق والآخر في الغرب، بل إنه في هذه السنة، أي: سنة١٩٢٦م قد اخترعوا طريقة في أواخر شهر يوليو، بها يرى الإنسان من يخاطبه حال مخاطبته، وذلك أن صورة المتكلم يحول لونها إلى كهرباء تمر في السلك، ومتى وصلت تلك الكهرباء المحولة إلى الآخر وجدت أمامها حاجزاً من الفوسفور فتحول بسببه الكهرباء إلى لون كما كان أولاً فيراه، ومعنى هذا أن وجه المتكلم متى أخذت صورته الآلة التي أمامه تحولت الصورة الضوئية إلى كهرباء بالخاصية التي في الآلة، وتمر في السلك، وهناك ترجع بالفوسفور إلى حالها الأولى. هذا آخر كشف للناس في عصرنا، وهذا من قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

نعم خلق الله ما لا نعلم، أليس هو الذي علم العالم الذي يسمى «فلطا» الكهربائي المولود سنة ١٧٤٥ المتوفى سنة ١٨٢٧ بإيطاليا كيف يستنتج من الضفدعة الميتة ارتقاء الكهرباء في العالم؟.

رأى هذا العالم ضفدعة معلقة بعد موتها وساقاها يتشنجان كلما اتصل بهما شرارة كهربائية أو اتصل بهما معدنان، فقال في نفسه: هذا سر عجيب يرقي صناعات العالم، فماذا حصل؟ صنع بطارية؛ وذلك أنه أتى بكؤوس من الزجاج، ووضع في كل كأس منها قطعة من الفضة وقطعة من التوتياء، ووصل كل قطعة من التوتياء من كأس بالقطعة من الفضة التي في الكأس الثانية، ووصل قطعة من التوتياء في الكأس الأخيرة بقطعة الفضة التي في الكأس الأولى، وصبّ سائلاً ملحياً فتولد من ذلك مقدار كبير من الكهربائية، وبهذه تنقل الأخبار بـ«البرق والمسرة»، أي: التلغراف والتلفون.

ثم إنه صنع ما يسمى «العمود الفلطائي»، وجعل المعدنين بينهما نسيج ثخين يمتص السائل الملحي الذي يُفعّل بالمعدنين، وجعله صفيحة من النحاس فوقها بعض من النسيج؛ ثم من التوتياء؛ ثم من النحاس؛ ثم من النسيج، وهلم جراً إلى الصفيحة الأخيرة ـ وهي من التوتياء ـ ولما وصلها بالصفيحة الأولى ـ وهي من النحاس ـ بسلك معدني تولد مجرى كهربائي يدوم ما دام النسيج رطباً، هذا المجرى قوي جداً يهيج أعصاب الميت ويحرك أعضاءه حتى يظهر كأن الحياة عادت إليه كما تقدم في الضفدعة.

فانظر كيف استنتج الإنسان من تحرك ضفدعة بسبب معدنين التقيا إلى هذه الكهرباء التي تدير آلاتنا وتنقل أمتعتنا وتفسر لنا قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أي: تفسر لنا هذا العطف، أي: عطف الجملة على الجملة التي فيها أننا نركب الخيل والبغال الخ، فهذه هي البلاغة، فالبلاغة في «الواو» العاطفة تعرف بالبخار وبالعمود الفلطائي.

إننا في الأرض نعيش في وسط الجمال ونحن غافلون، كيف نرى أمامنا نحاساً أو فضة أضيف إلى أحدهما التوتياء ووضع ملح بينهما فخرج من بينهما كهرباء، فالتفاعل بين المعدنين قام مقام الخيل والبغال والحمير.

إشراق النفس الإنسانية تمثله الكهرباء والمغناطيس

عاش الإنسان قروناً وقروناً وهو يمشي برجلين، ثم اهتدى إلى تسخير الحيوان في أعماله، ثم زاد الإنسان عقلا شيئاً فشيئاً، الإنسانية كلها أشبه بطفل ينمو قليلاً قليلاً، سخر الله لنا الخيل والبغال والحمير فركبناها، ثم:

(١) أخذ العقل الإنساني يتحرك، فقال «طاليس» اليوناني الذي نشأ في القرن السابع قبل الميلاد: إن جذب الكهرباء والمغناطيس نشأ من قوة روحية كامنة فيهما، وحثّ تلاميذه على درس ظواهر الطبيعة ليعرفوا أسبابها.

(٢) ثم قام «ثيوفواستس» اليوناني المولود سنة ٢٧٣ ق. م.

(٣) وكذلك «بلينيوس» الإيطالي المولود سنة ٢٣ ب. م للمسيح، فقالا: إن هناك حجراً آخر يجذب القش إذا فرك كالكهرباء، ولعله منها أو من «الراتينج»، ولم يزد أحد هذين العالمين على ذلك ولكن الثاني ذكر السمك الكهربائي المعروف بـ«الرعاد».

(٤) وقال «لقريتيوس» الشاعر الروماني في نصف القرن الأول المسيحي: إن المغناطيس يجذب برادة الحديد لو كانت في إناء من نحاس.

(٥) وقال الصوفي من علماء العرب وهو «جابر بن حيان»: إن المغناطيس يفقد قوته أحياناً.

(٦) وقال «القزويني» في عجائب المخلوقات: إن الكهرباء حجر أصفر مائل إلى البياض، وربما كان إلى الحمرة. ومعناه: جاذب التبن، وهو يجذب التبن والهشيم إلى نفسه، وهو صمغ شجر الجوز الرومي.

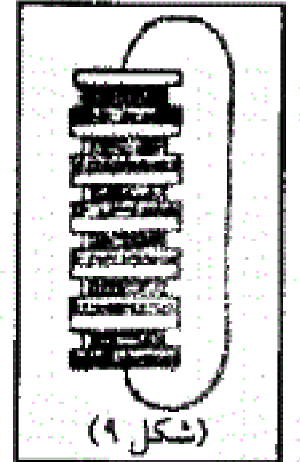
(٧) وأهل الصين تنبهوا لما في المغناطيس من القوة، وأنه يتوجه بنفسه إلى الشمال والجنوب، وقد صنع أحد ملوكهم إبرة مغناطيسية سنة ٢٦٣٤ قبل المسيح، وبها يهتدون في المفاوز والقفار وفي البحر، اهتدوا بها سنة ٣٠٠ بعد الميلاد، هاهنا عرف الإنسان كيف يستفيد من هذه الخاصية، وانتقلت هذه البوصلة المفيدة إلى العرب في القرون الأولى الإسلامية.

(٨) ثم جاء العالم «غليرت» الإنكليزي المولود سنة ١٥٤٠، فعرف أن خاصة الجذب المذكور بطريق الفرك تكون في الزجاج والكبريت والشمع الأحمر والراتينج والماس الصغير، وهكذا كل جسم متبلور، وليست تكون في المعادن ولا الرخام ولا الأبنوس والعاج والصوان والزمرد واللؤلؤ والمرجان، هذا رأيه ولكن العلم بعد ذلك اتسع فعرف الناس أن الكهرباء تكون في المعادن أيضاً وغيرها.

(٩) ثم جاء «كولون» في فرنسا المولود سنة ١٧٣٦، وابتدع طريقة قياس الكهرباء، مثلاً: إن القوة إذا كانت تساوي رطلاً واحداً على بعد قدم، تصير ربع رطل على بعد قدمين، وتسعة أرطال على بعد ثلاثة أقدام، أي عكس مربع البعد في المسافة.

(١٠) ثم جاء «كلفاني» من إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر، وعمل تجارب سنة ١٧٨٦، واتفق أنه علق عدداً من الضفادع بصنابير من النحاس في درابزون، فرآها تتشنج، وظن أن هذه كهربائية حيوانية.

(١١) ثم معاصره «فلطا» المتقدم ذكره، وأخذ يبحث ٢٧ سنة حتى عرف أن الضفدعة المذكورة هي والخرقة المبللة متساويتان في تأدية الغرض، فاخترع العمود الكهربائي المتقدم ذكره المسمى «رصيف فلطا» وهو صفائح من النحاس (ن) والتوتياء (ت) مرصوف بعضها فوق بعض كما أوضحناه سابقاً، والنسيج قد يكون من الجوخ (ج) وهو مبلل بحامض أو بماء ملح، فإذا بلّ الإنسان يديه ولمس بإصبع يده الواحدة الصفيحة السفلى من الرصيف وبإصبع يده الأخرى الصفيحة الأخرى شعر بهزة عنيفة، فهذه الهزة مبدأ تعرف به قوتها، وهي التي تسري في أسلاك «البرق والمسرة» التلغراف والتلفون، وتدير الآلات وتجري السيارات، وهاك صورة «رصيف فلطا» شكل ٩:


(شكل ٩)

هانحن أولاء قد وصلنا من الكهرباء التي تجذب التبن، إلى الكهرباء التي تحرك الأجسام الغليظة، وتحمل الإنسان في البر والبحر، وتقوم مقام الدواب. هذا هو الذي أريد أن أقوله.

أقول: إن الله عطف قوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ على خلق البغال والخيل الخ، ليشير إلى أن استعمالنا للدواب سيخلفه شيء لا نعلمه، وهانحن علمناه.

اللهم إنا علمنا، علمنا يا رب ما خزنته في الأجسام من عجائب الكهرباء، خزنته لنا ونحن أطفال، فلما ترعرع نوع الإنسان كشفت له عن خزائنك العجيبة، وأريته الكهرباء وحملته عليها في البر والبحر.

اللهم إن المخترعين كانوا من الصين والعرب أولاً، ومن أوروبا ثانياً، والناس كلهم عبادك فانتفع الناس جميعهم مما اخترعه بعضهم.

اللهم إن الإنسان اليوم لا يزال طفلاً جهولاً يخدم بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون، الإنسان ارتقت مدنيته المادية بنبوغ عقله، فنتائج العقل قامت مقام الدواب، والعقل عرف بهدايتك، وهدايتك تأتي بالتدريج، هذا هو الذي يشير له قولك في التنزيل: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾[النحل: ٩] بعد قولك: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فالسبيل العدل والطريق المستقيم عليك أنت، ولن يسلك السبيل المستقيم إلاّ بالعقل الذي لا يهديه إلاّ أنت، فإذا قلنا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] فقد أجبتنا إلى ذلك بأنك تهدي إلى قصد السبيل، خففت عن الدواب بما فتحت على عقول الناس من خزائنك في الأرض كالفحم الحجري، وخزائنك في الأجسام من الكهرباء فاستخرجها الإنسان؛ وكما استخرج الإنسان تلك المنافع من المادة يقدر أن يستخرج نظائرها من روحه.

إن الروح نزاعة إلى شرفها ومقامها الرفيع، إن في الناس عاطفة الخير وهم يودون لو يعرفون سر كل شيء، ويحبون النظام والحكمة، وهذا الذي ظهر لهم في الطبيعة سيغريهم بما هو أشرف وأكمل، وهو استخراج ما كمن في النفوس من الجمال والكمال.

عجباً في الأجسام كهربائية قلبت ظهر البسيطة، أفلا يكون في نفوسنا ما هو فوق الكهربائية، ومتى ظهر سر الأنفس انقلب نظام النوع الإنساني، وأصبحوا عالماً ملكياً إنسانياً، وزال ما بينهم من الجهالات والعداوات.

أنت خلقت ما لا نعلم، فعرفناه فنفعنا، وذلك في الماديات، وسيكون بعد ذلك المعنويات والفضائل والقوى النفسية، ذلك كله من قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾[النحل: ٩] الخ بعد ذكر خلق ما لا نعلم الذي ظهر سره في الكهرباء التي قامت مقام الدواب من المنافع الإنسانية، والمسلمون في زماننا مكتفون بالقشور كأنهم في القبور، وكأنهم لم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤]. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية.

جمال اللطيفة الثانية وذلك في ست فرائد:

الفريدة الأولى: استخدام الكهرباء في الزراعة.

الفريدة الثانية: وفي المرقب الذي لا سلك له.

الفريدة الثالثة: وفي التلغراف والتلفون اللذين لا سلك لهما.

الفريدة الرابعة: وفي الفلاح عندنا وعندهم.

الفريدة الخامسة: وفي سفينة الصحراء.

الفريدة السادسة: وفي سفن الهواء والطيارات.

ولنبدأ بالكلام على الفريدة الأولى، فنقول:

الفريدة الأولى: استخدام الكهرباء في الزراعة

من مزرعة مستر ماثيوز العالم الزراعي الإنجليزي

(١) هو استعملها سبعة وستين استعمالاً في مزرعته.

(٢) هو استعمل مسقطاً مائياً بعيداً عن المزرعة، وهذا المسقط أنتج الكهرباء، ويحمل التيار إلى المزرعة بواسطة أسلاك حول بناياتها، فمتى أراد أي عمل أمكنه أن يوصل أسلاك الآلة بالأسلاك العلوية من أي نقطة، وكل الآلات التي تستعمل في المزرعة تديرها محركات كهربائية تختلف قوتها باختلاف العمل الذي تؤديه؛ مثل حلب البقر، ومثل درس الغلال، ومثل طحن القمح، ومثل عمل الدريس، ومثل عمل الزبدة وفصلها من اللبن، ومثل غسل زجاجات اللبن وملئها باللبن وتغطيتها.

(٣) وبهذه الكهرباء أمكنه الحصول على النظافة والسرعة في العمل.

(٤) تكاليف استعمال الكهربائية المسماة بالكيلوات تنير ما قوته ٤ شمعات مدة ٢٥ ساعة، أو تخرج ٢٦٠ جالوناً من اللبن، أو تفصل ١٦٥ رطلاً من الزبدة، أو تطحن مبلغاً كبيراً من القمح.

(٥) يربى الدجاج بطريقة الكهربائية فيضيء بيت الدجاج في ليل الشتاء بجهاز كهربائي، ويكون نوراً ضعيفاً يشبه نور الفجر فيستيقظ الدجاج، ثم ينيرها نوراً كاملاً فتأكل الغذاء المعد لها، ثم يضعف النور كضوء الغسق فيرجع الدجاج إلى أماكنه، ونتيجة هذا أن البيض في زمن الشتاء يكون من الدجاجة الواحدة من ثلاثين بيضة إلى ثمانين بيضة، ولا جرم أن الشتاء فيه البيض أغلى منه في زمن الصيف، وهذا ربح عظيم.

(٦) وهناك جهاز كهربائي للتفريخ سعته ٢٢٤٠ بيضة، وبواسطة هذا الجهاز الكهربائي يمكن ضبط درجة الحرارة ويحصل له ٨٣ في المائة من البيض، أي إنها تفرخ.

(٧) لوازم المنزل من الماء الساخن بواسطة الكهرباء، والتدفئة في كل الغرف بالكهرباء، والطبخ بها، والغسيل بها، وعمل الثلج بها، وتنظيف الأبسطة.

(٨) يصل لكل غرفة جهاز لاسلكي به يسمعون النغمات والأخبار.

(٩) جهاز لتسوية الحشائش يدار بالكهرباء وقصها كذلك.

(١٠) بالكهرباء تنمو الأزهار في بيت زجاجي، ففيه كهرباء قوتها ألفا شمعة، وهذا يؤثر في الأزهار فتتفتح في أربعة أيام بدل أربعة أسابيع.

(١١) وهناك أوان لغلي الماء، وفرن كهربائي.

(١٢) إذا طبخت السيدة طعاماً فليس لها إلاّ أن تسلط الحرارة على ما تطبخه بواسطة الزر الذي تضغط عليه، ومعلوم الزمن الذي يتم النضج فيه فتذهب حيث تشاء وترجع فتجد الطعام قد تم نضجه.

(١٣) النحل في زمن الشتاء لا يخرج فيضع له نوراً خارج بيته، فيخرج فيجد شراباً فيتغذى منه فيكثر العسل.

هذا ملخص ما لاحظه جماعة من إخواننا المصريين زاروا هذه المزرعة.

رجعنا إلى تفسير الآية، عجائب القرآن وبدائعه، هذه هي الكهرباء وهذه نتائج أعمالها. هاهنا لنا الحق أن نبدي عجبنا من القرآن، وأي عجب أكبر مما ترى؟ يقول الله في الآيات السابقة: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾[النحل: ٥] الخ، فجعل منها منافع كثيرة كالدفء، والأكل، والحمل إلى البلاد البعيدة، والزينة، هذا كل ما ذكره القرآن للبهائم والأنعام، فالمنافع في الآية عامة، وفصل منها أربعة، أما الخيل والبغال والحمير ففيها الركوب والزينة فحسب، أفلا تعجب كيف أعقب هذه الآيات بقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني والذي لا تعلمونه ـ وهو ما سيخلقه ـ جعله لتأكلوا منه، ويكون دفأ، ويحملكم إلى بلاد أخرى وزينة، هذه هي الحكمة في عطف هذه الجملة على ما قبلها، وإلاّ فلماذا لم يذكر ذلك إلاّ هنا؟. يقول الله: خلقت هذه الحيوانات للمنافع المذكورة، وسأخلق ما يقوم مقامها وتعطيكم نفس هذه المنافع وذلك منه الكهرباء المذكورة، ألم تر أن المزرعة المذكورة قد كانت الكهرباء فيها سبب ظهور الأزهار بسرعة، وسبب كثرة البيض بتغذية الدجاج ليلاً على ضوء الكهرباء، فإذن الكهرباء زادت البيض وزادت أيضاً في لحوم الدجاج، ثم إن نورها مدهش وجميل، فهو زينة، وهي تسير القطرات إلى المسافات البعيدة بدل الخيل والبغال والحمير والإبل، وهي تدفئ كما تقدم، وفيها منافع كثيرة غير ما ذكر، فإذا أخذ الناس من جلود الأنعام نعالاً مثلاً؛ ومن أظلافها غراء، فهاهنا أتت الكهرباء بمنافع وافرة، كالغسل والطبخ وغيرها مما تقدم.

هذا هو بعض الأمر الذي تضمنه قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، علم الله أن العالم سيصبح فيه أعمال غير ما يعرفه الناس سابقاً، فأتى بهذه الجملة ليعرف المسلمون أن نعم الله ليست خاصة بما كان ظاهراً زمن النبوة، بل هناك من أنوار الله ما هو مخزون وسيظهر وقد تم، ولا جرم أن هذا التفسير على هذا النمط لم يقله المتقدمون، وذلك لأن الله لم يظهره إلاّ في هذا الزمان، فلما ظهر أظهرناه، وإنَّما أظهرناه لأن الله هو الذي أسس ذلك على قرار مكين، فجاء بهذه الجملة عقب الحيوانات النافعة ليقول لنا إن الذي سيخلق ولا تعلمونه يقوم مقام تلك الحيوانات النافعة.

عجائب الأنوار الربانية

أفلا تتعجب معي من المادة كما تعجب من القرآن! المادة التي نعيش في وسطها هي الأرض وما عليها، ظاهرها أنها لا شيء فيها سوى هذه المحسوسات، ولكن ظهر بهذه الكهرباء أنها متدخلة في جميع أجزاء الأرض والهواء، هي في كل شيء، غاية الأمر أنها ضعيفة في شيء قوية في آخر.

نحن نعيش في عالم كله جمال، وكيف لا يكون ذلك وقد ثبت عند قوم أن الأرض نفسها وكل ما عليها إن هي إلاَّ كهرباء متجمدة، أي: إن هذه المادة أصلها هي الكهرباء، ومتى استعملنا عقولنا في استخراجها ظهرت لنا، فهانحن أولاء نوصل معدنين ببعضهما كالنحاس والتوتياء، ونؤلف بينهما بسائل ملحي، فعندئذ تظهر الكهرباء التي هي أصل هذه المخلوقات، والكهرباء المذكورة تنقلب ضوءاً وحرارة ونوراً كما هو مشاهد، فالضوء يشتق من الكهرباء وكذا الحرارة وكذا الحركات، فكلٌ إلى كلٍّ ينقلب، إذا ثبت هذا فالكهرباء كامن فيها النور، أو هي نور مخبأ عن الأعين يظهره التفاعل. ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] فهو منورهما، بل هو منور كل حجر وكل صخرة وكل جبل من داخله وإن كان في ظاهره مظلماً في حالك الليل المدلهم، لماذا هذا؟ لأن الكهرباء متدخلة في أجزاء جميع الأشياء والهواء، والكهرباء ضوء، فالنور في كل شيء وإن كان كامناً.

خلق الله الحيوانات فانتفعنا بها، ثم قال: أنا أريحكم وأريح الحيوان، فارجعوا إلى النور الذي دفنته في المادة وخزنته فاستخرجوه، فإنه يقوم مقام هذه الدواب، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥].

ولا جرم أن نور الكهرباء يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، وهو يوقد من مادة العالم العامة وهي لا شرقية ولا غربية، فإذا أوقدت كانت له نوراً على نور، ولا جرم أن نور الكهرباء لم يهتد الناس له إلاَّ بهدى الله، هكذا العلم لا يهتدي الناس له إلاَّ بهدى الله، وسيأتي تفسير الآية تاماً، ولنكتف هنا بما ذكرناه، والحمد لله رب العالمين.

الفريدة الثانية: المرقب الذي لا سلك له، أدهش اختراعات هذا العصر

قلنا إن الكهرباء خلقها الله وكان الناس لا يعلمون، وإن فيها منافع كثيرة قدمناها، وآخر ما كشفه الناس أن يرى الإنسان أخاه على أبعاد شاسعة، أي أنه يسمع كلامه ويرى وجهه، وهذا مقال جاء في بعض المجلات العلمية سنة ١٩٢٦ ونصه:

أدهش اختراعات العصر. هل وصل العلم إلى آخر درجات رقيه؟

وهل أكمل المخترعون كل ما يدور في مخيلتهم من الاختراعات المدهشة؟

نحن الآن لا نزال في بدء عصر اللاسلكية، واللاسلكي لا يزال يفاجئنا كل يوم بأمور عجيبة مدهشة، فقد كنا منذ بضع سنوات يوم كمل اختراع التلغراف اللاسلكي نعتقد أنه سيكون خاتمة اختراعات البشر، فما لبثنا أن رأينا بعده التلفون اللاسلكي، ثم الفوتوغرافية اللاسلكية، وهانحن نشهد اليوم اختراعاً أدهش من كل ما تقدم، ونعني به المرقب اللاسلكي.

ذكرنا من قبل أن بعض علماء الفرنسويين اخترع مرقباً لاسلكياً لرؤية الأشباح عن بعد، وهو ما يعبر عنه القوم بلفظة « تليفزيون »، وشرحنا بالإيجاز ما بين هذا الاختراع واختراع الفوتوغرافية اللاسلكية من الفرق، ذلك أن الفوتوغرافية اللاسلكية تنقل الصور أو الأشباح الثابتة عن بعد؛ كأن تنقل مثلاً صورة رئيس الجمهورية الفرنسوية وتبرزها على ستار خاص، وأما الاختراع الذي نحن بصدده فهو ينقل الأشباح المتحركة بجميع دقائقها، فهو إذن أشبه بسينماتوغراف لاسلكي ينقل الحوادث والأشخاص كما هي ويبرزها لعين الناظر بجميع دقائقها.

وقد اطلعنا الآن على خبر في إحدى المجلات الأوروبية مؤداه أن شاباً إنجليزياً يدعى المستر « بيرد »، وقد أنجز اختراع المرقب اللاسلكي بحيث صار في متناول الجميع، ولكن المخترع لا يزال يعمل على تحسينه وإتقانه وهو يعتقد أنه لن تمر سنة من هذا التاريخ حتى يستطيع كل امرئ أن يقتني مرقباً لاسلكياً بثمن لا يزيد على ثلاثين جنيهاً، فيستعمله في منزله كما يستعمل التلفون، ويمكنه بواسطته أن يرى أشباح الذين يخاطبهم وأشباح غيرهم ولو كانوا في أقصى المعمورة، ولا ريب في أن هذا الاختراع سيحدث انقلاباً خطيراً في عالم الاجتماع، وسيؤدي استعماله إلى تغيير كثير من أنظمة العمران، وليس ذلك فقط بل سيقلب القوانين المدنية والجنائية والحربية رأساً على عقب.

تصور قائداً من قادة الجيوش جالساً في معسكره بمركز القيادة العامة، فقد كانت خططه الحربية حتى الآن تتوقف على الأنباء التي يتلقاها من مختلف الميادين، أما الآن فبواسطة المرقب اللاسلكي يستطيع أن يقف على مجرى القتال في كل جهة ويكيف خططه وحركاته على مقتضى ذلك.

وكذلك الأمر في أصحاب المهن والصناعات المختلفة، فإنهم يستطيعون وهم جلوس في منازلهم أن يشاهدوا بالمرقب اللاسلكي كل ما يرومون مشاهدته وأن يكيفوا أعمالهم بموجب ذلك.

ومما يجدر بالذكر أن العلماء قد كانوا يعملون على إنجاز الاختراع الذي نحن بصدده منذ عشرين سنة ولكن أعمالهم لم تكلل بالنجاح إلا في الشهر الفائت، إذ أتيح للمستر « بيرد » أن يكمل هذا الاختراع وقد سماه « التليفيزور » أو المرقب اللاسلكي وسجله، ثم عرضه على وزارة المواصلات في إنجلترا، فأصدرت مصلحة البريد رخصتين باستعمال هذا الاختراع بقصد مواصلة التجارب، وهاتان الرخصتان هما للمستر « بيرد » نفسه وللكابتن « هتشتسون » مدير شركة التليفيزور، أي: الرؤية عن بعد، وقد أنشأ هذان محطة للمراقبة اللاسلكية، وهي أول محطة في العالم من نوعها.

ومما يجدر بالذكر أنه بينما كان بعض أصحاب التليفون اللاسلكي واضعين سماعاتهم على آذانهم في لندن سمعوا أزيزاً غريباً يقاطع الأصوات التي كانوا ينصتون لها، ثم ثبت بعد ذلك أن الأزيز ناشئ عن مرقب المستر « بيرد » اللاسلكي، فإن هذا المرقب يحدث عند نقله الأمواج اللاسلكية أزيزاً يسمعه الذين ينصتون إلى سماعة التلفون اللاسلكي. وقد أجرى المستر « بيرد » عدة تجارب أثبت بها فائدة اختراعه، وشهد الكثيرون من العلماء نتيجة ما قام به من الخدمة للعلم، فهو قد قرب الأبعاد ومزق الحجب التي كانت تستر الناس بعضهم عن بعض.

والمرقب اللاسلكي لا يريك الشبح بشكل صورة فوتوغرافية فقط، بل يريكه في جميع حركاته وسكناته، ويريك أيضاً بعض ألوان الشبح الطبيعية ولا سيما الأحمر والأزرق، على أن المخترع لا

يزال يوالي تحسين اختراعه ليتمكن من إظهار جميع الألوان الطبيعية وظلالها، وهو شديد الثقة بقرب نجاحه بحيث يتمكن الجمهور من استعمال المرقب اللاسلكي في خلال العام المقبل.

وهذا المرقب شبيه جداً بآلة التلفون اللاسلكي، ويختلف عنها بكثرة ما له من العدسيات، وهذه العدسيات تتناوب على نقل جزئيات الشبح المراد مراقبته، وتناوبها هذا يتم بسرعة تفوق حد التصور، وهي تعكس جزئيات الشبح على الآلة القابلة كما تعكس آلة «السينما» جزئيات الأشباح على الستار فتظهر من مجموعها صورة كاملة، والمجال لا يسمح لنا بوصف دقائق هذه الآلة الغريبة، ولكن استعمالها على ما يظهر بسيط جداً، وهنالك صعوبة فنية يحاول المخترع تذليلها، وهي أنه عند انطباع الشبح يحدث ارتجاج يتعب البصر، وقد كان السينماتوغراف أيضاً كذلك في أول أمره، ثم تمكن مخترعوه من إزالة ذلك النقص، والمستر «بيرد» شديد الثقة بأنه سيتغلب على هذه الصعوبة، ويعتقد أنه لن تمر بضعة اشهر حتى يتمكن من إزالتها بتاتاً.

قلنا: إن المرقب اللاسلكي سيحدث انقلاباً عظيماً في عالم الاجتماع إذ سيمكن المرء من رؤية كل ما يجري في هذا العالم من دون أن يحرك ساكناً أو يخرج من منزله، وسيكون هذا الاختراع أكبر مساعد على مراقبة اللصوص ومرتكبي الجرائم، والعلماء ولا سيما علماء الفلك يرجون منه نفعاً خصوصياً لأنه إذا أتيح لهم رؤية الأشباح عن بعد ألوف من الأميال فسيتمكنون بلا ريب من رؤية ما يقع على أبعاد شاسعة، أي في الأجرام السماوية المختلفة، وبعبارة أخرى: إنهم قد يستطيعون بفضل المرقب اللاسلكي رصد الكواكب والأفلاك للتحقق من وجود الخلائق الحية فيها، فإذا تم ذلك فسيكون المرقب اللاسلكي أعظم اختراع أتيح للبشر إتقانه.

الفريدة الثالثة: غرائب التلغراف والتلفون اللاسلكي

أنبأ المستر «فردريك كلاواي» مدير شركة «ماركوني» في خطبة فاه بها في «تشامسفورد» بالخطوات العظيمة التي يخطونها في ترقية التلغراف والتلفون اللاسلكي في العالم في القريب العاجل.

وقال: إن النجاح التجاري الذي نجحته محطات «بيم» التي تنقل الرسائل بين الشرق والغرب فاق أعظم ما كان يؤمله لها المؤملون، علاوة على أنه أجريت في اربع والعشرين ساعة الماضية تجارب جهاز «بيم» مع استراليا، ومن رأي الثقات في مصلحة البريد أن عهد شركة «مركوني» قد نفذ «هتاف».

وأنبأ المستر «كلاواي» أيضاً بأن محطات التلغراف اللاسلكية التي ستربط جميع أجزاء العالم بعضها ببعض ستكون على قاعدة نظام «بيم»، وعما قريب سيتناول الواحد منكم سماعة التلفون ويخاطب والده أو أخاه في ملبورن وأنوي، وقال: إننا نقترب من فكرة نقل الرسائل كما هي طبق الأصل، فبدلاً من أن ينقل العامل الرسالة اللاسلكية على مفتاح الآلة توضع هذه الرسالة في الجهاز الذي يرسل الإشارات، فتدون بطريقة ميكانيكية وبعملية واحدة في الطرف الآخر من الدورة في أي ناحية كانت من أنحاء العالم، وهذا مما لا يكاد تقدر فائدته من الوجهة التجارية. انتهى.

الفريدة الرابعة
الفلاحة والكهرباء، والفلاح عندنا وعندهم

في هذه الفريدة أعطيك أيها الذكي صورة للفلاح عندنا والفلاح في أوروبا.

الفلاح عندنا بمصر يسقي زرعه بآلات ورثها عن آبائه منذ آلاف السنين، مثل الشادوف والساقية والمحراث المعتاد وما أشبه ذلك، ولا يحصل ما يحتاج إليه إلاّ بشق الأنفس.

أما الفلاح في أوروبا فقد فاق أجداده في الزراعة أربع مرات، ومعنى هذا أن الحقل الذي كان يحتاج إلى أربعين رجلاً منذ ثمانين عاماً، أصبح اليوم لا يحتاج إلاّ إلى عشرة رجال، ومع ذلك تسمع الأوروبيين يقولون إن الفلاح عندهم متأخر، لماذا؟ لأن صناعة الحديد مثلاً قد تضاعفت عشر مرات عما كانت عليه منذ أربعين عاماً. أما صناعة الورق فقد صارت أضعافاً مضاعفة، فلذلك يقولون: يجب على علماء الكهرباء أن يسعفوا الفلاحين كما أسعفوا الصناع، ويقولون: إن الفلاح يحتاج إلى ثلاثين في المائة من أعماله للأعمال الثابتة مثل رفع المياه وحلب البقر، وإلى ٢٠ في المائة منها لأعمال النقل والحمل، وإلى ٥٠ في المائة للعمل في الحقل، فأما الأعمال الثابتة المذكورة فإن الكهرباء تقوم بها بدل الدواب والرجال.

وأضرب لك مثلاً: عندهم مقدار من الكهرباء يقال له «الكيلوات» وهذا المقدار في الساعة ثمنه ما بين مليمين و١٢ مليماً في اليوم الواحد، أتدري ماذا يفيد هذا؟ إنه يقوم في الحقل مقام عمل الرجل بالشادوف مثلاً سبع ساعات.

ولقد وجد القوم هناك أن المعامل التي تصنع العدد والآلات الكهربائية فيها ٧٥ في المائة مما يصنع فيها من الحجم الصغير إنّما يكون للأعمال الزراعية، ولقد وجدوا أن للنور تأثيراً في زيادة عدد بيض الدجاج فاستعملوه فنجحوا، وقد برئ الدجاج من أمراض مختلفة بنور الكهرباء وهكذا أثرت الكهرباء في دودة الحرير فأعطت بواسطتها ألواناً غريبة مدهشة.

أما أعمال النقل والحمل التي تحتاج كما قلنا إلى ٢٠ في المائة فهذه معروفة في جميع العالم، وقد عمت الكهرباء سككاً حديدية كثيرة في العالم.

أما الخمسون في المائة الأخيرة فهي تنحصر فيما يعمله الفلاح من حرث للأرض وتمهيد الخ، ثم جمع المحصول وحصده أو درسه أو تجفيفه كما يحصل في البلاد الباردة، فإن هذه الأعمال فضلاً عن تعذر أدائها بواسطة الثيران والبقر في البلاد التي يندر فيها وجود الأرض المستوية مثل سويسرا والسويد والنرويج وأواسط أوروبا عموماً، فإن فائدة الآلات الحديثة تظهر جلية واضحة في البلاد المستوية أيضاً، وذلك لسرعة هذه الآلات وقلة مصاريفها.

ثم إنه لم يفكر فيها أحد من أغنياء فلاحينا مع أن منهم الشباب الذي أمضى في أوروبا سنين عديدة، ويمضي الصيف فيها كل عام حيث يمر بشمال إيطاليا وسويسرا وفرنسا وبلجيكا وهولاندا، ويرى الآلاف من هذه الآلات في كل مكان.

هذا زيادة عما أتت به التجارب العديدة من إمكان قتل بعض المكروبات والأمراض التي تفتك بالزرع بواسطة الكهرباء مما استعصى على التبخير وغيره، وهذه منّة منّ بها الله على الفلاح، وقدر سبحانه أن يحرم منها فلاحنا كما حرم غيرها من المميزات.

وقد شاع استعمال الأنوار الكهربائية المختلفة لإعطاء الأزهار ألواناً غريبة غير طبيعية، أو تنمية بعض الأزهار في غير أوقاتها العادية من السنة، وذلك بالتدفئة والمعالجات المختلفة، وقد نجحت مسألة

التنمية الصناعية في الزهور، حتى إن الزهور التي تستلزم لإتمام نموها في الطبيعة ثلاثة أسابيع أو أربعة تنمو بمثل هذه الطرق في أربعة أيام إلى سبعة فقط مع حفظها لرائحتها ورونقها. انتهى.

الفريدة الخامسة: سفينة الصحراء

الكرة الأرضية في تقلص ظاهري مستمر ما بقي الاختراع وما دامت الصناعة تتغلب على المكان والزمان، فتجعل ممكناً غداً ما هو غير محتمل اليوم، ثم تحقق هذا الممكن بعد الغد، وتلك القاطرات والسفن والسيارات والطيارات تربط جهات العالم من أقصاها إلى أقصاها، غير أن ما لم يكن في متناول تلك الوسائل لبث كما كان معتمداً على وسائل النقل الأولية، فبقيت قوافل الجمال في فلوات الرمال التي لا نهاية لها، وظلت عربة الريف الروسية العتيقة تسير في قفار أكرانيا وسيبريا، ومن ثم بقي من الأقاليم القابلة للاستعمار أراض واسعة الأرجاء، وبقاع مجهولة جعلت وقفاً على الرحلات العلمية الشاقة.

لكن الصناعة التي لم تعوزها الحيلة إلى التقدم المضطرد، تريد اليوم التوغل في الجهات التي ظلت مجهولة، فقد توصل «ستروين» لأول مرة بمساعدة عرباته المصنوعة على طراز «التنكس» إلى تذليل مخاوف الصحراء، واليوم يبشر باختراع ألماني جديد باجتياز طرق البر التي ما زالت مغلقة في وجه الحضارة البشرية، وما إلى ذلك من وصل طرق الصحراء، وصلاً اقتصادياً بواسطة سيارة ضخمة، فسفينة الصحراء عبارة عن سيارة هائلة توصل إلى بنائها الضخم بمعاونة نفر من المهندسين وأصحاب المصانع مخترع ألماني يدعى «يوهان كرستوف بيشوف» في مدينة «كيل» بعد مجهود سنين عديدة، ويبلغ عرض هيكل هذه السيارة ١٢ متراً وطولها لا يقل عن ٦٠ متراً وارتفاعها ١٨ متراً.



(شكل ١٠)

سيارة هائلة تسع ٣٠٠ مسافراً وفوق ذلك كثير من البضائع

أما العجلات الهائلة فيبلغ قطرها ١٥ متراً وعرض سطحها ٢ ١/٢ متر، ويعلو قرار «الشاسي» عن الأرض بمقدار ٤ ١/٢ متر، والسيارة معدة في تركيبها بأحدث مبتكرات الصناعة التي تجعلها غير مقيدة بالسير في الطرق الممهدة وحدها، بل تجعلها في حل من التغلب على وعر الأراضي، كما تستطيع أن تسير على الأرض المستوية وعلى التلال الخفيفة الانحدار على السواء بسرعة ٣٠ كيلومتراً في الساعة، وتصل سرعتها في أوعر المسالك إلى ١٠ كيلومترات في الساعة، وأهم مزايا «سفينة الصحراء» العملية إمكان الانتفاع بحمولتها العظيمة بالنسبة لحجمها، فهي إذا بنيت لغرض نقل الأثقال تسع ٢٠٠ طن من البضائع، وإذا بنيت لنقل المسافرين فإنها تحمل ٥٠ طناً ونحو ثلاثمائة مسافر، معدة لهم جميع وسائل الراحة المتوفرة في السفن البخارية التي تقطع البحر. اهـ.

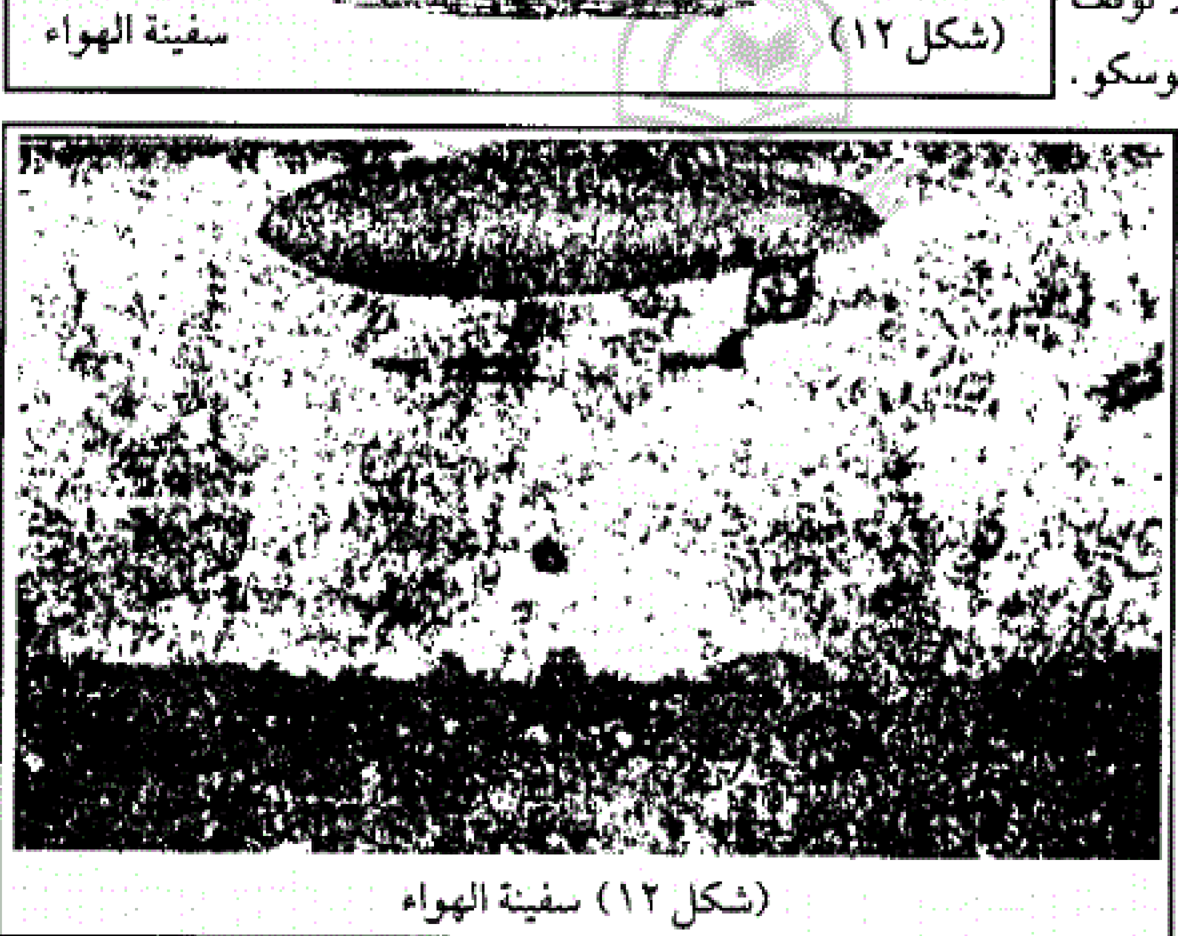
الفريدة السادسة: السفر في الهواء

وذلك بآلات أخف من الهواء أو بأثقل منه، فالتي هي أخف من الهواء نوعان: «البالون»، أي: المنطاد، و«سفينة الهواء».

(المنطاد شكل ١١)

(شكل ١٢) سفينة الهواء

أما المنطاد فهو كيس من الحرير مدهون بالزيت بشكل الكمثرى، مملوء بأحد هذين الغازين: الهيدروجين وغاز الاستصباح، وكلاهما أخف من الهواء، وهذا الكيس الحريري مغلف بشبكة من الحبال معلق فيها سفط يسع من اثنين إلى ٤ من المسافرين، وهو لا يمكن ضبطه في السير، فهو يجري على حسب الريح وقد جرى ألف ميل بلا توقف من باريس إلى قرب موسكو.



(شكل ١٢) سفينة الهواء

أما «سفينة الهواء» فإنها كيس مملوء بغاز الاستصباح مثل «البالون» ولكنه على شكل لفافة الطباق «السيجارة» وهي مقسمة إلى جملة أماكن، وهي تارة تكون مكونة من معدن خفيف وهو «ألومنيوم» قد ثبتت فيه عربة طويلة تحمل مسافرين، وآلة محركة مثل التي في السيارة «الأوتوموبيل» وهذه المكنة لها رافعة تدور بسرعة عظيمة، وسفينة الهواء يمكن ضبطها في السير إذا هدأت الرياح، ولكنها تكون صعبة المراس إذا عصفت العواصف. إن العاصفة يمكن أن تمزقها تمزيقاً شديداً، ويمكن أن تحمل من ٢٥ إلى ٣٠ مسافراً في عربتها، وترفع ٤٠ طناً، وقد أمكن السفر بها ٩٠ ميلاً في ساعة، واستمرت سائرة ٥٠٠ ميل بلا توقف. انتهى الكلام على سفينة الهواء شكل ١٢.

الآلة المحركة التي هي أثقل من الهواء المسماة «ألواح الهواء» ثلاثة أنواع:


(شكل ١٣ صورة الأولى من ألواح الهواء)

أما الأولى فهي ليس فيها غاز استصباح، وإنَّما هي مصنوعة من سطحين من القماش الغليظ المتين فوق إطار مصنوع من أنابيب الفولاذ وهذه لها ألواح صغيرة رافعة تديرها إلى الجهات المختلفات، وهي تحمل آلة بخارية ومحركاً مثل ما تقدم في سفينة الهواء، ولها عجلات تمشي بها على الأرض قبل استقلالها بالطيران وبعد نزولها إلى الأرض، وتحمل من ١ إلى ٤ من الركاب في حجمها الذي يشبه القارب في البحر، وتجري هذه من ٤٠ إلى ٩٥ ميلاً في الساعة، ولقد أجراها بعضهم ٤٠٠ ميل بلا توقف، وبلغ سيرها في ثلاثة أيام ١٠٠٠ ميل، وهذه صورة الأولى من ألواح الهواء شكل ١٣.


(شكل ١٤)
صورة ذات السطح الواحد

أما الثانية من ألواح الهواء: فهي كسابقتها ولكنها لها عوامة كعوامة السفينة بدل العجلات، فيمكنها أن تنزل فوق البحر وترفع ثانياً، وهي تبنى على أيّ حجم بحيث لا يكون ما يضرها بكسر فتتكسر، وقد طار بها بعضهم من فوق الدردنيل، وقد جرى فوق البحر وهو هائج جداً بالعواصف في القنال الإنجليزي وطلع منه ثانياً، وهو يجري ٦٠ ميلاً في الساعة.

الثالث: واحدة السطح: وهي مثل ما قبلها، ولكن لها سطح واحد، وحجم هذا النوع أشبه بحجم حشرة تسمى «طائر الثعبان»، له آلة بخارية ومحرك مثل الذي في سفينة الهواء، وببلين وعجلات للجري على الأرض، وتحمل من ١ إلى ٤ رجال، وتجري ٩١ ميلاً في الساعة، وجرى من باريس إلى وارسو في يوم واحد، وهذه صورته.

هذا إجمال ما تقدم تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

اعلم أيها الذكي أن هذا بيان لما اخترعه الناس فيما بعد العصر الأول للركوب الذي دخل في قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

قد كان السير قديماً بالأقدام أو بركوب الدواب، ثم خلق الله مما لا نعلم عجلات تجري بالناس:

(١) مثل عربات النقل المعتادة كالذي يستعملها الباعة في الطرقات.

(٢) وعربات الركوب تجرها الدواب.

(٣) وعجلات يركبها الناس يحركونها بأرجلهم تسمى «بسكلت» باللسان الإفرنجي.

(٤) والسيارات التي يسمونها «متر كار»، وهذه لها آلات محركات بالبنزين.

(٥) وعربات الترام الذي يجري بالكهرباء.

(٦) قطار السكة الحديدية الذي يجري بالبخار وتارة بالكهرباء، هذا فوق الأرض.

السير فوق الماء

قد كان قديماً بالسفن ونحوها، سواء أكانت بالشراع أو بالمجداف، ثم حدث البخار فسارت السفن به في البحر كما سارت القطرات في البر، ثم السفن الجاريات بالآلات المحركات ـ كما تقدم ـ في اليابسة، وتسمى بالإفرنجية «متر بوتس».

الهواء

ثم حدث في الهواء النوعان المتقدمان، وهما: نوع المنطاد ونوع الطيارة، وقد تقدم شرحهما. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية وفرائدها الست.

اللطيفة الثالثة

لقد مضى في هذا التفسير ذكر كثير من جمال النبات وبدائعه، ولأذكر لك هنا عجائب مدهشة منه تحلية وتفصيلاً وجمالاً، فأقول: قد قرر العلماء كالعلامة الطبيب النطاسي المسمى «سانكتوريوس» في بلاد البندقية وغيره، أن ما يقطر من العرق في جسم الإنسان يكون كيلوغراماً واحداً في اليوم والليلة، فأما النبات فإنه يخرج ماء من أوراقه أكثر من عرق الإنسان بالنسبة لجسمه، حتى إنهم وجدوا نبات عابد الشمس يزيد عن الإنسان بالنسبة لجسمه في العرق ١٧ مرة، وقد وضع «كوتارد» غصناً لم يقطع من شجرته في زجاجة وأحكم سدها على الغصن؛ وتلك الزجاجة من أسفلها قد دلي منها أنبوباً دخل في زجاجة أخرى تحته، وتلك الشجرة يقال لها «القرانيا»، فكان مقدار ما يقطر من ذلك الغصن من الماء في اليوم أوقية وثلاثة دراهم، أي: قدر وزنه مرتين. وهل أريك أعجب من هذا؟.

(١) شجرة الأروم: يقطر من أوراقها قطرات ربما بلغ عددها بضع عشرات في الدقيقة.

(٢) الشجرة الباكية: وهي شجرة في جزائر الكناريا، يتساقط منها الماء كالمطر، فيجتمع عند ساقها ويستقي منه القوم الذين يسكنون حولها ويملؤون من مائها جرارهم.

(٣) نبات الأباريق: إن أوراق هذا النبات ترسل من أطرافها زوائد تنتهي بأقداح أسطوانية لها أغطية تفتح وتقفل في أوقات معينة، وفي أثناء الليل ينطبق الغطاء على فم القدح فيسده سداً محكماً، والماء يتقاطر من جدرانه حتى يملؤه، فإذا طلع النهار ارتفع الغطاء فشرب الناس منه وخرج الباقي بخاراً، وكم من أناس كادوا يموتون عطشاً في الصحراء فأنقذهم الله بسبب ذلك النبات.

(٤) أشجار في غابات أمريكا: وهناك نباتات في غابات أمريكا الجنوبية مثل هذه يشرب منها المسافرون عند الحاجة.

يا سبحان الله ، كيف رأينا العرق في الإنسان دافعاً عنه الأذى ، وفي النبات قد ارتقى قدراً ومنفعة فأصبح ماء نميراً يشربه الإنسان ، فهذا نبات الأباريق كيف خلق له صحن أسطواني فسد بالليل سداً محكماً ، فإذا طلع النهار زال الغطاء وشرب منه الناس في الصحراء وبه يحيا المسافرون .

أفلا تعجب معي من هذه الحكمة؟ أفلا ترى كيف كانت العناية والحكمة شاملة ، حتى إن البخار الخارج من النبات كعرق الإنسان لم يدعه الله بلا مزية لنا ، بل رقاه في النبات كما رقى الحياة من أدناها إلى أعلاها ، ولما رقاه في النبات جعله شراباً للمسافرين وحياة لكل حي ، أفلا ترى أن هذا كمسألة الكلام ؟ فإنا نتنفس ما يتنفس النبات والحيوان ، ولكن نفس النبات لا كلام فيه ، ونفس الحيوان فيه بعض المقاطع ، ونفس الإنسان كان منه الكلام ، وليس الكلام إلاَّ حروفاً ، والحروف من تقابل بعض أعضاء الفم فتقطع الصوت ، والصوت ليس إلاَّ من الهواء الداخل لتصفية الدم ، فأصل المسألة كلها حياتنا بالهواء النقي ، ثم أدخل على ذلك تحسين وتحسين حتى صار كلاماً عند الحاجة ، هذا وكذلك العرق كان عندنا إخراجاً لما يضرّ بأجسامنا ، ثم هو في النبات الذي هو أدنى منا يكون ماء في أوان تقفل وتفتح على مقتضى الحاجة ، وهذا في الحقيقة استخدام لكل موارد الطبيعة وانتهاز لكل فرصة سانحة لرقي الإنسان . ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦] في القرآن ، ولا يكونوا كمن تقدم من أمم الإسلام المتأخرين الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم مستعبدون أذلاء للفرنجة وآخرون صاغرون .

واليوم آن أوان مجدهم وبزوغ شمسهم وظهور دينهم ، وهاأنا ذا أبشر المسلين بيومهم المعهود وسعدهم المنشود ، وأنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس ينفعون الأمم ولا يكونون وبالاً عليها كما فعلت أوروبا الظالمة الغادرة بالشرقيين .

إني أوصي كل من اطلع على هذا الكتاب أن ينشر الفكر بين المسلمين ، ويطلع العامة والخاصة على كنوز الله للمؤمنين ، وأن يقول لهم هذا يوم الإقبال والنصر المبين .

حكاية مصرية في النبات

بينما أنا أؤلف في هذا التفسير إذ خرجت ليلة لأمر أقضيه ، فجلست على دكان بجوار دارنا ، فحدثني صاحب الدكان وهو رجل صالح ، قال : إن فلاناً أصبح رجلاً صالحاً جداً ، وصار يصلي ولا يفتأ يذكر الله ليلاً ونهاراً .

وسبب ذلك أنه قال : إنني مكلف بأعمال تتعلق بدائرة القصر الملكي ، فاقتضت الأعمال أن أسير في الجبل غربي أهرام الجيزة ، فأصابني أنا ومن معي عطش شديد ، وكان معنا أعرابي فتبسم وقال : ستروى بعد قليل ، فقلت له : أين الماء؟ إن هذه صحراء قاحلة ، فقال : سترى ثم أخذ ينظر في الأرض ويتفرس بين الرمال ، ثم نظر بريقاً بين الرمل ضئيلاً جداً ، فقال لي : هذا هو الشراب ، فقلت له : هذا رمل ، قال : سترى ، فحفر في الأرض حفرة فطلع منها نبات مكور ، فأخرجه وقال : كل هذا ، فقلت : أنا أطلب الماء وأنت تعطيني طعاماً ، أتسخر منا ونحن عصبة ، فقال : كل هذا وسترى ، وهي نباتة أشبه بالبصلة ، فأكلتها وما مضت دقائق حتى رويت وبقيت طول النهار لا أحتاج لماء ولا أشتاق إليه ، فعرفت أن لهذا العالم إلهاً ، ومن ذلك الحين صرت أتذكره كل حين .

حكاية مصرية أخرى

أخبرني رجل من بلاد مديرية الشرقية بالوجه البحري من بلادنا المصرية، قال: بينما أنا في ليلة واقف في الماء بنهر يسقي الحقول إذ أنا بالماء قد لمع فيه صور النجوم، وكنت إذ ذاك قد وضعت يدي في الطين لأزحزح السد عن مجرى الماء لينزل بحقل أحد أعدائي لأغرق زرعهم، فلما لاحت لي بهجة النجوم في الماء، تذكرت عظمة الله التي تجلت لي في الماء، وقلت: هل يجوز أن أعصي الله الذي هذه نجومه وهاهي ظاهرة صورها في الماء، فرجعت عن ذنبي وتبت لربي.

حكمة

إن كل قلب من قلوب بني آدم يقبل صور الجمال الإلهي كما قبل الماء صورة النجم السماوي فلتتجه القلوب إلى ذلك الجمال كما قابل الماء نجم السماء، إن في كل قلب نوراً إلهياً، كما كان في كل ماء نور كوكبي.

اللطيفة الرابعة: الدر والمرجان

أما الدر فقد تقدم في سورة «الفاتحة» وستراه في سورة «الرحمن».

وأما المرجان فإنه صنع حيوانات صغيرة تصنعه من مواد كلسية، فتجعلها مساكن لها، وتبني تلك المساكن متلاصقة متلاحمة، فتتكون منها تلك الصخور على اختلاف صورها وأشكالها، وهيئة تلك الحيوانات كزهر الأقحوان، ومؤخر الواحدة منها داخل في السكن والمقدم بارز، وفي وسطه ثغر صغير وهو فمها، يحيط بها غالباً ستة أطراف أو ثمانية كأوراق ذلك الزهر تقبض بها على الفريسة حين تمر بها، ومن هذه الحيوانات ما يلمع لمعاناً شديداً كلمعان المصباح.

قال بعضهم: كنت ليلة في قارب من قوارب الصيادين في إيرلندا، فاتفق أنهم رفعوا الشبكة من البحر، فخرج في خللها كثير من الحيوانات الصغيرة المرجانية، فكانت تتلألأ كربوات كثيرة من أنقى حجارة الألماس، وتلك الحيوانات الصغيرة لا تبني مساكنها في مكان عمقه أكثر من مائة وعشرين قدماً، وكلما كانت أقرب إلى وجه الماء كانت أكثر عملاً، ذلك لأنها أقرب إلى ضوء الشمس.

جزائر المرجان

وتلك الصخور المرجانية قد يقترب بعضها من بعض فتتلاحق وتمتد إلى مسافة أميال كثيرة، وتأتيها الأمواج بالرمال والطين وغثاء ما يصب في البحر من الأنهار، وتحمل إليها الرياح كثيراً من البذور وجراثيم الحياة، فتكثر فيها التربة وتنبت فيها البذور، وتتولد فيها الحيوانات فتمتلئ بالأعشاب والأشجار وغيرها من الأحياء.

حيوان يشبه المرجان وهو أعجب منه وهو «الهيدار»

الهيدار حيوان يشبه المرجان في خلقه وكثير من صفاته، يكثر في حياض الماء العذب والجداول الصغيرة، ومن أغرب صفاته وأعجبها أنك إذا قطعته طولاً وعرضاً قطعاً كثيرة صارت كل قطعة من تلك القطع حيواناً كاملاً، فإذا قطع ثلاث قطع عرضاً في زمن الصيف، فلا تمر أربعة أيام إلاّ وللقطعة الوسطى رأس وذنب، وللذنب بدن ورأس، وللرأس بدن وذنب، فيصير الرأس حيواناً كاملاً قبل سائر القطع، فهذا هو المسمى «هيدار».

إشراق النور في المرجان

إن المرجان من أجمل وأبهج وأحسن وأعجب ما نسقته يد القدرة الإلهية، ولن يكون نباته الحيواني إلاَّ في البحار الحارة، وفي البحر الأحمر منه كما يقال أكثر من مائة نوع مختلفات الصفات، وهكذا في البحر الهندي والمحيط «الباسفيكي» آلاف من جزائر المرجان وسلاسل الجزائر المرجانية البديعة الأوصاف الجميلة الأصناف البهجة المناظر المدهشة لكل ناظر، ألا وإن أولئك الذين نظروا إلى المرجان في البحر حيث تكون أنواع منه مختلفة الألوان والأشكال قد قالوا إن منظره يفوق الوصف بهجة ويسحر الطرف زينة، وتسر النفس برؤيته، وتدعو إلى الإيقان آيته، وتزين العلم حكمته، وتعلو المال قيمته، وتشوّق للدرس رؤيته.

أنبات المرجان أم حيوان؟

إذا نحن امتحنا منه قطعة رأيناه كأنه جسم حي، ووجدنا فيه خاصية النبات وخاصية الحيوان، ولذا سميناه «نباتاً حيوانياً»، وإنَّما أعطيناه هذا الاسم لأننا نجد له: معدة، وفماً، وجملة من أنابيب تقوم مقام الأيدي لتتناول الطعام من ماء البحر الذي تعيش فيه وتدخله في الفم، هذا من جهة الحيوانية أما من جهة النباتية فإننا إذا أخذنا قطعة من مرجان حي وغرسناها في شاطئ رملي فإننا نراه ينبت كما ينبت غصن قطعناه من النبات وغرسناه في الأرض.

المرجان ومسكنه

كان الناس فيما مضى يظنون أن المرجان إنَّما هو مسكن حشرة تخرج من قاع البحر وتبني مساكنها حتى تصل إلى سطح الماء، وهذا رأي لا يوافق الحقيقة، وإنَّما الحقيقة أن المرجان أشبه بكتلة صغيرة من مادة هلامية، ودم هذا الحيوان يشبه اللبن لأنه من المادة التي استخلصها المرجان من ماء البحر لغذائه.

الحياة الفردية والحياة الاجتماعية للمرجان

إن بعض المرجان يعيش منفرداً، وبعضه يعيش مجتمعاً ويعدّ بالآلاف، وكل منها له جسم مستقل، وهو يتصل بالباقي اتصال الغصن بالشجرة، وإذا مات المرجان بقيت هياكله تتلاصق وتتلاحق وتتراكم، وتكون مهداً وأساساً لجيل جديد من المرجان يخلق ويعيش فوق ذلك ناعم البال في عيش صاف وماء واف، فينمو ويتم كماله كالتي كانت من قبل، ولقد عرف الناس أن هذا الحيوان لن يعيش البتة في عمق يزيد عن ثلاثين متراً، ولن يعيش أيضاً متى تعرض لضوء الشمس وللهواء الجاري، إذن هو محصور في هذه الثلاثين متراً.

جزائر المرجان

ثم إن جزائر المرجان لا تبنى إلاَّ على الصخور أو حول أفواه البراكين التي على طول الزمان وتمادي القرون تغوص بالتدريج في ماء البحر، فإذا وصل البناء إلى سطح الماء يموت المرجان ثم يخلق جيل جديد ويتكون بحيرة من ملح، ثم إن ما تفتت من أجسام المرجان الميت بفعل العواصف البحرية أو بأعمال الأمواج فوق سطح البحر تصير رملاً مرجانياً، ثم إن ما مات من عالم النبات والحيوان البحري وتعفن، تنضم بقاياه إلى ذلك الرمل المرجاني، فيعطيه طبقة جديدة خصبة تصلح لنمو النبات.

وهناك في البحر جزائر ينبت فيها شجر « النارجيل » وهو الجوز الهندي ، فيسقط فيه من أقرب الجزائر لهذه الجزيرة الجديدة المرجانية الأصول الصالحة للنبات ، فلا تزال تتقاذفها الأمواج حتى تصل إلى هذه الجزيرة الجديدة المرجانية ، وهناك تمتد جذور تلك الأصول في الجزيرة الفتية القوية الخصبة التربة وعلى تمادي الأيام تكون هناك دوحات وأحراش من شجر « النارجيل » ، وهذه تكون ملجأ للطيور تبني بها أعشاشها على أغصان تلك الأشجار ، وهذه الطيور تحمل بذور النبات وتلقيها في الجزيرة بلا قصد منها ، فتكسى أرضها بالتدريج جلابيب سندسية من رائع النبات البهي الأغصان المزدهي الأفنان وجنى جناته دان وفيها روح وريحان ، وقد يعتري هذه الجزائر النضرة البهجة الفناء بغتة ﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾[يونس : ٢٤] ، ذلك أن كثيراً منها يبنى على الصخور التي تكون عند أفواه البراكين التي هدأت ثائرتها فتحدث زلزلة أو انفجار بركاني بعد زمن قليل أو كثير ، فتغوص تلك الجزائر في البحر تحت الماء ، والله مدبر الأمر ومقلب الليل والنهار . انظر صورة المرجان شكل ١٥ غير المتقدمة .

فلتعجب أيها الذكي من هذه الدنيا ونظامها ، ولتتأمل فإنك سترى أنه لا فرق بين عالم البر وعالم البحر ، ألم تر إلى هذه الجزائر المرجانية الحديثة كيف انتقل إليها من أشجار النارجيل أصول مما نبت في أقرب جاراتها ، وكيف نمت تلك الأشجار وصارت مأوى الطيور ، والطيور أحضرت البذور وكسيت الأرض جلابيب سندسية ؟ أليس هذا مثل ما نرى في الأمم ؟ فابن رشد في الأندلس نقل علمه تلاميذه من اليهود والنصارى إلى أقرب البلاد إليها كفرنسا وألمانيا ، ثم انتشر وتفرّع في بلاد الغرب على مدى الزمان ، وانتقل إلى بلادنا وبلاد اليابان والصين وأمريكا ، فيا عجباً كل العجب ! ماء في البحر يحمل أصول الشجر ، وهواء في الجو يطير فيه الطير حامل بذور الأشجار والزرع ، وعلماء ينقلون العلم ويترجمونه من اليونانية والسريانية أيام أبي جعفر المنصور والمأمون وأمثالهما إلى العربية ، والعربية يقرؤها الأوروبي ، وقبل ذلك انتقل العلم من المصريين القدماء إلى اليونان ، فعالم النبات والحيوان كعالم العلم والحكمة ، كل منهما يتكاثر وينمو بالاقتباس من الأقرب فالأقرب ، إن المرجان فعل ما لم يفعله الإنسان ، المرجان أبرز جزائر في البحر تعد بالألوف ، وفيها تربى الحيوانات المختلفة ، والإنسان قط ما أحدث أرضاً ، وغاية أمره أنه بنى ونظم ولكن ميزة الإنسان أنه فعل بفكرته ، والمرجان بنى بغريزته ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون : ١٤] ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات : ٢٠] . انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[النحل : ١٤] الخ .

(شكل ١٥)
صورة غير المتقدمة للمرجان

اللطيفة الخامسة : ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

لقد قدمنا أمثال هذا في التفسير، ونقول الآن كلاماً إجمالياً. إن الناس يهتدون في النهار بالطرق وبالجبال وبالعلامات، فأما بالليل فالأمر عجب، فإن النجوم مع سرعة جريها في مداراتها ـ كما سبق في هذا التفسير ـ ترى ساكنة، وأن المسماة منها بالثوابت أسرع جرياً في مداراتها من أرضنا، ولكن هذا الجري لا أثر له عندنا بالأرض، فهي لشدة بعدها العظيم تعتبر واقفة فهي كأوتاد منصوبة وعلامات نعرف بها طرقنا، فنجم القطب؛ وبنات نعش؛ والفرقدان؛ والسماك الرامح؛ والسماك الأعزل وغيرها علامات تعرف بها جهات الأرض، وأن علم الفلك وسير النجوم ومعرفة أوضاعها، كل ذلك يدرس اليوم ليهتدي به ربان السفينة في دياجي الظلمات.

ولما علم الله أن الناس يحتاجون إلى آلة تقوم مقام النجوم في الظلمات، خلق لهم البوصلة التي هي ممغطسة، وهي تتجه دائماً جهة النجمة القطبية، فطرفها الشمالي يدل على الشمال، وطرفها الجنوبي يدل على الجنوب، ولها ميل يمنة ويسرة، وهذا الميل له حساب خاص.

فانظر كيف أمر الله هذه الإبرة فقامت مقام النجوم في سير السفن في البحار وفي معرفة القبلة ليلاً ونهاراً، وترى البحارة معهم جداول للكواكب السيارة ليعرفوا بها الجهات التي وصلوا إليها، فإذن أهل الأرض لا حياة لهم ولا سعادة إلا بالنجوم، فلولاها لضلوا الطريق ولم يسعدوا في هذه الحياة، فنحن على الأرض لسنا في عزلة عن العوالم الأخرى، إن العالم جسم واحد.

هذا العالم كجسم واحد

ومعلوم أن معرفة الجسم للطبيب تكون بثلاثة أشياء: النبض والحرارة والبول. هكذا هذا العالم جسم واحد، فحركات الكواكب كالنبض في جسم الإنسان وحرارتها كحرارته وألوان البول التي يعرفها الطبيب فيستدل على المرض أشبه بألوان الطيف الشمسي، فإن ألوان الطيف الشمسي تدل على المعادن التي في الكوكب، فإن لكل معدن ضوءاً خاصاً عرفوه على الأرض كالحديد والذهب والفضة، فإذا رأوه في طيف كوكب عرفوه، فأصبح هذا العالم جسماً واحداً، والحكماء والأطباء يستدلون على ما غاب بما يشاهدون، وهذا معنى قوله في سورة «الحجر الآية: ٧٥» المتقدمة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، فهذا هو التوسم والتفرس من الحكماء والعلماء.

اللطيفة السادسة : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾

قد قدمت لك في اللطيفة الخامسة أن هذا العالم كجسم واحد، وأن الحرارة فيه أشبه بالحرارة في الإنسان، فإذا فقدت الحرارة من الإنسان والحيوان ماتا، وإذا ارتفعت الحرارة استضرّ، وإذا قلّت ضعف، فالحرارة أشبه بميزان الحياة، والطبيب هو القبان وهو يعطي الدواء بقدر، فالحرارة والبرودة عليهما نظام أجسامنا وجسم هذا العالم واختلافهما، هذه السفن تسير في البحار بماذا؟ تسير بالرياح، ومن أين تأتي الرياح؟ قدمنا في سورة «الحجر» أنها تجري بالحرارة، ونزيد هنا القول بياناً لأن هذا العلم جميل وجميل.

الشمس والرياح

انظر كيف ألحت الشمس بالحرارة على خط الاستواء وما جاوره، فماذا جرى؟ جرى أن الهواء ارتفع إلى أعلى، ثم ماذا؟ خلا مكان الهواء المرتفع وتخلخل، ثم ماذا؟ تقاطر إليه الهواء من الشمال

ومن الجنوب ليحل الهواء منهما محل الهواء المرتفع إلى أعلى، ثم ماذا ؟ ثم يسير الهواء الذي ارتفع جنوباً وشمالاً متباعداً عن خط الاستواء حتى يصل إلى ٢٥ درجة في الجهتين، أي في المنطقة المعتدلة الشمالية والمنطقة المعتدلة الجنوبية، ثم ماذا ؟ ثم ينقسم هناك قسمين: قسم يرجع إلى خط الاستواء، وقسم يتجه إلى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية، ثم ماذا ؟ ثم إن الهواء في جهة القطبين يتجه إلى الدائرة القطبية الشمالية والجنوبية، فهاهنا أنواع من الرياح:

(١) الرياح التجارية: وهي المتجهة إلى خط الاستواء لتحل محل الرياح المرتفعة.

(٢) الرياح التجارية الضدية: وهي التي ذكرنا أنها اتجهت من الشمال والجنوب إلى الدائرتين القطبيتين.

(٣) الرياح القطبية: وهي التي ذكرنا أنها تأتي من القطبين إلى الدائرتين لتحل محل الرياح التجارية الضدية التي ترتفع هناك وتحلّ هذه محلها وهذا.

وهناك ريحان أخريان، ذلك أن الماء من طبعه أن يكون بطيئاً في تسخينه بطيئاً في تبريده، والأرض بالعكس فهي سريعة البرودة سريعة الحرارة، وبناء على هذه الطبائع المركوزة والجبلات المخلوقة عاش الناس على الأرض.

ألم تر كيف تسخن الأرض قبل البحر نهاراً فيرتفع هواء اليابسة للحرارة الملاقية له على سطح الأرض، فيحل محله الهواء المجاور له فوق سطح البحر لأنه أبرد منه، والثقيل يهبط محل الخفيف المرتفع عن مكانه، فإذا أظلم الليل وأرخى سدوله كان أول ما يبرد هي الأرض، والبحر لا يزال هواؤه حاراً متخلخلاً، فيحل محله الهواء البارد، فإذن تكون الرياح جارية من البحر إلى البر نهاراً، ومن البر إلى البحر ليلاً ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [النور: ٤٤].

وهناك رياح في المحيط الهندي تسمى «الرياح الموسمية»، تجري ستة أشهر إلى جهة وستة أشهر إلى جهة أخرى، وهناك ريح تسمى «الدائمة» تهب من الشرق إلى الغرب بين المدارين طول الدهر، وهناك رياح مختلفة، فتكون الرياح هكذا:

الرياح التجارية. الرياح التجارية الضدية. الرياح القطبية. الرياح البرية. الرياح البحرية. الرياح الموسمية. الرياح الدائمة. الرياح المختلفة. وهي التي نشاهدها كثيراً لا قانون لها ولا نظام بحسب ما نعلمه.

فهذه ثمان رياح تهب من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، ومن أماكن مختلفة، ومنها ما ينشأ من القطبين، ومنها ما ينشأ من المنطقتين المعتدلتين، ومنها ما ينشأ من خط الاستواء، ومنها ما ينشأ من البر، ومنها ما ينشأ من البحر.

ألا تعجب معي كيف كانت الحرارة هي الأصل في هذا كله، والشمس منبع الحرارة ؟ ألا تتعجب من فعل القادر الحكيم، حرارة تنزل على الأرض، والأرض مختلفة الطبائع، وكذا المياه، وكذا تختلف قرباً وبعداً، فبهذا اختلفت الرياح فسارت بها السفن بحراً في جميع الأنحاء. انظر كيف كانت الرياح التجارية تجري من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، ولقد كشفوا أن هناك ريحاً فوق هذه الريح بتيار مخالف لهذا التيار.

جرت السفن شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، بماذا جرت؟ جرت بالرياح، وما هي الرياح؟ هي حركات في الهواء، ومن أين حركات الهواء؟ من الحرارة، فالحرارة في الجو كحرارة الجسم الإنساني، ولولا هذه الحرارة لم يجر الهواء، ومتى وقف الهواء فلا سحاب، ولا مطر، ولا رعد، ولا برق، ولا سفن تجري، ولا أشجار تسقي، ولا تلقح، ولا جمال، ولا مدن، ولا علماء، ولا أنبياء، بمثل هذا فليعرف القرآن، وبمثل هذا فليفهم كلام الله.

يقول الله في غير هذه السورة: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾[الشورى: ٣٢-٣٣] إلى آخر الآية، بماذا يكون إسكان الريح؟ يكون بمنع الحرارة، وبم تمنع الحرارة؟ تمنع بانطفاء الشمس.

يا رب تاهت العقول وحارت الأفكار في هذا الوجود، يا عجباً! حياتنا موقوفة على حركات في الهواء، لولاها لم يكن وجود الهواء كافياً لحياتنا، إنما الحياة تتوقف على حركات الهواء لا على الهواء وحده، فالهواء لا قيمة له بلا حركة، هكذا الإنسان لا قيمة له بلا علم ولا عمل.

اللهم إن نظامك جميل وصنعك بديع وفعلك محكم، أحكمت الصنعة وبهرت العقول.

اللهم أرنا هذا الجمال وأطلعنا على أسرار هذا الكمال، ولقد أريتنا بعض ظواهر حكمتك فعشقناها، فكيف لو أريتنا باقي الظواهر، بل كيف يكون شأننا لو اطلعنا على بعض الأسرار؟.

اللهم لا قيمة لأهل الأرض إلا بالتضلع من حكمتك البالغة وآياتك الباهرة وعلومك العالية إنك حكيم عليم.

زيادة إيضاح قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ الخ

اعلم أن أكثر الناس يعيشون غافلين ـ كما ذكرته كثيراً في هذا التفسير ـ عما يرون من روائع المشاهد في الطبيعة، وهي مفعمة بالجمال ممتعة بالدلال، عروس تتجلى في جمالها، وتزدان بحلاها وحللها، وتتبختر في أغلالها مع أترابها، بهجة الناظرين، وأنس العلماء العاملين، وجنة المفكرين، وسعادة الدنيا والدين، وعين اليقين، وحياة الأرواح، ونماء الأشباح، وغذاء العقول، وثمرة المعقول والمنقول، ونور مبين، وهداية الصراط المستقيم، فهناك مشاهد الفلك في البحار وكيف كان لها قانون مسنون، وكيف كان الناس يعومون ولا يعلمون غالباً لماذا يغرقون إذا كانوا لم يتعلموا طرق العوم، وكيف يطأ الإنسان على الصخور في البحر الكثيرة التضاريس، وعلى الشوك وقطع الزجاج فلا تؤذيه مع أنها على البر تسيل الدم من رجليه وتؤذيه أذى كثيراً وتهشمه تهشيماً. وكيف يرون ذوات الأربع كالبقر والغنم لا تغرق ولا تحتاج إلى تعليم؟ وكيف كان السمك قد أعطي الحرية التامة في أن يرتفع متى شاء وينزل في قاع البحر متى شاء، وكيف كان الوز والبط والوز العراقي وغيرها تعوم أسهل من الإنسان ومن ذوات الأربع، هذه مشاهد تمر على الناس وهم لا يفكرون.

فانظر؛ ملأ الله قلبك جمالاً؛ تجد أن الأمر يرجع إلى الحكمة والعدل وبهجة النظام والحسن والإتقان، وأن هذه الدنيا عروس زينت للناظرين وآية غابت عن الجاهلين، ولن يحظى بجمالها إلاّ الذي بذل مهرها، وما مهرها إلاّ الدراسة مع الحب والشوق، لا مجرد الشهادة الدراسية مع الغفلة عن أنها جمال وكمال.

(١) فأما كون الإنسان يغرق إذا لم يتعلم العوم، فذلك لأنه وإن كان جسده أخف من مقدار ما يساويه من الماء ـ كما ستراه في مسألة « أرخميدس » ـ قد ثقل رأسه أكثر من أجزائه السفلى، فلو وضع الرأس وحده في الماء لغاص فيه، وهذا هو السبب في أن من لا يحسن السباحة يكون عرضة للغرق لأنه لا يستطيع رفع رأسه من الماء، ومما يزيده ارتباكاً أن يرفع ذراعيه ويخبط في الماء خبطاً، فيكون ذلك أقرب لغرقه وهو من الغافلين، فإن رفع الرأس الثقيل من الماء أولى من رفع العضو الخفيف.

(٢) وأما كونه لا يناله الأذى وهو في الماء إذا مشى على التضاريس والشوك، فذلك لأن جسمه يخف في البحر بمقدار وزن الماء المساوي حجمه لحجم جسمه، فهو أبداً مرفوع عن تلك التضاريس، ولو كان في البر لآذته أذى كثيراً.

(٣) وأما ذوات الأربع فالرأس فيها أخف من أسافلها فلذلك لا تحتاج إلى تعليم العوم.

(٤) وأما السمك فإنه أعطي منفاخاً مملوءاً هواء إن شاء نفخه فعام أو ضغطه فغاص في الماء.

(٥) وأما الإوز والبط وما شاكلها فإن الله أعطاها زغباً صغيراً ناعماً كثيفاً على أسافلها لا يخرقه الماء، فيحل محل مقدار من الماء يساوي ثقله، فلا يغطس من جسمه إلاَّ القليل، وهذه قامت عنده مقام ما يتمنطق به الإنسان من الفلين أو القرع اللذين يقويانه على العوم، فانظر الحكم في هذا المقام.

عاش السمك في البحر فخص بهذا المنفاخ، ولماذا؟ لأجل أن يكون حراً في تصرفه وجلب معاشه والهرب من أعدائه، فلم يكن هناك بد من أن يخلق له منفاخ يفعل به ما يشاء، فهذا المنفاخ في البحر يعطيه الحرية ليعيش بسعادة، وهو به في حصن حصين.

فأما الإوز والبط وما أشبهها فإنها لا تنزل البحر إلاَّ للرياضة والتنزه وإنعاش القوى، فلم تعط هذا الزق بل أعطيت ما يعين على العوم بسهولة تامة، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، فلا نعطي البط منفاخ السمك لأنه يكون عبثاً، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًاۚ ﴾ [ص: ٢٧]، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]. ومن الغفلة أن نحمل البط ما فوق طاقته فنخلق له المنفاخ في البحر مع أنه لا يحتاج إلى أن يغطس فيه، أو أن نحرم السمك منه فلا يتمكن من معاشه بغدّوه ورواحه فيه.

وأما ذوات الأربع فإننا جعلنا رأسها خفيفة لئلا تغرق، وليس لديها القوة على تعلم العوم، فأعطيناها القدرة عليه، ولكنها ليست في حاجة إلى زغب البط لأنها ليست في حاجة إلى طول المكث في الماء مثله، ولا إلى منفاخ السمك من باب أولى.

فأما الإنسان فإنا جعلنا رأسه ثقيلاً لأنه محتاج إلى التفكر، والتفكر يعوزه المخ الثقيل، ولا جرم أن هذا التفكر يقوم ألف مرة مقام خفة رأسه، فإنه يتعلم العوم ويهتدي بنور عقله، فأعطيناه أفضل مما منعناه، فأخذ يخترع الحيل من قرع يربطه بجسمه، أو فلين يعينه وهكذا، فأما ثقل رأسه فهو رأس ماله وبه اخترع ودبر وصنع السفن من عهد سيدنا نوح عليه السلام، وهذا الإنسان جعلناه من أعاجيب الزمان إن أخطأ كان خطؤه نوراً له مبيناً.

فهناك عبدنا « أرخميدس » أيام « هيرو » الطاغية ملك « سرقوسة »، إذ أعطى ذلك الملك صائغاً مقداراً من الذهب ليصوغه تاجاً، فلما أتمه اشتبه الملك في أمره وظن أنه مغشوش، ففوض أمر

ذلك التاج إلى الفيلسوف «أرخميدس» المذكور، وأمره أن لا يغير فيه شيئاً، وقال له: أما وزنه فهو وزن الذهب الذي أعطيناه وأما الذهب فإني أشك فيه، فحار الفيلسوف في أمره ووجه فكره إلى مطلوبه، حتى إذا كان يوماً يستحم أحسّ بخفة جسمه، فخطر له أن الماء هو الذي جعل الجسم خفيفاً، فهرول من منزله فرحاً وهو يصفق بيديه في الأزقة ويقول: وجدتها وجدتها، ثم امتحن التاج فوجده مغشوشاً، فكان ذلك مفتاح القاعدة المشهورة: إن الجسم إذا كان أخف من الماء عام فيه، أو أثقل غرق فيه، وأنه يخف بقدر ثقل الماء الذي حل هو محله. وشاعت هذه القاعدة وعلى مقتضاها امتحن الناس البيض بوضعه في الماء، وأنشؤوا السفن العظيمة وعرفوا وزنها ونظموا أمرها وعاشوا مجدّين.

هذه هي العجائب التي ظهرت من آية: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[النحل: ١٤]، مخرت الفلك في البحار على قاعدة «أرخميدس»، تلك التي لم تعط هذا الإنسان إلاَّ بعد تجربته لها، وقد حرم عليه التمتع بجمال هذه الدنيا إلاَّ إذا درسها، وقد حكم الله على الناس وأمرهم أن يكونوا أمة واحدة.

هذا «أرخميدس» كشف الله له العلم، ومن علمه تعلمنا، فهو معلم لنا مع تباعد الزمان والمكان، إذن نحن لسنا كالسمك في البحار، ولا كالدواب في الأرض، بل نحن قد حكم علينا أن نكون كإنسان واحد، لأن علم الغربي يقرؤه الشرقي وبالعكس.

يظهر أن هذه الإنسانية لا تكمل إلاَّ إذا عرفوا جميعاً أنهم كرجل واحد، فأما ما داموا يجهلون اتحادهم فإنهم معذبون غارقون غافلون، يعلم الأول الآخر، والغربي الشرقي، والشرقي الغربي، ومع ذلك هم لا يعلمون أنهم متعاونون والتعاون يلزمه الاتحاد، فليت شعري هل يكملون في عالم الأرواح ثم متى ومتى؟ ذلك موكول لعلم الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٥].

البلاغة في مشاهد الطبيعة وفي لسان العرب

هذه أيها الذكي البلاغة في كلمات الله. إن البحر والإنسان وذوات الأربع والسمك والبط كلمات، وما رأيت من العلم فيها بلاغة. هذا هو علم المعاني والبيان والبديع، هذا هو المجاز والكناية والجناس والطباق والتورية وحسن السبك، ذلك هو الجمال.

لقد أضاع أكثر المتأخرين من المسلمين أيامهم بعد الصدر الأول في الشعر وضروب البلاغة، ونشروا كتاب «الأغاني» في الشرق والغرب، وهام بشعره وخمره وحسن بلاغة شعرائه علماء الأندلس وغيرهم. وسترى في سورة «الشعراء» ما يقوله النقادة من علماء الفرنجة: إن شعراء الأمة العربية إن عددناهم يفوقون شعراء جميع الأمم شرقاً وغرباً في العدد، ولكن هذا الهيام والغرام بفن واحد ألهى القوم عن العلوم والحكمة، وأضاع مجدهم، وضعضع ملكهم، وجعل القوم خياليين، فبينما الإسبان يفكرون كان العرب يتخيلون، وبينما الأولون يدبرون الملك كان الآخرون يجرون وراء الخيال؛ حتى قرعت القارعة ووقعت الصاعقة وأزفت الآزفة وجاء اليوم المعهود وأخرج العرب من الأندلس صاغرين.

أيها الذكي، إن بلاغة اللفظ ترجع إلى لباس المعاني، واللباس سياج اللابس وحافظه، واللفظ طريق المعنى، ومن وقف في الطريق وأعجبه ما رآه فيه من شجر وزهر وقصور وصور تلهى عن المقصد

الذي قصده والبلد الذي أمّه، فهو حريّ بالخذلان جدير بالحرمان فيرجع صفر اليدين خاسر الصفقتين، ذلك مثل الذي عكف على بلاغة الألفاظ، وحلل الجمل، وغفل عن المعاني في هذا الوجود، فهو مغبون، وسيأتي بعدنا أولو عزم وحزم مولهون بالحقائق عاكفون على درس نظام هذا الوجود، فيقرؤون الأشعار صغاراً ويقرؤون الحكمة والعلم كباراً، وكما يدرسون أبا الطيب والمتنبي وأبا تمام والبحتري وأبا العلاء المعري والنابغة وامرأ القيس وأضرابهم، يهيمون بجمال الزهر وبهجة النجم والشمس والقمر والبر والبحر وعجائب الوجود كباراً.

إن هذا التفسير ستتناوله أيدي الأذكياء من أمم الإسلام، وسيقرؤون أمثاله من كتب المعاصرين لنا، وسيعلمون علماً ليس بالظن أن بلاغة الكلام الإنساني الذي تصوغه الأفواه ويحمله الهواء وتقبله الأذنان أقلّ ألف مرة من بلاغة الكلام الذي هو مركب من كلمات الله التي هي هذا العالم، فكل زهرة وورقة وغصن حرف، وكل شجرة كلمة، ومنفاخ السمكة وما تعوم به وما تتنفس به كلها حروف، والسمكة كلها كلمة، وهكذا الإوز المذكور وغيره، كلها كلمات وفيها من البلاغة فوق ما يصفه الواصفون:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ [الكهف: ١٠٩]، الكلمات المنظورة الإلهية المجسمة فيها من البلاغة ما لا نسبة بينه وبين الكلمات الملفوظة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة السابعة: الظلال

قد تقدم الكلام عليها في سورة «الرعد» مستوفى.

انتهى الكلام على الحكمة التي تقدمت في هذه السورة، ولها نظائر في باقيها وفيما قبلها من «الرعد» و«إبراهيم» و«الحجر»، وقد ذكرنا فيما تقدم أن آخر هذه السورة جاء فيه ذكر: الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

الموعظة الحسنة

قال علماؤنا هي للعامة، وهذه كالقصص وكالتشبهات وضرب الأمثال.

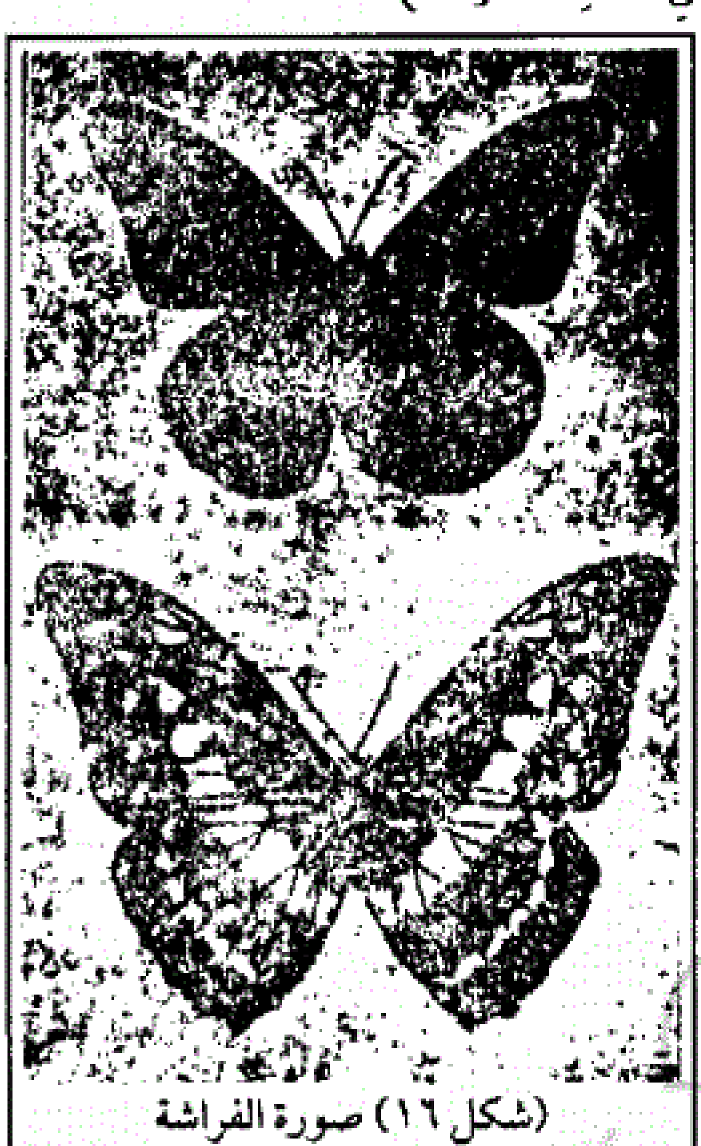
المجادلة بالتي هي أحسن

وأما المجادلة بالتي هي أحسن فهي تكون للمتوسطين في العلم فتقنعهم، وفي هذه السورة كثير من ذلك؛ كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، فهنا مجادلة بما يعرفون من أحوالهم وأخلاقهم، فيقولون إنا نستحي ونخجل إذا بشرنا بالأنثى، فهل الله يرضى بمثل هذا؟.

ولكن الحكماء والعلماء لا يقال لهم هذا بل يقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ويؤتى بالبراهين التي تنزه الله عن الولد والوالد.

بهجة الجمال في قوله تعالى:

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾



(شكل ١٦) صورة الفراشة

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا رسم الفراشة المسماة «أبا دقيق»، تلك الفراشة التي تشارك سائر الفراش في خواصه، وتمتاز بأنها خلقت لإهلاك القطن الذي عليه حياة أمتنا المصرية، والذي يزرع في الممالك المتحدة والسودان المصري وفي بلدان أخرى.

هذه هي الحشرة التي جعلها الله لنا آية، آية تمثل الدنيا التي نسكنها، فهي في الظاهر جمال، وفي العمل هلاك ووبال، وفي العقول حكمة وكمال.

ثلاث مراتب لهذه الحشرة، وثلاث درجات لهذه الدنيا:

(١) الدنيا خضرة حلوة، والحشرة بهجة المنظر.

(٢) الدنيا لا تدع جديداً إلاَّ جعلته رثاً ثم أهلكته، والحشرة تسطو على القطن فتبيده فيخسر الفلاح ما صرفه عليه.

(٣) الدنيا مدرسة للحكماء والفضلاء الذين اصطفاهم الله بفطرهم فعكفوا على تفهم أسرارها والوقوف على حقائقها، لينفعوا سائر الشعوب بمواهبهم التي أعطيت لهم، ويتركون للجمهور ظواهر العلوم وظواهر السياسة؛ فالجمهور يقوم بحفظ الدول من الفساد، وخواص الخواص ولباب اللباب وهم المصطفون الأخيار الذين هم يعمدون إلى حقائق هذا الوجود فيدرسونه ويتغذون به وينشرونه إلى جمهور الأمم ليؤدوا واجب مواهبهم كما أدى غيرهم ما وجب عليهم بمقتضى فطرهم.

إن دراسة هذه الدنيا لا يتسنى لأحد الوصول إليها إلاَّ بدراسة خلاصة جميع العلوم، وفي هذا التفسير ما يغني اللبيب بأسلوب سهل، وما أصعب الأساليب العلمية التي جعلها الله سهلة في هذا الكتاب، أما دراسة حشرة أبي دقيق فهاك عجائبها:

ذكرى أيام الشباب

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم وفضيلة الحكمة، لقد كنت وأنا مجاور بالجامع الأزهر أمر في الحقول وعلى شطوط الأنهار، وأنظر عسى أن أجد حشرة ذات نظام هندسي، وما كنت إذ ذاك لأعرف في الهندسة شيئاً، وأقول: يا ليت شعري، أليس في هذا الكون نظام، وإذا كان له صانع أفليس الصانع حكيماً؟ إن الحكمة والإتقان هما الدليلان على صانع، فإن وجدا فهناك صانع وإلاَّ فلا إله لهذه الدنيا، وطالما كنت أقول: يا من خلقتني، أراك علمت الطيور في وكناتها، والوحوش في أوجارها، كل ما تحتاج إليه في نظام حياتها، وما تطلبه نفوسها، وهاهي ذه نفسي تود الوقوف على

نظام هذا الكون لأعرف صانعه، وبقدر علمي بالنظام تكون سعادتي، وعلى قدر وقوفي على الحقائق يكون كمالي، إني إذا أيقنت بالنظام أيقنت بالحكيم، وإذا كان صانع الدنيا حكيماً فهو حري بالحب والإجلال، وإذا كانت حياة الإنسان بيد حكيم فهو جدير بالسعادة، أما إذا كانت في يد المصادفة الرعناء فالحياة خير منها الموت، لأنها لا نتيجة لها إلاّ الخطل والخبل، هذه آرائي زمن الشباب.

أما آرائي الآن

أما آرائي الآن فأقول: إني أصبحت موقناً بالحكمة والجمال، فلتتقاذف الدول بالمدافع والطيارات والأساطيل، وليخترعوا ما شاؤوا من أساليب الإهلاك والتدمير، فليبتدعوا من ضروب الحيل السياسية والأكاذيب الاستعمارية، فهانحن أولاء ندعهم فيما خلقوا له في هذه الحياة على أرضنا الصغيرة، القصير النظر أكثر سكانها، ذات العمران الناقص والمدنية المنحطة، والعقول التي لم تصل لعقول أمم أعظم شأناً منها في سكان كواكب أكبر شأناً وأعظم مقاماً.

أقول: ندعهم فإنهم لهذا خلقوا، وهكذا خلق جو أرضنا واستعدادها واستعداد سكانها، ولنعكف نحن على عالم الجمال، ولندرس حشرة «أبي دقيق» لا دراسة كلية، بل ندرس ما فيها من الألوان لمناسبة الآية التي نحن بصدد الكلام عليها اعترافاً بنعمة الله الذي علمني بعد اليأس أيام الشباب واغترافاً من الحكمة الكامنة فيما حولنا من عجائب هذه الدنيا.

أدرس هذه الآن لأقوم بحق النعمة، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[الضحى: ٧]، ثم قال: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[الضحى: ١١]، فهاأنا ذا كنت ضالاً أيام الشباب لا أفهم لهذا الوجود معنى، وهاأنا ذا الآن أقول: لقد اهتديت على مقدار طاقتي، وهاأنا ذا أتمتع بنعمة الحكمة من جميع وجوهها، وأرى الجمال حيث يرى أكثر الناس أن لا جمال، وأمضي قدماً في عجائب الحكمة المخبوءة فيما لا يعقل له أكثر الناس معنى، لأن أكثر الناس لا يعلمون، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الروم: ٧]، مثل أن يدرسوا حياة هذه الحشرة وكيف تبيض وكيف يبيدونها لتخلي لنا قطننا، نعم هذا واجب ولكن نحن الآن نبحث في خلاصة هذا الوجود وخلاصة هذه الدنيا. اللهم لا معنى لهذه الدنيا إلاّ الحكمة والنظام، فهاك ما جاء في كشف أسرار ألوان هذه الحشرة.

عجائب ألوان حشرة أبي دقيق

تعليل العالم الأمريكي «فرنن كلوح» العالم بعلم «البيولوجي» لألوان حشرة أبي دقيق

لقد قرأت هذا التعليل في بعض الكتب، وهاأنا ذا أبينه فأقول: إن أجنحة الفراشة الواحدة تبلغ مساحتها ١٥ بوصة، وهذه المساحة قد رسمت عليها بيوت صغيرة متجاورة بشكل هندسي منظم، وتلك البيوت تبلغ في البوصة المربعة الواحدة ٩٩ ألف بيت، لأنها ١٦٥ صفاً، وكل صف فيه ٦٠٠ بيت، فتكون جميع البيوت المنظمة في أجنحة الفراشة الواحدة ١,٥٠٠,٠٠٠ ألف ألف وخمسمائة ألف بيت، تلك البيوت عبارة عن مخازن، كل مخزن فيه كيس مختوم وهو إما مملوء هواء وإما مملوء مادة ملونة، فالمادة الملونة متى وقعت عليها الشمس ظهرت لنا بهيئة بديعة تسر الناظرين، والهواء المحبوس في الكيس هو الذي يعكس ما تراه في الحشرة السفلى من هذا الرسم، إذ ترى زرقة وبياضاً وصفرة بانتظام.

ألا تعجب معي أيها الذكي، ألا ترى أن هذه العلوم التي تتجلى في حشرة أبي دقيق قد خبأها الله فيها، وجعل عملها مهلكاً للقطن. نعم خبأها الله لأهل الحكمة الذين يخلقون في هذه الدنيا ويكون عددهم قليلاً لأن الكرام قليل وهؤلاء هم الأولى بقول المتنبي:

تسترت من دهري بظل جناحه بحيث أرى دهري وليس يراني

إن الشعراء ليسوا أهلاً لذاك المقام، وإنّما أهله هم عشاق الحكمة، فتعال معي أيها الذكي العاشق لها وافرح بنعمة الجمال بدراسة نظام هذه الدنيا معي، وتأمل كيف أظهر الله هذه الحشرة بفعلها المهلك، وخبأ ذلك الجمال الرائع، نعم خبأه الله لأحبابه المصطفين الأخيار ليذروا الناس يتخبطون في السياسة ونظم الحياة مع مشاركتهم فيها ومعاونتهم، ثم هم يغوصون أكثر من غيرهم على ما أمامهم من السحر الحلال والموسيقى والنظام الجميل.

ولما وصلت إلى هذا المقام جاء صديق لي حسن الخلق كبير العقل، واطلع على ما كتبت، فقال: ما هذا الإغراق والإطراء في حشرة «أبي دقيق»؟ فقلت: هذا ليس خاصاً بها، بل هو عام في السماوات والأرض، إن النظام في هذه البيوت الهندسية المنتظمة المملوءة هواء ومواد ملونة يذكرنا بنظام الكواكب في السماء.

قال: أما نظام هذه الأجنحة فهو مقبول، لأن النظر إليه بالمنظار يحقق ما تقول، أما نجوم السماوات فلا نظام لها، لأن الناس نظروها بالمنظار فرأوها أكبر وأكثر مما نرى، ولكنها لا نظام لأوضاعها كأوضاع هذه الحشرة وبيوتها. قف ليلاً وانظر النجوم المقدرة بثلاثة آلاف بالعين المجردة، هل ترى هناك صفوفاً منظمة مهندسة كالتي ترى بالمنظار على جناح هذه الحشرة، وإذا قال الله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣] فإني رأيت عدم التفاوت في جناح الحشرة، ولكن لم أره في نظام نجوم السماوات.

فقلت: لعلك لم تطلع على ما تقدم في هذا التفسير، وكتابي «نظام العالم والأمم».

قال: ماذا قلت فيه؟

قلت: إن النجوم أمرها عظيم وعلمها واسع، وليس إدراك نظامها بالسهولة التي يدرك بها جناح الحشرة، أدركنا نظام البيوت في جناح الحشرة لأنها أمامنا، أما نجوم السماوات والأرض فانظر ما أقول لك: نحن نكتفي منها بالمجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية مركزها الشمس ويدور حولها السيارات «عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون»، وهذه سيارات ثمانية، وقد وجدوا أن أبعادها عن الشمس بنظام هندسي، فكل كوكب يكون أبعد عما قبله ضعف بعده، فإذا كان كل كوكب منها بعده ٢٤ والي بعده ٤٨ وهكذا، فهذا نظام يقال له «متوالية هندسية»، فأما نظام بيوت جناح الحشرة فإنه يقال له «متوالية عددية»، فإذا كان الناس يرون نجمة الصبح ونجمة المساء، ويقول علماء الفلك: إن تلك النجمة هي كوكب من تلك الكواكب التي تدور حول الشمس كما تدور أرضنا، ويقول الناس إذا رأوها: إنه لا مناسبة بين أبعادها بالنسبة للشمس، ثم بعد البحث وجدوا مناسبة كما وجدوها هنا في جناح الحشرة، فمعناه أن هذا العالم نظامه واحد وأن صانعه صنعه بحكمة واحدة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣].

هذه هي الحشرة التي يراها الناس فيزدرونها ويهلكونها، قد خبأ الله فيها حكمته، وخصها بالحكماء في هذه الأرض الذين رباهم فيها، لينقلوا إلى عالم أبهج بعد الموت بعد أن يبهجوا الناس بالحكمة الرائعة، ويكونون مفرحين للعقول الإنسانية، كما أن رجال الموسيقى مختصون ببهجة الأسماع وأرباب الجمال الظاهري يسرون العيون، وفرق بين ابتهاج العقول وابتهاج الأسماع والأبصار، إن فرق ما بين جمال صور الناس وأصواتهم وبين جمال العقول كالفرق بين بقية الناس وبين الحكماء.

فبهذا فليفرح المفكرون القارئون لهذا التفسير، وهذا من أجلّ فضل الله الذي قال الله فيه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨].

اللهم إن المسلمين قصروا في زماننا، وإنك قد جعلت هذا التفسير لإيقاظ همم نائمة ونفوس خامدة وعزائم جامدة، وسيكون له نبأ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسْتَقَرٌّ ﴾[الأنعام: ٦٧].

اللهم إن المسلمين لن يصلوا لهذا اللب إلاّ بعد أن يخترقوا القشر، وأنى لهم بالقشر واللب ولا قشر ولا لبّ إلاّ العلوم التي طارت من بلاد الإسلام وحطت في أوروبا وأمريكا، وهناك عششت وباضت وفقست وازدهرت وأثمرت وأينعت.

إن ظواهر العلوم هي مما يجمعون، ونفس هؤلاء العلماء في أمريكا وأوروبا يقرؤون هذه العلوم لأجل ظواهر الحياة الدنيا، أما المسلم في مستقبل الدهر فإنه سيقرؤها كما يقرؤها الأوروبي والأمريكي والياباني للحياة الدنيا، ويختص هو بأنه يصل إلى جمال العالم، إذ يجد في نظام هذه العجائب كتلك الذرات التي على جناح الحشرة التي انتظمت واكتملت وأبهجت الناس بظواهرها وخصت العلماء بعجائبها، هذه النظم في الأجنحة أشبهت نظام النجوم من حيث انتظام الأبعاد كما قدمناه.

ما فائدة هذا النظام

إن فائدة هذا النظام وتلك المواد الملونة وذلك الهواء الذي ملئت به تلك الحقائب البالغة ألف ألف ونصف، ذلك العدد كل هذا لأمر واحد وهو حفظ الحشرة من أعدائها، لأنها إذا رأت عدواً مهاجماً ضمت أجنحتها ووقفت على زهرة، فصارت تشبهها فتلتبس بها فتحفظ من العدو، لماذا هذا الحفظ؟ لتعيش على ورق قطننا وتتمتع في قصور ونور، فيخسر الزارعون وهي الجانية الكاسبة، فما أعجب هذا الصنع! هواء محبوس يعكس الضوء ومادة ملونة تظهر بنور الشمس، كل ذلك لحفظ هذه الحشرة الآكلة لقطننا.

فجلّ المتقن وما أجمل الإتقان، وكما أنك ترى البيوت على نوعين: بيوت فيها مادة ملونة، وأخرى هواء يقوم مقام الزجاج، هكذا ترى الحشرات على نوعين: نوع يعيش في بلاد البرازيل زاهي اللون بديعه قد أعطي مادة بشعة الطعم والرائحة تفرزها الحشرة على ما يهاجمها من الطيور والزحافات فيرتد عنها، ونوع آخر لم يعط هذه المادة، والأول يسمى الملك والثاني يسمى نائب الملك، لأن الأول تخافه أعداؤه لتلك المادة التي يفرزها، والثاني لما أشبه الأول في لونه وشكله وجماله ظنت الطيور والزحافات التي تقصده أنه عنده تلك المادة فتحامته وخافته، وهذا هو العجب، كيف لا نعجب وقد رأينا الحكمة هنا واضحة، أي: أنه لا يخلق إلاّ ما له فائدة، فإذا كان الملك أعطي سلاح الرائحة الكريهة والطعم الكريه، فلم يعط ذلك نائب الملك اقتصاداً وتعليماً لنا؟ كأن الله يقول لنا: افهموا من

حشرة أبي دقيق أن أعمالي كلها على هذا المنوال، فإذا رأيتم الملك قام بإخافة الأعداء واستغنى نائب الملك، فذلك مثال لهذا العالم الذي لا تفهمونه، وإنَّما تفهمون على مقدار عقولكم، وإنَّما ملكي كله كما في هذه الآيات كآية: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، وآية: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وآية: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧] وآية: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩].

وإذا كنت أبدعت في صفوف جناح الحشرة ولم أذر عملاً من أعمالها يضيع وهذا في حشرة صغيرة، فما بالكم بأعمالي معكم أنتم وفي سماواتي وأرضي، إنّ كل أهل السماوات والأرض على هذا النظام أستهم ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾[مريم: ٩٣-٩٤]، وهم جميعاً بنظام واحد، كما نظمت ألوان حشرة أبي دقيق، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٨].

فوائد الألوان في الطب

ومن أجمل ما يناسب اختلاف الألوان فوائدها في الطب وصحة الأجسام، فهل خطر ببالك يوماً ما أن لون الزرقة كلون السماء، والبحر الملح يقويك إذا كنت في دور النقاهة أو ضعيف الجسم. وهل خطر لك أن اللون البنفسجي يمنع عنك الأرق والسهر فتنام. وهل قال لك يوماً طبيب حاذق إن لون الصفرة منشط منبه، كما قال تعالى: ﴿ بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾[البقرة: ٦٩] وهو يفيد أصحاب «الماليخوليا» ويهدّئ الأعصاب ويلطف ثورتها ما لم يكثر استعماله فيحصل العكس. وهل علمت أن لون الحمرة بتكرار النظر إليه يحدث تخديراً كما تفعل المواد المخدرة؟

أما أنا وأنت وكثير من الناس فربما اتفق أن قويت أجسامنا أيام النقاهة بلون الزرقة، وطرد عنا الأرق باللون البنفسجي، ونشطنا بلون الصفرة، وتخدرت أعصابنا بالحمرة، أقول: ربما كان ذلك، ولكننا لا نعلم من أين جاء ذلك.

وهل علمت أن لون الحمرة يزيد المجنون جنوناً ويهيجه كما يحصل لثيران إسبانيا في صراعها؟ وهل علمت أن المجنون إذا كان في غرفة زرقاء هدأت أعصابه؟ وهل ظننت أن الرجل في حال يأسه وبؤسه يطرد عنه اليأس والبؤس إذا داوم النظر للون الحمرة؟ وهل خطر لك يوماً أن الزكام والشلل وبعض الأمراض المزمنة تخف آلامها بالنظر للون الصفرة، وأن المحموم يستضر بذلك اللون والمجنون؟ وأن اللون البرتقالي منبه، وهل جلست يوماً في حديقة وأنت متهيج الأعصاب فهدأت أعصابك بنظرك للون الخضرة.

إن ذلك يحصل لنا ولكننا لا علم لنا بعجائب هذه الدنيا وغرائبها، وإذا أردت البرهان على ذلك فاعلم أن الأطباء في بضع السنين الماضية قاموا بتجارب لاختيار تأثير المعالجة بالألوان، وفي سنة ١٩١٦ أنشئت الكلية الدولية في لندن للمعالجة بالألوان، فأثبتت النتائج التي انتهى إليها أطباؤها وفائدة تلك المعالجة، ولا سيما في الأمراض العصبية، وثبت للأطباء أن للألوان فائدة في منع الأمراض وفي الشفاء منها، وأول من أشار بمعالجة الألوان الدكتور «أدوين رابت» من أطباء نيوجرسي بأمريكا، وقد ألف كتاباً في ذلك طبع في أواخر القرن التاسع عشر، وفيه أن اللون كالموسيقى يؤثر في المجموع

العصبي تأثيراً عظيماً، وأن هذا التأثير يظهر جلياً في معالجة الصدمات العصبية والنورستانيا والسوداء، ويظهر أن اللون يحدث تأثيراً في العقل ثم ينشأ عنه رد فعل في المجموع العصبي على سبيل أشبه بالاستهواء أو الإيحاء، والثابت الآن أن اللون الأزرق يفيد في تقوية الضعاف في طور النقاهة، وأن اللون البنفسجي خاصته الشفاء، وهو مفيد جداً في معالجة الأرق. ثم إن للون ثلاث مزايا وهي:

(١) إنه منبه مقوّ للعصب.

(٢) إنه ملطف أو مخفف للألم.

(٣) إنه مقوّ في حالة الضعف.

فكونه ملطفاً أو مخففاً: يظهر من كونه يؤدي إلى التأمل، وإعمال الفكرة، وعدم الاكتراث والاستسلام وما أشبه. وكونه مقوياً: يظهر من التغيير الذي يحدثه في الجسم إذ يجعل المرء موزوناً سمحاً كريماً قانعاً بحاله.

أما الألوان المنبهة: فإنها توجد في النفس الرجاء والأمل والطرب والطموح والنشاط والرغبة في العمل، وفضلاً عن ذلك فإن الطائفة الأخيرة تطلق الفكر من قيوده وتستثير العواطف وتوجد في النفس نشوة وشعوراً بتجديد القوى العاملة، وقد ثبت الآن أن اللون الأصفر هو من الألوان المنبهة، وأن اللون الأحمر هو من الألوان المخدرة، ولذلك يجب استعمال الأخير منهما بمزيد الحذر لأنه قد يفعل فعل المورفين والكلورفورم.

إن الإفراط في استعمال اللون الأحمر قد يفسد التوازن العقلي إذا كان عقل العليل يستلزم عناية خاصة. وقد ذكر الدكتور «رابت» أن المجانين والمصابين بأمراض عقلية إذا وضعوا في غرف يسود فيها اللون الأحمر ساءت حالهم بسرعة، وبالعكس إذا وضعوا في غرفة يسود فيها اللون الأزرق فإنهم يصبحون هادئين.

واستعمل الدكتور «بونزا» مدير مستشفى المجاذيب بمدينة «اليساندريا بيدمونتي» غرفة حمراء لبعض المصابين بحالات يأس، فكانت النتيجة مدعاة إلى الارتياح.

واستعمل اللون الأصفر في معالجة الزكام والشلل وبعض الأمراض المزمنة فخففت الآلام كثيراً، وثبت أن اللون الأصفر مضرّ بالحميات حتى لقد يؤدي إلى الالتهاب والبحران، أما المصابون بـ «الماليخوليا» فقد أفادهم هذا اللون فائدة عظيمة، ووجد الدكتور «بونزا» أيضاً أن اللون الأصفر يهدئ الأعصاب ويلطف ثورتها، ولكن استعماله بكثرة يؤدي إلى «الماليخوليا».

أما اللون البرتقالي فإنه من الألوان المنبهة، واللونان القاني والبنفسجي الفاتح هما من الألوان الملطفة للأعصاب، واللون الأخضر مهدئ للاضطرابات العصبية يفعل فعل المخدر.

وذكر الدكتور «بونزا» تجارب أجراها بغرف ملونة، فقال إنه وضع رجلاً مصاباً بـ«الماليخوليا» والعبوسة وقلة الكلام في غرفة حمراء، فبعد ثلاث ساعات أصبح الرجل طروباً ضحوكاً، ووضع عليلاً آخر مثله في تلك الغرفة وكان يرفض الأكل وقد نحل جسمه وأصبح أشبه بهيكل عظام، فبعد أربع وعشرين ساعة نشأت في الرجل شهوة الطعام، فصار يأكل حتى عادت إليه قواه وأصبحت حالته طبيعية.

ويؤخذ من تقارير مستشفى لندن أن المعالجة بالألوان قد جاءت بفائدة عظيمة في معالجة أمراض الصدمات العصبية و« النورستانيا »، وأن الألوان الأصفر والبرتقالي والوردي والأزرق السماوي والأخضر والبنفسجي القاتم والبنفسجي الفاتح هي أهم الألوان التي تعالج بها تلك الأمراض.

وذكر الدكتور « رابت » أن اللون الأزرق هو أهم الألوان في معالجة اضطراب الأعصاب والاضطراب العقلي، وقال: إن الألوان عامة تؤثر في الرجال أكثر من تأثيرها في النساء، وأن الحيوانات تتأثر كثيراً باللون القرمزي والأصفر الفاتح والأخضر الطبيعي، وأن الطيور تتأثر باللون الأخضر، والحيات تتأثر باللون الأصفر، حتى إن هذا اللون قد يستهويها ويسقطها في شبه سبات مغناطيسي، وأن اللونين الأزرق الباهت والأخضر الباهت يلطفان أعصاب الطفل المتهيج، وأن تسعة وتسعين في المائة من الناس يحتاجون إلى اللون الوردي. انتهى.

بهجة العلم في قوله تعالى:
﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ الخ

لا يخفى على من درس هذا التفسير وأمثاله من الكتب أن نعم الله لا تحصى في ذرة واحدة، كما جاء في آخر تفسير سورة « يوسف »، فضلاً عن السماوات والأرض، وإني أريد أن أريك أيها الذكي الآن عجباً في هذا الإنسان. يظهر لي أن هذا الإنسان من عالم متأخر جد التأخر، هو يعيش مع الدواب والحشرات فهو غافل ظلوم جهول، يقول الله فيه: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، وأيّ كفر أعظم من كفر الإنسان.

سر أيها الذكي في أقطار الأرض وسل أكثر هذا النوع الإنساني عن نعمة الهواء وحدها، فلا أحد يقول أنه نعمة إلاّ الحكماء، أما أكثر النوع الإنساني فلا يرون نعمة إلاّ ما اختص بهم وحدهم واستلذوا به وسد حاجتهم، تجري الرياح بالسحب وتلقح الأشجار بالهواء، وبه نشم الروائح فنفرق بين خبيثها وطيبها، ونرى فيه بخار الماء يتخلله ونحن في بحر لجي منهما، نحن نروح ونغدو ولا نعلم أننا غرقى في بحرين أحدهما هواء والآخر ماء بخاري قد امتزجا، وهذان البحران المتداخلان المتحدان نتنفس منهما فيصل الهواء إلى رئاتنا، فيكون ذلك سبباً لحياتنا وحياة حيواننا وحياة نباتنا، ولو انقطع الهواء لحظة لمات كل نبات وكل حيوان ولكن الإنسان كفور، والله يقول لنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ١٨]، فهو الذي رحمنا وغفر لنا جهلنا بالنعم التي عليها مدار حياتنا فلا نشكره عليها، ولكن شكرنا خاص بأمور تافهة حقيرة صغيرة، هذا هو بعض السر في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[النحل: ١٨-١٩].

البخار والهواء اللذان غرقنا فيهما شفافان، وهذه نعمة عظمى، ولو لم يكونا شفافين كالدخان لحجبا عنا نور الشمس.

إن نور الشمس والكواكب يملأان الأقطار ويحيطان بنا وبأرضنا كأن الفضاء لا مخلوق فيه فلا هواء ولا بخار يحجبه، وهذه من عجائب اللطف والحكمة، وهذا النور يهدي إلينا صور المخلوقات التي نراها وأشكالها وأحجامها وألوانها، فأما الهواء وأما البخار فإنهما لا حساب لهما عند النور، ولو أنهما ظهرا لنا لحجبا الجبال والأنهار والسماء والنبات وكل شيء، وكانت الحياة وبالاً.

هذا الهواء المحيط بالأرض ولولاه لكانت الشمس تشرق وتغرب بغتة فينتقل الحيوان من الظلمة الحالكة إلى الضوء الباهر مرة واحدة، والعكس بالعكس، فلا صبح ولا شفق ولا جمال في هذين الوقتين، وهذه المفاجأة ضارة بالحيوان، لولا الهواء لم تكن زرقة في الجو، بل كنا نراه ظلمة حالكة طول النهار، والدليل على ذلك أننا إذا ارتفعنا فوق الجبال الشامخة رأينا سواداً حالكاً، ذلك لخفة الهواء، إن الهواء في جونا جرم كثيف وإن كنا نسميه لطيفاً، ألم تر إلى ما يقوله علماء الفلك؟ إنهم يقولون إن المادة المحيطة بالكواكب ذوات الذنب لطيفة لطفاً لا حد له، فهي ألطف من هوائنا ألف مليون مرة، ومعلوم أن هواءنا ألطف من الماء ثمانمائة مرة والبخار ألطف من الماء ١٧٢٨ مرة.

فاعجب لعالم نعيش فيه وهو مفعم بالحكمة ودقة الصنع، فإذا قلنا إن جو الكواكب ذوات الذنب بهذا المقدار المتقدم، فمعناه أن اللطف في المادة لا حد له ولا نهاية، ومن ذلك تفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، بعد الكلام على النعم وتعدادها وعدم إحصائنا إياها؛ وبيانه أن هذه العقول التي خلقها الله لنا في الأرض لا تكون إلا مناسبة لعالمنا، وعالمنا قد علمت أنه غليظ، وإذا كان الهواء عندنا أصبح غليظاً ألف مليون مرة بالنسبة لهواء آخر أفليس هذا معناه بطريق قياس التمثيل أن هناك عوالم ألطف وألطف مئات آلاف الملايين، وعلى مقدار ذلك تكون هناك عقول ألطف وألطف على هذه النسبة، وإذن تدرك تلك العقول دقائق النعم، في حين أن عقولنا تجهل كل شيء من النعم إلا النادر الذي لا يؤبه له، وبهذا يفتح لنا باب فهم قوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وأننا سننتقل في عوالم بعد عوالم ألطف وألطف فنزداد علماً وعلماً، وهو قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

هذا ولست أريد أن أذكرك بنعمة الطيارات المتقدم ذكرها في هذا المقام وفيما تقدمه، وأن الطيارات قسمان: قسم أخف من الهواء، وقسم أثقل من الهواء، وقد توسعت في شرحه في سورة «المائدة» عند قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]، فهو موضوع متمم لمسألة الطيارات هنا فارجع إليه إن شئت.

فاعجب ثم اعجب لجمال ونور نعيش فيهما وأكثرنا عن العلم معرضون، وسيكون في المسلمين إن شاء الله بعد انتشار هذا الكتاب حكماء يرقون الأمم الإسلامية، والله هو الولي الحميد. اهـ.

تذكرتان

التذكرة الأولى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ وبيان ما فتح الله به عليّ في مرضي

هاهنا أحدثك أيها الذكي حديثاً وقع لي أثناء شهر ديسمبر سنة ١٩٢٧: فإني قد اعتراني مرض عطل طبع هذا التفسير نحو خمسة عشر يوماً، ذلك المرض أصابني فجأة، وما هو إلا انصباب الدم من الأنف بكثرة هائلة فهو رعاف مكبر، فماذا جرى؟ خارت قواي وتعاطيت دواء كما أمر الطبيب، هناك تجلت لي هذه الدنيا، هناك تذكرت أن الموت ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، فقلت: علام أحزن على هذه الأرض؟ فكان الجواب في سري على أمرين: تمام طبع هذا التفسير، وبعض أمور في أسرتي أرجو أن تتم على يدي، فإذا تم الأمران فما أحسن الموت. أما الآن فإني إذا مت كانت الحسرة على

عدم تمام طبع التفسير وعلى بعض الأمور الخاصة، فالأول من الغرام برقي الأمة الإسلامية، والثاني من الشفقة على بعض الذرية الضعاف. هذا ما خطر لي إذ تذكرت الموت وأنه مني ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[النجم: ٩]، هنالك قلت لأرجع لكتاب الله تعالى، فقرأت:

(١) ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[الحديد: ٢٢].

(٢) ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة: ٥١].

(٣) ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد: ١٦].

(٤) ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

(٥) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

(٦) ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[آل عمران: ١٨٦].

(٧) ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ ﴾[إبراهيم: ١٢].

هنالك قلت: إن لهذا العالم صانعاً، وهذا التفسير قد جمع فيه بين العلوم والدين، وكل الدلائل قائمة على علمه بكل صغير وكبير.

ثم أخذت أفكر فيما أحزنني إذا مت، فتذكرت التفسير وقلت: يا عجباً، أنا أكتب هذا التفسير بدافع نفسي وشوق قلبي، أليس هذا الشوق من الله؟ فقلت في سري: بلى، فالله هو الذي أودع في قلبي حب هذا التفسير، كما أودع في قلب المرأة حب ولدها فترضعه، والله عزَّ وجلَّ هو المتصرف، فهو الذي يتوفى تلك المرأة تارة قبل تمام الإرضاع، وتارة يتوفى ولدها قبل تمام الإرضاع، فيكون الألم للولد في الأولى، وللأم في الثانية، هذا فعله وهو أعلم بالمسلمين، وأعلم بمرضهم وضعفهم، وأعلم بمن ينقذهم على يديه، فربما كان هذا التفسير يقف عند هذا المقام، ويرى الله في علمه أن هناك أموراً أرقى وأرقى، إذن أنا لست على حق في حزني على تمام التفسير في الطبع إذا مت، لأن الله هو رب المسلمين ومتولي أمورهم، ومن أنا حتى أحزن، هنالك ذهب هذا الحزن.

ثم قلت في نفسي: لماذا أنا في كدر على بعض ذريتي؟ فتذكرت أن المصائب علم الله وقوعها قبل خلقها، وأنه هو الذي يتولى الذرية كما يتولى الآباء، وإذا قال الفلاسفة أنه لا سعادة بمال ولا جمال ولا صيت، وإنما هي بالعلم وحسن الخلق، وما عدا ذلك فهو صالح للسعادة والشقاوة، والأخلاق في النفس يهبها الله، فما عملي أنا؟ فسكنت هناك ثورة الحزن واطمأنت النفس للموت وتذكرت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾[فصلت: ٣٠-٣٢]، وقلت في نفسي: لعل هذه الخطرات التي خطرت في قلبي مما يناسب ما تتنزل به الملائكة على قلوب المرضى عند دنو آجالهم، لأن آراء الخير من الملائكة، وآراء الشر منسوبة للشياطين، هنالك اطمأنت النفس تمام الاطمئنان.

منظر الأشجار والمزارع والشمس والأرض والإنسان

فلما كانت الليلة الثانية وقد ازداد الضعف وأحست النفس به إحساساً أشد، خيِّل لي أني واقف على جسر نهر يسمى «أبا الأخضر» بالقرب من قريتنا، وفي سفح ذلك الجسر شجر شائك مما كنت أعهده هناك في نفس هذا المكان، وهو شجر «القرطم» النافع في علم الطب، وكأني أشاهد ورقة من أوراقه خضراء فيها بقع بيض قليلة كما هو المعتاد، فاستوقف نظري ذلك المنظر، وصرت في غاية العجب من نفسي، كل ذلك في عالم الخيال، وصرت أقول: ألم أرني معجباً بورقة من شجرة منبوذة شائكة، وهذا الشجر مسلح كله بالشوك المحدد كالحراب يغشى الشجرة من أعلاها إلى أدناها، ودام ذلك العجب مدة.

ثم خيِّل لي كأن شبحاً أمامي يخاطب قائلاً: إني علمت ما في نفسك، وإنك متعجب من نظرك لهذه الورقة وتعجبك منها، ومن عادة الناس أن يبهرهم صور الأزهار الجميلة، لا شجر شائك كهذه.

فقلت: حقاً قد أصبت ما في نفسي. فقال: إن هذا التعجب أمر علمي وسأبينه لك، انظر إلى ضوء الشمس المشرق على الورقة، لقد أتى لها من الشمس وسار مسافة تبلغ بسير المدفع ١٢ سنة، وبسير القطار نحو ٣٦٠ سنة.

قلت: نعم. قال: هذا النور يخاطب هذه الورقة قائلاً: لقد أرسلتني الشمس إليك وقد أثارت الحرارة التي تصاحبني وتلازمني بخار الماء من البحار والغياض والرطوبات، فصار سحاباً ماطراً ولا يحمله إلاّ الهواء الذي أثرته بقوتي، فأنا ما وصلت إليك إلاّ بعد ما أرويت أرضك فسقيتك من الماء الذي أثرته بخاراً تحمله الرياح الجاريات.

ثم قال لي ذلك الشبح: انظر أيضاً إلى نوع هذه الشجرة وتأمل، فإنها بشوكها قد حفظت بعض الحيوان كالجمال، فالجمال عادة تأكله، وكأن الشوك القائم على جوانب تلك الفروع الشائكة يقول للإنسان وللحيوان ما عدا نحو الجمال: إياك أن تقربني وإلاّ مزقت جلدك وآذيتك أذى شديداً، وما إيلامي لك بشوكي لعداوة بيني وبينك، وإنّما ذلك لنظام سنّه مبدع هذا الوجود، فحفظي لنوع من الحيوان نافع لك، فإيذاؤك بشوكي منفعة لك في الحقيقة، لأني اختصصت بحيوان هو سفينة الصحراء وهو الجمل وهو لك نافع. فقلت له: هذا حسن وجميل. فقال: اسمع ما هو أجمل. فقلت: وما هو؟قال:

الحشائش المؤذية في الأرض كالأخلاق التي لم تهذب

اعلم أن تعجبك من هذه الورقة وغرامك بها في حال مرضك هذا مبني على أمر عام، فليس المقام خاصاً بالشجرات الشائكة، بل إن في الأرض من النبات ما يخرج بالفطرة بلا حرث ولا بذر ولا زرع، بل بدون عمل ما من الإنسان، وهذه النباتات مؤذيات للإنسان، فإننا نرى الفول والقمح والشعير والذرة تحتاج إلى حرث الأرض وسقيها والقيام عليها والجري على نظام مسنون، فأما الحشائش فإنها تخرج بلا تسميد ولا ري ولا حرث، ونراها تتلف قمحكم وذرتكم وشعيركم وقطنكم، وبذورها المبثوثة تبقى فيها إلى العام القابل، فتنبت في مواعيدها، وهذه كلها حرب عوان على كل ما يستنبته الإنسان، وهذه كلها كشجرة «القرطم» التي نظرت ورقة منها، فكلها تخرج بلا عمل عامل، هذا هو الذي تعجبت منه، وإنّما كان ذلك منك لما يأتي:

إن هذه الحشائش في الأرض لها فوائد جزئية لا كلية ، فمنها ما يفيد في طب الإنسان ، ومنها ما ينفع لبعض الدواب فتأكله ، فلم يخلق الله ذلك تعذيباً للإنسان ، بل إن الله قال لكم : إن تركتم أرضكم فأنا أتولاها لتعيش حيواناتي على ما أنبته فيها ، وهكذا الحشرات التي ملأت بها أرضكم ، كل هذا وأنا أتولاها فأنبت لها ذلك الكلأ والحشائش ، وأنا الذي أعطيت تلك النباتات قوة بها تصادم الجو وتقابل العواصف والحر والبرد ، وأنا الذي أعطيت بذورها قوة الإنبات في حينها بلا تقديم ولا تأخير ، فأما قطنكم وقمحكم وشعيركم وذرتكم فإني لا أنبتها إلاّ بشروط ، فتحرثون الأرض وتسمدونها وتقلعون منها حشائشها وتحفظون بذورها في مخازنكم ، ولا تتركونها في الأرض وإلا فسدت وهكذا ، وليس ذلك مني تعذيباً لكم ، كلا ، وإنما أنا خلقتكم على صورتي فأحببت أن تقلدوني في عملي وتنظموا كنظامي ، هذا هو الذي أردته ، ومن تخلق بأخلاقي جاورني في العوالم العالية ، فأنا أنصبتكم وأتعبتكم على مقدار ما وهبتكم لترتقوا لا لتعذبوا .

أخلاق الناس

فأما أخلاقكم الأولى التي فطرتها على الحرص والشهوة وحب الاختصاص بالمنفعة ، فهذه أخلاق نافعات منافع جزئية كمنافع تلك الحشائش ، فكما أن الحشائش تنفع منافع جزئية هكذا الأخلاق الأولية في الإنسان تنفع لحياته والمحافظة عليها ، ولكن تهذيب الأخلاق يجعل المرء نافعاً للمجموع . إن زرع الذرة والقمح يستفيد منه الإنسان والحيوان لا الحيوان وحده ، وتهذيب أخلاق الأفراد نافع لهم وللهيئة الاجتماعية ، فأنا قد كلفتكم أيها الناس بتنظيف حقولكم بقلع حشائشها ، وتهذيب نفوسكم بترك رذائلها والاتصاف بفضائلها . إن هذا هو الذي كان كامناً في نفسك حين نظرت ورقة شجرة القرطم . اهـ .

جمال العلم وانشراح صدري في مرضي ومنظر الشمس والأرض وأسنان نوع الإنسان في عالم الخيال

ثم تجلى لي منظر بهيج جميل ، تجلت لي الشمس بهيئتها والأرض أمامها ، ففكرت في أمر الشمس وأنا أشاهدها ، وقلت : إنها أكبر من الأرض ألف ألف مرة ونحو ثلث هذا العدد ، فلو فرضنا أن أرضنا حصاة وكانت الشمس هذه الحصاة مكررة بالمقدار المتقدم لأصبحت الشمس أمامنا أشبه بهضبة أو أكمة عظيمة والأرض بجانبها حصاة مرماة .

ثم خيل لي جسم إنسان فوق الأرض والشمس أمامي أشاهدها ، وقد قال لي قائل : انظر ماذا ترى . فقلت : ماذا؟ قال : انظر أسنان هذا الإنسان ، فلماذا لم تكن في رأسه أو في رقبته أو صدره أو في بطنه أو على فخذه أو ركبته أو على قدمه ، ألست ترى أن وضع هذه الأسنان في موضع مضغ الطعام بعلم؟ فهل هذا الوضع بلا عقل أم هو يدل على أن واضعه تجنب كل موضع في الجسم من المواضع التي تزيد على مائة وخصصها بالفم لمضغ الطعام ، فهل هذه الأعمال بلا عقل ولا علم؟ قلت : بل هي بعلم وحكمة .

قال : أمامك الآن الشمس وأسنان الإنسان ، وما الإنسان إلاّ ذرة على الأرض ، وما الأرض إلاّ ذرة بالنسبة للشمس ، فهاهنا أمران :

العظمة والحكمة

فأما العظمة: ففي هذه الشمس العظيمة، فإن من يخلق هذه لا بد أن يكون عظيماً، ولكن ليس يلزم من خلق الأمور العظيمة أحكامها، فلذلك أتى لك بأسنان الإنسان ووضعها.

وتبيّن لك الحكمة في وضعها ونظامها، فعرفت أنت حقاً عظمة الصانع وحكمته، فهو كما خلق العظيم لم ينس أصغر الأشياء وهي أسنان الإنسان، فرتبها ونظمها وأحكمها، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]، وهذا هو معنى ما مثل لك الليلة.

مغزى هذا المثال

ثم قال: أتدري ما مغزى هذا المثال؟ فقلت: أريد أن أعرفه منك. فقال: أنت كنت في الليلة الفائتة تقرأ الآيات لتثبت قلبك للموت. فقلت: نعم. فقال: فقرأت: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ ﴾[التوبة: ٥١] الخ، وأردت بذلك أنك إذا مت وتركت هذا التفسير فالله هو الذي أراد عدم إتمامه، وأن ذريتك الضعيفة الباقين بعدك أراد الله لهم ذلك، ففي هذه الليلة جيء لك بهذه المناظر ليقال لك: هل تشك في أن أسنان الإنسان موضوعة وضعاً متقناً، وأنت طبعاً لا تشك، ويقال لك: أليس الإنسان على الأرض كذرّة، والأرض بالنسبة للشمس كذرّة؟ وإذا كان العظيم الذي خلق الشمس العظيمة لم يذر أسنان الإنسان ـ الذي هو ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لجرم الأرض التي هي ضئيلة بالنسبة للشمس ـ بل سوّاها وأحكمها، فهو إذن ينظر لصغيرات الأمور كما ينظر لكبيراتها، وما يحصل لكتابك بعد موتك ولأهلك، كل هذا لا يهمله الله كما لم يهمل نظام شيء صغير جداً هو أسنان الإنسان، وكل ما يعمله في أهلك وفي آثار كتبك موزون عنده معلوم، وهو المنظم لكل شيء، وهذا باب من أبواب عين اليقين. انتهى.

ثم إني بعد ذلك شفيت من المرض فعلمت أن هذه الخواطر إنما ألهمتها لأكتبها فتكون ذخيرة لي إذا دنا أجلي، وذخيرة لأخ مثلي، وتذكرة لقوم يعقلون، والحمد لله رب العالمين.

ذكرى مرضي أيام الشباب

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة، وإنك قد أعطيتني جلّ ما أريد. لقد كنت أيام الشباب إذ تخرجت من مدرسة «دار العلوم» موظفاً بمهنة التدريس بمدرسة دمنهور الأميرية، ولم ألبث إلاّ ثلاثة أشهر حتى انتابتني «حمى التيفوس»، تلك الحمى المنذرة بالموت، فلما رآني طبيب المدرسة أيقن بموتي، فأشار أن أسافر إلى بلدي لأموت عند أقاربي، فكان ذلك، وشفاني الله في أسبوعين، فجاء أحد أقاربي ومشى بي وسط المزارع، فجلسنا بجانب حقل مزروع ذرة وقد برزت ثمراته، وأنا في دور النقاهة ضعيف لا أقوى على المشي إلاّ قليلاً، فتفكرت في أمر الموت وقلت في نفسي: إذا مت الآن فمعناه أني تربيت وتعلمت على قدر طاقتي ولم تستفد مني هذه الحقول مزارعها شيئاً فأين شكر النعمة؟ إذن كان أسفي راجعاً إلى أنني أموت ولم يستفد مني أهل الأرض شيئاً في معايشهم التي ربوني بها، أما الآن فإني أحمد الله حمداً كثيراً. إن مما يثلج صدري أنني قد أقدرني الله على ما طلبت، ومن ذلك ما ذكرته آنفاً من مسألة الكهرباء ونفعها في الحقول وتربية دودة الحرير والدجاج وما أشبه ذلك، وفي هذا التفسير كثير مما يحض على رقي الأمم الإسلامية وغيرها، والحمد لله رب العالمين. اهـ.

الكلام على كتاب التفاحة المنسوب لأرسطو

وآيات الجنة مثل ما هنا إذ يقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾[النحل:٣٢] ومثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾[البقرة: ٢٥].

لقد تقدم تفسير هذه المماثلة، أي: مماثلة الثواب في الآخرة لمقدماته من الأعمال في الدنيا، ولكن الذي يحق لي بل يجب علي تبيانه اليوم أن مشابهة عالم الآخرة لعالم الدنيا كان من موضوع المحاورة بين «أرسطو» في كتاب «التفاحة» عند موته وبين تلاميذه، قبل الهجرة بنحو تسعة قرون، ولا جرم أن هذا أمر لم يعرفه أحد إذ ذاك من الأمم، بل كان مخبوءاً في خزائن الكتب، فظهوره في القرآن من معجزات النبوة العلمية، إذ كيف تكون المشابهة التي في سورة «البقرة» مبرهناً عليها في الحكمة والناس لا يعلمون؟.

وكتاب التفاحة هذا قد نشر في مجلة إنجليزية سنة ١٨٩٢، نشره الدكتور «مرغليوث» ترجمة فارسية، وهو موجود أيضاً باللغة العبرية منقولة عن العربية، ويشك القوم في نسبتها إلى «أرسطاطاليس» وهذا لا يمنع أنها مملوءة حكمة، وهو محاورة بين «أرسطاطاليس» وتلاميذه عند موته، كالمحاورة بين «سقراط» وتلاميذه، المسماة بـ«الفيدون»، وقد كان «أرسطاطاليس» في مرض موته قد اشتد ضعفه فأخذ يشم التفاحة ليتقوى بها، وهذه المحاورة ترجع إلى أمر بقاء النفس بعد الموت، والمهم لنا في هذا المقام أن نذكر ما يناسب آية الجنة في سورة «البقرة» لمناسبة ذكرها هنا، ولقوله هنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ١٠٥].

سأل «أقريطون» الفيلسوف «أرسطو» قائلاً: ما الدليل على أن العالم الغائب مثل العالم الحاضر؟ فقال «أرسطو»: فهل تسلم أنه لا شيء سوى المعرفة ونقيضها؟ قال «أقريطون»: نعم. قال «أرسطو»: هل تسلم أن الشيء لا يكون صلاحه إلاَّ مما يشبهه ولا تكون مضرته إلاَّ مما يخالفه؟ قال «أقريطون»: لا شك في ذلك. قال «أرسطو»: فإذا لم يكن جزاء الحكمة على مثل ما هي فإنه يجب أن يكون على خلافها، فإذا كان كذلك فقد يكون جزاء الحكيم الجهل، وجزاء البصير العمى، وجزاء العمل الصالح العمل الطالح، فهذا لا يكون ثواباً، وإنَّما يكون عقوبة، وعلى ذلك فمن تحمل مشقة الحكمة لا يكون له ثواب، وهذا غير صحيح، فلا بد أن يصح خلافه، فجزاء الإبصار تكون البصيرة، وجزاء صالح الأعمال يكون الخير، وجزاء طلب الحكمة وجدان الحكمة. قال «أقريطون»: لا يسعني إلاَّ الاعتراف بأن الحكمة يكون لها جزاء مثلها، وأن الجهل يعاقب عليه. قال «أرسطو»: فقد اعترفت بأن جزاء الجاهل يكون على خلاف جزاء الحكيم، وإلا فجزاء العمي يكون الإبصار، وجزاء بغض الحكمة نيل الحكمة، وهذا غير صحيح فلزم صحة نقيضه.

ثم تلا بقية الموضوع، وملخصه أن «أقريطون» قال: إذا أنا أنكرت أن للحكمة مثوبة وللجهل عقوبة فبماذا تجيب؟ فأجاب «أرسطو» قائلاً: ألفائدة أم لمضرة سؤالك لي؟ فقال: بل لفائدة العلم وللفرار من الجهل. قال «أرسطو»: فقد اعترفت أن العلم نافع والجهل مضر. فقال «أقريطون»: سلمت بفائدة الحكمة في الحياة لا بعد الموت. فقال «أرسطو»: هل فائدة الحكمة الالتذاذ بالمعيشة أم الازدياد في الحكمة؟ قال «أقريطون»: أنا قد سلمت أن للحكمة فائدة، وقد كنت من قبل سلمت أن

الحكمة مضرة بملاذ الحياة، فلزمني الآن أن تكون فائدتها في عالم الآخرة. قال «أرسطو»: لو أنك أنكرت فائدتها في عالم الغيب وقد كنت سلمت بأنها ضارة بلذة الحياة، فتكون إذن نفيت منفعتها في الدارين، وهذا يناقض ما سلمت به من فائدتها، إذن أقررت بأن للحكمة جزاء في الآخرة. انتهى الكلام على التذكرة الأولى.

التذكرة الثانية: في قوله تعالى

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾

يقول الله تعالى: فاسألوا يا أهل مكة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليخبروكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلاّ بشراً، لأن الملائكة لا يظهرون للناس، ولو ظهروا لكانوا بشراً، فيلتبس الأمر على الناس، وإنّما أمرناكم بهذا لأنهم علماء بما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما، وقد أوجبنا على الجهال أن يسألوا العلماء فيما يجهلون، وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾[النحل: ٤٤] الخ متعلق بـ «تعلمون»، و«البينات»: المعجزات، و«الزبر»: الكتب.

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يجاذبني أطراف الحديث في المسائل العظيمة في هذا التفسير، فقال: في نفسي شيء أريد أن أذكره الآن في هذه الآية. فقلت: قل ما تشاء. قال: هاأنا ذا من أبناء العرب، وأنا لست في حاجة إلى سؤال اليهود والنصارى على الرسالة، بل أنا الحامل للدين، والنصارى يرسلون المبشرين ليردوا المسلمين عن دينهم، ونحن أبناء العرب الذين حملنا هذا الدين إلى الهند والصين وجزائر الهند الشرقية وإفريقيا وأوروبا واليابان وأمريكا، وذلك إما بنا أو بواسطة الأمم التي أسلمت على يد آبائنا، فما فائدة هذه الآية إذن لنا؟.

فقلت: اعلم أن العلوم على قسمين: علوم يعرفها الناس بالبرهان بأن تستبين بنفسها، أو بالاستدلال عليها عقلاً، وعلوم يقرؤها الناس في كتب الأولين فتوقظهم. فالقسم الأول نظير المعجزات المذكورة، والقسم الثاني نظير الكتب السماوية.

وإذن نحن الآن معاشر المسلمين ملزمون أن نقرأ العلوم الطبيعية والرياضية بأقسامهما، وبعبارة أخرى: كل علم نعقله ونفهمه في المدارس كتشريح الأجسام وفهم نظام النبات والحيوان، فإن هذا كله بين بنفسه يدرسه الناس ويفهمونه وهم يشاهدونه، فهذه هي البينات كاستبانة المعجزات، فالمعجزات لأجل العوام، وهذه لأجل الخواص، فعلم النبات وعلم الحيوان بينات، وعلم خواص الأعداد بينات وعلم الهيئة وتعداد النجوم وأقدارها بينات، لأنها قام عليها البرهان، فبراهين هذه العلوم حية يشاهدها الناس بأعينهم، وانظر إلى علم الكيمياء ذلك العلم الذي يدرسه الناس اليوم ويحللون المواد في معاملهم ويشاهدون جمال الله ظاهراً واضحاً فيه، ويعقلون به نظام الذرات فيجدونها داخلة في الأجسام بحساب دقيق تقدم بعضه في سورة «البقرة الآية: ٢٥٩» عند قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ الخ، وفي مواضع أخرى من هذا التفسير، وسيأتي في سورة «العنكبوت» جدول منظم أبدع نظام ليعلم الناس أن الله لما خلقها جعل لها قوانين منظمة، وهكذا ما تقدم في أوراق النبات في سورة «الحجر» قريباً. هذه هي البينات التي أشبهت معجزات الأنبياء في كونها واضحة ظاهرة للخواص كالأولى للعوام والخواص معاً.

فأما كتب الأمم فإن هذا الدين يطلبها كلها ، فانظر إلى أمتنا الإسلامية السابقة كيف قرؤوا كتب اليونان ، ومن تبعهم من علماء الإسكندرية الذين لخصوا كتب أساتذتهم ، ولعلك تذكر مسألة الجزء الذي لا يتجزأ الذي يقول به علماء الأشاعرة وهو من أمهات مسائلهم ، فإنه رأي « ديموقراطيس » الحكيم اليوناني ، وهكذا ترى مذهب المعتزلة قد استند في كثير من مسائله إلى علماء « الرواق » من اليونان ، وهم تابعون في آرائهم « سقراط الحكيم » ، وهكذا نرى ابن سينا والفارابي وحكماء الأشراف من أمتنا الإسلامية قد اقتبسوا فلسفة اليونان من حكماء الإسكندرية ، وهم الذين لخصوا مذاهب اليونان منهم ، ورئيسهم رجل يقال له « أفلوطين » ، عاشوا بعد الميلاد في القرون الأولى وعرفوا زبدة آراء الفلاسفة « سقراط » و« أفلاطون » و« أرسطاطاليس » ، ووقعت كتبهم في أيدي حكماء الإسلام فلم يعرف الناس « أفلوطين » هذا وشيعته ، وإنّما عرفوا « سقراط » ومن عطف عليه لعدم شيوع علم تاريخ الفلاسفة بيننا .

فقال صاحبي : أنا الآن أسألك في تفسير القرآن ، وأنت أخذت تشرح مذاهب الفلاسفة وتأخذ بي في مجاهل يضل فيها الساري ، ما لنا ولأفلاطون وأفلوطين وسقراط ؟ حدثنا عن ديننا وعلمنا ، ودع التطويل فيما لا يفيد .

قلت : أيها العزيز هذا يعلمنا أن آباءنا قرؤوا علوم الأمم التي تقدمتهم ، وإذا كان الله يقول لأهل مكة : اسألوا أهل الكتاب عن أمرين : المعجزات والكتب حتى تعرفوا الحقائق التي تطلبونها ، أفلا يقول لنا : اقرؤوا العلوم المشاهدة في المدارس والعلوم الغائبة في الكتب ، وقد تيقظ آباؤنا فدرسوا علوم الأمم وأيقظوا الشعوب كما تراه واضحاً في سورة « التوبة » من التاريخ وضوحاً تاماً ، فلولا ذلك لغطت الدنيا في نومها العميق ، وإذا كانت المدنية الحاضرة في الغرب والشرق ثمرة اطلاع آبائنا على علوم الأمم ، فإن الأمر عظيم وواجبنا نحن أعظم . فقال : وما هو واجبنا؟

قلت : واجبنا قراءة تاريخ الفلسفة القديم والحديث ومعرفة نفس الفلسفة ، أي : نقرأ الفلسفة وتاريخها ، والعلوم بدون تاريخها تكون بتراء ناقصة لأن العلوم الحاضرة مرتبطة بالعلوم السابقة ، وما العلوم إلاّ شجرة تنبت وتتفرع ، فليكن في أمتنا اليوم أناس يدرسون تلك العلوم قديمها وحديثها مع تاريخها ، وإذا جهلنا القديم من العلوم لم نفهم الحديث ، وعلماء أوروبا لم يرتقوا عن علماء اليونان وعلماء الإسلام إلاّ في العلوم الجزئية ، أما المسائل العامة كالكلام في الله وفي اليوم الآخر والنفس والروح وما أشبه ذلك ، فالعلم بها قديماً هو العلم حديثاً ، والناس اليوم لا يزالون كما كانوا منذ آلاف السنين يتقدمون خطوة ويتأخرون خطوات .

فقال : إن هذا القول منك عجب كأنك تقول إن أمثال « سبنسر » و« داروين » و« لامارك » و« شوبنهور » وأمثالهم ليسوا أعلم من الأولين .

فقلت : نعم ، لا ، فهم أعلم منهم بالعلوم الجزئية وهم مثلهم أو أقل منهم في العلوم الكلية .

فقال : أريد أن يكون لقومك دليل من كلامهم .

فقلت : اسمع ما ذكره العلامة « ستلانة الطلياني » الذي كان مدرساً بالجامعة المصرية وقد اختاره ملك مصر وملك إيطاليا لذلك ، فهاك نص ما قاله :

كأني بقائل يقول ما الفائدة في كتبك؟ هذه التواريخ البالية والرسوم الفانية إن هي في نفس الأمر إلاّ أساطير الأولين وأوهام الأقدمين، ما لنا ولأفلاطون وأرسطو وأصحاب الرواق وبقية القوم وقد اندثر أثرهم وتنوسي ذكرهم، ما لك لا تذكر لنا أقوال المعاصرين من العلماء ورأيهم في النفس وأحوالها وتعلقها بالبدن الذي هو موضوع العلم المعروف عندهم «بيسكلولوجي»؟ ولماذا لا تأخذ في تفسير قول الفلاسفة المعاصرين لنا مثل «هربرت سبنسر» وغيره: «لا فلسفة إلاّ الفلسفة الراهنة». هذا هو العلم النافع الذي نحتاجه في مثل وقتنا، ما هذا إلاّ خرافات الأقدمين التي لا تجدي نفعاً ولا تشفي غليلاً، فأقول: إن الفلسفة التي ذكرتها لا ينكر فائدتها إلاّ جاهل أو معاند أو كلاهما إلاّ أنك إذا أردت أن تفهمها حق الفهم فلا بد لك من معرفة آراء الأقدمين، إذ الفلسفة وسائر العلوم كالمرء يكون طفلاً ثم يشب ثم يصير كهلاً وهو شخص واحد، وكالسلسلة كل حلقة منها ارتبطت بالأخرى حتى لا يمكن حلها من غير أن يفسد الجميع، فمن لم يقف على أقوال القدماء حق الوقوف لا يتمكن من استنباط آراء المعاصرين، ولا من سبب اتخاذهم رأياً دون رأي، ولا ما آلت إليه الفلسفة في حالها الراهنة، قال «باكون» الفيلسوف الإنجليزي: «إن التاريخ للعلوم كالبصر لجسد الإنسان به يبصر ما تقدم وما بين يديه لكي يعلم الناحية التي ينبغي له أن يقصدها». اهـ.

ثم إنه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لا تتغير بتغير الزمان، وهي الآن على ما كانت عليه في القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود، ووجود الإله، وجوهر النفس وكيفية اتصالها بالبدن وإدراكها بالحس، وما هي حق المعرفة والميزان الذي به تقاس حقيقتها، فهذه المسائل وأمثالها التي اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأحوال، أتظن أنا نحسن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو؟ لا والله، إنا لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الاتصاف بصفات الألوهية، وشتان ما بين البعوضة والفيل، فلو راجعت «هربرت سبنسر» مثلاً الذي ذكرته آنفاً لوجدته يعترف في كتابه الموسوم بالأصول الأولية بأن الأوليات في الفلسفة ما لا طاقة للبشر عليها، وأن لا سابقية لنا على الأقدمين إلاّ في المسائل الجزئية والمباحث الفرعية دون ما يهمنا حله من المشكلات في الأصول، فالمسألة الباقية والجواب يختلف، وكل جيل أخذ سبب من تقدمه يخطو ثلاث خطوات ويؤخر أخرى، وبيننا وبين الغاية المقصودة بون بعيد كاد لا يتصوره عقل البشر فضلاً عن أن يتخطاه، ذلك سر الله لا يحيط به إلاّ هو، فلا يغرّنك أيها الحبيب شقشقة المتفلسفين، وأنصت إلى الفلاسفة تجد كلاً منهم راكناً إلى من تقدمه يوافقه تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهي النسق إلى فلاسفة اليونان ولهم حق السبق وفضيلة التمهيد، فإذا لم يكن من السائغ لذي أدب من الإفرنج أن يجهل ما كان عليه حكماء اليونان، كيف يسع ذلك مصرياً ومسلماً؟.

والعلوم الإسلامية منذ بدء نشأتها مؤسسة على علوم اليونان وأفكار اليونان، بل وعلى أوهام اليونان، حتى لا يكاد يفهم آراء حكماء الإسلام ولا مذاهب قدماء المتكلمين ولا بدع المبتدعين من لم يكن له بحكمة اليونان معرفة شافية لا مجرد الإلمام، وهذا لا يحتاج إلى برهان بل نعول فيه على البيان فصار هذا التاريخ والحالة هذه كالمقدمة الضرورية لتاريخ المدنية الإسلامية، لا يسع أحداً من هذه الأمة إهماله، ولا طالب الحكمة جهله، فأرجو أيها السادة من محبتكم للوطن الاعتناء بهذا التاريخ الجليل

الذي به أحرز الإسلام قصب السبق في القرون المتوسطة، ونال به فخراً يا له من فخر! فما من أمة أخذت في الترقي إلاَّ وأقبلت على طلب أخبارها وإحياء ما اندرس من آثارها، فإذا أهملتها كان ذلك أظهر شعار على التلاشي والإدبار، وفيما قلناه كفاية لأولي الأبصار.

نعم، إن هذا التاريخ يستدعي من طالبه مزيد العناية وطول الاجتهاد وذلك من شروط كل علم. قال الحكيم اليوناني: «العلم في موطنه كالذهب في معدنه، لا يستنبط إلاَّ بالدأب والتعب والكد والنصب، ثم يجب تخليصه بالفكر كما يخلص الذهب بالنار». اهـ.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد استفدت الآن فوائد لم تكن في الحسبان:

(١) الأولى: إن تاريخ العلوم تجب قراءته.

(٢) الثانية: إن علماء الإسلام الآن عليهم أن يتموا دراسة مذاهب الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة بقراءة كتب اليونان من استطاع لذلك سبيلاً.

(٣) الثالثة: إن تلك الثرثرة التي تسمعها في مصر وغيرها من قولهم: إن فلاناً ملحد لأنه قرأ علوم أوروبا، باطلة وقبضهم الريح لا هي في العير ولا في النفير، لأنهم هم أنفسهم يقولون: إن أهم ما يقصد من الفلسفة ـ وهي الحقائق العامة ـ لم تزل على ما هي عليه من القديم إلى الحديث، فإذن لا حق لأهل العلم في بلاد الشرق أن تنخلع قلوبهم ويهلعوا ويجبنوا حينما يسمعون الألقاب الضخمة للفلاسفة المعاصرين، وينقل الناس عنهم الكفر فتزلزل العقائد، فالعقل الإنساني قديماً وحديثاً لا يزال في دائرة واحدة، والآراء القديمة هي نفس الحديثة في مسألة الله والنفس والعقل والعالم الذي نعيش فيه، وأنا الآن قد عثرت على كنز ثمين من العلم بهذا المقال الممتع الذي نقلته عن الفيلسوف التلياني.

(٤) الرابعة: إن قوله تعالى: ﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾[النحل: ٤٣] الخ قد فتح لنا أبواب العلوم على مصراعيها، وهو الذي به أزهرت المدنية الإسلامية وتبعتها المدنية الحاضرة، كل ذلك بسر القرآن.

(٥) الخامسة: إن فكرة الإلحاد المنتشرة بين بعض المتعلمين في مصر وغيرها من بلاد الشرق، إنَّما يريد هؤلاء المدعون أن يظهروا للناس أنهم أعلم من جميع المسلمين، والدليل على ذلك أنهم نبذوا علوم المسلمين وعلوم دينهم، وذلك يتخذونه ستراً لجهلهم، والشعوب الشرقية الآن في مبدأ التطور، فهذه الثرثرة قد يغتر بها بعض الرؤساء لجهلهم بتلك العلوم ولكن الشرق آخذ في الاستيقاظ. قال الشاعر:

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه ... وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وهؤلاء المدعون سيعرفهم الناس عاجلاً أو آجلاً، وتنقرض هذه الطائفة ويحل محلها الفلاسفة الحقيقيون والحكماء؛ كما كان المسلمون في أعصر الإسلام الزاهرة.

فقلت: إن هذا الاستنتاج هو الذي في نفسي، وهذه الآراء التي في هذا المقال هي من سر قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]. فنحن في الأرض وجميع علمائها قديماً وحديثاً لا يزالون أطفالاً في أصل العالم والحقائق والنفس التي ذكرها القرآن، والحمد لله رب العالمين.

انتهى الكلام على تفسير القسم الأول من السورة.

القسم الثاني

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٥٤) لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٥٥) وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ (٥٦) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٦٠) وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٦١) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٦٣) وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٦٤) وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٦٧) وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ (٧٠) وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (٧١) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ (٧٢) وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا

يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ إلهين وإله: دل كل منهما على الجنسية وعلى العدد المخصوص، فإذا أريد الدلالة على أن المقصود منهما هو العدد أتى بما يؤكده ليدل به على القصد إليه والعناية به، ولو قلت: إنَّما هو إله بلا تأكيد، خيّل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية. ﴿ فَٱرْهَبُونِ ﴾ فخافونِ. ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ له الطاعة لازمة، أو له الجزاء دائماً فلا ينقطع ثوابه ولا عقابه. ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ عافية وغنى وخصب فهو من الله. ﴿ ٱلضُّرُّ ﴾ المرض والفقر والجدب وأمثالها. ﴿ تَجْـَٔرُونَ ﴾ تتضرعون، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، ومنه جؤار البقر ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ ﴾ أزال الشدة والبلاء. ﴿ فَرِيقٌ ﴾ طائفة وجماعة. ﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

فيضيفون كشف الضر إلى العوائد والأسباب ولا يسندونه لله. ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ أي: لأجل أن يجحدوا نعمة الله عليهم في كشف الضر، أو أن عاقبة أمرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء، فاللام إما لام كي أو لام العاقبة. ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ أمر تهديد، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم إلى ماذا تصيرون، وهو نزول العذاب بكم. ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: ويجعلون لآلهتهم التي لا يعلمونها؛ فيعتقدون فيها الأكاذيب فيقولون إنها تشفع لهم وتنفعهم، فواو يعلمون راجعة للمشركين. ﴿ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ جعلوا لتلك الأصنام نصيباً في أنعامهم وزرعهم تقرباً إليها. ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها. ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ ﴾ كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله مستترون كالنساء ولدخول التأنيث في التسمية.

﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ نزه نفسه عن قولهم. ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ معطوف على البنات، وسبحانه اعتراض أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ أي: فصار وجهه متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة الحاصلة من هذه البشرى، ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلئ غماً وحزناً، ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ يختفي من ذلك القول الذي بشر به، وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم إلى أن يعلم ما ولد له، فإن كان ولداً ابتهج وظهر، وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أياماً حتى يفكر ما يصنع، ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أيمسك به على هوان، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أم يخفيه فيه وذلك بالوأد، ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ إذ يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محله عندهم، ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ صفة السوء من احتياجهم إلى الولد الذكر وكراهتهم الإناث وقتلهن بوأدهن خوف الفقر. ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ الصفة العليا المقدسة، وهو أن له التوحيد وأنه المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو، وله جميع صفات الجلال والكمال من القدرة والعلم الخ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ المنيع تكبراً وجلالاً، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في جميع أفعاله ﴿ بِظُلْمِهِم ﴾ أي: بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم. ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ على الأرض ﴿ مِن دَآبَّةٍ ﴾ أي: دابة ظالمة؛ وهم الكفار وأمثالهم؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال: ٥٥]، ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ سماه لأعمارهم. ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي: ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم ومن الاستخفاف بالرسل ومن أراذل أموالهم، ويجعلون أكرمها لأصنامهم، ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ مع ذلك، أي: ويقولون الكذب. ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ عند الله وهي الجنة كما في سورة «فصلت»: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ مقدمون إلى النار معجلون إليها. يقال: أفرطت فلاناً في طلب الماء، إذا قدمته، ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ من الكفر والتكذيب ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي: وليّ أمثالهم اليوم من مشركي العرب وغيرهم. والولي: القرين والناصر، ومن كان الشيطان نصيره فما مصيره؟ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يوم القيامة، ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ للناس ﴿ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ من التوحيد وأمر الدين والأحكام، فتعرفهم الهدى والحق والحلال، وتصرفهم عن الضلال والباطل والحرام. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بياناً وهدى ورحمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فينتفعون به. ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ مطراً

﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ يعني بالنبات والزرع ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ يبسها. ﴿ لَأٓيَةً ﴾ دلالة واضحة ترقي العقول وتوقظ الأمم وتدل على كمال قدرتنا، ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر وإنصاف وتفكر، ولا عبرة بسماع الآذان إلاّ كما يسمع الحيوان، ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ إذا تفكرتم فيها عرفتم فنمت عقولكم، وبها تعرفون عظم قدرتنا وكمالها، ﴿ مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ ﴾ أي: نسقيكم مما في بطون ما ذكرنا من الأنعام ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ الفرث: ما في الكرش من الثفل، ومتى خرج لا يسمى فرثاً، وقوله: ﴿ خَالِصًا ﴾ أي: صافياً لا يستصحب لون الدم الذي هو أصله وكوّن منه، ولا رائحة الفرث الذي فصل الدم عنه بواسطة الكبد الذي ورد إليه خلاصة المواد المأكولة، فاستحالت إلى دم واستحال الدم إلى لبن فهو خالص من أصله وهو الدم ومما استخلص منه وانفصل عنه وهو الفرث، ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ سهل المرور في حلقهم. ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ ﴾ ثمر ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ وهو ما سدّ الجوع من قولهم: سكرت النهر، أي: سددته، ولا جرم أن التمر والزبيب مما يسد الجوع وهذا معنى قول أبي عبيدة: إن السكر الطعم، يقال: هذا سكر لك، أي: طعم لك. قال الشاعر:

* جعلت أعراض الكرام سكرا *

أي: تنقلت بأعراضهم، وقوله: ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ الرزق الحسن: سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب كالدبس والتمر والزبيب والخل، ﴿ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: دلالة ترفع عقولهم هي وأمثالها، فيعرفون خالقهم وقدرته. ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ألهمها وقذف في قلوبها ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ عبّر بـ «من» التي للتبعيض لأنها لا تبني إلاّ في بعض الجبال والشجر وبعض ما يعرش الناس، أي: يبنون من البيوت والسقوف والكرم والكورات، ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: من كل ثمرة تشتهيها، ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ فادخلي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، والطرق التي ترجعين فيها من المواضع البعيدة عن بيوتك، ﴿ ذُلُلًا ﴾ جمع ذلول، وهي حال من السبل، فإن الله ذللها وسهلها، فذلل طرق عمل العسل الصناعية وطرق رجوع النحل من المحال البعيدة إلى بيوتها. ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ يعني: العسل، ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ أبيض وأصفر وأحمر وأسود بحسب اختلاف المراعي، ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ لأنه من الأدوية النافعة، وقلّ من معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل، فهو شفاء للناس من الأمراض التي خلق دواء لها، فإن لكل داء دواء، وقد أكثر الله الأدوية كما أكثر الأمراض، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيعرفون كيف اتصف النحل بتلك الصناعات الدقيقة والأفعال العجيبة كما ستراه عند الكلام على صنع الشمع وتربية الذرية قريباً، فمن تفكر في هذا وأمثاله ازداد عقله وارتقت مدنيته ثم عرف الله. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ بآجال مختلفة، ﴿ مَّن يُرَدُّ ﴾ يعاد ﴿ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ أخسه وأضعفه ـ وهو الهرم الذي يشابه الطفولية في النسيان ـ وسوء الفهم. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بمقادير الأعمار ﴿ قَدِيرٌ ﴾ يميت الشابّ النشيط ويبقي الهرم الفاني. ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم موالي يتولون أرزاقهم ورزق غيرهم، ومنكم مماليك. ﴿ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ ﴾ بمعطي رزقهم ﴿ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ على مماليكهم حتى يستووا فيه هم وعبيدهم، ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ متساوون، والمعنى أن الله جعل الناس متفاوتين في الرزق كالموالي

والعبيد، وقد جرت العادة أن المولى لا يجعل عبده مساوياً له في الرزق بل هو أبقى السلطان لنفسه والاعتلاء، وإذا كان هذا طبعكم مع عبيدكم وأنتم مخلوقون فكيف ترضون أن يكون لي شركاء في ملكي، فلقد رضيتم لي بأخس الأمرين: البنات وشركة العبيد في الألوهية معي، وأنتم لا بنات ترضون ولا شركاء تبغون، ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الاستفهام إنكاري؛ أنكر عليهم أن يجحدوا نعمة الله، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي: من جنسكم لتأنسوا بها وليكون أولادكم مثلكم، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد، وهو الذي يسرع في الطاعة والخدمة، ومنه ما في القنوت: «تسعى ونحفد». ولما كان كلٌّ من البنات، وأزواج البنات، وذرية الزوجة من غير الرجل المعبر عنهم بالربائب، وأبناء أبناء الرجل، وأبناء بنات الرجل، لما كان كل من هذه الأنواع الخمسة يخدمون الرجل ويعينونه عادة في مصالحه دخلوا جميعاً في معنى الحفدة، فجعل الله الزوجة سبباً لهؤلاء الخمسة، ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ من النعم التي أنعم الله بها عليكم من الثمار والحبوب والحيوان والمستلذات من ذلك كله، ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: بالأصنام وبالشيطان، ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ فيضيفون ما أنعم الله به عليهم إلى غيره، ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ﴾ هي الأصنام، ﴿ شَيْـًٔا ﴾ بدل من ﴿ رِزْقًا ﴾، والرزق بمعنى المرزوق، وهو نفس المطاعم والملابس وغيرها، ولفظ ﴿ شَيْـًٔا ﴾ المبدلة منه يدل على القلة، ومن السماوات والأرض صفة لـ﴿ رِزْقًا ﴾، فهذه الأصنام لا تملك قليلاً من الرزق الكائن في السماوات والأرض، ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أن يتملكوه، وعبر بالواو هنا على معنى الآلهة، وقال أولاً ﴿ لَا يَمْلِكُ ﴾ على اللفظ. ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ فلا تجعلوا لله مثلاً فإنه لا مثل له، أي: فلا تجعلوا له شركاء، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ﴾ أنه لا مثل له من الخلق، ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك، أو يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون كيف تضربونها، وضرب المثل تشبيه حال بحال، ثم ضرب مثلين فقال في أولهما: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا ﴾ هو بدل من «مثلاً»، ﴿ مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ أي: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حرّ مالك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء. ولما كان العبد يشمل الرقيق والحر لأنهم عبيد الله قيده بالمملوك، ﴿ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ﴾ أي: لا يستوي القبيلان. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الحمد لله لا لهذه الأصنام. وقال في ثانيهما: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: بيّن الله صفة رجلين الأبكم الذي لا يحسن الكلام؛ وهذا البكم إما ناشئ عن صمم خلقي، وإما لعلة غير الصمم مع أنه لا علة له في أذنيه، فهو يسمع ولكن لسانه معتل، وعليه فكل من ولد غير سميع أبكم، لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له، وليس كل أبكم يكون أصم صمماً طبيعياً، فبعض البكم لا يكونون صماً؛ هذا تحقيق المقام، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ أي: ثقيل على من يلي أمره ويعوله، ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ حينما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم لا يأت بنجاح، لأنه عاجز لا يَفهم ولا يُفهم، ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ ﴾ أي: من هذه صفته الذميمة ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ ﴾ أي: ومن هو سليم الحواس عاقل، ينفع نفسه وينفع غيره، يأمر الناس بالعدل، ﴿ وَهُوَ ﴾ نفسه ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وليس يتمكن

من الأمر بالعدل إلاَّ المستقيم السيرة، وهذا المثل الثاني ضربه الله لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينها وبينه. ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد ومنه يوم القيامة، ﴿ وَمَآ أَمْرُ ﴾ قيام ﴿ ٱلسَّاعَةِ ﴾ في سرعته وسهولته ﴿ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ ﴾ إلاّ كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ أي: أو أمرها أقرب منه، فيكون في زمان ربع أو ثمن تلك الحركة أو أول تحريكها لأنه بكلمة كن. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكما قدر على إحياء الخلائق دفعة قدر على إحيائهم متدرجاً.

ثم أخذ يصف ذلك فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ أي: غير عالمين شيئاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ أي: القلوب تعقلون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي: أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ مذللات ﴿ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الجو: الفضاء الواسع بين السماء والأرض، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ في حال قبضها أجنحتها وبسطها واصطفافها في الهواء ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وتلك الآيات كتسخير الطير للطيران، وخلق الجو الذي تطير فيه وإمساكها في الهواء، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ موضعاً تسكنون فيه في الإقامة كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ هي القباب المتخذة من الأدم ومن الوبر ومن الصوف والشعر، فهي نابتة على الجلود، ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفة ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ وقت ترحالكم ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ أي: وتخف عليكم في إقامتكم وحضركم، فهي لا تثقل عليكم في الحالين، ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ ﴾ الضمير للأنعام، أي: ومن أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿ أَثَٰثًا ﴾ الأثاث: متاع البيت الكبير من فرش وأغطية وأكسية، من: أثّ، إذا كثر وتكاثف، ويقال للمال: أثاث، إذا كثر، ﴿ وَمَتَٰعًا ﴾ أي: ما تتمتعون به ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين أن يبلى أو تقضوا أوطاركم منه أو إلى مماتكم، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ﴿ ظِلَٰلًا ﴾ تستظلون بها من حر الشمس ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة، جمع كنّ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ ﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وما أشبه ذلك ﴿ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ أي: والبرد، وخص الأول بالذكر لأن وقاية الحر كانت ألزم لهم، ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ أي: الدروع، والسربال: يعم كل لباس، ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: كإتمام هذه النعمة التي تقدمت ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أي: تنظرون في نعمه فتؤمنون وتنقادون لحكمه، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أي: أعرضوا ولم يقبلوا منك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي: فلا يضرك، فإنما عليك البلاغ، فأقام السبب مقام المسبب. ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يعرف المشركون نعمة الله كالتي عدّدها، ويعترفون بأنها من الله، ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ بعبادتهم غير المنعم، وقولهم: إن الأصنام تشفع لهم، ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ الجاحدون عناداً، ومن النعم هذا القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الاعتذار إذ لا عذر لهم ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يسترضون، من: العتبى، وهي الرضا، ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ عذاب جهنم ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي: العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

يمهلون، ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ أوثانهم التي سموها شركاء، أو الشياطين الذين أغروهم، ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ نعبدهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا في ضلال ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي: أجابتهم الأوثان بالتكذيب وأنهم ما عبدوهم حقيقة، وما عبدوا إلا أهواءهم، ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي: ألقى الذين ظلموا الاستسلام لحكم الله بعد الاستكبار في الدنيا، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ ضاع وبطل ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم. ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر، ﴿ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا ﴾ لصدهم عن سبيل الله، ﴿ فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾ بكفرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾ أي: بكونهم مفسدين بصدهم. ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعني نبيهم، فإن نبي كل أمة يبعث منهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ على أمتك. ثم استأنف فقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ بياناً بليغاً ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ من أمور الدين تفصيلاً تارة وإجمالاً أخرى، ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ لجميع الناس ويحرم منه المقصرون، ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصة. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني.

التفسير المعنوي

تبيّن في آخر القسم الأول تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾، فلنعد القول فيه ليكون توطئة وصلة لما سنذكره بعده من تفسير هذا القسم حتى تكون المناسبة ظاهرة فأقول:

ذكر الله سجود الأجسام لله وتسخيرها بإرادته وقهره طوعاً أو كرهاً، وجاء في آية أخرى ما أفاد أن الله قال للسماوات والأرض: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]، فالعالم من أعلاه إلى أدناه مطيع لله مقهور، حتى إن الكافر به مسخر مقهور كما سخر الشمس والقمر، والنجوم والجبال، فكل ساجد ومطيع طاعة تسخير؛ فإذا كانت الأجسام خاضعة ساجدة تبعتها ظلالها، فنراها ساجدة سجود التسخير تبع الأجسام، وهي لاصقة بالأرض لصوق جبهة المصلي بها، بل هي أكثر التصاقاً وأطول سجوداً وأدوم عملاً، ولذلك نصّ على الظلال وأكثر من ذكر سجودها في القرآن، وقد وضح ذلك في سورة «الرعد» أيّما إيضاح.

ولما أن ذكر سجود الظلال أتبعها بذكر الدواب في السماوات والأرض، وقد بينا غير مرة أن الأراضي قد تبلغ ٣٠٠ مليون، وقد تكون أكثر على ما يظن في العلم الحديث والنظام الإلهي، ومن الظنون أن يكون فيها دواب، فهذه الدواب ــ وهي كل ما يدب ــ تشمل ما كان من العقلاء فيها كالإنسان على الأرض، فكل هؤلاء ساجدون مطيعون لله تسخيراً كالجماد، وعبادة ــ أي من كان منها عاقلاً ــ كالإنسان.

ولا جرم أن الحيوانات قد اتجهت رؤوسها إلى الأمام فتراها ذاهبة آيبة ورؤوسها ممتدة؛ فهي أشبه بالراكعة، والركوع يقرب من السجود بحسب شكله، وهو خضوع بحسب معناه، فأما النبات فإن

رؤوسه ساجدة لأنها مغروسة، فرؤوس النبات منها يستمد قوته وغذاءه، وهي التي تجذبه إلى الساق والورق والأغصان. ولا جرم أن الإنسان نبات مقلوب، فرأس النبات أسفل ورأس الإنسان أعلى، فالنبات ساجد بحسب جبلته، كما أن الملائكة جميعاً ساجدون مطيعون بجبلتهم، ولما كانت رؤوس الإنسان قد رفعت من الطين واستوت إلى أعلى، أمر بالسجود ليخضع كما خضع الحيوان والنبات، وليتذكر أنه ليس مستغنياً ولا مستقلاً عن هذا النظام العام، بل هو متصل به مستمد منه، فيقول في السجود: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين».

وكما ذكر الدواب بعد الظلال ذكر الملائكة بعد الدواب، ففيه ارتقاء من أدنى إلى أعلى، هكذا الأجسام التي لها ظل، فالظلال فالدواب فالملائكة، أي: ما روح له من الأجسام، ثم ما له روح وجسم، ثم ما كان روحاً صرفة صافية خالية من أحوال المادة.

ثم أردف الملائكة بقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل: ٤٩] أي: ليس خلوصهم من المادة يعطيهم عظمة، كلا، بل هم لقربهم من الله يعرفون جلاله وجماله، فهم منه خائفون، ومن قرب من الملك كان أخوف الناس منه، ومن عشق الجمال خاف من صد وهجران، بل ربما قتل نفسه إذا منع الجميل ابتسامته أو غض الطرف عنه، فقد ذكرنا في هذا التفسير في سورة «البقرة» أن هناك جمالاً قد استمد منه كل جمال، كما أن تلك العظمة تستمد منها كل عظمة. إلى هنا انتهى الترقي في المعارج من أجسام وظلال إلى دواب إلى ملائكة.

ثم جاء بعدها: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[النحل: ٥١]، هنالك استوى على العرش فهذا هو العرش والملك، وأخذ يخاطب من تحته ويلقي الأوامر إلى من هم أسفل من الثقلين، وخضعت الأجسام وظلالها فالدواب فالملائكة، واستوى الله على العرش وخاطب قائلاً: إياكم أن تتخذوا إلهين وكيف تكون الاثنينية وقد رأيتم التسخير واحداً، فالمسخر واحد والنظام متكامل، وإذا وجدتم الحيوان والجماد والنبات وكل ما ترونه ساجداً خاضعاً فكيف لا تسجدون؟ وإذا سجد الملائكة الذين لم تروهم وإنما رأيتم سجود آثارهم على الأرض من المخلوقات التي هم عاملون فيها، فكيف لا تسجدون؟ فليرهبكم ذلك ولتكونوا وجلين خائفين كما خافوا هم.

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[النحل: ٥٢]، ثم أخذ يذكر ملكه فأبان أن له ما في السماوات والأرض، والطاعة له دائمة، ولما كان وجود ما في السماوات والأرض لا يكفي للدلالة على وصول الآثار لنا أعقبه بأن كل نعمة واصلة إليكم فهي منه، فهو بعد أن ذكر النعم العامة أتبعها بالخاصة، والخاصة قسمان: قسم إيجابي وقسم سلبي، فالإيجابي ما يسدى إلينا من الأقوات والملابس وبقية النعم، والسلبي ما يسلب عنا من الضر والمرض والغم، فذكر الأول قائلاً: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣]، وذكر الثاني قائلاً: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾[النحل: ٥٣].

ثم أتبعه بالتوبيخ على نكران النعمة بعد حصولها كأنه يقول: دوام النعمة ينسيكم المنعم، فهاأنا ذا أعطيت المرض والشفاء والفقر والغنى والعز والذل والموت والحياة، وكنت قادراً أن أجعلكم أغنياء أصحاء كاملين من أول خلقكم كما كانت الملائكة، ولكن لم أفعل ذلك لأني لو بسطت الرزق لكم لبغيتم في الأرض ونسيتم نعمتي عليكم، فلذلك أتبعت كل نعمة بنقمة، وكل صحة بمرض، وهكذا

وهكذا جعلت جهلاً وعلماً وصغراً وكبراً، كل ذلك لتعرفوا ولتعلموا، وبغير هذا مستحيل أن تدركوا شيئاً، لأن الطباع في أرضكم هذه هكذا خلقت، ومع ذلك أراكم إذا مسكم الضر ودعوتموني وأجبتكم ترجعون بعد الصحة والغنى والقوة تنكرون نعمتي عليكم، وهذا قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ﴾[النحل: ٥٣] إلى قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[النحل: ٥٤].

وهذه الخصلة عامة في نوع الإنسان، لأن الإنسان يرجع بعد الفقر والمرض ـ وقد جاء الغنى والصحة ـ إلى ما كان عليه من أخلاقه وأطواره، فإذن يجب إصلاحه بطرق تهذيبية علمية، وهذا وإن كان وارداً في الكفار فإن كل ما يرد فيهم له نظير في المؤمن، وهذا القول تبيان لطباع الناس، وإلا فأي فائدة لقراءته إذا لم يكن هناك لنا به علاقة، فالحق أن من الناس من هم كالمجبولين على النسيان ونكران النعمة التي سبقها نقمة فليس نسيان النعمة خاصاً بالكافر، كلا، أفلا ترى أن المريض الذي حلّ به المرض بسبب تعاطي التبغ ـ وهو يدخنه كل صباح وكل مساء ـ إذا شفاه الله منه بدواء وقال له الطبيب احذر تعاطيه مرة أخرى، فإنه كثيراً ما يرجع إلى تعاطيه، أليس هذا كفراً بالنعمة؟ أي نعمة الشفاء بعد المرض، بل المرض نفسه نعمة.

لقد أثبت الأطباء في ألمانيا والنمسا ـ وهم أكابر أطباء العصر الحاضر ـ أن الرجل الذي يتعاطى اللحم أو البيض أو اللبن ـ وقد أكثر منها كلها أو بعضها ـ يمتلئ جسمه قوة ومتانة، وهو أحمر الوجه قوي متين، فمثل هذا ـ لكثرة التغذية ـ يفاجئه أجله بغتة وهو لا يشعر، وعللوا ذلك بأن هذه أغذية تامة التركيب، فالإكثار منها يملأ الأنسجة غذاء بحيث لا يكون لتلك الأنسجة راحة، أما الأطعمة المتخذة من النبات فإنها تكون لينة على الأنسجة سهلة عليها لا ترهقها بأغذية كثيرة، فلا تمتلئ امتلاء قتالاً يرهق الجسم فيخر صعقاً في يوم أو بعض يوم، ويقولون إياك أن تقول إني رأيت كثيراً من الناس يعيشون وهم أقوياء البنية كرجال الإنجليز الذين يكثرون من هذا وهم أقوياء، قالوا لأنك إذا رأيت هؤلاء فإنما هم من بقايا أولئك الذين ذهبت أرواحهم سدى وأصبحوا ضحايا كثرة الأغذية، فلا تحتج بالأحياء فإن أضعافهم من أمثالهم أموات، وقالوا أيضاً: إن الذين لا يمرضون هم الضعفاء والذين يمرضون هم الأقوياء، لأن القوي الجسم الذي لا يمرض جسمه لم يقدر أن يخرج ما فيه من الزوائد الضارة، أما الذي تعتريه الأمراض وهو ضعيف البنية فهو أقوى من مفتول الساقين أحمر الخدين قوي اليدين، فإن الأخير يخر صعقاً بغتة، أما الأول فجسمه الضعيف ظاهراً قوي باطناً لقدرته على إخراج الأمراض، فالقوي ظاهراً الذي لا يمرض وهو يأكل تلك المآكل أشبه بمن أصابه إمساك فهلاكه قريب، أما ذاك الضعيف ظاهراً فقد نجا من الإمساك الضار، وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب صديقنا الفاضل محمد بك فريد وجدي، المسمى «دستور التغذية» فلقد ترجم فيه آراء أولئك الأطباء.

أفلست ترى أن المرض قد يكون نعمة باطناً؛ نقمة ظاهراً؟ فإذا كشفه الله أصبح الإنسان في نعمة ظاهراً وباطناً، فلماذا لم يحفظ النعمتين ولم يرجع عما كان عليه من التخليط في الطعام والشراب والتمادي في الشهوات واللذات كتعاطي التبغ وقهوة البن والخمر والشاي وما أشبه ذلك، فإنه قد كفر النعمة لأن الله كشف عنه الضر ولم يفهم حكمة المرض ولم يعرف نعمة الله وأنكرها، ألا لا فرق بين كفر وكفر من حيث النتيجة، فنتيجة كفر نعمة الشفاء في الأمور الجسمية ضارة بالأجسام، ونتيجة كفر

النعمة في الأمور العلمية العقلية ضارة بالنفوس بعد الموت، وكأن الله جعل هذا داعياً أن نتذكر في هذه الحياة، بل هذه الحياة أقرب لنا، ومن عجز عن فهم ما نابه من الضراء في الدنيا فلم يحترس مما يضره في جسمه فهو عن فهم ما أصابه من الشر في اعتقاده أعجز، وإذا كان المسلمون اليوم قد أصيبوا باضطهاد أوروبا وظلمها لهم وقد مسنا الضر، فإذا لم نفكر جميعاً ونفهم الدرس الملقى علينا من ربنا، فإن الله يعذبنا في الدنيا دائماً جزاء كفرنا نعمته، وهي التذكير لنا باحتلال الأمم الأجنبية بلادنا، كما ذكر المريض أن تخليطه في الطعام أضرّ به.

وإذا كنا أثبتنا أن بعض من يمرض قد اتجهت عناية الله له أكثر ممن لا يمرض، وأن الأول غالباً تطول حياته أكثر من الثاني، فلنقل هنا إن الأمم الإسلامية قد اتجهت عناية الله لهم، لأن أوروبا قد كشرت لهم عن نابها وأذلتهم كما تمرض الأجسام، فهذه نعمه، ولو أن أوروبا عاملتهم بالحسنى لكان ذلك أشبه بصحة أجسام الذين في باطنهم داء دفين، فأصبح إذلال أوروبا نعمة علينا لأنه يذكرنا، فإن لم يذكرنا تمت النقمة وحقت كلمة ربك، وإياك أن تظن أن هذا خارج عن الآية، فإن الضر عام في الأجساد وفي الأمم، فلنقل هذا، وليحترس الناس في جميع أحوالهم، وليحترس المسلمون مما أحاط بهم من السوء ليكونوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

هاهنا قال الله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٥٥]، يقول الله للكفار: نسيتم الله، وقد ذكرتكم بالبأساء والضراء، وحبوتكم النعماء، فلتأكلوا كما تأكل الأنعام تنعمون وتأكلون.

هكذا أيها الصحيح الذي شفي من مرضه، لا ترجع للتخليط وإلا فتمتع فهلاكك قريب، ويا أمة الإسلام التي أصابها احتلال بلادها، هاهو ذا القرآن يذكركم بجميع العلوم فادرسوها وقووا أجسامكم ومدنكم، وإلا فتمتعوا بالحياة الحيوانية فسوف تعلمون ما يحل بكم من تألب الأمم عليكم.

فصل في قوله تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾[الآية: ٥٦]

إلى قوله:

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الآية: ٦١]

قد علمت أن الملائكة يفعلون ما يؤمرون طوعاً لا كرهاً، لأنهم مطبوعون على النظام، مجبولون على حب الخير، وبعد أن ذكر الملائكة شرع يصف أحوال الناس، فذكرهم بالنعمة التي تصل إليهم منه، ثم زجرهم على جهلهم بما يتوارد عليهم من الضراء والسراء فيرجعون إلى ما كانوا عليه، مع أن ذلك لم يقصد منه إلا تربيتهم، فهي دروس طبيعية كالدروس العلمية، فهي في الحقيقة علم عملي، فهاهنا أخذ يكمل الدروس فذكر درس البنات وذلك من وجهين: **الأول**: أن الناس نسبوا البنات لله. **والثاني**: أنهم يكرهونهن.

وفي هذا المقام أدمج المجادلة بالتي هي أحسن في الحكمة، لأنك قد علمت أن المجادلة للمتوسطين والحكمة للعقلاء، فهاهنا أدمج هذا وذاك وأجعلهما في هذا النمط، وبيانه أنه تعالى يقول

لهم : إذا كنتم من الإناث تتبرمون ، ومن ولادتهن تجزعون ، وأنتم مخلوقون ، أفما كان من حقكم ومن حسن رأيكم أن تروا أني أعطي نفسي أفضل مما أعطي غيري كما تفعلون أنتم ، إذ تفضلون أنفسكم على مواليكم ولا تتصدقون إلاَّ بما فضل عن حاجاتكم ، بل في دينكم « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، وإذا كان هذا من أوامري أفما كان من حقي أن أعطي لنفسي الذكور التي أحبها على مقتضى جبلتكم فكيف عكستم القضية واختصصتم بالذكور استبشاراً وخصصتموني بالإناث ولادة ، هذه المجادلة مقبولة معقولة في الإقناع وإفحام الخصم ، وهذا هو قوله : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[النحل : ١٢٥] ثم ساق قصة اسوداد وجوههم إذا بشروا بالأنثى وهم مغتمون الخ .

أما الحكمة في هذا النمط فاسمع وافرح بما أنعم الله من علم وما أنزل من حكمة ، بل أقول أعجب من الحكمة والبيان ، لما ذكر الله تقصير الناس في الاعتبار بالنعماء بعد الضراء أخذ يجادلهم بما تقدم ويريهم أنه أحق بالذكران إذا كان الأمر دائراً بين الجنسين ، والحقيقة أنه منزه عن ذلك كله فلا بنات ولا أبناء كما هو معلوم ، وينطوي في هذا المقام مسألة حكمية جليلة .

الذكورة والأنوثة

إذا كان الناس يأنفون من البنات ولم يحبوا إلاَّ الذكور ، وجب أن يكون على مقتضى نظامهم الجاهلي ورأيهم الظاهري وشهوتهم الحاضرة وهمتهم الفاترة ألا يخلق من الناس إلاَّ الذكور ، ولما كان الله تعالى يقول : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ ﴾[الملك : ٣] وجب أن يكون العالم كله على هذا النمط ، فيخلق النبات والحيوان الذكران دون الإناث ، ولو تم هذا النظام المعكوس لم يبق على وجه الأرض من دابة ، لأن نظامهم متى جرى العمل عليه فسدت هذه الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾[المؤمنون : ٧١] ، لذلك أعقب حديث البنات والبنين بآية : ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ ﴾[فاطر : ٤٥] .

بعد أن أبان مثل الذين لا يؤمنون بالآخرة وجعله مثل السوء ، وذكر أن لله المثل الأعلى ، لأن الذين لا يؤمنون بالآخرة يريدون عدم البنات ، فيفنى الإنسان ومثله الحيوان والنبات ليبقى النظام واحداً ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾[النحل : ٦٠] لأنه يريد النظام وبقاء الأنواع ، فلذلك أوضح هذا بعد ذلك بآية : ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ ﴾[فاطر : ٤٥] الخ .

والمراد بالكسب هنا ما يشمل الذنوب والجهالات ، أما الذنوب فهي ما تقدم من الكفر بعد زوال النقمة ، ومن الرجوع إلى العادات في الطعام والشراب بعد زوال المرض ، فمن قال له الطبيب : إن مرضك بعدم مضغ الطعام جيداً يزول ، ففعل ثم لم يمضغ جيداً فعاوده المرض ، والذي زال فقره بالاقتصاد يرجع فيسرف فيقع في الفقر ، كما يفعل الكافر بالله الذي ذهب عنه المرض فيقع فيه كما كان ويشمل الكسب أيضاً الاعتقاد ، فهؤلاء اعتقدوا أن تربية الولد هي المطلوبة وتبرموا من الأنثى ، وهذا الاعتقاد تبعه العمل فوأدوا البنات وفهموا أنهن فضيحة ، فلو يؤاخذ الله الناس على أعمالهم الكفرية والصحية والإسرافية في المال ، لأهلكهم بما فعلوه ، ولم ينعشهم بدواء ، ولم ينلهم شفاء ، ولم يرسل هداة وأنبياء ، ولم يغنهم بالمال ، ولو أنه عاملهم باعتقادهم في البنات لعمم الأمر في كل حيوان ، لأنه

ليس هناك تفاوت، فالنظام شامل، فحينئذ لا يخلق من العوالم الثلاثة إلاَّ الذكور، ولا يمضي سنون معدودة حتى تعدم جميع الدواب بل جميع الحيوانات.

هذا هو المعنى الحكمي من هذه الآية: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ ﴾[فاطر: ٤٥] الخ، وهذا هو الحكمة في أنها جاءت عقب حديث البنات والتبرم منهن، فهنا يقول الله ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ ﴾ [فاطر: ٤٥]، فذكر المؤاخذة، وفي آية أخرى يقول: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون: ٧١].

فأما هنا فيراد بالمؤاخذة ما يعم الأهواء وهي الغرام بتربية الذكور وحدهم، فتعجب من القرآن وتأمل في تعبيره أيضاً هناك بقوله: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ﴾[المؤمنون: ٧١] الخ، فجعل الفساد شاملاً للسماوات والأرض جميعاً متى اتبع الحق أهواءهم، وكانت الآلهة متعددة لأن تعدد الآلهة ليس الفساد منه قاصراً على الحيوان والنبات والإنسان، بل يتعداهما إلى السماوات والأرض، لأن الألوهية حاكمة على كل شيء، فالفساد فيهما باختلاف الشركاء يفسدهما فساداً عاماً، فأما هنا فإنه قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[فاطر: ٤٥]، فجعل الموت خاصاً بالجنس الذي يلد وحده وهو الدواب، وقد أتبعناه بالنبات كما هو معلوم، وعندي أن هذا التعبير هنا والتعبير هناك وإحكام الأمر فيهما معجزة وحده، فما هذا الرمز وحبس المعاني وإدخالها في تضاعيف الكلام ومنعها عن النوع البشري حتى يقرأها قوم فيفهمونها، وما مثل هذا القرآن في أحكامه إلاَّ كمثل ما خلقه الله وصنعه بحكمته، فإنك ترى في العوالم عجائب أخفاها ثم تظهر للناس في حينها. ولقد علمت أن الملائكة مطيعون، فهم يفعلون ما يؤمرون، فأما بنو آدم فإن شهواتهم تخالف النظام، فكما قال في الملائكة: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل: ٥٠]، قال هنا في الناس: إن آراءهم لو اتبعت لهلك كل حي.

فحوى الكلام من حيث العمل

وفحوى هذا القول من حيث العمل أن الكمال في هذا الوجود إنَّما يكون لمن كملت نفوسهم فألفوا النظام، ولو أن الناس كانوا أرقى مما هم عليه لاطلعوا على الحقائق وساعدوا على حسن النظام ولفرحوا بالأنثى كما فرحوا بالذكر، لأن الجنسين يتممان بعضهما، وهذا العالم نظام واحد، فلجهلهم النظام حولوه إلى أغراضهم وهذه منقصة عظمى في الإنسانية، فليكن هذا الإنسان أرقى عقلاً من كل شيء، فليفرح بالموت كما فرح بالحياة، وبالمرض ما فرح بالصحة، وكما مر مع معالجة كل حالة بما يناسبها بحيث يكافح المرض ويدافع الفقر بالكسب، وهكذا إذ لا فرق بين كراهة البنات وكراهة غيرهن فإن النظام يقتضي ذلك كله.

وإذا كان الملائكة يفعلون ما يؤمرون طوعاً؛ فالإنسان يفعل ما يؤمر طوعاً وكرهاً، فإنه مأمور بحسب السنن الطبيعية أن يربي البنات فكرههن، ومع ذلك سلط عليه الشفقة والقانون المسنون في الحكومات ونظام البلدان والقضاء أن يحافظ عليهن ويربيهن ويختار لهن الأكفاء، فهذا قهر من الله للناس فقد نفذ الأمر كرهاً كما نفذوه في الأبناء طوعاً، وهذا نقص في الإنسانية بل يجب أن تكون القلوب تابعة ومشايعة للنظام العام، أما الشهوات الوقتية فيقال لصاحبها: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٥]، فيكون الملخص لآية: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ ﴾[فاطر: ٤٥] الخ.

إن الله يقول: أيها الناس، أنا لا أؤاخذكم بما تصنعون، فالكافر أبقيه إلى أمد معلوم ثم أحاسبه بعد الموت ولا أعجل بهلاكه، والمسرف في صحته وماله أو أهمل العمل فإني أمحت له الفرص بالإنذار بعد الإنذار عسى أن يرجع إلى الصواب، والذين يكرهون الإناث لم أجازهم على آرائهم لأني لا أتبع الأهواء في نظامي، ولذلك قهرتهم فربوا البنات، ولم أمنع ولادتهن، ومتى حل الأجل لأي واحد من هؤلاء لم يؤخر ساعة ولم يقدم، إذن الله منزه، والملائكة مطيعون، والناس يضلون، والله حليم غفور.

وأما آية: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[النحل: ٥٥] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢] فواضحة.

وقوله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[النحل: ٦٣] إلى قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل: ٦٤] فإنه يقول أنزلت إلى الأمم السابقة أنبياءهم فزين الشيطان إلى أتباعهم الباطل وتولى قوماً اليوم كما تولى من قبلهم من الأمم فأصبح وليهم، وإنّما أنزلنا عليك الكتاب لتبين لهم المواعظ والأحكام؛ كالذي تقدم وغيره.

ولما كان القول السابق فيه الموعظة الحسنة، وفيه الحكمة كما قدمناه، والحكمة تليق لأولي الألباب، أخذ يصف عجائب السماء والأرض، وهي الحكمة الحقيقية المرقية للعقول، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النحل: ٦٥] إلى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النحل: ٨٢].

ولنفصل القول في هذا المقام من وجوه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾[النحل: ٦٦] الخ.

الوجه الثاني: في وصف الحيوان.

الوجه الثالث: في اختلاف الحيوان في الحركات، وغير ذلك.

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ووجوب علم التشريح، وفي وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر.

الوجه الخامس: في وصف أعضاء الحيوان وأن منها الخادم والمخدوم.

الوجه السادس: في الطير.

الوجه السابع: في أن الطير مختصر من حيوانات البر كالأنعام، وفي تربية الطيور لأولادها.

الوجه الثامن: في تقسيم الحيوان إلى قسمين: مستقل وغير مستقل، وأن هذا كتاب كتبه الله بيده، وأنه حجبه عن أكثر الناس.

الوجه التاسع: في الحشرات كالنحل والعنكبوت.

الوجه العاشر: في الظلال وما عطف عليها.

الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ الخ
وفي بعض الوجه السابع وهو:
أن الطيور مختصرة من الحيوانات البرية كالأنعام

اعلم أن الحيوانات منها ما هي تامة الخلقة، ومنها مختصرة من التامة، ومنها ناقصة، فالأنعام والبهائم والسباع والوحش أكمل بنية وأتم نظاماً من الطيور والجوارح، وكأن هذين قد جعلا مختصرين

من الأربعة الأول، ولو أنك نظرت إلى الطير صافات في جو السماء لخيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس، إذا كنت من الناظرين في علم الطبيعة بعقولهم لا مقتصرين على حواسهم، فإذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود في الأرض المصرية أيام فيضان النيل والجاموس يرعى في مرعاه، لرأيت للجاموس أسناناً وآذاناً ظاهرة ومعدة وكرشاً ومثانة وخرزات ظهر وجلداً ثخيناً وشعراً كما كان للغنم صوف وللإبل وبر، وهو يتزوج ويحمل ويلد ويرضع أولاده ويربيها، أما أبو قردان مثلاً وسائر الطيور فإنها مختصرة من الحيوان البري المذكور، فليس للطير أسنان ولا آذان بينة ولا معدة ولا كرش ولا مثانة ولا خرزات ظهر ولا جلد ثخين ولا على أبدانها شعر ولا صوف ولا وبر.

حيوان البر: المبدل منه	الطير: البدل
(١) الأسنان	المنقار
(٢) المعدة	الحوصلة
(٣) الكرش	القانصة
(٤) الجلد الثخين والشعر وما أشبهه	الريش؛ فهذا الريش جعل لباساً لها ودثاراً يقيها الحر والبرد، وهو غطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة وهو وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران.
(٥) الحمل والولادة والإرضاع	البيض والحضن وتربية الأفراخ

فانظر كيف جعلت مناقيرها مدببة بخلاف حيوان البر عريض الوجه، فيسهل على الطير اختراق الهواء في طيرانه كما يجعل مقدم السفينة حاداً فتشق الماء بحيزومها شقاً، فلو كان مقدم الطيور عريضاً لعارضها الهواء في سرعة طيرانها فعاقها عن سبلها.

وجعل للطيور بدل الولادة والإرضاع أن تبيض وتربي أفراخها في أعشاشها، لأن الحمل يعوقها عن الطيران في سبيلها ولا تكلف فوق طاقتها من الإرضاع الذي يوجب أن يحال الطعام في أجسامها إلى دم فلبن، وهذا مما يثقل عليها وهي في جوها، فهذا معنى قول العلماء إن الطيور مختصرة من حيوان البر.

فأنت ترى أن الجاموس الذي يأكل العشب له فم واسع به يتمكن من القبض على الحشيش والكلأ في المرعى، وأسنانه الحادة يقطع بها، وأضراسه الصلاب يطحن بها ما صلب من العشب والحب والورق والقشر والنوى، ولها مريء واسع تزدرد به ما تمضغه، وكروش واسعة تملؤها وتحمل فيها زادها كالركائب والحقائب للإنسان، فإذا رجع إلى أماكنه استراح واجتر واسترجع ما بلعه ثم طحنه ثانياً وبلعه وازدرده في مواضع أخرى من كروشه، فالكروش الأولى مهيئة للحمل والثانية مهيئة لطبخ الطعام بالحرارة الغريزية فتنضجه متى تستمرئه الطبيعة، ويتميز ثقله من خفيفه، ثم يدفع الثقل إلى الأمعاء والمصارين، ويخرج من المواضيع المعدّة للإخراج، فأما اللطيف الصافي فإنه يذهب للكبد فيطبخ ثانياً هنالك ويصفى ويذهب عكره في الطحال، وتأخذ المرارة ما خف منه، والكليتان الماء والعروق تجتذب الدم الصافي فتوصله إلى أقاصي الجسم لتعطيه بدل ما تحلل منه، فإن أبدان الحيوان كلها دائماً في السيلان والذوبان من أسباب داخلة وأخرى خارجة.

صورة أحشاء الطيور وغيرها :

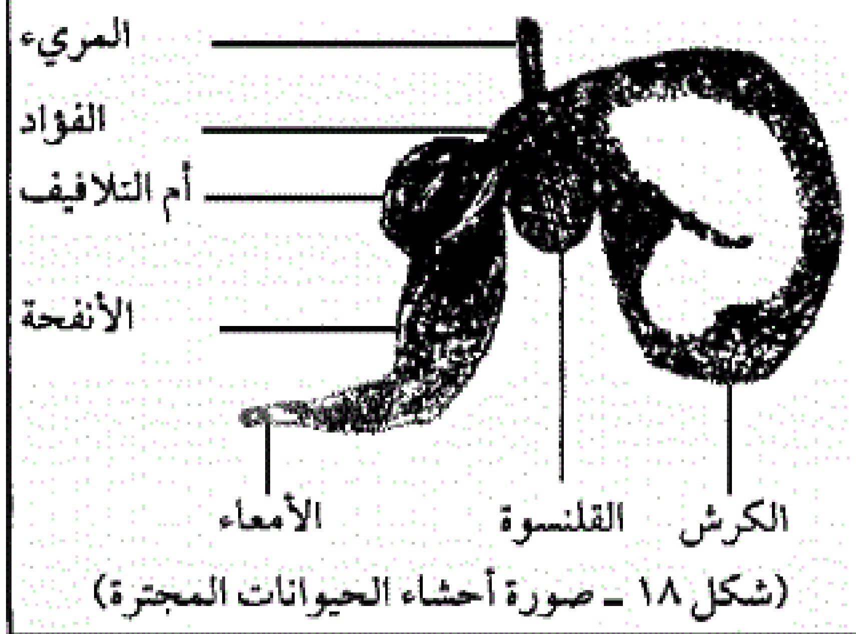
هاك صورة أحشاء الطيور وأحشاء الحيوانات المجترة كالغزال والبقر والجاموس والمعز وأحشاء الإنسان .

فترى أمامك في الصورة الأولى التي هي القناة الهضمية لأمثال الدجاج الجزء المشار له بحرف (أ) يصور لك المريء الذي يمر فيه الطعام ، ثم ينزل منه إلى الحوصلة حرف (ب) ، ويمتزج الحب بماء مفرز فيعطن ويلين ، ثم ينتقل إلى حرف (س) في تجويف يفرز سائلاً حامضاً يؤثر في المأكول ، ثم يتجه إلى كيس متين قوي غليظ له غشاء يشبه القرن في قوامه وهو القانصة (د) ، فيؤثر في الحب ويطحنه طحناً ، ويعينه على ذلك ما التقطه الطير من الرمال والحصوات فيصير الطعام قطعة واحدة لزجة ، ثم ينتهي إلى الأمعاء وهي المصارين ، وهناك تقابله العصارة المعوية وهي التي تفرز الفضول وتعاون على امتصاص المواد المغذية . (انظر شكل القناة الهضمية للطيور شكل ١٧) .

ا
ب
س
د
م
ل

(شكل ١٧)

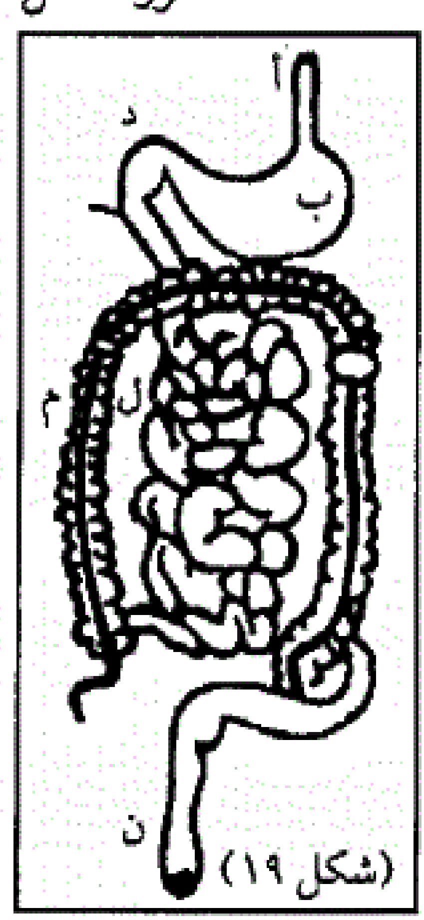
أما في أمثال الجمال والغزلان والبقر والمعز فإنها لها أربع معدات مسميات بالأسماء المختلفة ، وقد شرحناها في سورة « الأنعام » ونعيد رسمها هنا تكميلاً للمقام ؛ فهذه المعدات الأربع التي تراها أمامك جعلت هكذا : منها واحدة لتخزن الطعام لأن الحيوان إذا أخذ يرعى فإنه لا محالة إما أن يسابق غيره في الرعي وإما أن يخاف من السباع المفترسة ، فإذن يحتاج إلى مخزن يخزن فيه ؛ حتى إذا استراح في مربضه أخذ يجتره ثانياً ويمضغه جيداً بعد أن يكون قد عطن بالعصارة في المخزن الأول ، فإذا مضغه جيداً أنزله إلى المعدة الثانية ، وهناك يقابل الماء الذي يشربه ، ثم ثمر بالثالثة فالرابعة فتتلقاه عصارة قوية شديدة الفعل فتؤثر تأثيراً شديداً ، ثم ينتقل الطعام إلى الأمعاء ، ثم إن الغذاء تصطفي منه القوى النفسية العناصر المغذية في المعدة والأمعاء لتسير مع الدم لمنفعة الجسم ، وما بقي يفرز إلى الخارج . وهذه صورة أحشاء الحيوانات المجترة (شكل ١٨) .



(شكل ١٨ ـ صورة أحشاء الحيوانات المجترة)

إن طعام الإنسان يمر في المريء (أ) وهو المتصل من الفم إلى المعدة ، ثم المعدة حرف (ب) ، ثم المعى الدقاق حرف (ل) ، وهو ثلاثة أقسام : الاثنا عشري والصائم واللفائفي ، والأول قصير جداً ، والثاني نحو ٨ أقدام ، والثالث ١٢ قدماً ، ثم المعي الغليظ حرف (م) ، وهو ثلاثة أقسام : الأعور والقولون والمستقيم ، والقولون المذكور صاعد ومستعرض ونازل ، والقولون بأقسامه الثلاثة هو أكبر أقسام المعي الغليظ .

نظام الهضم في المعدة والأمعاء



(شكل ١٩)

يخيل للإنسان أول وهلة أن هضم الطعام أمر عادي لا سر له ولا مساعد، وكأنه المطبوخ في القدور تؤثر فيه الحرارة فينضج وليس كذلك، إن الطعام يمضغ أولاً، ثم يمر في المريء، ثم المعدة، ثم الأمعاء، فهناك يقابله عصارات تحلله تحليلاً كيميائياً، فإذا رأينا الأسنان تمزقه وتطحنه فليس ذلك كافياً، كلا بل هناك عصارة في الفم تدخل في أجزائه، وعلى مقدار جودة المضغ يكون تدخل تلك العصارة، ثم تقابله في المعدة العصارة المعدية، ثم الصفراء التي تصب في رأس المعي، ثم عصارة البنكرياس وهي تصب بقرب مصب الصفراء، ثم العصارة المعوية وهي عصارة الأمعاء، فهذه العصارات الخمس تؤثر في الطعام تأثيراً قوياً، ويساعدها حركات المعدة والأمعاء العضلية ومضغ الأسنان.

(انظر شكل ١٩ القناة الهضمية للإنسان).

نظرة عامة في القنوات الهضمية

وهي الدائرة الغذائية في هذه الأنواع الثلاثة وفي سير أغذيتها

ألا تعجب معي من التنوع والحكمة والقدرة! غذاء يسير لتغذية الحيوان نراه يتنوع تنوعاً بحكمة ويعطي كل حيوان بقدره. انظر الأسنان في الإنسان قد حرمها الطير، لا أسنان لطيور، إن للطير مناقير وهذه المناقير محددة، لماذا؟ لتخترق الهواء الجوي، إذ لو كانت مناقير عريضة كوجه الإنسان وذوات الأربع لعارضه الهواء في طيرانه فعاقه عن المسير. إذن فم الطائر لا يصلح للأسنان فكيف يهضم طعامه؟ فانظر ماذا جرى، جعل الله أسنانه في القونصة، ولكن أين الأسنان هناك؟ هناك حبوب الرمل والحصى، هذه الحصوات القوية التي لو دخلت معدة الإنسان لأضرت بها، هاهنا تكون أقوى مساعد على تمزيق الطعام.

فانظر كيف أعطي الإنسان أسناناً في فمه، وأعطيت دجاجته عوضاً عنها رملاً تلتقطه فيساعد على الهضم، وجعلت القانصة قوية متينة لذلك، ثم تنظر فترى الحيوانات المجترة أعطيت بدل الأسنان في الإنسان والحصوات في قانصات الطير أربع معدات تساعدها على الهضم، فالمعدات الكثيرة أعطيت لذوات الأربع لتؤدي وظيفة الهضم، لأن طعامها عسر الهضم، فهذه المعدات قامت مقام الطحن والخبز والعجن وما أشبه ذلك، فالإنسان بطحنه وخبزه وشيه وطهيه، والمجترات بمعداتها الأربع، كل أعطي ما هو أهل له.

أنا أرى الآن أنك وقفت على ما ظهر من حكمة هذه النظم المختلفة، أفلا ترى أن النتيجة واحدة وإنّما اختلفت الطرق، النتيجة حياة الحيوان والطرق تنوعت بتنوع الحيوان، فهذا بحصاه ورمله، وهذا بطبخه وعجنه، وهذا بمعداته المختلفة.

عجب هذا الوجود تراه كله بقدر، ترى الوحدة ظاهرة فيه، اختلاف في المقدمات واتفاق في النتائج، بل اتفاق أيضاً في المبدأ، أيضاً فإن الحيوانات كلها من خلايا متجانسة، ثم تنوعت في أشكالها

حين تركبت، أفلست ترى أن هذا هو علم التوحيد؟ إن هذه المسألة لا تفارق غيرها من مسائل هذه الدنيا، ففي الفلك، وفي المعدن، وفي النبات، وفي الحيوان، وفي الإنسان ترى هذا النظام سائداً، اختلاف فاتفاق. أليس هذا هو علم التوحيد بعينه؟.

هذا هو دين الإسلام، دين الإسلام هو ما نبينه في هذا التفسير، بمثل هذا فليدرس المسلمون علوم التوحيد، إن علوم التوحيد هي علوم النبات والحيوان والمعادن والفلك والعلوم الرياضية، هذه العلوم تدرس في المدارس الإسلامية فتقوم بها المدنية ويرتقي الشعب، وفي الوقت نفسه يكونون قد درسوا علم معرفة الله تعالى، فبينما هم يقومون بنظام مدنهم إذا هم قد عرفوا ربهم وشكروه شكراً علمياً كالذي ذكرناه، وشكراً علمياً بما يستنبطون من الأعمال النافعة في الحياة، ويخدمون نوع الإنسان لا المسلمين وحدهم، إن المسلم جاء إلى الأرض ليكون نوراً يستضاء به لا أن يكون عالة على الفرنجة، المسلمون الآن عالة جداً على الفرنجة.

اللهم إني أبرأ إليك من التقصير. اللهم إني أعلم أنك ستسألني وستسأل كل قارئ لهذا الكتاب، أما أنا فماذا أفعل؟ كتبت ما أقدرتني عليه، وسيقرؤه من يقدر أن ينوّع في النشر والتعليم، وهو مسؤول كما أني مسؤول.

اللهم إنك أنت المعين فأعن المجدّين من المسلمين على العلم والعمل كما أعنتني على نشر هذا الكتاب ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

التناسل

ثم إن تلك المواد التي في أبدان الذكران والإناث إذا فضل منها شيء لم يترك عبثاً، كما لم يترك الروث والفضلات عبثاً، فالفضلات تكون سماداً للزرع، فيأكل منه الإنسان والحيوان، وفضلات الدم الغريزي في الحيوان ذكرانه وإناثه جعلت لها أوعية ومجار في أبدانهما، فيجري من الأصلاب إلى الأرحام، وينضاف إليه ما ينفصل من أبدان الإناث من الرطوبات المشاكلة لها، وتجتمع ويخلق منها مثل أحد الزوجين، وهكذا يتكون من الدم العظام والعضلات والأوتار والأعصاب، فكل هذه تتغذى منه، ومن الدم أيضاً تكون السوائل التي تفرز كالريق في الفم، وكالبنكرياس في المعدة لهضم الغذاء هضماً ثانياً، فإن هناك غدداً في الجسم تفرز هذه السوائل، ومن أهم هذه السوائل اللبن: وهو مما يتكون بحال مخصوصة من الدم الجاري في العروق، ويرسل من محل تكونه إلى الضرع والثدي فيرضعه الولد، ولما كان اللبن بين الفخذين في الأنعام، وكان الدم في سائر البدن جارياً في الأوراد والشرايين، وكان الفرث في الأمعاء قد دفعته المعدة إليها بعد جذب العروق لخلاصة الطعام فكانت دماً. جاء في الآية: ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا ﴾[النحل: ٦٦]، فالبينية باعتبار المكان، أما كون الدم محيطاً به فظاهر، وأما كون الفرث في جانب منه فهذا مفهوم، لأن الأمعاء في مؤخر الجسم والدم في سائر البدن، فهو بينما من حيث المكان وكل في وعائه، فلا الفرث بمختلط باللبن لأن لكل مكانه الذي خلق فيه، ولا الدم بداخل في الضرع بدل اللبن لأن شرايينه وأوردته المحيطة بالضرع لا يفلت منها شيئاً، فهذا معنى آخر للآية، وبهذا انتهى الكلام على الحيوانات التامة الخلقة والمختصرة منها، فلنتكلم على الحيوانات الناقصة الخلقة، ومنها الدودة التي ذكرناها في مثال الجاموسة وأبي قردان والدود، وهو:

الحشرات ونحوها

هذا القسم لا يعيش سنة كاملة، لأن الحر والبرد المفرطين يهلكانه، وأجسامه متخلخلة المسام، وليس له جلد ثخين ولا صدف ولا عظام ولا طحال ولا مرارة ولا كلية ولا مثانة ولا استنشاق الهواء لترويح الحرارة الغريزية، لأنها غارقة في النسيم يتخللها من خروق جسمها ويصل إلى سائر بدنها، لأن جثتها صغيرة ومسامها مفتحة، فأما الحيوانات الكبيرة في القسم الأول وما ألحق بها فإن جلودها ولحومها وغشاواتها وعروقها وأعصابها وعظامها المصمتة والمجوفة وأضلاعها ومصارينها وأمعاءها وطحلها وكروشها ومعدتها وقلوبها ورئاتها وكلاها ومثاناتها وقحوف رؤوسها وأشعارها وأوبارها وأصوافها وريشها وصدفها، كل ذلك يمنع وصول الهواء إلى عمق أبدانها وترويح الحرارة الغريزية فيها، فجعل لبعضها رئة وحلقوم ومجار للنفس حتى يصل نسيم الهواء إلى عمق أبدانها ومحابس قعر أبدانها ويروح الحرارة الغريزية فيها ويحفظ الحياة عليها، هذا إذا كانت في الهواء، فأما إذا كانت في الماء فإنها ركبت أبدانها تركيباً بحيث يصل برد الماء ورطوبته إلى قعر أبدانها، هذا ما قاله القدماء، وقال علماء العصر الحاضر: إن الهواء يتخلل الماء وهو الذي يتنفس منه السمك، وعللوا ذلك بأن وضعوا السمك في ماء مغلي ثم برد وقد تخلص من الهواء فمات السمك فيه لأنه فقد الهواء ولم يترك زماناً كافياً ليحركه النسيم ويتخلل أجزاءه وطبقاته فيعيش فيه السمك. وجعل لكل نوع منها أعضاء مشاكلة لبدنه ومفاصل مناسبة لجثته، وجعل على أبدانه من أنواع الصدف والفلوس لباس ودثار ليقيه البرد وغطاء ووطاء ووقاية لها من الآفات العارضة، وجعل لبعضه أجنحة وأذناب تسبح بها في الماء مثل الطيور في الهواء. اهـ.

تمّ الكلام على الوجه الأول والسابع للتناسب بينهما.

ولما كانت هذه الآيات السابقة شاملة الأنعام والطيور والحشرات، وقد تكلمنا على كل بكلام موجز، أتبعناه بما هو أوضح في الثلاثة للدلالة على جمال الله وحسن تدبيره.

واعلم أن الحكماء جعلوا معرفة الإلهيات بعد علم الطبيعة، والطبيعة بعد علم الرياضيات، وهذا التبيين في كتب الحكمة، هكذا أراد الله في القرآن قراءة الطبيعة المسبوقة بعلم الرياضة، وهذا هو الذي نطيل الكلام فيه في هذا التفسير.

الوجه الثاني: في وصف الحيوان

ولأسمعك كلاماً كلياً من كتابي «القرآن والعلوم العصرية» وهاهو ذا:

اعلموا أيها المسلمون أن الله خلق لنا الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وحيوان الماء والحشرات، كل ذلك ليتم خلقه وتربيته على أتم كمال وأحسن حال؛ فالأنعام كل ما له ظلف مشقوق كالبقر والجاموس والغنم والمعز، والبهائم ما كان لها حافر كالخيل والبغال، والسباع ما لها أنياب ومخاليب، والوحوش ما كان مركباً من ذلك، والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار، والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخاليب معقربة، وحيوان الماء ما يقيم فيه ويعيش، والحشرات ما يطير وليس له ريش، والهوام ما يدب على رجلين أو أربع أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبه. ولقد يعجب الناس من خلقة «الفيل» أكثر من خلقة «البقة»، وهي

أعجب خلقة وأظرف صورة، فإن الفيل مع كبر جسمه له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان، والبقة مع صغر جسمها لها ستة أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لا يدركها البصر ولا يعرفها الفكر، وهي مع صغر جثتها مسلطة على الفيل بالأذية ولا يقدر عليها ولا يمتنع بالتحرز منها.

ثم إن من الحيوان ما له حاسة واحدة وهي اللمس كالأصداف وأجناس الديدان التي تعيش في الطين أو في الماء أو في الخل أو في الثلج أو في لب الثمر أو في الحب أو في لب النبات والشجر أو في أجواف الحيوانات الكبرى، وليس له ذوق ولا شم ولا سمع ولا بصر، وليس له إلا اللمس، فيمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة ويحس باللمس لا غير، ومنها ما له ذوق ولمس وليس له سمع ولا بصر ولا شم، وهي كل دودة تتكون وتدب على ورق الأشجار والنبات ونورها وزهرها، ومنها ما له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر، وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواضع المظلمة، ومنها ما له الحواس ما عدا البصر، وهي الهوام والحشرات التي تدب في المواضع المظلمة، ولم يجعل له البصر لأنه يعيش في المواضع المظلمة.

الوجه الثالث: في اختلاف الحيوان في الحركات

من الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج، ومنها ما يزحف كدودة الصدف، ومنها ما ينساب كالحية ومنها ما يدب كالعقارب، ومنها ما يعدو كالفأر، ومنها ما يطير كالذباب والبق، ومما يدب ويمشي ما له رجلان، ومنها ما له أربع أرجل، ومنها ما له ست أرجل، ومنها ما له أكثر، ومما يطير من الحشرات ما له جناحان، ومنها ما له أربعة أجنحة، ومنها ما له ست أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخاليب وقرون كالجراد، ومنها ما له خرطوم كالبق والذباب، ومنها ما له مشفر وحمة ـ بضم الحاء وفتح الميم ـ كالزنابير، ومن الهوامّ والحشرات ما له فكر وروية وتمييز وتدبير وسياسة كما قدمنا، وإلى هذا الاختلاف أشار الله فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[النور: ٤٥].

واعلم أن هذه الغرائب لا يتعجب منها الناس لأنهم ألفوها، أما العلماء فانفتحت أبصارهم وكشفت بصائرهم فرأوا هذه العجائب فأعظموها وأيقنوا أنهم مبصرون والناس حولهم غافلون، فعليهم أن يفتحوا أبصار من حولهم، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف: ١٠٥]. فالعجائب تُحيط بنا من كل جانب ونحن مغمضون الأعين، عنها كأننا لم نخلق على هذه الكرة وكأن غيرنا هم المختصون بنعم الله وعجائبه وبدائعه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨].

ومن الحشرات ما لها أعين، ومنها ما كل عين من عينها مركبة من مائتي (٢٠٠) عين، فيكون لها (٤٠٠) أربعمائة عين تبصر بها، وكل عين مركبة من أعضاء وطبقات خاصة بها كما نقلناه عن علماء الألمان والنمساويين في رسالتنا الموسومة بـ «عين النملة»، ومنها ما له أكثر من ذلك كالذباب، ومنها ما لها (٢٧,٠٠٠) سبع وعشرون ألف عين، وهي حشرة كبيرة أكبر من أبي دقيق تعيش على

العليق وغيره، وهذه العجائب البديعة الحسنة لا تعرف إلاّ بالعلوم التي عرفها العالم الغربي اليوم، وعندهم مناظر معظمة تريك هذه العين والعيون التي تركبت منها كما رأيتها أنا بعيني رأسي تحت المنظار المعظم، هذه عجائب الحيوان الظاهرة، وهناك عجائب باطنة أدق من هذه لا يدركها إلاّ علماء التشريح الناظرون في ملكوت السماوات والأرض، المبصرون المطلعون على خفايا البدائع وعجائب الحكمة، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ٨٣].

ولقد رأى العلماء قديماً وحديثاً أن للعين سبع طبقات وثلاث رطوبات لا نطيل بذكرها، وإحدى طبقاتها وهي الشبكية التي لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع طبقات مختلفة أبعدها تتألف من ثلاثة ملايين مخروط ونحو ثلاثين مليون أسطوانة، وقد رأوا أن في المادة السنجابية التي في الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من آلاف من الدقائق الظاهرة، وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر كما في كتاب «مسرات الحياة» لـ«اللورد افبري»، وذلك من مطالب قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، وقوله: ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[الجاثية: ٤] وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾[السجدة: ٧] وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: ٦]، وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ ﴾[النحل: ١٨].

يا عجباً لهذه الدنيا ونظامها، ويا غفلة أكثر المسلمين! عجباً لهذه البنية الإنسانية وكيف ركب الدماغ بأشكال منظمة بديعة، وكيف جعل في العين مادة تشبه الزجاج وأخرى تشبه بياض البيض، وكيف كانت الطبقة المقدمة فيها المسماة بالقرنية ـ أعني التي تشبه القرن ـ نراها شفافة، والنور يأتي من الكواكب والنيران ماراً بالهواء ـ وهو شفاف ـ وبالقرنية ـ وهي شفافة ـ وبالمواد الزجاجية والبيضية في العين ـ وهي شفافة ـ ويرسم هناك على قطعة تسمى «الجليدية» وتسمى «العدسية والبلورية» أيضاً، فهي كالبلور، وتنتقل الصورة منها إلى المخ فيراها الإنسان، والعين لا ترى وإنّما هي آلة الإبصار.

أيها المسلمون، عليكم أن تتغلغلوا في العلوم كما أمركم الله، وكيف يقول: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]؟.

أيها المسلمون، هذا كلام ربكم وهذا صنع ربكم، فأين المفرّ ولا مفرّ لهارب، فإما أن تعلموا وإما أن تتأهبوا للرحيل من العالم، ولكن أبشركم قد جاء دوركم وأقبل يوم علمكم، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٣٣]، ولعمري لقد أقبلتم اليوم على العلوم إقبالاً؛ وأنا بتمام أمركم من المؤمنين.

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾[البقرة: ٢٥٩] ووجوب علم التشريح

أوَليس ما ذكرته في عين الإنسان من عجائب علم التشريح التي تدهش العقول، وكيف حث الله عليه في القرآن والمسلمون عنه نائمون، نعم يقرؤه الأطباء، وأما بقية الأمة فإنها تجهله، يا أسفاً على أمة الإسلام، الطبيب يقرأ علم التشريح ولا يعنيه إلاّ الأعمال الطبية، وكثير منهم غافلون عن الحكمة والنظام والجمال.

التشريح من عجائب العلم، ومن مطالب القرآن، كيف لا، انظروا أيها المسلمون، ألم يقل الله في قصة «العزير» إذ مر على بيت المقدس الذي هو مسقط رأسه بعد أن خربه «بختنصر» وأخذ يقول: ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي: كيف يحيي الله هذه القرية بعد خرابها ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ﴾ أي: فأماته الله فلبث ميتاً مائة عام ﴿ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ أحياه ﴿ قَالَ ﴾ له الملك ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ ﴾ الملك له ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ ﴾ وهو التين ﴿ وَشَرَابِكَ ﴾ وهو العصير أو اللبن ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ لم يتغير ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ كيف تفرقت عظامه ﴿ وَ ﴾ فعلنا ذلك ﴿ لِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ ﴾ أي: عظام الحمار المفرقة ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ نحييها ونرفع بعضها إلى بعض ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ ﴾ قدرة الله على هذه الأشياء وأنه حفظ الشراب والطعام وأحيا عظام الحمار فرفعها وركب بعضها على بعض وخلق عليها اللحم ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٥٩].

يا ليت شعري، لم ذكر هذه القصة في القرآن؟ أللنبي صلى الله عليه وسلم وحده؟ كلا، فهو صلى الله عليه وسلم مرسل لنا، أهي اليوم تقرأ لآبائنا الذين ماتوا؟كلا، وإنّما تقرأ لأجلنا الآن، فقصة «العزير» يقصد بها تعليمنا نحن، وإذا طلب من «العزير» أن ينظر في عظام الحمار فالنظر في تشريح الإنسان أولى، بل هو أتم تركيباً من الحمار، وانظروا أيها المسلمون كيف يقول بعد أن عرف التشريح: ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، يعني أنه أصبح عالماً ولم يكتف بالإيمان، فليفكر المسلمون في هذا القول ولينظروا، يطلب الخليل من الله قائلاً: ﴿ كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فيقول الله له: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ فيقول: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: آمنت ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾، فهنا يقول العزير: ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ويقول الخليل: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة: ٢٦٠].

فيا قوم كيف يكون هذا في القرآن والناس ساهون، وكيف نجهل التشريح والكتاب يأمرنا به، يظن كثير من الغافلين في الأمة الإسلامية أنهم متى ظنوا أنهم عرفوا الله ولو تقليداً فقد أتموا كل شيء، ولكن الله يريد رقي عقولنا باتساع علومنا ومعارفنا، فلذلك أكثر من هذه القصص، وقال لنا: إن الأنبياء يدرسون كل شيء، ويقول لرسوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، فكان المسلم الغافل بجهله يظن أنه أعلم من الأنبياء فيعيش غافلاً ساهياً لاهياً، أولم يعير الله اليهود بالغفلة عما في التوراة فقال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]، أفلا يكون المسلم الذي يقرأ مثل هذه القصة في القرآن يكررها بلا عمل ولا علم ولا حكمة ولا تشريح، كالحمار يحمل أسفاراً، المسلمون يكررون القرآن صباحاً ومساءً وهم لا يفكرون إلاّ قليلاً.

فصل في وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر

لتعرف أيها الذكي جمال علم التشريح

(١) لقد جعل الله الظهر خرزات كثيرة، ولو كانت قطعة واحدة لم يمكن الانحناء بها.

(٢) ولو كانت قطعاً أصغر من هذه لكان الانحناء أسهل، ولكن النخاع في وسطها لا يكون مصوناً، لذلك جعلت على هذا الوضع ليتم الأمران: إمكان الانحناء، وحفظ النخاع ليوصل الإحساس إلى المخ. وقد جعل على كل فقرة أربعة أشياء:

(١) غشاء غضروفي يغشيها .

(٢) وشوكة نابتة من خلفها .

(٣ و٤) وجناحان من يمينها ويسارها .

أما الغشاء الغضروفي فلئلا تتكسر بسهولة عند مصادمتها ، وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية بارزة لها تتلقى الصدمات فلا تصل للفقرات ، ويقال لهذه الشوكات سناسن جمع سنسنة ، وهذه السناسن قد ربطت بعضها ببعض برباطات عصبية عراض متينة ، فتصير كأنها قطعة واحدة ، فأما الأجنحة فإنها مدخل لرؤوس الأضلاع ووقاية للفقرات من جوانبها ، كما أن السناسن وقاية لها من ورائها .

ولما كان الدماغ هو محل الإحساس والفكر ، وكان لا بد من ربط جميع أعضاء الجسم به ، ولم يمكن أن تغرز جميع الأعصاب فيه ، جعلت الفقرات مجوفة وفيها النخاع المتصل بالمخ ، لتتصل به الأعصاب الحساسة والأعصاب التي للحركة ، فإذا أصاب الجسم حر أو برد أو ألم ظاهر وصله عصب الحس إلى النخاع فاتصل بالمخ فيأمر الأعضاء الظاهرة بالدفاع بواسطة أعصاب الحركة في أقل من لمح البصر ، ومن الصلب إلى أعلاه إلى العصعص ٢٩ زوجاً من أعصاب الحس وأعصاب الحركة ، عند كل خرزة زوجان أحدهما يمنة والآخر يسرة ، فانظر كيف كان للفقرة الواحدة غشاء يحفظها وشوكة تحميها وجناحان يحفظانها من جانبيها وينفعان في ربط الأضلاع ، وكيف كان باطنها أشبه بالبطارية الكهربائية ترسل الكهرباء من الأسلاك ، وكيف كان عصب الحس يوصل إليها الأخبار من ظاهر الجسم وكيف تقبلها وتوصل في لمح البصر إلى عصب الحركة الأوامر بالبطش باليد أو المشي بالرجل وما أشبه ذلك من أوامر الدماغ ، أليس هنا أسلاك برقية « تلغرافية » ، أليست الأوامر صادرة واردة غادية رائحة ؟ أليس هذا يكون في كل فقرة من الفقرات ؟ فهل الذين خلقوا على هذا النظام الجميل البديع ويأمرهم الله بالنظر إلى عجائب عظم الحمار أجدر أن ينظروا في عظام جميع البهائم وعظامهم ؟ .

أيها المسلمون ، قد آن أوان أن يظهر جيل جديد أعلم من السابقين وأحكم من الأولين ، بعد العصور الأولى التي كان نور النبوة يشرق عليها ، فـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

الوجه الخامس

في وصف أعضاء الحيوان وأن منها الخادم والمخدوم

إنه ما من عضو من أعضاء الحيوان صغيراً كان أو كبيراً إلاَّ وهو خادم لعضو آخر ومعين له ، إما في بقائه وتتميمه ، أو في أفعاله ومنافعه ، مثال ذلك الدماغ في بدن الإنسان ، فإن القلب خادم له ومعينه على أفعاله ، والقلب يخدمه ثلاثة أعضاء وهي : الكبد والعروق الضوارب والرئة ، وهكذا حكم الكبد يخدمه خمسة أعضاء وهي : المعدة والأوردة والطحال والمرارة والكليتان ، وهكذا أيضاً حكم الرئة يخدمها أربعة أعضاء وهي : الصدر والحلقوم والحجاب الحاجز والمنخران ، وذلك أنه من المنخرين يدخل الهواء المستنشق إلى الحلقوم ويعتدل فيه مزاجه ويصل إلى الرئة ويصفى فيها ، ثم يدخل إلى القلب فيجعل الدم الذي يتشبع بالكربون المنجذب من نواحي الجسم مصفى منه بما فيه من الأكسوجين

ثم يخرج ذلك الهواء مع الكربون في النفس ويترك الأكسوجين للدم منقياً له سائراً إلى الجسم لتغذيته وهكذا، وذلك أن القلب فيه تجويفان علويان وتجويفان سفليان، وهما البطينان والأذينان، والدم يجري بينهن بطريقة الآلة الماصة الكابسة ولذلك شرح يطول في علم التشريح للذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويقولون: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩١] التي تطلع على أفئدتنا يوم القيامة بجهلنا صنعك، وبعدنا عن رحمتك، وعدم شكرنا لك لما أنعمت به علينا، إنك أنت الوهاب، وهكذا سائر الأعضاء فلا نطيل به لئلا نخرج عما شرطنا في كتابنا أن يكون نموذجاً سهلاً يعرفه العامة والمتوسطون ولا يشذ المفكرون عن سمعه.

الوجه السادس: في الطير

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٤١-٤٢]، وإذا اعتبر الإنسان الطيور والحشرات وجدها كلها متزنة الجانبين طولاً وعرضاً وخفة وثقلاً يمنة ويسرة وخلفاً وقداماً، ومن أجل هذا إذا نتف من إحدى جناحيه طاقات ريش اضطرب في طيرانه كرجل أعرج في مشيته إذا كانت إحدى رجليه أطول والأخرى أقصر، ومن أجل ذلك أيضاً متى نتف من ذنبه طاقات ريش اضطرب في طيرانه مكبوباً على رأسه كمثال زورق في الماء وسفينة في ثقل صدرها وخفة مؤخرها، ومن أجل ذلك صار بعض الطيور إذا مد رقبته إلى قدام مدّ رجليه إلى خلف ليتوازن ثقل رجليه بثقل رقبته كالكركي، ومن الطير ما يطوي رقبته إلى صدره ويجمع رجليه تحت بطنه في طيرانه كمالك الحزين، وعلى هذا المثال حكم سائر الطيور والحشرات في طيرانها، والكلام على الطيور يطول شرحه.

إنَّما الذي يدهش العقلاء ويحير المفكرين مسألة توازن الذنب والرقبة وتوازن الجناحين، وأن ذلك بميزان عدل لا نقص فيه ولا خطأ، وهذا أشبه بما ذكره العلماء في الجمل ورقبته، فإن رأسه كرمانة «القبان» وعنقه كالذراع القصير والحمل الذي يحمله كالذي يزنه الناس فيه، فإذا حمل حملاً وأراد القيام مدّ رقبته، كما يجعل «القبان» الرمانة في آخر الذراع الطويل لتعادل الحمل الثقيل في الذراع القصير، ولذلك عند علماء الطبيعة حساب عجيب، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، فهذا من أعجب الحساب وأتقنه وأبدعه، فحساب جسم الطائر والحيوان، وحساب الفلك في دورانه حساب لا ترى فيه عوجاً ولا تفاوتاً، فالنظام عام في كل شيء.

الوجه السابع

قد تقدم بعضه فلنذكر الباقي، وهو الكلام على تربية الطيور لأولادها لمناسبة آية:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ﴾[الملك: ١٩] الخ.

(١) النعامة: مركبة من طائر وبهيمة تبيض من ٣٠ بيضة إلى ٤٠، وتجعلها ثلاثة أقسام: تدفن قسماً في التراب، وتترك قسماً في الشمس، وتحضن قسماً، فإذا خرجت أولادها أخذت هي تكسر ما كان في الشمس وسقتها، حتى إذا قويت تلك الذرية أخرجت المدفون وثقبته ثقباً ليجتمع الذباب فيه

والبق والحشرات والهوام فتأخذها وتطعمها لهن، فانظر كيف ألهمت النعامة أن تلك المخلوقات الضعيفة لا تقوى حواصلها أن تهضم إلاّ ما رقّ من الطعام أولاً، وأنها إذا اشتدت قيلاً تستأهل لازدراد تلك الحشرات التي هي أمتن وأقسى في الهضم، وأنها إذا كبرت انطلقت إلى العشب وقويت واستقلت، وذلك بغير تعليم الأستاذين ولا تدريب المعلمين ولا مدارس البنات والبنين، فما أجمل العلم وما أعجب الحكمة وما أحسن هذا الصنع!.

أيها المسلمون، نعامة جاهلة موصوفة بالحمق حتى إنها إذا فاجأها عدوها عمدت إلى صخرة فأخفت أعينها تحتها حتى لا ترى الخطر الداهم والعدو الهاجم فيأخذها وهي ساكنة، تلك الحمقاء تعطى علوماً بالفطرة يجهلها الأمهات من نوع الإنسان وليس يدركن أمثال هذه لأبنائهن إلاّ بالتعليم والتدريب.

(٢) الدرّاج والدجاج وأمثالها، والحمام وأمثالها: انظر إلى فراريج الدجاج وكيف تكسر قشر البيض وتخرج وتلقط الحب، هكذا العنكبوت تخرج من بيضها تنسج كما تنسج أمها، هكذا البط يخرج من البيض فيقوم كأنه درس ذلك في أيام سابقة وذلك بلا تعليم ولا تأديب.

وليتعجب العاقل كيف نرى الحمام في بيوتنا، ونرى أن الذكور من الدجاج لا تساعد الأنثى في تربيتها لأولادها، ونرى الحمام بعكس ذلك، وهكذا العصافير، فإن الذكور من هذين النوعين تساعد الإناث، فما الفرق بينهما؟ مع أن الدجاجة أحوج إلى المساعدة، إن أبناءها كثيرة، فأما ذرية الحمامة فهي قليلة، فكان الأجدر بالمساعدة من كثرت أولادها، فاعلم أنه إنّما اختص الحمام بتعاون الزوجين لأن أفراخه تخرج ضعيفة لا ريش لها ولا تقدر على الحركة كما يولد أبناء الإنسان، فلذلك ألهم الحمام والإنسان مساعدة الذكر للأنثى في التربية، أما الديك فلما علم الله أن الدجاجة لا تحتاج إلى مشاركته في التربية لقوة الفراخ على العدو ولما عليها من الريش حين ولادتها لم يلهم مساعدتها، بل أبقاه معجباً بريشه فخوراً بجماله موفراً كل قواه لدجاجاته الكثيرات عاطفاً عليهن مساعداً لهن في بعض أمورهن.

وإنّما جعل الله هذا في بيوتنا ليرينا أن المقصد من وجودنا إنّما هي الحكم والعلم، فكم من آكل حماماً ودجاجاً وهو غافل عن أسرار خلقهما، وكم من قوم عاشوا وماتوا وهم لم يمتازوا عن الحيوان فكم تحت التراب من عظام نخرة كانت فوق الأرض لا تعي ماذا يراد بها، وتأكل الطير والأنعام وتهضمها في أجوافها ولا يعرفون تفصيل خلقها ولا عجائب صنعها، كأنهم خلقوا ليأكلوا وماتوا وهم لم يتزودوا من هذه الأرض البديعة إلاّ الجهالة والندامة والحسرة والغفلة، أوَما علموا أن لهم عقولاً تطالبهم بتغذيتها بالصور الحكمية، كما أن معداتهم تطالبهم بالقطع اللحمية فوفوا للمعدات بميثاقها ونقضوا ميثاق العقول.

فليقرأ المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها نظام هذه العوالم وليتفكروا في عجائب ما يلبسون ويأكلون ويشربون، فقد سبقهم الفرنجة وهم نائمون:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنّما الميت ميت الأحياء

إنّما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليل الرجاء

الوجه الثامن: في تقسيم الحيوان

الحيوانات على قسمين: قسم يعيش في الخلوات مستقلاً.

وقسم داجن يعيش تحت إرادة الإنسان.

فالأول كالغزلان والحمار الوحشي والبقر الوحشي والفيلة والآساد، والثاني كالمعز والغنم والبقر والكلاب.

أفلست ترى أن القسم الأول أقوى أبداناً وأذكى نفساً وأقدر على الحيلة والعمل والاستقلال كالغزال والبقر الوحشي؟ أما الثاني فإنه خاضع للإنسان أسير ذليل قد ضاعت قواه الفكرية وذهبت مواهبه الإدراكية، فبعيشك قل لي أيها أصفى لوناً وأصح بدناً وأكثر إدراكاً وأعظم استقلالاً، الغزال أم العنز؟ الغزالة تعيش في الخلوات بالعيش الهني وتدبر أمر معيشتها بنفسها، أما الثانية فإنها قد فقدت قوة الإدراك ذليلة الحال معرضة للأمراض الوبيلة، والحكمة في ذلك أن كل ما أهمل استعماله من القوى يسلب من صاحبه ولا يعطى إلاّ ما ينفعه.

الحيوانات الأهلية لما دبر أمرها الإنسان وأطعمها خمدت قوتها الإدراكية، ونامت غريزتها الفطرية، فسلبت ما أعطيه الغزلان وشرف به الآساد في غاباتها والحيات في أوكارها من التدبير العجيب، هكذا الإنسان قسمان: قسم خنع للغاصبين وخضع للظالمين، فدبروا أعماله ونظموا أحواله، فلا جرم تسلب من هؤلاء قواهم وتعطي لساداتهم المستعمرين ويسلبون عقولهم السامية كما سلبتها حيواناتهم الداجنة، فهل يعطي الله السيف لغير الضاربين، أو يعطي العقل لغير المفكرين؟ كلا ثم كلا، والمسلمون إذا استناموا للفرنجة المستعمرين، وأخذوا منسوجاتهم صاغرين، وسلموا إليهم ثروتهم لمصنوعاتهم وهم لا يصنعون، فحقت عليهم كلمة ربك لأنهم لا يعقلون، وأخذتهم صاعقة الطيارات وهم ينظرون، وخسفت بهم الأرض وهم غافلون، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود: ١٠٢]، وظلم المسلمين هنا إهمالهم لعقولهم وتركهم لشؤونهم، ونومهم خاضعين خاشعين بجهلهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ٦]، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: ١٠٥].

هذا كتاب كتبه الله بحروف بارزة لا يعقله إلاّ الحكماء والأصفياء.

الكتاب كتابان: كتاب بالحروف الصغيرة، والآخر بالحروف الكبيرة، فأما الذي بالحروف الصغيرة فهو ما نكتبه نحن بأقلامنا ونسوّد به وجوه الطروس، وأما الذي بالحروف الكبيرة فهو الذي كتبه الله بيده، وأبرزه بصور وأشباح وقال انظروا، ولعمرك إن أكثر الناس لا يعقلون إلاّ الحروف الصغيرة، أما الحروف الكبيرة التي كتبها الله بيده فهي محجوبة عن العقول مكشوفة للأنظار، فاعجب لمبرقع مكشوف وظاهر مستور وجميلة زينت للناظرين وهم لا يبصرون، وبهجة المنظر ومن حولها لا يشاهدون ما هي؟ هي تلك المشاهد التي نراها صباحاً ومساءً ونحن عنها غافلون، فهاك ما ذكرته لك من الدجاج والحمام وأشباهها، كيف برزت علومها وهي مستورة، ألم تر كيف سلب فراخ الدجاج عطف الديك وقد وهبن نعمة الريش والقوة والإدراك كما ذكرناه. وهكذا سلب فراخ الحمام الريش،

وأعطيت عطف ذكر الحمام على أنثاه كما بيناه، فالغنم بالغرم، أليس هذا معناه أن الله يخاطب المسلمين بالقول الفصيح المبين: أيها المسلمون، ساعد ذكر الحمام أنثاه في تربية صغارهما فسلبت في الحال ريشها لأن كل شيء عندي بمقدار، ولم أخلق شيئاً عبثاً، وكل شيء عندي بميزان، فوزنت أمر الحمام وهو ضعيف فرأيت أن أعد له عطف الآباء، وعكست القضية في الدجاج فنالت القوة وعدمت مساعدة الأب، هكذا أفعل في سياسة الإنسان، إنكم أيها المسلمون لما غلبكم أعداؤكم وملكوا زمامكم صرتم كالحمام لا كالدجاج، فألهمتهم أن ينزعوا سلاحكم كما نزعت سلاح الطيران من صغار الحمام، ومن جاهد لحفظ بلاده منكم واستقل أعطيته السلاح ومنعت عنه الغاصبين، فأنا لا أسلط الأقوياء إلاّ على الأمة التي استكانت فاستحقت المساعدة، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، فإذا قلت في كتبي السماوية كالقرآن: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود: ١١٧]، ومعناه أن الإصلاح العام في الأمة يورث بقاءها وإن كانت كافرة، فإصلاح البلاد هو الذي يؤهلها للبقاء، فلقد أريت الأمثال للناس عياناً ومشاهدة وهم غافلون، فطابق قولي فعلي فلا قولي سمعتموه ولا عملي تدبرتموه، فأين المفر؟ ولا مفر لهاربين! وقد مر بعض هذا المقال في سورة «آل عمران».

كيف حجب الله هذا الجمال عن أكثر الناس

لعلك تقول كأن في كل ما تراه جمالاً وحكماً، والناس يرونه وكأنهم لا ينظرون، ويسيرون في الأرض وكأنهم ميتون، ويسمعون القول وكأنهم لا يعقلون، فأي حكمة إذن في هذا الجمال؟ وأي معنى لذلك الكمال؟ وإذا لم يكن للجمال مبصرون، ولا للحكمة فاهمون، فهل خلقت لغير من يعقلها ووجدت لمن لا يفهمها؟ إن ذلك مما يورث الارتياب ويوقع الشك عند ذوي الألباب.

أقول: لا عجب في ذلك، لقد خلق الله أمماً إسلامية وغير إسلامية، ويرفع عن بعضهم وجوه هذا الجمال لا لبخل في العطية ولا لإلحاقهم بأذية، ولكنه يعطي من يستحقون ويمنع من لا يستأهلون، أفلا تراه منع الأطفال أن يتصرفوا في أموالهم، وصرف القردة والذؤبان عن الحكم العلمية، لأن الحيوان والأطفال لا قدرة لهم على إدارة الشؤون، ولا على إدراك الصناعات والعلوم، فإذا رأيت الأمم الإسلامية القريبة العهد مشتتة الممالك واقعة في المهالك؛ فما ذلك من منع الحضرة العلية ولا بخل من الذات الربانية، وإنّما كانوا عن المعالي قاصرين، وعن إدراك المعاني غافلين، فمزقت دولهم، وشتت شملهم، ومنعهم الملوك والأمراء من درس العلوم، وصرفهم علماء السوء عن فهم الكتاب بقشور فقهية وأحكام شرعية، وقالوا لهم: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، وصرفوهم عن حب الأوطان والمدافعة عن الأهل والأموال مع أنهم يقرؤون صباحاً ومساءً: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾[البقرة: ٢٤٦]، ويقرؤون أيضاً: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ﴾ في سبيل ﴿ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[النساء: ٧٥]، ومعنى ذلك أن الله يقول للمسلمين قاطبة: أيّ عذر لكم في ترك الجهاد لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدي الكفار، وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى، وقد كانوا بمكة لا يقدرون على الهجرة وهم

يدعون الله ويقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا ﴾، وقد استجاب الله دعاءهم، ففتح المسلمون مكة، والنبي صلى الله عليه وسلم كان مبشراً بذلك.

أما الأمم الإسلامية القريبة العهد وبعض الأمم الحاضرة فإنهم ظالمون جاهلون قد حقت عليهم كلمة العذاب. ألا ترى أنهم في شمال إفريقيا يلتجئن تارة إلى فرنسا وطوراً إلى إسبانيا، وهذه الأمم الفرنجية يغيرون على مصر وتونس والجزائر ومراكش، وكثير من عظماء تلك البلاد يهشون للفاتحين ويأنسون بالمفترسين، ولقد قال لي أحد أبناء مراكش: إن الفرنجة لن يقدروا أن يبقوا يوماً واحداً إلاّ بمساعدة المسلمين، وهكذا كان المسلمون أيام الحروب الصليبية لا يعبؤون بإخوانهم ولا يبالون بأوطان غير أوطانهم، وجرت الحال على هذا المنوال، ولكن اليوم قد تنبه بعض المسلمين كأهل الأفغان والترك والفرس فقد طردوا الفاتحين، وهكذا قد تنبه أهل الهند وقاموا قومة الشجعان وقالوا للفرنجة: دعوا الشرق للشرقيين، وهكذا أهل بلادي المصريون قد رفع الغطاء عن أعينهم فانتبهوا لأمرهم ونالوا بعض مطالبهم، أولم يقرأ بقية المسلمين في الشرق والغرب القرآن؟ أولم يعلموا أن غزوة أحد كانت للدفاع عن المدينة، وفتح مكة لاستخلاص الضعفاء بمكة من أيدي الكفار، والعيب كل العيب على العلماء والملوك أولئك الذين على الإهمال يلامون، وعلى إضرارهم بالمسلمين يعذبون، وكل عن ذنبه مسؤول، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

الوجه التاسع: في الحشرات ومنها النحل والعنكبوت

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، فانظر كيف جعل النحل تبني من الجبال بيوتاً وفي الشجر وفي الخلايا التي يصنعها الناس لها، وتجمع العسل من الزهر مما ذكرناه في هذا الكتاب وأوضحناه في كتاب «الزهرة» وكتبنا الأخرى، ثم جعل هذا الشراب مختلف الألوان ويشفي به الأمراض.

عجب لهذه الدنيا ونظمها، إنها جنة للعقلاء، ليتفكر المسلمون، وليعقلوا كيف كانت النحلة الصغيرة التي لا قدر لها سبباً في إلقاح النبات ذكرانه لإناثه، ثم هي جمعت من الأزهار ما لذ وطاب فأحالته عسلاً، وكان العسل ألذ ما يأكل الناس وأشفى ما به يستشفون، فيا ليت شعري، كيف كان الزهر وعسله وإلقاح إناثه من ذكرانه ثم شفاء الناس بعسله، إني لفي عجب من نظام هذا الوجود المحكم البديع، وكيف كانت النحلة وسطاً بيننا وبين عسل الزهر، وكيف طبخته، وكيف كانت شفاءنا، وهي لا علم لها بالإلقاح في الأزهار ولا بالعسل الذي عنها ورثناه، ومن خلاياها وبيوتها الجبلية اشتريناه، إن في ذلك لعبرة للمسلمين.

أما آن لهم أن ينظروا في عجائب الدنيا وثمراتها وغرائبها وبدائعها، ويتفكروا فيعلموا أن ألذ الطعوم من حشرة صغيرة وهي النحلة، وأرقى الملبوسات وأشفها وأجملها ما كان من دودة؛ وهو الحرير، وأحسنها وأبهجها ما كان من صدفة في البحر؛ وهو الدر، فيا عجباً حشرة ودودة وصدفة كانت

أعمالها محل إعجابنا وزينتنا وشفائنا وتفاخرنا. بهذا العلم فليرق المسلمون، وبهذا العلم فليفيقوا من غفلتهم، فإذا أضاعوا هذه العلوم فقد أضاعوا كل شيء وجهلوا ربهم وصنعه، ونسوا نعمته، كما قال تعالى: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧]، نسوا نعمه فلم يدركوها فنسيهم وأخرهم في مصاف الأمم.

العذاب واقع على ذوي العقول الكبيرة من المسلمين، واقع على الأغنياء والأمراء والعقلاء والعلماء، فعلى العالم أن يذكر الأغنياء، وعلى الأغنياء أن يحضوا العلماء، وإلا فإنهم جميعاً آثمون. هذا ما نقلته من كتابي «القرآن والعلوم العصرية».

تفصيل الكلام على النحل

ويحسن هنا أن أذكر ما كتبته في كتابي «جواهر العلوم»، وفي كتابي «جمال العالم».

فأما الذي في «جواهر العلوم» فهو على هيئة محاورة بين فتاة وفتى، قالت له: ما معنى العجب؟ فقال: اعلمي أن العجب حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره، فإن الإنسان إذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهدها من قبل ورأى تلك الأشكال المسدسة المنتظمة تحير لعدم معرفة فاعله، فإن قيل له إن فاعله هو النحل تحير أيضاً من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المسدسات المتساوية الأضلاع المعجزة لمهرة المهندسين مع ما لديهم من العدد والآلات والإدراك والتجارب وطول المدة، وكيف اهتدت إلى تغطية تلك البيوت بغطاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه، فلا ينشقه الهواء ولا يصيبه الفأر، ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس، فهذا معنى العجب، وكل ما في العالم بهذه المثابة، إلاَّ أن الإنسان يدرسه في زمن صباه عند فقد التجربة، ثم يبدو فيه غريزة العقل شيئاً فشيئاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهوته، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط من نظره لطول الأنس بها، فإذا رأى حيواناً غريباً أو فعلاً خارقاً للعادة انطلق لسانه بالتسبيح، فقال: سبحان الله، وهو يرى طول عمره أشياء تتحير فيها عقول العقلاء، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]

فسألته الفتاة قائلة: ومن أين هذا الشمع؟ ولم اختار الشكل المسدس؟ ومن أي شيء يجمع العسل؟.

فقال لها: أما الشمع فإن النحل يجده على كثير من النباتات مادة بيضاء كالدقيق، ونشاهده بكثرة على قصب السكر، وأما تلك الخلايا وتسديسها فإنها اختارت من جملة الأشكال الشكل المسدس وذلك أن أوسع الأشكال وأحوالها المستديرة وما يقرب منها، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل من الأشكال ذات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلاَّ المسدس، فهذه خاصية هذا الشكل، وما أشبه هذا النظام الصغير بالنظام الكبير نظام السماوات والأرض فإنه كله بحساب متقن، إلى أن قال: وأما العسل فإنه وضح في آية: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨] والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لكل فرد ممن له عقل يستدل به على كمال الحكمة

الإلهية، وتتسع به مداركه وتقوى همته، فينظر كيف ألهم الله هذا الحيوان الضعيف أن جعل له ملكة مسلطة عليه، وقد قسمت عليهن الأعمال فجعلت على نفسها وضع البيض، فتبيض في كل ثلاثة أسابيع من ستة آلاف إلى اثنتي عشرة ألف بيضة، وجعلت على الشغالة التي عندها جميع الأشغال، والشغالة عندها خناثى النحل أي التي ليست إناثاً ولا ذكوراً، وعدد ما يكون من الخلية من عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً، فمنها البواب الذي لا يسمح لأحد من غير أصحاب الخلية أن يدخلها، ومنها ما هو منوط بخدمة البيض، ومنها ما هو منوط بتربية صغار النحل، ومنها ما يبني الخلايا، ومنها ما يجني مواد الشمع التي تبني منها الخلايا، ومنها ما يجني رحيق الأزهار الذي يستحيل في بطونها عسلاً تخرجه من فمها لتتغذى به صغار النحل متى خرجت من البيض، وينتفع به الناس، وكل من هذه الطوائف تؤدي ما عهد إليها بنشاط وهمة على مقتضى أوامر الملكة المسماة باليعسوب أو الخشرم، وتسميها العامة أم النحل، وهي أعظمها جثة وأكبرها خلقة.

ومن عجيب أمر تلك الملكة أنها تقتل كل ما وقع على نجاسة من رعاياها، ومن سياستها أنها إذا أرادت الحمل ارتفعت في الهواء واختارت ذكراً من غير خليتها ترفعاً عما تحت إدارتها، فإن عندها ذكوراً لا شغل لها عددها من خمسمائة إلى ألف في الخلية، وتبقى فيها إلى أن تحمل الملكة وتحبل، ومتى ظهر حملها قتلت الخناثى هؤلاء الذكور لئلا يضيق المكان ويفنى العسل، فسبحان من ألهم تلك الحشرة الضعيفة فعل أعظم الملوك من قدماء المصريين الذين كانوا يحكمون على من لا صنعة لهم بالقتل، وألهم تلك الملكة أن حفظ رياستها وشرف ملكها لا يتم إلاّ بالترفع على من تحت إمرتها ولم ترض لنفسها أن يعلوها أحد رعاياها.

ولعمري إن في قتل خناثى النحل لذكورها عبرة وتبصرة تشير إلى أنه لم يخلق في هذا العالم مخلوق إلاّ لحكمة، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[ص: ٢٧]، فيا ليت شعري، كيف يرى الإنسان هذه العجائب في الحيوان الضعيف ثم يترك أعضاءه ومواهبه الشريفة هملاً فضلاً عن استعمالها في أنواع المفاسد.

ثم إن النحل قسمان: وحشية تسكن الجبال والأشجار والكهوف، وأهلية تأوي إلى البيوت فيبني لها الناس أبنية. وهنا جاء في الكتاب ذكر الإلقاح وأن النبات له فيه ذكر وأنثى، وأنه مختلف الألوان، وهذا المقام تقدم مشروحاً في سورة «الحجر»، إذ اقتضى المقام هناك عند قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الآية: ٢٢] أن نبحث في علاقة النحل والحشرات الأخرى بالنبات وإلقاحه وثمراته وما أشبه ذلك، والكلام هناك مستوفى فليرجع إليه من أراد. هذا ما أردت نقله من كتابي «جواهر العلوم»، وكأن الله ألهمني تأليف هذه الكتب لتكون مرجعاً إلى هذا التفسير الآن.

وجاء في كتابي «جمال العالم» ما يأتي: قد ذكرنا في كتابنا «جواهر العلوم» النحل وعجائبه، وأوسعنا المجال فيه، وأوردنا شواهد وآيات، ونحن الآن نذكر ما عثرنا عليه بعد من العجائب والحكم ليكون لكل كتاب مزية ليست في الآخر.

من النحل ما أوتي شعراً يرى بالمكرسكوب أسود أو أحمر أو أصفر، اختلفت ألوانه كما اختلفت طرقه في طلب الأزهار، والنحل الكبير الذي يعيش في الكلأ والحقول يموت في الشتاء إلاّ قليلاً يتوارى

في أماكن تدفئ جثته، حتى إذا جاء فصل الربيع وانتشرت الحرارة نفخ الله فيه الأرواح وأيقظها من رقدتها بعد نومها وبعثها من مرقدها في برزخها، فما أشبهها إذ ذاك ببعث الإنسان بعد موته، وبعث جميع الحشرات من نومها العميق في نسيجها المسمى «شرنقة» في أول نشأتها وقيامها من سباتها العميق، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

يظهر أن قدماء المصريين ظنوا أن بعثنا على هذا المنوال فحنطوا الأجسام مشاكلة لهذه الحيوانات كما تراه في البراري والأهرام والمقابر والحفائر القديمة وهيهات هيهات، وإنّما بعثنا أرفع وأجل من ذلك فهذا يتسلى به العوام، وأما خواصهم فكانوا يعلمون أنهم يرتقون في عالم الجمال والكمال.

فإذا قامت النحل أخذت تطير في الحقول لتبحث عن أماكن لها تبني فيها أعشاشها، فمنها ما يتخذ حشائش يصنعها مساكن ذات منافذ من أعلى ليدخل النور، وتقفلها عند مسيس الحاجة إليها إذا أقبل الليل أو نزل المطر أو الندى، ثم تضع على حيطانها أقراصاً وقاية من الرطوبة. ومنها ما يبحث عن شقوق ومغاور في الأرض أو في الجبل فيضع أقراصه فيها، وهذان النوعان من البناء هما اللذان اتخذهما النحل فوق الأرض وتحتها، وبعد ذلك تضع النحل بيوضها في البيوت التي تتكون منها الأقراص، وتسير سير كل حشرة في القانون العام كما سنذكره في سورة «النمل»، فتكون دودة فتنام في كرة نسيجها كما ينسج دود القز في حريره، وإن كان هنا نسيجها ضعيفاً لا قيمة له، ثم تقوم وقد أكمل الله خلقها وخلق أجنحتها وخرجت من مهدها باحثة عن غذاءها فتذهب إلى الأزهار وتجني منها العسل الذي في أسافلها، وتحمل تلك المادة الصفراء في سفط «المقطف» على أرجلها الخفيفة كوّن من شعر يحفظ تلك المادة، ثم يجعل جزءاً منها شمعاً يبني منه الأقراص يملؤه عسلاً مما شربه من أسفل الزهرة، وجزءاً آخر يصنعه خبزاً لصغار النحل، فتأمل كيف كانت الزهرة تحوي الشمع، وخبز صغار النحل في مادتها الصفراء المعدة للقاح، وانظر كيف كان العسل في أسفلها واهتدى النحل إليها، فما الشمع وما العسل إلاّ تلك الزهرة التي نشاهدها كل يوم ونحن غافلون عن حسن الصنع والإتقان الذي قام به النحل فيها، وإذا كان النحل له قدرة على هذا فإن للإنسان قدرة لا تتناهى، وقد ارتقى في الصناعات الآن، وأخذ من المادة ما لا حصر له من العجائب، حتى استخدم الهواء في اصطناع المواد الآزوتية فنفعته في حربه وفي تسميد أرضه، كما يعرفه من قرأ أخبار أهل ألمانيا، وكان المسلمون أولى بذلك. ولنرجع إلى ما في كتاب «جمال العالم».

ومن العجيب أن النحلة قد تسير ميلاً للبحث عن غذائها ولا تضل طريقها وترجع إلى أماكنها وأنها تعرف طرق الحيل والدهاء.

حكاية

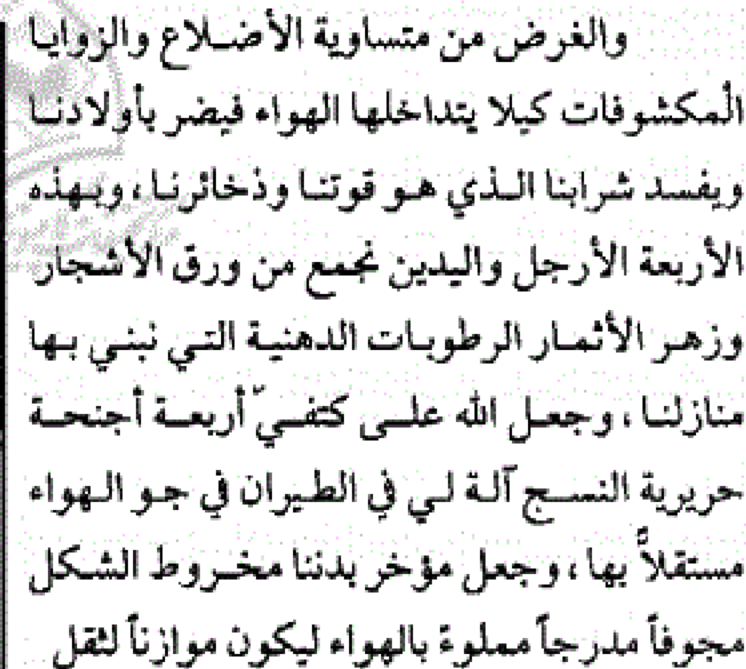
ذكروا أن قوقعة أخذت طريقها إلى خلية نحل، فلما رآها ازدحم عليها، ولكن عرف أنه لا سبيل إلى إرجاعها، فتربصها حتى إذا احتلت المكان وشربت من العسل تعاون الجميع على إلصاق رأسها في الشمع، ففارقت تلك المسكينة الحياة. هكذا أكثره منقول من كتب الفرنجة مترجماً.

وهاك ما جاء في «إخوان الصفاء» لتقف على مختصر بليغ من ثمرات العقول الناضجة في النحل، جاء في بيان فضيلة النحل وعجائب أموره ـ وذلك من رسالة الحيوان ـ ما نصه:

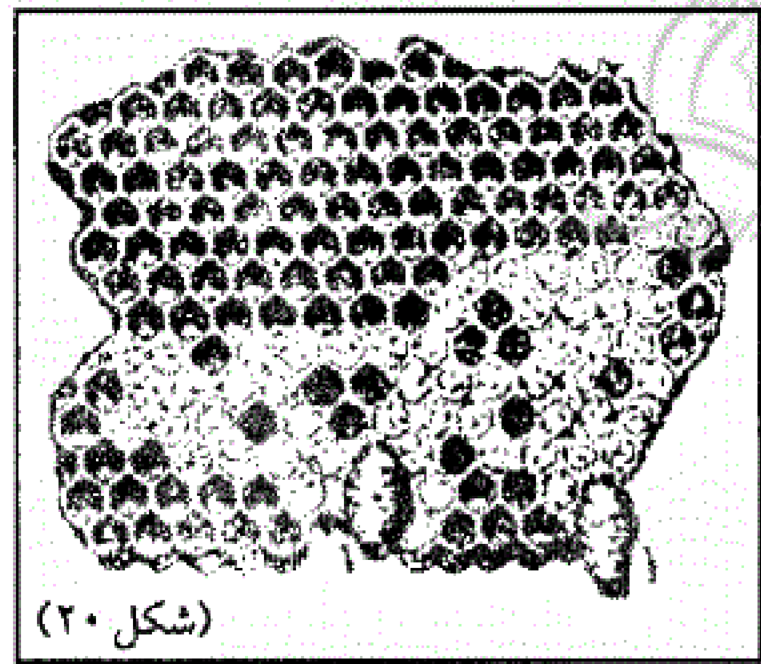
يعسوب النحل

أيها الملك، مما خص الله به وأنعم به عليّ وعلى آبائي وأجدادي أن آتانا الملك والوحي إذ لم تكن من بعدنا لحيوانات أخر، وجعلها وراثة من آبائنا وأجدادنا، ويصير ذخيرة لأولادنا وذرياتنا يتوارثونها خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة، وهما نعمتان مغبون فيهما أغلب الخلائق، ومما خصنا به الله أنه علمنا دقة الصنائع الهندسية ومعرفة الأشكال الفلكية من اتخاذ المنازل وبناء البيوت وجمع الذخائر فيها، ومما خصنا به أيضاً من أنه حلل لنا الأكل من الثمرات من جميع أزهار النبات، وجعل في مكاسبنا ما يخرج من بطوننا شراباً حلواً فيه شفاء للناس كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

ومما خصنا به الله أن جعل خلقتنا خلقة لطيفة، فجعل بنية جسدنا ثلاثة مفاصل محزوزة، فوسط جسدنا مربع مكعب، ومؤخر جسدنا مخروط، ورأسنا مدور مبسوط، وركب في وسط أبداننا أربعة أرجل ويدين متناسبات المقادير كأضلاع المسدس لنستعين بها على القيام والقعود والوقوع والنهوض، ونقدر على أساس بناء منازلنا وبيوتنا مسدسات مكتنفات يعجز عن إتقانها المهندسون الذين يعجزون عن موضوعات أشكالنا وتسديسات منازلنا. (رسم بيوت النحل، شكل ٢٠).



والغرض من متساوية الأضلاع والزوايا المكشوفات كيلا يتداخلها الهواء فيضر بأولادنا ويفسد شرابنا الذي هو قوتنا وذخائرنا، وبهذه الأربعة الأرجل واليدين نجمع من ورق الأشجار وزهر الأثمار الرطوبات الدهنية التي نبني بها منازلنا، وجعل الله على كتفيّ أربعة أجنحة حريرية النسج آلة لي في الطيران في جو الهواء مستقلاً بها، وجعل مؤخر بدننا مخروط الشكل مجوفاً مدرجاً مملوءة بالهواء ليكون موازناً لثقل رأسنا في الطيران، وجعل لي حمة حادة كأنها شوكة وجعلها سلاحاً لي أخوف بها أعدائي وأزجر بها من يتعرض ليؤذيني، وجعل رقبتي خفيفة ليسهل علي تحريك رأسي يمنة ويسرة، وجعل رأسي مدوراً عريضاً، وجعل في جنبي عينين براقتين كأنهما مرآتان مجلوتان، وجعلهما آلة لنا لإدراك المرئيات المبصرات من الألوان والأشكال في الأنوار والظلمات، وأثبت على رأسنا شبه قرنين لطيفين لينين وجعلهما آلة لنا لإحساس الملموسات واللين من الخشونات والصلابة والرخاوة، وفتح لنا منخرين لإحساس المشمومات الطيبة، وجعل لنا فماً مفتوحاً فيه قوة ذائقة تتعرّف بها قوة الطعوم، وخلق لنا مشفرين حادين نجمع بهما من ثمرة الأشجار رطوبات لطيفة.



(شكل ٢٠)

ولقد عجز الطبيعيون والأطباء من اليونان أن يعرفوا طبائع النبات ومنافعه، ونحن عرفنا هذا منه، وخلق في جوفنا قوة جاذبة وماسكة وهاضمة وطابخة منضجة تصير تلك الرطوبات عسلاً حلواً

لذيذاً شراباً صافياً غذاء لنا ولأولادنا وذخائر للشتاء، كما جعل في ضروع الأنعام قوة هاضمة تصير الدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، وجعل فضلاتنا وفضلات أولادنا سبباً وشفاءً لأخص خلق الله تعالى إذ في تشكيلنا وتخطيطنا المسدسات وترتيب الزوايا المتساويات جعل شفاء للأرواح الإنسانية، وفي فضلاتنا وبزاقنا ولعابنا جعل شفاء للجسد الإنساني، وجعل فضالة فضلاتنا وهو الشمع سبباً للضياء في ظلم الليالي عوضاً عن الضياء النوراني الحاصل من الشمس.

فمن أجلّ هذه النعم والمواهب صرنا مجتهدين في شكرها بالعمل، ثم إننا نأوي في رؤوس الجبال والتلال وبين الأشجار والدحال، ومنا من يجاور بني آدم في منازلهم، فأما من بعد منا فإنه يسلم من أذاهم في الأكثر، ولكن ربما يجيئون إلينا في طلبنا ويتعرضون لنا بالأذية، فإذا ظفروا بنا خربوا منازلنا ولم يبالوا بأن يقتلوا أولادنا ويأخذوا مساكننا وذخائرنا ويتقاسموا عليها ويستأثروا بها دوننا، ونحن نصبر صبر المضطر تارة مكرهين وتارة راضين مسلمين، إن غضبنا وهربنا وتباعدنا من ديارهم جاؤوا خلفنا يطلبوننا ويرضوننا بالهدايا من العطر وأنواع الحيل من أصوات الطبول والدفوف والمزامير والهدايا المزدوجة المزخرفة من الدبس والتمر، ويأخذون منا عسلاً صافياً لذيذاً جعله الله سبباً لشفائهم فنحن من حسن أخلاقنا نصالحهم إذ الصلح خير، والخصومة تؤدي إلى هلاك الحيوان وخراب البلاد، فنحن نراجعهم ونصالحهم لما في طباعنا من السلامة وقلة الحسد، قلبنا صار موضع إلهام الله تعالى لا يجوز أن يكون موضع الحقد والحسد إذ هما ضدان لا يجتمعان، إن الله ألقى الوحي علينا فلا يليق أن نكون فاسقين، ومع هذا كله لا يرضى الإنس منا إلا أن يدّعوا أننا لهم عبيد وهم لنا سادات، وذلك زور وبهتان إذ نحن غير محتاجين إليهم كما يحتاج العبيد لمواليهم، بل هم محتاجون إلينا مثل ما يحتاج الخدم إلى السيد، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. انتهى «إخوان الصفا».

المملكتان المتشابهتان:

مملكة النحل، ومملكة الأرضة وهي دابة الأرض

أما مملكة النحل فقد أسهبت الكلام عليها وأريتك صورة بيوته المسدسات، وبقي أن ترى صورة الذكر وصورة اليعسوب وصورة النحلة العاملة.

(شكل ٢١ ـ صورة ذكر النحل واليعسوب والعاملة)



وهاك أوصافها: اليعسوب مؤخرها طويل يصلح لحفظ البيض، أجنحتها قصيرة لأن حياتها لا تتعدى الكوارة ويقوم بخدمتها طائفة من النحل، وهاك صورتها وهم حولها.



(شكل ٢٢ صورة ملكة النحل وهو اليعسوب وحولها خدمها نحو ٢٠)

النحلة وخدمها

الذكر: منظره ضخم، ومتى حملت الملكة يقتله النحل لأنه أصبح لا عمل له.

العمال: هي أصغرها جثة وكل له عمل: (١) سقاء. (٢) مربي الذرية. (٣) راع. (٤) بناء. (٥) معماري. (٦) مهندس. (٧) جندي. (٨) زبال. (٩) خدام.

فالسقاء يمد الكوّارة بالماء، والمربي يربي الصغار، والراعي يجمع غبار الأزهار وعسلها، والبناء وما بعده لبناء بيوت العسل، والأمر ظاهر في البقية. فهذه الراعيات تمتص العسل بلسانها الطويل وتدخله كيس الشهد فيتحول إلى عسل فتتغذى ببعضه وتخزن ما بقي إلى وقت الشتاء. اهـ.

وأما مملكة الأرضة

فإن أمرها عجب، وقد تقدم وصفها في سورة «هود» فقد أبنت لك هناك أنها على وزن بقرة، وتسمى النمل الأعمى، وليست بالبيضاء بل هو «أغبس» أي: كلون الأرض التي يقيم فيها، أي: لا بياض فيه، ولا أطيل في وصفها فقد تقدم هناك، وسيأتي زيادة شرح لها في سورة «سبأ»، ولكن الذي يهم في هذا المقام أن تطلع على صورتها وحولها العمال.



(شكل ٢٣) صورة الأرضة المالكة وأتباعها

وهي الكتلة البيضاء الضخمة وهي الملكة، وإلى جانبها الملك، ومن حولها العمال يقبلونها ويلحسونها، فالقائمون بتغذيتها يتألبون عند فمها، ويبقى في الطرف الآخر من وكل إليهم التقاط البيض، ومن العمال جند من الشرطة صغير الحجم، وفي الصف الأول في شكل نصف دائرة الجند الكبير القائم بحراستها لمنع هجمات عدو مفاجئ، وهذه هي التي تسمى عندنا «السوسة» و«العثة» التي تلحس الصوف والثياب.

وهذا الرسم للعالم الألماني «ازريك» كما نظرها، نقلته من كتاب «مملكة الظلام» المترجم حديثاً للعلامة «موريس مترلنك» بلجيكي المنشأ فلمنكي الأصل، مؤلف في النحل وفي الأرضة.

فهاتان مملكتان إحداهما في الهواء فوق الأرض، وثانيتهما تحت الأرض في الظلام، والنظامان يرجعان لناموس واحد: ملكة تبيض وتلد، وعمال تقسم الأعمال عليهم، غير أن العجب أن تكون الأرضة تدبر ملكها وهي عمياء، وتحكم عشرات الألوف من رعاياها المتفرقات اللاتي تبني مباني ضخمة عظيمة تعلو فوق الأرض بضعة أمتار وتمتد مسافات عظيمة، فكيف حكمت العمياء التي لا حركة لها هذه الجموع كلها؟ وكيف كانت هذه كلها قائمات بالأعمال ولا أعين لها؟ أما النحل فأمره معلوم مما تقدم، فاقرأ: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣]، واقرأ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]. وإلى هنا انتهى الكلام على النحل.

أما النمل: فقد أفرد له العلماء في عصرنا التأليف، ولقد رأوا عجائب ذكروها، وآيات بينوها، وغرائب صنفوها، فمن ذلك أن فيها ما يبني مساكنه كما يبني الناس، ويهيئن قرى صغيرة وكبيرة ولها أظآرير بين أولادهن الصغار، ولهن حجرات محفورات أو مبنيات فوق الأرض لكل جيل من أجيال الذرية، كأنها مدارس ذات فصول، ولهن من نظام الجند وصفوف الحربية وتربية الماشية الخاصة بهن ما تخر له عقول العلماء سجداً ويقولون: سبحان مبدعها الحكيم. ولا يظنن القارئ أن في ذكر الجند لهن مبالغة أو أن الحرب عجباً، فإن لها من أنفسها نملاً كبيراً يشاهدونه محافظاً عليها في غدوها ورواحها، ثم هي تحارب نملاً آخر وتأتي بالأسرى، وهؤلاء الأسرى يحضرون الطعام لساداتهن الآسرات لهن، ولهن حيوان صغير يسمى « أفد» سماه علماء هذا الفن جاموس النمل، فإنه يربيه ويسمنه ويمتص منه مادة يتغذى بها كلبن البقر والجاموس عندنا، ورأوا له مزارع يحافظ عليها وهي نباتات صغيرة لها نظام هندسي وطرق نملية عجيبة بديعة متقنة، قد اطلعت على رسمها، ولها ملكة تقوم بأمرها وتحافظ على مجموعها وإليها يولي النمل وجهه في غدوه ورواحه، ويستروح لرؤيتها، ويهش لإقبالها، ويفرح لطاعتها، ويسعى لخدمة القرية النملية إرضاء لها، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقد قص القرآن قصص النمل فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾[النحل: ١٨-١٩]، وسترى إن شاء الله في سورة « النمل» مساكنها مصورة بالتصوير الشمسي منقولة من الكتب الفرنجية. وهناك تشاهد الحجرات والحيطان وأعمدة تتكئ عليها السقوف والطرق والدهاليز والمخارج والمخازن، وترى فوق ذلك مزارع الأرز التي يزرعها النمل وطرقها الهندسية التي رسمها النمل ونظامها الجميل منقولاً بالتصوير الشمسي من الطبيعة، بحيث تقر بأن الفلاحين في مصر لم يصلوا لهذا النظام، وإذ ذاك تقرأ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[الأنعام: ٣٨]، وتقرأ أيضاً: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧].

العنكبوت

من كتابي « القرآن والعلوم العصرية »

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسج الجميل والغزل الرقيق والريق الذي إذا تعرض للهواء انقلب إلى مادة أشبه بالقطن أو الحرير فيغزلها خيطاً دقيقاً، وينسج تلك الخيوط نسيجاً محكماً متقناً،

حتى قال علماء الحشرات: إن هندستها التي رسمتها في نسيجها ونظامها البديع الذي توخته في عملها أدق ما صنعه المهندسون وأبرع ما نظمه البارعون، حتى إنها لم تخطئ يوماً في نظمها، ولم تغلط يوماً في نسجها، وإن أبرع المهندسين وأعظم المحنكين الذين درسوا في المدارس العالية، وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة، يخطئون في تقديرهم، ويشذون في عملهم، ويحيدون عن سواء السبيل، وهذه الحشرات لا تخطئ في نظمها ولا تضلّ في هندستها، ولا تخيب في إحكامها، ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين، ومعلم العنكبوت خالق المهندسين، فتلميذ الله لن يخطئ، وتلميذ المخلوق قد يضلّ مع الضالين، ولقد شاهد الناس صغراها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلا تعليم ولا تدريب ولا تهذيب ولا تدريس ولا مدارس ولا معلمين، بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التي أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ولقد ذكر الله العنكبوت فقال: ﴿ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فإذا كان أوهن البيوت على نظام أتم وحكمة أبهج فما بالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاماً؟ ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

لطيفة

إن العلماء بحثوا في تجزئة المادة حتى وصلوا إلى ما يدهش العقول ويحير الأفكار، فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطاً رقيقة جداً، فإنها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة أدق منه، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط، وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفاً من (٤) في (١٠٠٠) يساوي (٤٠٠٠)، ومن عجب أن بعض علماء الألمان قال إنه إذا ضم أربعة بلايين خيط (٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته كما في «آل عمران». ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط، فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوي غلظه ١٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ واحداً من ستة عشر «ترليوناً»، ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت، وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط؟.

أليس ذلك من العجب أوَليس من أعجب الحكم أن العنكبوت في هذا تمثل نظام العالم الجميل؟ يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائي أنه خرج بلا حكمة، فإذا انضمت الخيوط إلى بعضها كونت خيطاً، والخيوط الأربعة أنتجت خيطاً أكبر، وباجتماع الخيوط أنشأت بيتاً، وكان مسكناً ومحل صيد للعنكبوت، ومع ذلك تسمع القرآن يقول: ﴿ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت، ثم أردفه بقوله: ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فانظر كيف ذكر العلم المقرون بـ«لو» بعد مسألة العنكبوت، أفليس هذا الوهن قد ظهر في التحليل والتجزئة، فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف في الدقة وتناهت في التجزئة، فذكر الوهن هنا إشارة إلى قبول التجزئة قبولاً مطرداً، بحيث لا يمتنع عنها وهو متماسك، ذلك هو السر في قوله: ﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾، فليس يدرك الناس تلك التجزئة التي أشار لها الوهن مجرد

إشارة إلاَّ بعلم الطبيعة ، ولا يدري المسلمون ما السر في تسمية سورة باسم « العنكبوت » إلاَّ بالتفرغ لدراسة الحشرات ، وإذن يعرفون لماذا سميت سورة في القرآن باسم « العنكبوت » ، وأخرى باسم « النمل » ، وأخرى باسم « النحل » ، وهي حشرات ، وسورة باسم « البقرة » ، وسورة باسم « الأنعام » وهذه من ذوات الأربع .

والذي أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين في الأعصر المتأخرة إنَّما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التي سيوقظها أمثال هذا الكتاب ، ويخرج جيل إسلامي لم تحلم به العصور ولم تلده سوالف الدهور ، وهم خلفاء الله والنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين . اهـ .

وما مثل العنكبوت في ذلك النظام البديع إلاَّ كمثل النحل إذ نظم بيوتاً مسدسات ذات أضلاع متساوية متقنة ، ومن العجب أن الأشكال المسدسة كل ضلع يساوي القطر المار ما بين ضلعين من أضلاعها كما قرره علماء الهندسة ، ولقد أبنا الحكمة في اختيار المسدس دون باقي الأشكال ، ولم يكن دائرة فيما كتبناه في كتبنا السابقة ، وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحاً أتم وبياناً أكمل في كتابنا « جمال العالم » ، وكذا « نظام العالم والأمم » وغيرها ، وهذا الكتاب إنَّما جعلناه تذكرة عامة للأمة الإسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم ، وليعلموا أن الله عزَّ وجلَّ ما وصف هذه الحشرات ولا ذكر هذه الآيات ولا أخذ يصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلاَّ ليسوقنا إليها وليحثنا عليها ، فانظر مسألة النحل التي تقدم الكلام عليها ، فإنها فضلاً عما فيها من بدائع الصنعة الإلهية ، والحكمة الصمدانية ، دلالة على حكمة الخالق ، وإتقانه ونظامه وعجيب صنعه ، فإن لها أثراً عظيماً في الزراعة .

إن تربية النحل في البساتين النضرة موجب لثروة بالعسل الكثير الذي يربو إذا كانت الخلايا في وسط الأزهار ، ويقلّ بل يموت النحل إذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة ، ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقرها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع .

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ؛ ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا صنعها ، سمى الله عزَّ وجلَّ سوراً من القرآن باسمها ، فسمى « النمل » و« النحل » و« العنكبوت » ، أفليس ذلك نبراساً يهتدي به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويبنون مجدهم ويدرسون كل ما دب وكل ما طار وكل حيوان ونبات ؟ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار كما قررناه . انتهى من كتابي « القرآن والعلوم العصرية » وسيأتي في سورة « العنكبوت » زيادة على هذا .

الوجه العاشر : في قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا ﴾

إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾ مع ملخص ما تقدم

هاأنت ذا قد اطلعت على الطيور في أوكارها ، والحشرات في أعمالها ، والأنعام في حقولها ، وعلمت درّها ونسلها ، ثم قرأت ما في آية : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ٧٨]، قرأت ذلك من قبل، وهاأنت ذا تقرأ أن الظلال مسخرات لنا، والجبال أكنان لنا، وسرابيل من القطن والكتان والحرير والتيل لنا، وختم ذلك بالسرابيل التي تقينا السلاح الذي يقذفه العدو لقتلنا، وهاهنا قد تمت النعمة، فإنه بعد تسخير الطيور والأنعام والحشرات لحياتنا، وتسخير كل الثمرات والظلال والجبال ونبات القطن والكتان وأمثالها، بعد هذا كله لم يبق إلاّ الدروع السابغات في الحرب لنتقي العدو بها، وهنا تمت النعمة، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١]، والإسلام هنا الانقياد والإخلاص، وأن ننهج النهج الذي يرقي عقولنا، ونستخدمها فيما خلقت له، ونستفيد من الأمور العقلية والمادية معاً لأنه قال في أثناء ذلك إنه خلق السمع والأبصار والأفئدة لعلنا نشكره.

إيضاح مقام الشكر

انظر أيها الذكي في هذه السورة، وتفكر في نظم الآيات، لقد قرأت الآيات التي في أول السورة، وقد ابتدأ فيها بالإنسان وختمها بالمواد العنصرية أو ما هو أقرب إليها من الماء ونعمة الهواء الذي تجري به السفن، فابتدأ هناك من أعلى إلى أدنى، وقد ابتدأ في سورة «الحجر» قبلها من أدنى إلى أعلى، وقد بينا سبب ذلك هناك فلا نعيده.

إنَّما الأمر الغريب أنه هنا لم يكن الأمر على نسق الأول ولا الثاني، بل هو نسق يخالفهما، فإنه ابتدأ بإنزال الماء، ثم السماء، فالأنعام والنحل، ثم الإنسان، ثم الطير، فجعل الإنسان في هذا في وسط الجميع، فما حكمة هذا؟ إن الحكمة التي طويت في هذا أنه صرح بأنه خلق السمع والبصر والأفئدة لنا، وقال: إني خلقتها عسى أن تشكروني، ولا معنى للشكر إلاّ قبول النعمة والعمل بها، وصرفها فيما خلقت له، فهو هنا يقول: أي عبادي، أنتم مركز الدائرة، فالأنعام على الأرض والحشرات والزرع والطير من فوقكم، وأنتم بينهما، ولكم السمع والأبصار، وإذا كان كذلك فلا حق لكم أن تناموا عن قراءة هذه، أنتم على الأرض، والطير فوقكم، والأنعام والحشرات على الأرض، وأنتم بينهما، أي بين الدواب والطير، هذا في العالم الكوني الذي أنتم فيه، فكما فعلت في العالم فعلت هنا، فلم أراع في هذه الآيات السلسلة المنظمة لا من أعلاها كما فعلت في أول هذه السورة، ولا من أسفلها كما فعلت في سورة «الحجر»، بل راعيت ما تشاهدونه بأبصاركم، فأنتم تشاهدون الأنعام والحشرات وهي أقرب إليكم، ثم تشاهدون الطير، وقد قلت لكم إني خلقت لكم السمع والأبصار والأفئدة وانتم بين هؤلاء وهؤلاء، أي: بين الأنعام وما هو مختصر منها وهي الطيور، فأنتم بحسب وضعكم في الأرض بين هؤلاء وهؤلاء، والعقول فيكم والحواس، فكان عليكم أن تدرسوا وتعلموا وإن لم ينزل لكم كتاب، لأن العقل والحواس يوجبان ذلك، فلما علمت ضعفكم وغفلتكم ونومة عقولكم نبهتكم إلى ذلك بهذا القول، وقلت لتكن عقولكم مسلطة على هذه العوالم فتدرسوها، فأقسم بالطير وقدرتها والحشرات ونظامها والأنعام ونفعها إني ما خلقتكم إلاّ لتعلموا وما وضعتكم في الأرض إلاّ لتدرسوا.

أعجب ما ذكر في هذه الآية وبعض رموزها

لقد تقدم كيفية دراسة هذه العوالم، ولكن أذكر هنا ما هو أعجب، ذلك أن الحيوان ثمانية أقسام كما قدمناه، ففي هذه الآيات أربعة منها وأربعة لم تذكر، فذكر الأنعام والحشرات، وقد جاءت

البهائم في أول السورة، وذكر الحشرات النافعة والطيور، ولم يصرح بذكر الوحوش ولا السباع على الأرض ولا الهوام كالحيات، وكذا لم يذكر الجوارح من الطير بنصها وإن كانت داخلة فيها، فهذه أربعة غير مصرح بها وهنا أربعة مذكورة وهي جملة الحيوانات، واعلم أن جميع هذه نعم علينا، فالوحوش والسباع لإزالة الرمم وإزاحة الغمم وأن تكون أجوافها مقبرة للحيوانات البرية، هكذا الهوام نافعة لنا كالحيات والعقارب كما قدمنا في سورة «آل عمران» لأنها تنظف لنا الأرض من قاذوراتها فتحيلها إلى أجسامها، وهكذا كواسر الطير، ومثلها بعض حيوانات البحر الكاسرة القوية، فإنها تكون منظفة للماء من الحيوانات الميتة فيعفن الماء، وإنّما لم يذكر الله ذلك صريحاً لأن أكثر الناس جهال لا يعقلون إلاَّ ما يمسّ شهواتهم كما تقدم في مسألة البنات، وهي ظاهرة واضحة.

ولكن الإنسان لجهله وغفلته المستحكمة لا يعقل ذلك ولا يفهم، فحكم عليه حكماً قاطعاً أن يربي البنات شاء أم أبى، فإذا كان هذا في نوع الإنسان وهو جاهل به فما بالك بما هو أبعد عن فهمه من الحيات والسباع والوحوش والجوارح من الطير، إن أكثر الناس لا يفهمون ذلك، ولذلك ضرب عنها الذكر صفحاً واكتفى بذكر العقل والسمع والبصر، وقال اشكروا واذكروا، هذا هو العجب العجاب في هذه الآيات.

جوهرتان

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾.

الجوهرة الأولى

اعلم أنه تقدم في سورة «الأعراف» الكلام على علم الصحة عند قوله: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١] الخ، وفي سورة «النساء» عند قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] الخ.

أقول تقدم في هذين المقامين الكلام على أن صوف الغنم ووبر الجمال وشعر المعز لها خاصيتان: الأولى أنها تحفظ الحرارة، والثانية أنها تنشف العرق. والحرير أقل، والتيل والقطن أقل من سابقيهما، وأن المواد كلها مختلفات في توصيل الحرارة، فجعلوا الفضة مائة (١٠٠) وغيرها أقل منها، وهكذا إلى الخارصين (١٩) والحديد (٩، ١١) والبزموت (٨. ١)، فهذه المعادن موصلة جيدة للحرارة بهذه النسب ومعنى هذا أنك لو وضعت ملاعق من الحديد والفضة والخارصين في ماء حار وأمسكتها من الخارج وصبرت زمناً ما، لم تقدر على أن تمسك ملعقة الفضة من خارج الماء لشدة الحرارة، ثم بعد ذلك تلحقها ملعقة الخارصين فالحديد. أما غير المعادن كالخشب والزجاج والفحم والصوف والحرير والوبر وجميع الأجسام العضوية فإنها رديئة في توصيل الحرارة، هذا بعض ما ذكرته هناك فاقرأه إن شئت.

وإنّما الذي أدهشني اختصاص الدواب بالصوف والشعر والوبر، أريد أن أحدثك حديثاً عن الإنسان: إن المولود يخرج من بطن أمه عاري الجسد من الصوف والوبر والشعر والجلد المتين، عاري العقل من العلوم والمعارف، يدرج وينمو ويكبر فيرى طيوراً فوقه ذات ريش لطيف، ويقراً وجاموساً وغنماً وإبلاً ذات شعر وصوف ووبر، ثم يرى أن الناس يتخذون من الصوف ومن الوبر ومن الشعر ملابس ومساكن يحملونها من مكان إلى مكان، ويراهم فوق ذلك يزرعون القطن والتيل والكتان،

ويستخرجون الحرير ويلبسون من ذلك كله، ويراهم يجدّون لتحصيل ذلك كله فيتخذون الأنعام ويربونها، ويكدّون في جمع المال لما يأكلون من ذلك، ويلبسون ثم يموتون ولا هم يذكرون.
هذا تاريخ الإنسان العادي الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم لم يرتفع نظره إلى ما فوق المآكل والمشارب والملابس، ولكن الله يقول له: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولا جرم أن مبدأ الشكر العلم، ولا علم إلاّ بالتعلم، ومتى أخذت البصائر تفتح بالعلم صارت أشبه بالزهر في أشجاره، والورد في أكمامه، والكهرباء في قناديلها، والكواكب في سمائها، هنالك تضيء له أركان هذه الطبيعة التي استعبدته، ينظر فماذا يرى؟.

يرى أنه: خلق عارياً والدواب من حوله مكسوة، فيقول: ما السبب؟ فيجاب: إنك منحت ومنعت، وما منحت أفضل مما منعت، منعت شعراً وريشاً ووبراً، ومنحت عقلاً وحكمة، وبهذا العقل شاركت الدواب في أشعارها وأوبارها الخ، وزرعت القطن والكتان الخ، فيقول: ولماذا أعطيت فوق ما أتخذه من الدواب قدرة على ما أتخذه من غيرها، مع أن ما عدا الشعر والصوف والوبر أقل منها لحفظ الحرارة؟ فيجاب: إنك أعطيت عقلاً والعقل حر، فوجب أن يعطى الحرية فيتخذ ما يشاء ويختار قطناً أو تيلاً أو صوفاً على حسب الزمان والمكان، فيلبس الجلود في الأقطار الباردة، ويلبس أخف الثياب في الأقطار الحارة، فيقال: ولِمَ لَمْ يجعل على الحيوان قطن أو تيل، ولم اختص بالصوف والوبر الخ؟ فيجاب: إن الريش والوبر والصوف فيها خاصتان:

الأولى: أنها تحفظ ما تحتها فلا تدخل عليه حرارة من الخارج، كما في الثلج المغلف باللبد، فإن ما أحاط به قد منع الحرارة الخارجية أن تصل إليه فيبقى ثلجاً، وهكذا الإنسان يتقي الحرارة بالكساء وقت الظهيرة في حمّارة القيظ.

الخاصة الثانية: أنها تحفظ حرارة ما تحيط به فلا تفلت إلى الخارج، ألا ترى إلى الإنسان كيف كان في كثير من الأزمنة والأمكنة يحتاج إلى حرارة أعلى من حرارة الجو المحيط به، وهكذا الحيوان، فلذلك أعطي الحيوان تلك الأشعار والأوار لتحفظ حرارته الداخلة، ولو كانت الأشعار وأخواتها موصلة جيدة للحرارة كما يوصل المعدن كالحديد والنحاس الخ، لتسربت الحرارة إلى الخارج ومات الحيوان، فمن حكمة الله أنه لم يجعل طبع الأصواف والأوبار والأشعار كطبع الذهب والفضة والبلاتين وسائر المعادن، بل جعلها موصلة رديئة للحرارة، فحفظت للحيوان حرارته فعاش إلى حين، ولم تعط للحيوان الحرية في اتخاذ ما يشاء كالإنسان، لأنه لا رؤية عنده مثله، بل أعطي الكساء الحافظ له مرة واحدة، فالمزية تعطى للأعلى وهو الإنسان، لأنه يستمد الحرية من الملأ الأعلى وقد قلد الإنسان ربه.
انظر إلى ما ذكرته في سورة «النساء» عند الآية التي أشرات لها آنفاً، وهذا نصه: «وترى الناس يغلفون أنابيب المياه الحارة وأنابيب البخار وجميع الأجزاء التي قد تكون معرضة للهواء من مراجل بعض الآلات البخارية بغلف من الفلين أو خليط من طين بتبن أو طين بشعر أو نوع من طوب قد صنع من فتات الفلين، كل ذلك لأن هذه موصلة رديئة للحرارة، أي: الطين المخلوط بالتبن والطين المخلوط بالشعر مثلاً يمنعان ويحبسان الحرارة في المراجل، فلا تتبعثر في الخارج، فهذه الأجسام الرديئة التوصيل للحرارة أشبه برعاة الغنم والأمراء والحكام والوعاظ الذين يحافظون على الأمم» انتهى.

هذا هو الذي قلته هناك، وأقول هنا: نحن في الأرض اصطفينا هذه الأجسام التي لا توصل الحرارة فجعلناها محيطة بآلاتنا، ولما نظرنا في الحيوان وجدناه قد فعل به ما فعلناه نحن في أعمالنا، هنالك يأخذ الإنسان كل العجب ويقول: ما بالنا نعيش ونموت ولا ندري هذه الظاهرة العجيبة، صوف ووبر وشعر تتحالف كلها على حفظ الحرارة في داخلها، ثم لا يحصل خطأ البتة، ولماذا لم نر هذه الخليقة أخطأت في التركيب؟ ينظر الإنسان فيراه يدرك جمال الوجوه وجمال النغمات، ويعجبه حفيف الأوراق وتمايل الأغصان وتجاوب الرياح، الإنسان يعرف هذا لأول وهلة ولكنه قط لا يفطن لمثل هذه الظاهرة الشعرية والوبرية والصوفية.

ولئن أدرك الحجر في سقوطه بالتربيع المذكور في أول سورة «آل عمران» وأشياء أخرى عجيبة في سور غيرها كـ«الرعد»، وذلك بالبراعة في العلوم الرياضية، إنه مع ذلك لا يشعر بالتعجب من هذه الظاهرة الحيوانية إلا بعد دراسة العلوم الطبيعية، تلك العلوم التي تفتح للعقول باباً كان مغلقاً وترينا جمال الله، وأنه ليس خاصاً بجمال الزهر والنهر والوجوه الجميلة، بل الجمال الأوفى هو الذي اختفى عن أعين الجاهلين، هناك حساب دقيق في خلق الحيوان، هناك إبداع وإحسان وجمال، ولكن ذلك الجمال لا يراه العامة ولا أكثر المتعلمين، يعلمون ظاهراً من الفرح بتملك الأنعام وهم عن عجائبها معرضون.

ثم يتأمل الإنسان في نفسه ويقول: إذا كان كساء الحيوان قد بني على علم وحكمة والناس يعيشون لا يعقلون، وقليل منهم الذين أدركوا هذا الجمال، أي: التناسب والتوافق، فعلام يدل هذا؟ فيقال له: إن هذه الطائفة التي أدركت ذلك الجمال وفرحت به أرقى من بقية نوع الإنسان، وهؤلاء هم الذين يربون في الأرض مع عامة الناس، وتنمو قوتهم العاقلة، ويزيدون جمالاً في نفوسهم، ويشعرون بأن الناس حولهم عمي صم بكم عن ذلك الجمال، وهذه الطائفة القليلة قد أعدت في الأرض لعوالم أرقى، ومن جهة أخرى يدل على أن هناك عوالم ونفوساً مشرقة فوق أهل الأرض غايتها في حياتها إدراك هذا الوجود على ما هو عليه، فإذا كانت الأرض أكثر أهلها من الناس غافلون عن عجائب الذرة والقمح مثلاً ـ المذكور بعضها في تفسير سورة «الفاتحة» ـ وعجائب الأشعار والأوبار المذكورة هنا، وفيهم أناس عرفوا وفرحوا، فمعناه أن أكثر الناس مع الحيوان بعقولهم وأخلاقهم، وأقلهم بل النادر فيهم هم القادة وهم السادة وهم الذين يشبهون نفوساً أعلى دأبها أن تفرح بهذه العلوم، ذلك لأن العقل يقتضي أن يكون الحي إما أن يكون صاحب شهوة وحدها، وإما صاحب عقل وحده، وإما جامعاً بين الخصلتين، فالأول الحيوان، والثاني الملك، والثالث الإنسان، ولكن هذا الإنسان إن غلبت عليه الشهوات كأكثر الناس في الأرض جهلاء ومتعلمين فهو إلى الحيوان أقرب، وإن غلب عليه العقل فهو إلى الملك أقرب، وقد وصلنا إلى المطلوب الآن وهو أن أولئك الذين يشعرون بجمال هذه الحقيقة ويدرسون سر وجودها هم أقرب إلى الملائكة، والناس حولهم جميعاً كالحيوان، ذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ [النحل: ٧٨]، وذكر الطير والمساكن والجبال والسرابيل وتمام النعمة، ولا جرم أن الطير قد تقدم في أول سورة «المائدة» عند قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣١]، والجبال ستأتي في سورة «الغاشية»، وتقدمت إجمالاً في سورة

« الرعد » عند ذكر القطع المتجاورات ، وفي سورة « البقرة » عند ضرب موسى الحجر بعصاه فتفجر الماء ، فإن ذلك الصنع حاصل في الجبل ، فاقرأه هناك ، وبقية الآية قد ذكرته هنا .

إن لله كتاباً قد كتبه بيده ، وهذا الكتاب هو سماواته وأرضه ، هذا الكتاب أنزله قبل خلق الناس ولما خلقهم أعطاهم عقولاً ، فهذه العقول غشت عليها المادة ، فجعلت بينها وبين جمال العالم الذي نحن فيه سداً حصيناً ، فأرسل الأنبياء فأخذوا يرشدون الناس إلى دراسة هذا الكتاب الذي كتبه الله بيده الذي حروفه كبيرة ، فغفل أكثر قادة الديانات واكتفوا بحفظ أو فهم ألفاظ الدين ، وغرّهم في دينهم ما حفظوه وما فهموه ، فرجعت الإنسانية القهقرى ، فماذا يفعل الله في عوالم منحطة كهذه؟ يرسل عليهم البلاء ، ويخلق في الأرض من يشعلون نار الحرب ، فتظهر علوم وصناعات تدهش أولئك المتدينين الغافلين ، فإن ظهر فيهم مصلحون بعد إرسال العذاب عليهم ومحاربتهم وسمعوا لقولهم فازوا ، وإن لم يقم مصلحون أو قاموا ولكن الأمم لم تسمع لقولهم ، أهلكت تلك الأمم ولات حين مناص .

فيا ليت شعري ، كيف نعرف قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ ﴾[الإسراء : ٤٤] إلاّ بمثل هذا المقال ، ولو سئل صوف الغنم ووبر الجمل وشعر العنز عن عمله وهي قادرة على النطق ، لقالت بلسان فصيح : إن الله منحني قوة حفظ الحرارة لنفع هذا الحيوان فهو تعالى منزه عن العبث ، مقدّس عن اللهو واللعب ووضع الشيء في غير موضعه ، هذا هو التسبيح العملي . وكيف نعرف معنى : ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، أو : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾[الأعراف : ١٥٦] ، أو : ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾[الحجر : ٢١] إلاّ بمثل ما بيناه ، وكيف نعرف : ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت : ٤٣] ـ بكسر اللام ـ إلاّ بنحو ذلك ، وهكذا : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾[الروم : ٢٢] ـ بكسر اللام ـ ثم كيف نفهم الأثر المشهور : « ما رأيت شيئاً إلاّ وجدت الله قبله » ، وفي رواية : « بعده » ، وفي رواية : « معه » ، كيف نعرف أمثال هذا إلاّ بمثل هذه المباحث والعلوم ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ ﴾[المجادلة : ٧] الخ .

إن فهم عجائب الحيوان بالعلوم الطبيعية يجعل للإنسان قوة أن يفهم نفسه ، لأن السمع والأبصار والأفئدة التي أعدت فيه للشكر ، وأسّ الشكر المعرفة ، تقوى بدراسة الطبيعة المحيطة بنا على فهم تركيب أجسامنا المذكورة في أول سورة « آل عمران » .

هذا الهيكل المنصوب العجيب الذي هو سكن الملك وجنوده في الطبقة العليا منه ، وهي العقل والحس المشترك والخيال والذاكرة والمفكرة ، ثم السمع والبصر وبقية الحواس ، كل هؤلاء كانت سكناهم في الغرفة العليا وهي الطبقة الثالثة في الجسم ، فلم نر بين هؤلاء النواب ورئيس جمهوريتهم في باطن الدماغ ، ولا بينه وبين حكام الأقاليم الذين اختصوا بها ، كالسمع لإقليم المسموعات ، والبصر لإقليم المبصرات وهكذا ، أقول : لم نر بينهم أحداً من سكان الغرفة الوسطى كالقلب والرئة اللذين كان شأنهما إصلاح الدم وتوزيعه إلى سائر الطبقات بعدل ونظام مبين ، فهذان تأدبا بآداب الله الذي حكم عليهما ألا يجلسا في مجلس نواب هذه المدينة الذين هم أولى أن يكونوا في أعلى المكان ليشرفوا على

الجسم كله وليحصلوا منافعه من تلك الأقاليم، وهكذا لم نـر في الطبقة العليا ولا في الطبقة الوسطى أحداً من سكان الطبقة الدنيا، فلم نر المعدة المعدّة لهضم الطعام، وكذلك الأمعاء الدقاق والغلاظ، ولا الكبد المعدّة لمساعدة الدم في تقويمه، ولا الطحال ولا الكليتان اللاتي لهن عمل في الدم، إما بحفظ الكرات البيضاء وإما بجذب الماء من الدم، أقول: لم نر أحداً من هذه كلها خرج من الطبقة الدنيا فعاش مع القلب والرئة، أو إلى الطبقة العليا فجالس رئيس الجمهورية أو أعوانه الذين هم داخل القصر، ولا أعوانه الذين يحكمون الأقاليم، كاللمس وكالشم وكالذوق للملموسات والمشمومات والمأكولات، فهؤلاء جميعاً مؤدبون في أماكنهم، قائمون بأعمالهم، كالملائكة الموكلين بهذا العالم، ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[الصافات: ١٦٤]. هذا هو الذي يفهم هو ونظيره من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ٧٨]، ومن قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[النحل: ٨١].

اللهم لا شكر إلاّ بالعلم، وأجلّ العلم ما به عرفنا أنفسنا، فإذا وجدنا سكان الطبقات السفلى لم يتكبروا فيجلسوا في الطبقات العليا، فهكذا سكان الطبقات العليا لم يتنزلوا إلى سكنى الطبقات السفلى، لئلا تتعطل أعمالهم، فلم يكن العقل وهو الرئيس المذكور، ولا نائب من النواب معه كقوة الذاكرة، ولا حاكم من حكام الأقاليم كالبصر تنزلن فجلسن في الصدر أو أمامه، ولا في المعدة والأمعاء أو أمامهن، ذلك لئلا يحصل الاختلاط بالمواد الغليظة، فلا يقمن بأعمالهن، كذلك لم نر القلب ولا الرئة تنزلا إلى وضعهما بجانب الكبد أو المعدة أو الطحال أو الأمعاء لئلا يستضر بتلك المواد الغليظة فيقف سيرهما.

ثم إن الإنسان يرى أن هناك شرطيين لا يفتأان يلهبان هذا الإنسان والجوف بسوطهما، أحدهما: هو الجوع، فكلما كان أحد سيفاً وأقوى عصاً كان الإنسان أقدر على حفظ حياته بالطعام، وكلما ضعفت عصاه أو فلّ سيفه ضعف الغذاء فضعف الإنسان. وثانيهما: الشبع الذي يأمره بالكفّ وإلا ضربه بسوط السآمة والكراهة للطعام. وهناك عضوان آخران: أحدهما جالس أمام الرئيس والنواب قريباً من حكام الأقاليم، والعضو الآخر جالس أسفل الطبقات كلها، فالأول هو سفير الدولة يبلغ الدول كلها ما يريده نواب الأمة أو يفعله حكام الأقاليم عند الاقتضاء، وهذا هو اللسان. والثاني وهو الذي جلس في أسفل الطبقات هو عضو التناسل، لأنه إنّما جعل ليكون هذا الإنسان نظير له يبقى بعده وإنّما وضع هذا في الأسفل لأن عمله فردي والأعمال الفردية قيمتها أرخص القيم؛ أما ترجمان الدول وحامل علمها وسفيرها المعبر عن آراء عظمائها، فهو أعلى مقاماً وأكبر سلطاناً، ولذلك كان في الطبقة العليا، ونظير ذلك العلماء والحكماء في نوع الإنسان الذين هم ممدوحون في كل كتاب وعلى كل لسان بخلاف الاعتكاف على إشباع البطن أو عضو التناسل امتثالاً لسوق الشرطيين القويين: الجوع والشبق فالاعتكاف على ذلك تنزل عن الإنسانية إلى درجة البهيمية.

إن هذين الشرطيين قد وضعا في أسفل الطبقات للإشارة إلى أن هذه منزلتهما، فهما مأموران لا آمران، والمأمور إذا أصبح آمراً فسدت المدينة، ولو كان المدار على حفظ الشخص وحده لكان الدود في الفاكهة أعز وأسعد لأنه محفوظ لا يحتاج إلى شيء آخر، ولو كان المدار على التناسل لكانت

الحيوانات النقيعية التي تتكاثر بطرق شتى كالانقسام وكالأزرار التي تنبتّ على ظاهر جسم الحيوان وتصور بصورته تدريجياً، ثم تنفصل عنه وتكون حيواناً مثله، أقول: لو كان المدار على التناسل لكانت هذه الحيوانات أشرف من الإنسان ألف ألف مرة، فإن العلامة «ارنبرج» حسب أن الحيوان الواحد منها يصير ٢٦٨ ألف ألف حيوان في مدة شهر واحد، إذن عملية التناسل أقل الأعمال الحيوانية ولذلك وضع عضوها أسفل من غيره، فأما الترجمان وسفير الدولة فقد جلس في الطبقة العليا كما قدمناه لشرف مكانته، ولا جرم أن سفراء الدولة يجب أن يكونوا على اتصال تام بالهيئة الحاكمة، فلذلك لم ينزل اللسان إلى الطبقتين الأخريين، فلم يجلس مع القلب والرئتين ولا عند المعدة والأمعاء، لأن هؤلاء عمال ولا علم عندهم، وإنّما العلم عند الرئيس والنواب وحكام الأقاليم.

ولما كانت الدولة لا بد لها من صحافة وكتاب لدواوينها لتدوين أعمالها، وجب أن يكون بجانب هذا الترجمان ـ الذي كثيراً ما يعطى لقب سفير بل سفراء لعظم مقامه ـ كاتباً يكتب كل ما يلزم، فوقع الاختيار على اليد وقربت إليه جداً بحيث كانت في أعلى الطبقة الوسطى، فهي قريبة من اللسان، وهي التي تكتب آثاره وتسطر أعماله، ذلك هو الإنسان، ذلك هو الكتاب المسطور الذي سطره الله لنقرأه، ومتى قرأناه استعددنا للقاء الحضرة الربانية، لأنه لا يرى الله إلاّ من أحبه، وكيف يكون الحب لمجهول والعلم العام لا يعطي محبة.

واعلم أن هذا القول ليس يذوقه كل من قرأه، فإن أحببته وفرحت به فاعلم أنك رجل مفتوح عليك، وإن رأيت قلبك غير فرح به فادع الله واعبده فيشرح صدرك:

ففز بعلم تعيش حياً به أبداً ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

جمال الجوهرة

أيها الذكي القارئ لهذا الكتاب، اعلم أن هذا المتقدم هو الذي فتح به الله عليّ في هذه الليلة ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧، فهاأنا ذا أقول صباحاً في نفس التاريخ ما له انشرح الصدر في المنام واليقظة معاً، وهما حكمتان موضحتان لهذا المقام:

الحكمة الأولى

إننا قد فهمنا أن لهذا الإنسان ما يشبه الجمهورية ورئيسها، وأن هناك نواباً عن الأمة كالذاكرة والمخيلة الخ، وأن هؤلاء النواب هم المعبرون عن حاجات مجموع الجسم، وأن لهم ترجماناً، ونفس هذا الترجمان هو السفير للخارج، وأن هناك رجال الصحافة والمؤلفين لهذا السفير ولهذا المجلس من نواب ورئيس الخ، وهذه الأعمال قد اجتمعت في اليد فهي الكاتبة لهذا كله، وأقول الآن فوق ما تقدم: إن لكل دولة كأمتنا المصرية مصالح من زراعة ومعارف ووزارة لداخل البلاد وأخرى خارجها، ووزارة للأشغال ووزارة للحربية ومصلحة المساحة ومصلحة المواصلات، وهذه كلها موفرة في الإنسان، فاليد تزرع كالأولى، وتساعد العقل واللسان في الثانية، وتحافظ على الجسم من الدرن ومن الحشرات المؤذية كالبراغيث، وذلك كوزارة الداخلية، وأما وزارة الخارجية فهي اللسان واليد، واليد تحفر الأنهار بالفأس وهذه هي الأشغال، وتمسح الأرض وهذه هي المساحة، والرجل تقوم بالسير في الأرض بدل وزارة

المواصلات، واليد تدافع العدو تارة، والرجل تهرب به أخرى، وكلاهما بدل وزارة الحربية. انتهت الحكمة الأولى.

الحكمة الثانية

محاورات بين الدودة والغزالة والإنسان والملك في السعادة والشقاوة

كأني الآن في نفس صباح هذا اليوم في عالم الخيال، وكأني أرى: (١) دودة، (٢) وغزالة، (٣) وإنساناً، (٤) وملكاً، والثلاثة الأولون يتحاورون والملك يسمعهم.

قالت الغزالة للدودة في بطن التفاحة إذ عثرت عليها وهي تعالج أكل التفاحة: أيتها الدودة لقد عشت هنا في حصن حصين ونعيم، إن الله أعد الجنة للمتقين، فهاأنت ذه في جنة عرضها التفاحة، وماؤها حلو لذيذ، وسماؤها وأرضها روح وريحان وجنة نعيم، لا تعب ولا نصب وأنت في عز مقيم، أما أنا ففي نصب وتعب أفر من الآساد والذئاب ومن هو أظلم منهما وهو الإنسان، كلهم يطاردونني فأنت في نعيم وأنا في جحيم، فأنا لا أدري أين العدل في هذا التقسيم، نعيم لقوم وجحيم لآخرين، ولا فضل لك ولا ذنب علي.

فقالت الدودة: قد أخطأت يا أختي المرمى وجهلت قدر النعمة، كيف تكفرين بنعمة الإدراك والجلد والشعر والحواس والقوة؟ منعك الأدنى وأعطاك الأعلى، وأنا فهمت نعمتي ورضيت سعادتي وأنت لم تفهمي، منعك الراحة ولكنه أعطاك القوة وهذه الأعضاء والحواس، وسهل لك سبل المعاش فزرع لك الأرض وملأها بالكلأ وقال: كلوا واشربوا، وما السعي إلا ترقية لكم وذلك فتح لباب الحرية والاستقلال، وأنت اليوم فتح لك بابهما بهذا السعي، فأنا في سجن مع تمام اللذات وأنت في شبه حرية مع السعي، ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام: ٨١].

فجاء دور الإنسان فقال: لئن شكوت أيتها الغزالة لأنا أحق بالشكوى منك، قد أظلمت الدنيا في وجهي وفتحت لك أبواب السماء وأكناف الأرض، فأنت موفاة الغذاء والماء، تأوين كل مكان، وتشربين من كل نهر، والكلأ قد ملأ السهل والوعر، وقد أعطيت كساء دافئاً من ولادتك إلى موتك، أما أنا فإني قد حكم علي أن لا آكل إلا ما صعب الحصول عليه من حب وفاكهة ولحم، كل ذلك لا أناله إلا بمشقة عظيمة وعرق جبين وأعمال ونصب تعب وحكومات وعداوات مما يطول شرحه ولا مطمع في استقصائه.

فقالت الغزالة: إنما مثلي ومثلك كمثل الدودة معي، لقد أعطيت أنت العقل واليدين، فأما أنا فلي أربعة أرجل ولا يد لي أقلب بها الأرض فأستخرج زرعها، وأحصل الشعر والوبر والصوف من غيري، لذلك وفر الغذاء لي وأمرني بالسعي إليه برجلي، وأنت لما أعطاك اليدين والعقل وغيرهما أمرك أن تعمل بهما فتستخرج الغذاء والكساء اللذين أكثرهما عندي، ولو أنه منحك الغذاء والكساء موفرين لأصبح عقلك ويداك بلا عمل فتصرفهما في الشر، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٢٧]، والمطالب لا نهاية لها ومنافع المادة لا تفنى ووراء كل كشف سر، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦]، إنما فعل ذلك معي ومعك لأنه عدل فأعطاك حيث

منعك، ومنعني حيث أعطاني، فهناك غنم وغرم وأنت أعلى مني، لأن هذا النصب فتح لباب إتمام الحرية والله ليس بخيلاً، وإنما هو حكيم والحكيم يفعل على قدر المصلحة؛ فلو أمرني أن آكل كما تأكل أنت وألبس كما تلبس أنت، بحيث لا آكل إلا البر واللحم ولا ألبس إلا الخز والديباج، لكان ظالماً، ولو سهل لك الملابس والمآكل مثل ما سهل لي لكان ظالماً، لأنه أقعدك عن المعالي وهي الحرية والعلم، فكل حركة من حركاتك العقلية والجسمية مفتاح من مفاتيح أبواب الجنة، والخروج من أسر هذه المادة، والقرب من ربك الذي تنزه وتقدس عن المادة؛ فهذا كله جهاد، علم الإنسان أم جهل، شاء أم أبى، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف: ١٠٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠] وكل من منحه علماً وقدرة من مخلوقاته كان أقرب إليه، وبازدياد العلم يزداد القرب، والعلم بالسعي والاكتساب قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[البقرة: ٢٤٧] الخ، وإن لك لعبرة بالجنين منكم، فإنه لما منع القوة العقلية والجسمية أعطي غذاء من أمه، فمثله كمثل الدودة، ولما ولد وأخذت أمه ترضعه فإنه يكون أشبه بي موفر الرزق، ولكن عنده بعض السعي إذ يبكي لأمه ويضحك ويمسك الثدي ويمتص اللبن، وكل ذلك عمل أشبه بعملنا نحن الغزلان في طلب القوت الموفر في الأقطار، فإذا كبر هذا الطفل واستغنى عن لبن أمه سعى بنفسه وجد في طلب الرزق، فارتقى عن هاتين الحالين، فهل تقولون إن حال الطفولة أفضل من حال الرضاعة، أم تقولون إن هاتين أفضل من حال البلوغ في السن، هذا معنى قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[عبس: ١٧]، فهذا هو الكفر المذكور في هذه الآية من القرآن.

فلما سمع ذلك الملك قال ـ وأنا أسمع ـ: إن هذا القول هو تفسير قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا﴾[الأنعام: ١٤٨] إلى قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام: ١٤٩]، فهذه الحجج من حجج الله البالغة، فحجج الدودة وحجج الغزالة فتح باب لفهمكم حجة الله البالغة.

واعلموا أيها الناس أنكم ما دمتم لم تقفوا على الحقائق بحيث تفهمونها كما فهمتم أمر الدودة والغزالة والإنسان، فإنكم لا تصلون لرؤية ربكم، وكيف يجالس الملوك من هو مملوك ذليل وضيع، إن هذه الآراء تعطي الناس رضاً بما يمر عليهم من عز وذل وغنى وفقر، ومتى ارتقت عقول الناس أدركوا أن الذليل منهم والعزيز والفقير والغني الخ؛ لم يكن هذا لهم إلا لحكم مخفية على الناس كهذه الحكم التي ظهرت في الدودة والغزالة والإنسان؛ فالحكم في تفاضل الأنواع كالحكم في تفاضل الأفراد، والأول قد فهمتموه، والثاني يجب عليكم أن تصبروا عليه حتى تفهموه، وهذا أيضاً معنى قول نبيكم صلى الله عليه وسلم: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله»، فلا شر إلا مثل ما ادعته الغزالة بالنسبة للدودة، وما ادعاه الإنسان بالنسبة للغزالة، كلاهما ظن أن نصبه شر وما هو بشر بل هو خير، فإذن لا شر وإنما تلك مراتب وضع الله المخلوقات فيها فلم يفهموا، وهذا معنى حمد الله على السراء والضراء، لأن الحمد لا يكون إلا على نعمة، فإذا كان قول المسلم: «فلك الحمد على ما قضيت» يشمل القضاء بالخير وبالشر، فإن لم يكن الشر المذكور خيراً في الواقع كان الحمد رياء، فيحمد المؤمن ربه على الشر والخير، وسيأتي يوم يفهم فيه أن الشر خير في الواقع كما فهمت الغزالة في هذا المثال.

وهذا في دين الإسلام هو نفس المحاورة التي بين الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام، فالسفينة التي لمساكين يعملون في البحر قد عابها الخضر خوفاً من الملك أن يأخذها، فهل هذا شر؟وهل موت الذي كان شراً على والديه شر؟ وهل إقامة الجدار الذي بحفظه يحفظ مال الأيتام شر إلاَّ إذا قال الإنسان: إن كدحه لولده الذي سيموت وتأليفه العلم شر، ونفعه الناس شر، وإنفاقه على المساكين شر لأنه لم يأخذ عوضاً، كلا بل إقامة الجدار وما بعده كلها خير كبير، لأنها وان لم تقابل بفائدة معجلة فإن النفس ارتقت بهذا العمل ولا علم لها به، وهذا المقام يعرفكم السر في الأمر بالرضا بالقضاء والقدر فهذا الصبر الذي أمرتم به على مثل ما تصبر الغزالة، وما يصبر الإنسان بالنسبة للغزالة يكون اليوم تكلفاً، فإذا ارتقيتم إلى عوالم أعلى بعد الموت وقفتم على سر ما جهلتم الآن وأدركتم سر كل ما صبرتم عليه، وعلمتم حكمته كما علمت الغزالة وعلم الإنسان كل منهما نصبه وتعبه بالنسبة للآخر.

فما من عز أو ذل أو استعباد أو حرية أو فقر أو غنى أو جهل أو علم أو إيمان أو كفر إلاَّ لحكم استترت على الناس والناس مأمورون أن يصبروا، وحرم عليهم أن يعلموا الحقائق، وسيأتي يوم يعلم الناس أن حقائق الديانات هي نفسها علوم هذه الطبيعيات في الأرض والسماوات. فلما سمعت ذلك انتبهت من الخيال وكتبت هذا المقال. انتهت الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

قد جعل الله خاتمة النعم السرابيل ـ وهي الدروع التي تقينا بأسنا ـ تقينا الحرب والضرب والقتال، يا عجباً لهذا الإنسان وحياته.

عجائب الإنسان وحربه وقتاله

هل يدور بخلد الناس أنهم لا سعادة لهم إلاَّ بالقتال؟ هل يعلمون أن الحرب نعمة عليهم؟ يا عجباً! إن السباع والوحوش نعمة كما ذكر، والحيات والعقارب آية باهرة كما ذكرناه، وجوارح الطير خير من عند الله، وقد أصبح الإنسان يرى بعقله أن كل ما هو موجود نعمة من عند الله، هذا هو الذي قضاه العقل الذي ذكر في الآية، وأنه إنَّما خلق لشكر الله.

ولكن هل يعلم الإنسان أن حرب الدول والممالك كالحرب الكبرى العامة التي ابتدأت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨، هل يعلم أنها هي وأمثالها نعمة كنعمة تلك الحيوانات، واصطياد كبارها لصغارها، واجتياح أقواها أضعفها، فإن لم يعلم الناس ذلك فليقرؤوا: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]، وجعل هذه خاتمة النعمة، جعل الله الحماية من الحرب نعمة، ويا ليت شعري، أي فرق بين الغازات المعمية والخانقة والطيارات الجوية والقنابل اليدوية والديناميت، أي فرق بين هذه وبين الدروع؟ لا فرق، بل هذه أبعد منالاً وأشرف وأرقى مثالاً، يجعل الله ذلك نعمة علينا ويأمرنا بشكرها، ويقول: هذه العقول خلقتها لتشكروني بالتفكر وبالعمل، وأي نعمة في هذه؟ إن في ذلك نعماً عظيمة يجدد نشاط الأمم، ويحيي قوتها، ويرقي آمالها، ويبعث فيها فكرة التجديد، وتموت الأمم الخاملة وتحيا العاملة، لأن هذا العالم عالم نشاط، والله خلاق فلا يحب إلاَّ العاملين لا

سيما في مستقبل الزمان، إذ تكون أمم ودول قويات عالمات نشطات، فأما زمن الكسل والتواكل والاستعمار فقد مات وفات وفطن الناس وسيرتقون.

ولقد أوحى الله لكل أمة وحياً إلهامياً أن تحافظ على كيانها، وتلم شعثها، وتسابق جيرانها، فجعل الأمم أشبه بأنواع الحيوان تهجم فرقة على فرقة، وبث في قلوبهم الحمية سواء أكانت جاهلية أم دينية أم وطنية أم جنسية أم غير ذلك، وجعلهم يقتتلون، وهذا الاقتتال هو الذي يبعث إليهم النشاط ويقوي الآمال، فأما الموت الذي تكون الحرب سببه فإنه مقصود من مقاصد هذا الوجود، فهو أشبه بموت الوباء أو قلة الغذاء أو منع المطر أو غير ذلك، هذا بعض من قوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] فهو يأمر المسلمين والناس أجمعين بشكره على هذه السرابيل الحربية والأدوات القاتلة للأمم، لأنه هكذا خلقت، وهكذا يريد ترقيتنا، فإذا لم نفكر في ذلك ولم نعمل به أرسل أمماً إلينا فقتلتنا بهذه الآلات والمدمرات.

تم الكلام على القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ
﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ
بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا
رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ
ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ
﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾
وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

تفسير بعض الألفاظ

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ العدل في اللغة: المساواة في كل شيء من غير زيادة في شيء ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير، فإذن هو المساواة في المكافأة إن خير فخير وإن شراً فشر، ﴿ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه، ﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم للعناية بهم، ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾ الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة، ﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ هو ما تنكره العقول من دواعي القوة الغضبية كالضرب الشنيع والقتل والتطاول على الناس، ﴿ وَٱلْبَغْىِ ﴾ هو ما كان من مجموع القسمين السابقين كأن يسرق ويقتل معاً، وكأن يرتقي ويحكم بالباطل، فالبغي يجمع الفحشاء والمنكر معاً وهو صفة الشياطين، ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أي: أمركم بثلاثة ونهاكم عن ثلاثة لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون، ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ هو كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد أيضاً لأن الوعد من العهد، ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ولا تنقضوا الأيمان فتحنثوا فيها، ومنها أيمان البيعة بعد توثيقها وتشديدها، ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ شهيداً بالوفاء بالعهد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ من وفاء العهد ونقضه. ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ ثم أخذ هنا يضرب مثلاً لنقض العهد بأن امرأة من قريش يقال لها ريطة بيت عمرو من بني تميم كانت حمقاء بها وسوسة، تغزل هي وجواريها غزلاً ثم تأمر بنقضه، ﴿ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ إبرام وإحكام، ﴿ أَنكَٰثًا ﴾ طاقات: جمع نكث، وهو ما ينكث فتله مفعول ثان لـ « نقضت » أي: صيرت، والمراد تشبيه ناقض العهد بهذه المرأة الحمقاء، أو من هذا شأنه من كل من يغزل وينقض غزله حماقة، أي: ولا تكونوا متشبهين بهذه المرأة حال كونكم ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ والدخل: ما يدخل الشيء وليس منه؛ فيكون ذلك دغلاً وخيانة وخديعة؛ فيظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه، ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ لأن تكون جماعة أوفر عدداً من جماعة، وقد كانوا يحالفون فإذا وجدوا قوماً أكثر عدداً منهم نقضوا حلف الأولين وحالفوا الآخرين، ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ أي: إنما يختبركم الله بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قلة المؤمنين وفقرهم وكثرة قريش وثروتهم ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ حين يجازيكم على أعمالكم ثواباً وعقاباً، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ متفقة في الإسلام ولكنه لم يشأ ذلك لاختلاف الأمزجة والأخلاق والقابليات؛ كما اختلف كل شيء في العالم، ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ بالخذلان على مقتضى استعداده ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ بما استعد للهداية.

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر للتأكيد، ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها، ووحدت القدم ونكرت للدلالة على أن زلل، أي: قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة، ﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ ﴾ العذاب في الدنيا ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بسبب صدودكم عن الوفاء وخروجكم عن الدين، أو بصدكم غيركم، لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذ غيرهم نقضهم سنة يستنون بها، ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَا

تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ ﴾ أي: ولا تطلبوا بنقض عهودكم عوضاً من الدنيا قليلاً، ولكن أوفوا بها ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثواب ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من عاجل الدنيا ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أفضل العوضين، ثم بينه فقال: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ وهو ثواب الآخرة، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ ﴾ على الوفاء بالعهد على السراء والضراء وعلى جميع الأمور العظيمة كالبأساء والضراء وحين البأس ﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بجزاء أحسن من أعمالهم.

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ في الدنيا يعيش عيشاً طيباً سواء أكان موسراً أو معسراً، فالموسر يصرف عنه الطمع المؤدي إلى الفقر الحقيقي، والمعسر يتصف بالقناعة والرضا وتوقع الأجر العظيم، فأما الكافر فالحرص وخوف الفوات يكدران عيشه معسراً كان أو موسراً، لأن النفس لا تكون مطمئنة البتة. ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فهم سعداء في الدنيا بما تقدم، وفي الآخرة بالثواب كقوله: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[آل عمران: ١٤٨]، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فإذا أردت قراءته ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فاسأل الله أن يعيذك من وساوسه لئلا يوسوس لك في القراءة وذلك للاستحباب، وصورة الاستعاذة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

ولما كان أولياء الله المتوكلون ليس له عليهم سلطان واستعاذتهم إنَّما هي لما يباغتهم في أوقات غفلاتهم، أفاد ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر: ٤٢]، ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ يطيعونه كميلهم إلى الشهوات واتباع الأهواء، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ أي: بسببه. ثم أتى بذنب من ذنوب هؤلاء الذين يتولون الشيطان فقال: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ أي: بالنسخ، فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فهو أعلم بالمصلحة، فما كان مصلحة في زمن سيكون مفسدة في آخر، فيثبت ما كان مصلحة وينسخ ما لا يكون كذلك، ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ بإملاء الشيطان عليهم وإطاعتهم له ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ متقول على الله تأمر بشيء اليوم وتنهى عنه غداً، وجملة: ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ جواب الشرط، وجملة: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ اعتراضية لتوبيخ المعترضين بأنهم لا يعلمون المصلحة والمفسدة فتكلموا بما لا يعلمون، ولذلك أوضحه بقوله: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تلك المصالح والمفاسد فلا يميزون الخطأ والصواب، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ هو: جبريل عليه السلام؛ أضيف إلى القدس وهو: الطهر، أي: الروح المقدس، أي: المطهر من المآثم، ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ من عنده حال كونه ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالحكمة ﴿ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على الإيمان متى عرفوا المصلحة في الناسخ وبذلك يرسخ الإيمان ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ معطوفان على ﴿ لِيُثَبِّتَ ﴾ أي: للتثبيت وللهدى والبشرى للمنقادين لحكمه تعالى.

ثم إنه صلى الله عليه وسلم كان يجلس مع «سلمان الفارسي» ومع عبد لـ «حويطب بن عبد العزى» ـ وكان نصرانياً أعجمياً قد أسلم وحسن إسلامه ـ يسمى عائشاً أو يعيش، فقال مشركو مكة إنَّما يعلمه هذان الأعجميان، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ كعائش وسلمان، فردّ عليهم الله قائلاً: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ يميلون ويشيرون إليه ﴿ أَعْجَمِىٌّ ﴾ أي: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه أعجمي اللغة، ﴿ وَهَٰذَا ﴾ أي:

القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة، وهل الأعجمي الذي لا يبين يعلم الفصيح البليغ في البيان؟ وهل ما يسمعه من غلام سوقي في بعض أوقات مروره من كليمات أعجمية يصعب فهمها تكون سبباً لهذه العلوم الكثيرة في القرآن الذي أعجزكم؟ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى الحق ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة، ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه ﴿ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ أي: الذين كفروا ﴿ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ الكاملون في الكذب.

ثم استأنف فقال: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ ﴾ فعليه غضب الله، ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على الافتراء وكلمة الكفر ﴿ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ ساكن به، كعمار بن ياسر إذ أخذه المشركون هو وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً، فعذبوهم ليرجعوا عن الإسلام، فهؤلاء السبعة ليس لهم عشيرة، كأبي بكر إذ منعه قومه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم منعه عمه أبو طالب، فهؤلاء لما كانوا أول من أظهر الإسلام ألبسوهم أدرع الحديد وعذبوهم، إذ أجلسوهم في حر الشمس بمكة، فبلال كان يقول: أحد أحد، فاشتراه أبو بكر فأعتقه، وياسر قتل وسمية كذلك، وهما أول قتيلين في الإسلام، وخباب أوقدوا له ناراً فأطفأها ودك، أي: دهن ظهره، وأما عمار فإن بني المغيرة غطوه في بئر ميمون وقالوا له: اكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فبايعهم على ذلك وقلبه كاره، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عماراً كفر، فقال: «كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما وراءك»؟ قال: شر يا رسول الله، نلت منك وذكرت، فقال: «وكيف وجدت قلبك»؟ قال: مطمئناً بالإيمان، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»، فنزلت هذه الآية، وحكم هذه الآية ما قاله العلماء: إن من عذب عذاباً شديداً لا يطاق كالتخويف بالقتل والضرب الشديد أو الإحراق جاز له التلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ويقولون: إن الأفضل الصبر حتى يموت، كما فعلت سمية أم عمار وياسر أبوه، وصبر بلال على العذاب، ولم يلم على ذلك. ولا يقع طلاق بإكراه خلافاً لأبي حنيفة.

ثم أتى بما يقابل المكره فقال: ﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي: فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره هو ورضي به ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي: ذلك الوعيد بسبب استحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة، أي: إيثارهم إياها عليها ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ما داموا مختارين للكفر ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ أي: الكاملون في الغفلة ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ إذ ضيعوا ثمار أعمالهم، ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ أي: عذبوا كعمار ﴿ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾ على الجهاد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ أي: الهجرة والجهاد والصبر ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ متجاوز عن ذنوبهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ الظرف متعلق بـ«رحيم»، أي: تجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها، فكل امرئ يقول: نفسي، و﴿ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٥] الخ، ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

عَمِلَتْ ﴾ جزاء ما عملت ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا ينقصون أجرهم . ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ كان أهلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبي ، ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من كل بلد ﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ أي : أهلها ﴿ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ جمع نعمة ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي : فعاقب الله أهلها بالجوع الخوف من العدو بما كانوا يقترفون من الذنوب قولاً وفعلاً ، والقرية المضروبة مثلاً غير معينة ، وتعيينها ليس ضرورياً للمعنى .

يقول : بيّن الله صفة ثم أبدل منها قرية ، أي : صفة قرية ، وتلك القرية لها صفتان : الأولى : الأمن والاطمئنان من الأعداء . والثانية : سعة الرزق آتياً من سائر البلدان ، فكفروا فعمهم الجوع والخوف وذاقوا مرارتهما بعد سعة العيش والأمن والطمأنينة ، فهذا المثل ضربه الله لكل قوم أنعم عليهم فبطروا النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، وهذا المثل مضروب لأهل مكة ولنا ولكل إنسان في الأرض وقد قيل : إن أهل مكة أصابهم ما أصاب أصحاب هذه القرية فجاعوا سبع سنين بقطع المطر عنهم فأكلوا العظام المحرقة وجيف الكلاب والميتة ، وأما الخوف فهو من سرايا النبي صلى الله عليه وسلم وبعوثه التي كانت تغير على من حولهم من العرب وذلك يخيفهم .

تنبيه : إن في هذا المقام استعارتين في الإذاقة والإلباس ، ومؤلف التفسير لا ينبغي له أن يصرف العقول عما أنزل له القرآن إلى أمور صناعية بعدما استبان المعنى وفهمه العقلاء فإن ذلك للمبتدئين .

ثم أخذ يبين ما هي النعمة التي كفر بها أهل مكة ليكونوا كأصحاب تلك القرية المضروب بها المثل فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ وهو الجدب الشديد ﴿ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ لأنكم إن كفرتموها كنتم كأصحاب تلك القرية ، وضرب المثل إنما يراد ليعتبر به فلتكن النعمة مشكورة ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إن كنتم تريدون عبادة الله بتحريم الحرث والأنعام فاستحلوا فإن عبادة الله في تحليلها . ثم أخذ يبيّن المحرم ومتى علموه علموا الحلال المذكور فقال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ التي أمر بذبحها ﴿ وَٱلدَّمَ ﴾ المسفوح ﴿ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ وما ذبح بغير اسم الله عمداً أو للأصنام ، ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ أجهد إلى ما حرم الله عليه ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ على المسلمين أو غير مستحل لأكل الميتة ، ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ متعمداً للأكل بغير ضرورة ، أو ولا قاطع طريق ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ متجاوز بأكل الميتة عند الضرورة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ إذ رخص له أكل الميتة ، هذا هو تحريم الله فكيف تقولون هذا حلال وهذا حرام من عند أنفسكم ؟ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي : ولا تقولوا الكذب لأجل الذي تصفه ألسنتكم ، فتقول هذا حلال وهذا حرام ، فـ « الكذب » مفعول ، و« لما تصف » متعلق بـ« تقولوا » و« هذا حلال » الخ ، مقول قول محذوف ، تقولون ذلك ﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ لتختلقوا ، والمفتري الكذب يقصد به تحصيل مطلوب ، وهؤلاء ليسوا كذلك ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ منفعتهم ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾ ينقطع عن قريب ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ في سورة « الأنعام » في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [الآية : ١٤٦] ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ بالتحريم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إذ فعلوا ما عوقبوا عليه ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ

عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ متلبسين بجهالة كالجهل بالله وعقابه، وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة والافتراء على الله، وغير ذلك من كل سوء، ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذلك السوء ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ يثيب على الإنابة.

ولما كان هؤلاء أشبه بمن كفروا بإبراهيم الخليل من نمروذ وقومه، وقام فيهم يوبخهم ويكسر أصنامهم، فقد فارق دين قومه وحده، وعلم الناس الخير، وجميع الناس يقتدون به، ثم أخذ يذكر إبراهيم، ثم أتبعه بأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد أوحى الله إليه أن يتبعه، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ مستجمعاً فضائل لا توجد إلاَّ في أشخاص كثيرة، فهو رئيس الموحدين، كسر الأصنام، وجادل الكفار، ونظر في النجوم، ودرس الطبيعة ليطمئن قلبه بالإسلام، وهكذا من الصفات الأربعين المتقدمة في سورة «البقرة» في هذا التفسير، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ مطيعاً له ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن الباطل ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ كما تزعم قريش أنهم على ملة إبراهيم ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ بخلاف قريش إذ كفروا بنعمة إرسال محمد صلى الله عليه وسلم منهم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾، وقد حرموا ما أحل الله فحل بهم العذاب، ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ اختصه واصطفاه للنبوة ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ملة الإسلام ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ فأحبه الناس وأثنوا عليه من جميع الملل، ورزقه ذرية طيبة وعمراً طويلاً في سعة وطاعة، وليس كهؤلاء الذين يدعون اتباعه من أهل مكة فهم يعادون المؤمنين فلا ثناء عليهم منهم وليسوا مهتدين إلى الإسلام، ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فأنت متبع له وعلى قدمه، وهم ليسوا كذلك لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم، فيكون وبال ذلك عليهم، كما أن وبال الاختلاف في السبت على الذين اختلفوا فيه بالحيلة، فإن بعض اليهود استعملوا الحيلة بأن وضعوا السد على المكان الذي فيه السمك يوم السبت، ثم اصطادوه في يوم آخر بفتوى أفتى بها شيوخهم كما يفتي شيوخ المسلمين فتاوى متناقضة لجلب الدرهم والدينار، فهذا الاختلاف وبال على أولئك اليهود، كما أن وبال الاختلاف في التحريم والتحليل على هؤلاء المشركين وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾ أي: وباله ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ فمسخوا، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كما حكم في الدنيا بمسخهم، كذلك أهل مكة يا محمد أحكم عليهم أيضاً في الدنيا بالجوع وبالقتل على يديك وفي الآخرة بجهنم، فأما أنت فستنال مزايا جدك الخليل فتكسر الأصنام وتكون لك الغلبة عليهم.

ولما كانت هذه السورة قد ظهر فيها أنواع الحكمة والمجادلة والموعظة الحسنة أشار إلى ذلك فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ الإسلام ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق المزيل لشبهة الخواص، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة للعوام، ﴿وَجَٰدِلْهُم﴾ وجادل معانديهم ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن. مثال الأول: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [النحل: ٤] إلى آخر الآيات، وآيات الأنعام والنحل والطير كما قدمناه في وسط السورة، ومثال الثاني: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [النحل: ٣٠]، ومثال الثالث: الآيات الواردة في البنات وكراهة العرب لولادتهن وما أشبه ذلك. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

إنّما عليك البلاغ والدعوة، أما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فذلك إلينا. ولما كان ما تقدم هو طريق الدعوة بأنواعها، وكان لا بد من أعداء لهم يخاصمونهم ويجادلونهم في دينهم، أشار عليهم كيف يعاملونهم، وبيّن لهم ذلك بحالين: الأولى: أن يكون العقاب على مقدار الذنب. الثانية: أن يتجاوز الإنسان ويصفح، وهذا الثاني مفضل على الأول. ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة وقد مثّل به قال: «والله لئن أظفرني الله بهم لأقتلن سبعين مكانك»، فنزلت ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي: الصبر ﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ فكفّر عن يمينه من الانتقام للمنتقمين، ﴿وَاصْبِرْ﴾ فأنت قدوة لتقتدي بك أمتك، لأنك أمة كإبراهيم الخليل الذي أمرتك أن تتبع ملته، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ بتوفيقه وتثبيته، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكفار إن لم يؤمنوا، وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ ولا يضيق صدرك يا محمد ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ المعاصي، ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم ومحسنون للناس، فهم في أنفسهم مهذبون، وللناس نافعون، وهذا تخلق بأخلاق الله، والله يساعد من تخلق بخلقه، والتجربة تثبت ذلك بشرط استعداد الإنسان له، فمن هذب نفسه ونصبها لنفع الناس فهو خليفة الله في الأرض ملحق بالأنبياء تابع لهم، والله معه كما هو معهم. انتهى التفسير اللفظي.

جاء في آخر القسم الثاني من السورة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩]، فهذه الأوصاف الأربعة للقرآن جاءت بعد ما أفاض في هذه السورة إفاضة تامة، فلقد تبيّن فيها من العجائب الحكمية والنظم الطبيعية ما تخر له العقول سجداً من بدائع النبات ونظام الحيوان والطير والنحل، ولم يتفق ذلك في سورة غيرها، فإنه قرر ذلك فيها كرتين، وأعاد التعليم مرتين، فهو هدى للسائلين ورحمة للمتعلمين وبيان لهم وبشرى دنيوية وأخروية فإن الاطلاع على هذه العجائب يدعو إلى الهداية الناشئة من البيان، والهداية للعلم تتبعها الرحمة بإفاضة الخير في الدنيا من العزة والنصر وحوز العلوم، وذلك بشرى أن المسلم ينال في الآخرة السعادة، ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[النحل: ١٢٢]، وبهذا المقال انتهى الكلام على باب الحكمة في السورة ومعها غيرها.

ثم شرع يفيض القول في الموعظة الحسنة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[النحل: ٩٠] الخ. أما العدل فأنت تعلم من هذا التفسير وغيره أن هذا العالم لا نظام له إلاّ بالعدل، فلا كوكب ولا شمس ولا قمر ولا نبات ولا حيوان ولا شيء مما تراه أو تسمعه من نغمات الموسيقى وجمال الوجوه وحسنها كل ذلك مستحيل وجوده إلاّ بالحساب البديع والنظام التام، وفي هذا التفسير وفي كتابنا في الفلسفة العربية وغيرها شرح هذه الأمور، ومتى زال العدل زال هذا الوجود وتحطمت الكواكب والأقمار والأرضون وتبدّد هذا العالم، بل متى ذهب العدل ذهب العالم، لذلك ابتدأ الله به، والعدل هو المذكور في آية «الرحمن»: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾[الآيتان: ٧، ٨]، أي: إن الله وزن العالم فحسبه بدقة لأجل أن تتعلموا نظامه فتسيروا على نهجه وتنظموا كما نظم، وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى.

فإذا كان هذا شأن العدل في نظام العالم فليكن هذا شأنه في حياة الأمم والأفراد، فويل لأمة لا تقيم العدل في المناصب والأحكام والقوانين والأعمال، فلا حكومات باقية ما لم يكن العدل عمادها، ولقد ضرب أفلاطون لذلك مثلاً في جمهوريته بجماعة اللصوص إذا سرقوا مالاً فإنهم لا تقوم لهم قائمة ما لم يقم العدل بينهم، فإذا كان اللصوص لا جامعة لهم إلاّ بالعدل في قسمة ما سرقوه، فما تكون حال الأمم؟ إنها لا حياة لها بغير العدل، ولقد ردّ عليه بعض تلاميذه بأن الإنسان الظالم كثيراً ما نراه كثير الحظ وله أعوان يدافعون عنه كلما كذب أو أظلم، فأجابهم قائلاً: إذا لم تعش جماعة اللصوص بمثل هذا الفاجر فكيف تعيش أمة طويلاً بأمثاله، إن الظالم الذي ادخر أموالاً كثيرة يحس بألم في نفسه إذا رأى الناس حوله في عذاب وشقاء، فالنفس الإنسانية تحس بما أجرمت فيعذبها ذلك الإحساس في الدنيا مهما تظاهر بالنعمة، وقد أوجب «أفلاطون» على لسان أستاذه «سقراط» أن يفتح لحكام المدينة باب العلم وعشق الحكمة والغرام بعلوم الطبيعة والأدب والفلك وجمال هذه الدنيا لتفتح بصائرهم، فإن لم تفعل ذلك الحكومات بموظفيها أصبحوا شهوانيين يشاركون الناس في أموالهم وأعراضهم بالرشوة والهدايا والفجور والجري وراء الغانيات في الأمة، وهذا هو الذي كان حاصلاً في بلاد مصر وفي بلاد الشرق، فتدخلت أوروبا في شؤونهم.

إن القرآن الذي هو كتاب ديني أشار إلى ذلك بذكر العدل بعد قصة هذه الكائنات، فكأنه يقول: لا عدل عند حكامكم إلاّ إذا أغرموا بما تقدم من العلوم، فدرسوا هذا الوجود وعشقوا حكمه حتى يقوموا في الأرض بالعدل لأنهم يكونون خلفائي قد نظروا في أعمالي فعرفوا نظامي فقلدوه وهم لا يشعرون، ويكون العدل إذ ذاك كالغريزة.

العدل بين الناس

ومن العدل بين الناس ما ذكره الله في سورة «النساء» من شهادة الإنسان على نفسه وعلى والديه وعلى الأقربين وعلى الفقراء وعلى الأغنياء، لا يبالي بنفس ولا بأهل ولا بفقر ولا بغنى، بل يكون الحق هو مقصوده. وفيما جاء في قصة سيدنا عمر رضي الله عنه مع الحمّار ـ بتشديد الميم ـ الذي سار معه من المدينة إلى الشام، فكانا يتراوحان على الحمار هذا يمشي مرحلة وذاك مرحلة مع أن الحمار له أجرة.

جمهورية أفلاطون والعدل

إن جمهورية «أفلاطون» كلها قد بنيت على هذه الكلمة، وذلك قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون، والكتاب من الكتب القيمة، وليس العدل من الأمور الهينة بل هو أمر عظيم؛ فقد جعل هذا الكتاب عشرة أبواب، وبيّن العدل وكيف يكون، وهل نعطي المجنون ماله، ونعطي السيف لمن به يقتل الصبيان، وإن كان ذلك ملكهما وهكذا من المباحث، وقد انتهى في آخرها إلى أن العدل إنّما يكون بما تقرّه الجماعة المجتمعة وهو ما يسمى بالإجماع عندنا في شريعتنا الإسلامية، لأن الرجل كان في الأعصر الأولى وشرط في القائمين به شروطاً كثيرة، وأوجب على رجال الجيش أن يكونوا مرتاضين رياضة جسمية ورياضة علمية في الحساب والهندسة سنين عديدة، فأما الحكام فعليهم أن يزيدوا في ذلك وأن يعرفوا صانع هذا العالم ويتوغلوا في المعرفة حتى يصلوا إلى منتهى ما تصل إليه الأفهام.

إيضاح لهذا المقام في نظام الدولة

إن العدل في الجمهورية لا يتم إلاّ بثلاثة أمور تتقدمه وهي :

أولاً : أن يكون العامة مطيعين للجند المسيطرين عليهم وللحكام القائمين بأمر الدولة ، فهؤلاء العامة من التجار ومن المزارعين ورجال الصناعة ، ليس لهم على رأيه إلاّ الطاعة لرؤسائهم والقيام بما يؤمرون به فيدفعون الضرائب ويتركون المفاسد ويتباعدون عن الأعمال الضارة ، وهناك يحاكمون ويقضى بينهم بالقضاة العادلين ، وهؤلاء هم القائمون بأمر القوة الشهوية للأمة ، لأن شهوة الطعام والملابس والزينة لا تتم إلاّ بهؤلاء ، فهم عمال أشبه بالمعدة والأمعاء في جسم الإنسان ، فكما كان الزراع يعملون في الدولة هكذا المعدة والأمعاء يعملان فيما يماثل أولئك ، أي في أعمال جثمانية .

ثانياً : الجند الذين تربوا ومرنوا للحرب والضرب والدفاع عن الدولة ، فهؤلاء يقومون مقام القوة الغضبية في الإنسان ، ويحافظون على الثغور ويقومون بطرد العدو منها ودفعه عنها ، فعلى هؤلاء أن ينقادوا لرجال السياسة كما تنقاد قواتنا الغضبية لقواتنا العقلية ، فإن لم يكبح المرء جماح غضبه بالقوة العاقلة أصبح أضحوكة ومثلاً يضربه الناس للذين هم لا ثبات لهم ، فهكذا الدولة إذا استبد العسكر بالأمر ولم يراجعوا أولياء الأمور فسدت أمور الدولة واحتلها الأجانب وبئس المصير .

ثالثاً : رجال السياسة : وهؤلاء يجب أن يكونوا على بصيرة وعلم كما هو مسطر في هذا المقام على وجه الاختصار ، وهؤلاء هم الذين يدبرون الملك .

فإذن تكون الدولة مركبة من هذه الثلاثة : سواس وعسكر وعامة في مقابلة العقل والغضب والشهوة ، ثم إن انتظام هؤلاء وقيام كل بما عهد إليه يسمى عدلاً ، فهذا هو العدل المذكور في الآية .

وإياك أن تظن أن انتخاب الأمم للنواب ينافي هذا ، فإن هؤلاء النواب هم الذين ينظمون أمر الحكومة ، فالحكومة لهم ، والحكومة تسيطر على الأمة كلها فلا بد من طاعتها للجند عند الاقتضاء ، والجند يكون تحت إمرة الحكومة التي انتخبها الشعب .

العدل في الأخلاق الشخصية

لقد قاس هذا الحكيم أخلاق الإنسان على أخلاق الأمة ، فجعل قوة الشهوة خاضعة للقوة الغضبية ، فإن الإنسان إن لم يكن عنده حمية وشهامة لم يحافظ على عرض ولم يترك نقيصة ، وودّ لو يأكل أموال اليتامى ، فإن لم يقهر نفسه بالقوة الغضبية وبالتوبيخ في سره افتضح أمره ، كما تخرب الأمة إن لم يقم الجند بكبح جماح الثائرين وحبس المعتدين وما أشبه ذلك . ثم إن القوة الغضبية يجب أن تخضع للعقل ، فلا يفعل إلاّ على مقتضى المصلحة إقداماً وإحجاماً ، كما لا يفعل الجند في الدولة شيئاً إلاّ بأمر رجال السياسة وإلا هلكت البلاد وتشتت أمرها .

ثم إن القوة العقلية يجب أن تتحلى بالعلوم كما أوضحناه في هذا المقام ، فإن لم تتحلّ بالعلوم كانت كرجال السياسة الذين لا علم عندهم ولا رأي لهم وهم غافلون ، ثم إن اجتماع هذه الأمور الثلاثة وانتظامها هو المسمى بالعدل ، كما أن اجتماعها في المدينة يسمى عدلاً .

فانظر كيف كان العدل نظام كل شيء، وكيف كان هذا القول في الآية جامعاً لهذه العلوم، ولذلك سلبت هذه الآية ألباب العرب لما سمعوها، كالمغيرة بن شعبة، حتى إن أبا جهل أعجب بها كما ستراه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثم إن أفلاطون يقول:

(١) إن الأمة متى كانت على هذا المنوال فأحكامها عادلة، وهي المدينة الفاضلة، وقد تمت فيها الأمور الأربعة، وهي: العفة للعامة والشجاعة للجند والحكمة للسوّاس والعدل بين الجميع، وهكذا الإنسان يكون عفيفاً في قوته الشهوية، شجاعاً في قوته الغضبية، حكيماً في قوته العقلية، عادلاً إذا انتظمت الثلاثة.

(٢) ثم إن الدولة متى زال منها السوّاس من الحكماء المذكورين ترجع إلى حكومة عسكرية فيتولى الجند سياسة الأمة ويستبدون بها، وهذه الحكومة أنقص درجة مما قبلها، فإن العقل أرقى من القوة الغضبية التي لا يعرف الجند سواها.

(٣) فإذا تمادت هذه وطال عليها الأمد خرج أبناء هؤلاء ولا همّ لهم إلاّ جمع المال، فتغلب القوة الشهوية، وهذه أدنى مما قبلها لأن الشهوة البهيمية هي التي تسلطت فيها كبلادنا المصرية أيام العز والإقطاعات، فلذلك كانت البلاد في حالة محزنة.

(٤) وهؤلاء الأغنياء متى جمعوا المال أصبحت الأمة كلها فقراء، فحسدوهم فيثورون عليهم فيهلكونهم، وهذه هي الفوضى لا رئيس ولا مرؤوس، وقد تم هذا في بلاد الروسيا فقتلوا القيصر، وهكذا في الدولة العثمانية فقد استبدوا فخلعوا، وهذه هي حكومة الشعب «ديموقراطية».

(٥) ثم يأتي بعد ذلك رجل واحد يحكمهم بالقهر، وهذه أنقص الحكومات، وكل حكومة أقل مما قبلها وخير مما بعدها، ومثال ذلك «ماسوليني» في إيطاليا، ومصطفى كمال في تركيا، ولكن هذان حكما بمعونة الشعب.

ثم إن رجال السياسة في المدينة الفاضلة لا يتولون الحكم إلاّ إذا كملوا عقلاً وسناً وقرؤوا علوماً شتى من طبيعية ورياضية وإلهية. وهنا ثلاث نظرات:

النظرة الأولى: في موازنة نظام المدينة الفاضلة عند أفلاطون بنظام هذا العالم الذي نعيش فيه.

النظرة الثانية: فيما لاحظته على الإنسانية العامة في أيامنا هذه في القرن العشرين.

النظرة الثالثة: في نقل ما ترجم من آراء أفلاطون المتقدمة بتوسع في المقالة الأولى والثانية، لأنه شفى ما في صدري من جهة الأخلاق العامة لهذا الإنسان وقد شرحها شرحاً كأنه في زماننا، فلأشرع في النظرة الأولى فأقول:

النظرة الأولى

لقد رأيت تلخيص جمهورية أفلاطون، ووجدت أن قوة الإنسان الشهوية والغضبية والعقلية وانتظامها موافق لطبقات العمال والزراع ثم الجند ثم الحكماء الذين يدبرون الدولة، فهاهنا شهوة يردعها غضب يسيطر عليهما عقل، وهذه الثلاث تظهر أولاها في البهائم، والثانية في الآساد، والثالثة في الإنسان، فالجند كالآساد وبقية الشعب كسائر الدواب على الأرض، وحكام الشعب أشبه بالإنسان.

فيا عجباً! قلَّت القوى العاقلة في هذا النظام الأرضي، إنَّما مثل القوى العاقلة في هذه الكرة كمثل الحواس الخمس الظاهرة والباطنة والمخ وأعصاب الحس والحركة، فهذه كلها بالنسبة للعظام والعضلات وسائر أجزاء الجسم شيء قليل، كقلة الإنسانية بالنسبة لسائر النبات والحيوان، وقلة الحكماء بالنسبة لنوع الإنسان، وقلة حكام المدينة بالنسبة لسائر أفرادها.

نظرتي اليوم في شارع زين العابدين

في هذا اليوم «الخميس» الثاني من شهر فبراير سنة ١٩٢٨، وقفت وقت العصر موجهاً وجهي جهة الغرب ورأيت الناس غادين رائحين، وفكرت في الهواء الجوي والبخار السابح فيه، والسحاب الذي في الجو، والكواكب والشموس والأقمار، وقلت: هذه العوالم كلها تخدم هذا الإنسان، فهذه الشمس وسياراتها وقمر الأرض والهواء والسحاب، كل أولئك نافعات لهذا الإنسان، ونفس جسم الإنسان منظم تنظيماً مدهشاً، إذ فيه ٢٤٨ عضواً كل منها ضروري لحياتنا، وكلها موزونات منظمات، مثلاً أصابع اليدين لو كانت كل إصبع منها عظماً واحداً لم يكن للناس عمل في الأرض، بل كانوا يعيشون كالبهائم، فلولا مفاصل الأصابع ما حرثنا الأرض ولا عملنا صناعة ولا حفرنا نهراً ولا عملنا في الأرض عملاً ما، فلا كتابة ولا صناعة ولا علم ولا عمل، فهذه مسألة واحدة من آلاف الآلاف، وهؤلاء الناس كلهم عنها غافلون إلاَّ قليلاً.

فيا ليت شعري، أيضيء النور للعميان؟ أم يغني الموسيقار للصم؟ أم تتزين الغادات لمن لا يبصرون؟ فلم إذن هذا الجمال؟ فما كان الجواب على هذا إلاَّ كما بيناه آنفاً.

فكما أن المدينة يقلّ فيها حكامها، وعالم النبات والحيوان، يقلّ فيهما الإنسان، وحواس الإنسان قليلة بالنسبة لحجمه، فهكذا الأنفس العالية التي أرسلت لهذه الأرض وقد زينت لها هذه الدنيا بهذا النظام العجيب، فنسبتها إلى الأنفس الأرضية كنسبة نوع الإنسان إلى الحيوان والنبات ونسبة حواس الإنسان إلى سائر جسمه، وإذن يكون في كل أمة من أمم الأرض في كل زمان أناس عددهم قليل، هم الذين يدركون نظام هذا الوجود ويفرحون به، وهؤلاء هم الذين قصدتهم العناية الإلهية في تزيين هذه الأرض وترقيتها، فما مثلهم في هذه الأرض إلاَّ كمثل الملوك تقام لهم الزينات في المدن، وبقية الرعية تابعون لا مقصودون، بل هم كالشموس والكواكب المشرقات على الناس، هم المقصودون من هذا الوجود.

ولعل بقية أفراد الشعوب وإن كانوا لا يدركون الجمال قد أخذوا يستعدون لهذا في الأرض بحياتهم هذه، فهي أشبه بمدرسة صغرى لتعليم الصبيان الذين سيرتقون في عالم بعد عالم، فأما الحكماء والمفكرون فهم حشروا معهم في الأرض لتعليمهم وتنظيمهم، هذا ما خطر لي اليوم، وهذا شرح لناحية من نواحي ما قاله أفلاطون من تقسيم رجال المدينة، كما تقسم أصناف النحل في القفير بأمر اليعسوب، وهي ملكة النحل من العمال والذكور الذين لا عمل لهم، والحراس والمربيات للذرية والجامعات للعسل والصانعات للشمع الخ.

فأما النظر للنظام العام والعدل التام في المدينة بتعادل القوى الذي ذكره فهو أشبه بهذا النظام العام، ومن تتبع هذا التفسير رأى في كل سورة من السور مسائل مستوفاة من نظام العوالم، وأدرك

يقيناً أن سير الكواكب منظم بعدل، ومثلها كل حيوان وكل نبات فلا نطيل به، وكل هذا يشابه ما قاله أفلاطون، ولكن لا بد من ذكر مسألة واحدة هنا لتكون أنساً للمفكرين وهدى وذكرى للعاقلين.

انظر إلى بني آدم يغدون ويروحون ويظنون أنهم في الخلاء أو في الفراغ، وهم ليسوا في خلاء ولا في فراغ، بل مكبلون محبوسون في محبس عظيم وهو الهواء وبخار الماء الذائب فيه، فنحن غرقى في بحر لجي من الهواء وبخار الماء، ونحن نشاهد النور يتخللهما وينقل صور الأجسام وألوانها وأشكالها وأحجامها فنتصرف ونعيش ولا علم لنا بالهواء ولا ببخار الماء إلاّ بعد التعليم، ولو كان هذان الجسمان ليسا شفافين لحجبا عنا ضوء الكواكب فجهلنا ما على الأرض من كل قائم وحصيد، ثم إننا لما عرفنا وجود الهواء وأننا غرقى فيه ظننا أنه خفيف لا ثقل فيه وهذا خطأ، فالهواء ثقيل يضغط علينا من جميع جوانبنا، وكل منا يحمل ثقلاً يزن ٦١ قنطاراً، والدليل على ذلك أن مساحة جسد الإنسان المتوسط القامة ١٦ قدماً مربعة، أي ٢٣٠٤ قراريط مربعة، وضغط الهواء ١٥ ليبراً على القيراط المربع، والإنسان في العادة لا يعقل ما نقوله الآن ولا يفقه أن للهواء ضغطاً، ولكن الذين يقرؤون العلوم الطبيعية يدرسون ذلك عملاً، مثلاً إذا طاروا في الطيارات إلى أعلى فأعلى قابلوا هناك هواء لطيفاً جداً، فينزل الدم من مسام أجسامهم، وهكذا إذا ارتفعوا في الجبال العالية فإنهم يرون الدم يرشح من مسامهم والموت يكون منهم قاب قوسين أو أدنى، وإنّما ظهر الدم لأنه محفوظ في أجسامنا بالعدل الذي وضعه الله في الأرض، فهذا الهواء بضغطه على أجسامنا من جميع الجهات قد منع الدم من الخروج، فالضاغط على الدم هو ثقل الهواء، ومتى خفّ خرج الدم فمات الإنسان، ولقد انتهز هذه الفرصة الإنسان ففرغ الهواء من المحجم بحيث يمصّ الحجام ذلك الهواء فيخفّ، فترى الدم ينبع حالاً، وهذا مشاهد معروف، فإذا ارتفع الناس فوق أعلى الجبال صار الهواء أشبه بما في المحجم من الهواء الخفيف فنزل الدم من سائر الجسم.

أليس هذا هو العدل؟ عدل الله في نظام هذه الأجسام، فجعل الهواء من سائر الجهات فاتزن الجسم، وذلك كالعدل في المدن بانتظام القوى فيها من الجندية ورجال الحكومة والعامة بحيث يطيع الجند أوامر الرؤساء ويخضع العامة لمن فوقهم.

فالوزن والنظام في المدينة هو عين الوزن والنظام في نظام الهواء وضغطه على سطح أجسامنا فحفظها كما تحفظ المدينة بنظام أصنافها، ولا جرم أن في الجسم عظاماً وعضلات ومواد سائلة وأخرى غازية كالهواء، وضغط الهواء من الخارج على الجسم يوازنه من الداخل الهواء هناك، والمواد السائلة لا تقبل الضغط إلاّ يسيراً جداً، والمواد الجامدة تحمل أثقالاً أعظم جداً، والغازية تقبل الضغط كثيراً ولكنها تزداد مرونة كلما ضغطت فتقاوم الهواء الخارج وضغطه، ولذلك إذا خرج الهواء من الصدر بالتنفس يشعر الإنسان بضيق في صدره من ثقل الهواء الخارج عليه، وللعلماء في مسألة ضغط الهواء تجارب مثل ما فعله «اطوفن كركي المكديرجي» الذي صنع كأسين سماهما الناس باسم بلدته، فقيل «كأسا مكديرج» وهما نصفا كرتين أشبه بشكل القبعتين اللتين يلبسهما الفرنجة، فإذا ركبت إحدى الكأسين على الأخرى وبقي الهواء فيهما يفكان بسهولة، فأما إذا فرغ الهواء منهما بحنفية موضوعة في إحداهما ثم سدت الحنفية فإذن لا يدخلهما هواء فلا يفكهما إلاّ عصبة أولو قوة من الرجال يشدون

معاً من ضغط الهواء الخارجي لهما، ويقال إن « اطوفن كركي » المذكور صنع كأسين كل منهما قطره قدمان ثم ركبهما وفرغ الهواء منهما فلم تفك الواحدة عن الأخرى حتى ربط إلى كل منهما ستاً من الخيل وجعلها تشد إلى جهتين متضادتين، ولسنا الآن أيها الذكي في مقام علم الطبيعة بحيث نشرح الهواء والماء والضوء والكهرباء والحرارة والمغناطيس وما تفرع عنها، ولكن شرحنا هذه المسألة لنفسر بها العدل، فهاهنا قام بين المواد الغازية في جسم الإنسان وفي خارجه كالعدل الذي يحصل بين قوى الإنسان من شهوة وغضب وعقل كالعدل بين رجال المدينة من عامة وحكام وجند وهكذا.

أفلا ترى من ذلك أن العالم نظام واحد؟ أوَلا ترى أن الناس على الأرض أشبه بجسم واحد؟ فلا جرم أن كل الأمم كأمة واحدة والأمة الواحدة كشخص واحد، والكرة الأرضية يحيط بها الهواء والناس فيه يعيشون، فلهم وحدة الهواء والنور والماء والأرض فهذه وحدة عامة. إن نظام أجسامهم كنظام مدنياتهم كنظامهم مع النبات والحيوان الخ، إذن النظام عام في هذا الوجود وكأن هذه العقول في الأرض إنَّما اختلفت ليحول هذا الاختلاف في عوالم أخرى إلى ائتلاف، كما نرى اختلاف أعضائنا سبباً لسعادتنا في الحياة، ولو كان جسم الإنسان عظماً واحداً متصلاً لكان أشبه بالحجر الذي لا عمل له، فلعل أهل الأرض سيكونون بعد عالمنا هذا أشبه بنفس واحدة كبيرة، كل نفس من النفوس الصغار أشبه بعضو من أعضائها مع استقلال كل نفس جزئية، كما نرى في نظام النحل والنمل، فهناك نظام تام وكل واحد له حرية وتصرف على قدر طاقته.

(١) وهذا قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد:٨]، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك:٣].

(٢) وإذا قال الله لنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[النحل:٩٠]، فإنه ما أمر إلا بما فعل هو وعرفه الحكماء والأنبياء.

(٣) إن الله في عدله إنَّما يعمد إلى نظام العموم ويجعل الأفراد على مقتضى المصلحة، ولا يجعل الحكم للعواطف التي خلقت لأعمال جزئية، بل الحكم للعقل. انتهى الكلام على النظرة الأولى.

النظرة الثانية

ما لاحظته على الإنسانية العامة في هذا القرن العشرين

اعلم أني ولدت في قرية من قرى الفلاحين بالشرقية بالبلاد المصرية وهي « كفر عوض الله حجازي »، وكنت ألاحظ أنهم يحقرون الصادق ويعظمون الرجل الخبيث الماكر، فلما خالطت أهل العلم كنت أظن أنهم يخالفون هذه الطبقة فرأيت الآخرة كالأولى، ثم لما صرت معلماً في المدارس صرت ألاحظ بعض ما كنت أراه في القرى، حتى إن أحد المدرسين معي بالمدرسة الخديوية كذب عليَّ كذبة لا تضرني ولا تنفعه، فعجبت كل العجب كيف يكون الذين معهم شهادات عالية يكذبون كذباً لا ينفع حبيباً ولا يضر عدواً، ثم وليت وجهي شطر الأوروبيين لا سيما الطبقة الراقية منهم، فوجدتهم أشبه بمن عندنا، ولما حضر « روزفلت » رئيس الممالك المتحدة إلى مصر بعد أن انقضت أيام حكمه وتوجه إلى بلاد السودان المصري ليصطاد الأسود والنمور هناك بحماية الإنجليز، ورجع إلى مصر التي تحت حماية الإنجليز هي والسودان. أقول: لما حصل ذلك كله وقف خطيباً وقال: « أيها الإنجليز، إما

أن تحكموا وإما أن تخرجوا ، يريد بذلك أنكم مهملون في حكم المصريين ، أمسكوا البلاد ولا تعطوا حكمها للمصريين لأنهم ليسوا أهلاً لذلك » ، فهذا القول دلني على أن أعظم المتعلمين في أوروبا وأمريكا يحكمون بالهوى لا بالعدل ، لذلك ألفت كتاب « أين الإنسان » لأني رأيت هذا الإنسان المنظم جسمه الذي قد اتزن بضغط الهواء من جوانبه ومن داخله ، وانتظمت حركات الكواكب المحيطة به وانتظم له كل شيء من نبات وحيوان ، خرج هو على النظام فهو إذن طفل ، وليس فيه إلاّ قليل من المفكرين العظماء مغلوبون على أمرهم ، والباقي همج سذج رعاع أتباع كل ناعق ، ثم إني رأيت أن كثيراً من المخلصين مغلوبون على أمرهم ، ورأيت كثيراً من الذين تصدوا لقيادة الشعوب ليسوا مخلصين ، فيضلون الأفراد بالكذب والبهتان وبموالاة الجرائد وإمدادها بالمال فيمدحونهم ، كل ذلك معلوم ظاهر مكشوف في زماننا .

أفلا تعجب إذا حدثتك عما قاله أفلاطون في جمهوريته ؟ أي إنني أذكر لك ما ذكره في المقالة الأولى والثانية بأوضح مما تقدم ، لتعجب كما عجبت أنا من العقول الإنسانية ، وأن هذا العقل الكبير الذي مضى له نحو أكثر من ٢٣٠٠ سنة كأنه في زماننا ، ويقرأ أحوالنا ويعبر عنها ، ويصف الدواء لسقامها ، فيشفي القلوب بالعلم ويحفظ الأمم بالحكام الحكماء . ولما أتممت هذا المقام ابتدرني صاحبي فقال : هذا نظام الله في العوالم المادية من الهواء وأجسام الحيوان ، ولكني الآن أريد أن توازن ما بين نظام الحيوان في هذه الدنيا ونظام قدماء المصريين وجمهورية أفلاطون المتقدمة ، وما ألفه الفارابي من علماء الإسلام في كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، وما ألفته أنت في كتاب « أين الإنسان » ، وماذا يقول الله تعالى في تلك النظم أو أيها أفضل ؟ وفوق ذلك كله نريد أن نعرف نظام الجنة والنار من نظام الدنيا ، أي : نعرف عدل الله في الآخرة كما عرفناه في الدنيا ، فهذه ثمانية فصول أرجو إيضاحها وذلك قبل ما تذكره من كلام أفلاطون . فقلت :

الفصل الأول : نظام الحيوان في هذا العالم

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم والحكمة ، أنت كتبت بيدك كتاباً مفتوحاً مجسماً وجعلتنا نحن كلمات من ذلك الكتاب أو حروفاً ، أنا الآن أكتب وأنا نفسي كلمة من كتابك المفتوح ، خلقت بيدك هذه الدنيا التي نعيش فيها ، وهي نفسها كتاب يقرأ ، وأصعب شيء على الحي أن يقرأ نفسه ، لهذا قلّ من يفقه هذه المخلوقات التي عاش معها ، وقلّ من يقرأ جسمه ونظامه ، وأندر من ذلك من يفقه علم روحه الذي هو بحر لجي يغشاه موج الطبيعة من فوقه موج الشهوات من فوقه سحاب الهموم والنظم الأرضية وتكاليف الحياة ، وأنا الآن أحمدك إذ شرحت صدري لأذكر ما ألهمتني من بركاتك الحكمية وإلهامك الجميل لي على مقدار استعدادي ، وأنا في هذا العالم الأرضي المتأخر في درجات النظام ، فما أرضنا وما شمسنا وما سياراتها وتوابعها وأقمارها وذوات أذنابها التي لا حصر لعددها إلاّ قطرة من بحر الوجود ، فما أعرفه وأكتبه الآن بنسبته إلى بواطن الأمور والحقائق الصادقة كنسبة قطرة إلى بحر لجي ، ولا تكلف نفس إلاّ وسعها ، لذلك أقول :

اللهم إنك جعلت هذه العوالم المذكورة فيما تقدم من سمك البحار وهوام في التراب وحشرات وطيور في الهواء وذوات اللبن والدم في الفلوات كتاباً يقرؤه العقلاء ، وضعت كل طبقة من طبقات هذه

العوالم مكاناً، ومن عجب أنك خصصت كلاً بوظائف وطبائع، وهي جميعها فرحة مسرورة؛ فالطير يزق أولاده ويربيها وهو فرح فخور معجب مغنّ في نسمات الهواء، والحشرات اللاتي حرمت الجلد والأحشاء الباطنة والعظام مغنيات راقصات فرحات مهنآت، وذوات الأربع راتعة في خلواتها سارحة غادية رائحة، فلا طير السماء بحاسد حيوان الفلاة، ولا الحشرات ولا سمك البحار بمزدريات مقامهن في تلك الأقطار، فكلهن راضيات فرحات منعمات.

هذه جمهورية الله، فجمهورية الله هذه التي نراها بأعيننا، فكل أمة أمكنها أن تجعل نظامها يقرب من هذا النظام، فهي التي أعطيت مقاليد السياسة ونظام المدينة وهي من المفلحين الفائزين.

الفصل الثاني: في قدماء المصريين

إن قدماء المصريين جعلوا نظامهم أشبه بهذا النظام الإلهي من بعض الوجوه، فإنهم جعلوا للكهنة وللملوك وللعامة درجات لا يجوز تخطيها وأحوال يحرم تعديها، فابن النجار والحداد والزارع والكاهن والملك لا بد أن يحذو حذو أبيه ويجري على وتيرته في نظام معاشه وصناعته وسيره في الحياة، هذا هو النظام الذي ارتضوه، ولذلك دامت الأمة المصرية آلافاً وآلافاً من السنين، ولكن هذا النظام جاف قاس ليس يناسب الإنسانية من كل الوجوه.

ألم تر أنهم جعلوا نظام الإنسان كنظام الحيوان، أي أنهم قلدوا فعل الله في هذا الوجود، فكما كان الطير في الهواء والهوام في التراب وحيوان البر في الفلوات والسمك في البحار، هكذا جعلوا الملوك والعلماء والصناع كلٌ في مرتبته، كما أن ذرية الطير طير وذرية الحشرات حشرات وهكذا، فأين امتياز الإنسان؟ والحق أن هذه الإنسانية أمرها مشكل، ألم تر أن أصحاب العقول الراجحة والأميال العالية وأرباب النفوس الغبية، كل هؤلاء يخلقون في الأمم بلا قيد ولا شرط، فليس لهم قانون خاص ولا طبقة معروفة، فهؤلاء يكونون في ابن الزارع وابن التاجر وابن الفقير والغني والملك والصعلوك، فهذا النظام المصري القديم حسن من وجه وناقص من وجه.

الفصل الثالث
في جمهورية أفلاطون المتقدم

وهذا النظام هو الذي قرأه أفلاطون، فماذا فعل؟ رجع إلى الحقيقة فقرر أن يكون حراس المدينة والقوّامون مصطفين من الشبان اصطفاء بطريق الامتحان والاختبار كما تقدم، فليس ذلك بالنسب بل بالاستعداد إلى آخر ما تقدم، فهذا تعديل في نظام قدماء المصريين الذي اتحد مع نظام البراهمة في الهند الذين جعلوا الأمة أشبه بجسم واحد له رأس هم علماء البراهمة، وقلب وأحشاء ورجلان تشابه درجات الشعب، وكل له مقام معلوم، كل ذلك بالنسب فهذه الجمهورية قد أخرجت الإنسانية من ذلك النظام العتيق نظام النسب الذي فتح باب الاستبداد فأحسن من وجه وأساء من وجه، ويشبه نظام الأمة الإنجليزية نظام قدماء الهند والمصريين من وجه.

نعم، يعلمون جميع الأمة تعليماً ابتدائياً، ولكن التعليم العالي والوظائف الكبيرة خاصة باللوردات وأصحاب الثروة الطائلة لارتفاع قيم التعليم في المدارس، والنظام الأوفى أن يكون التعليم كله عاماً، ويصطفى طلاب المدارس العالية بالاستعداد لا بالمال.

الفصل الرابع

فيما قاله الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» الذي لخصته في كتابي «نهضة الأمة وحياتها»، ونشر في أوائل القرن العشرين الذي نحن فيه، إذ لخصت الكتاب تلخيصاً وجعلته على مقتضى ما يناسب عصرنا، وذلك في مبدأ نهضة بلادنا المصرية إذ كانوا يطلبون الاستقلال أو الدستور.

وملخص رأيه أن الأمم كلها أشبه بنفس واحدة، وكل أمة على الأرض لها استعداد كاستعداد عضو من أعضاء الجسم، فيجب أن تأخذ قسطها من الحياة وأعمالها لتساعد المجموع، وهكذا أفراد الأمة الواحدة لكل منهم مقام معلوم وكأنه يقول ما تقول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، فأعضاء القلب والرئتين والكبد والمعدة والأمعاء والكليتين والحالبين والدماغ والحواس الخمس في جسم الإنسان يقابلها أفراد في الأمة؛ فليس الصالح لرياسة الجمهور المشبه للعقل في الدماغ بمفيد إذا وضع موضع المعدة لهضم الطعام، ولا القلب الذي يوزع الدم على الجسم بمحسن تصريف الأمور كما يصرفها العقل، بل لكل عضو عمله إذا تركه اختلّ. هكذا لكل فرد من أفراد الشعب استعداد إذا تخطاه ضاع من الأمة من المنافع على نسبته، فهذه هي المدينة الفاضلة وسواها مدينة فاسقة، إذن جميع النظم الأرضية اليوم فاسقة عند تطبيقها على آراء الفارابي، ولقد بينت في كتابي «نهضة الأمة وحياتها» أن النوّاب ينتخبون من هيئات الأمة بحسب أعمالها لا بحسب أماكنها فيؤخذ من كل طائفة نائب أو أكثر ليعبر عن شعورها ومطلوبها، فللصناع وللزراع وللعلماء ولكل ذي حرفة نواب يعبرون عنهم، كما أن لكل عضو من أعضاء الجسم أعصاباً توصل إلى المخ، ولما نشر هذا قبيل استقلال بلادنا الجزئي الذي نالوه، أخبرني بعضهم أن هذا النظام لم يوجد إلاّ في أمة واحدة من أوروبا لا أتذكرها الآن ولعلها «بلجيكا».

الفصل الخامس: كتابي أين الإنسان

هذا الكتاب ذكرته في هذا التفسير مراراً لمناسبات، وهو يبحث في نظام الأمم الحاضرة ومجالسها وحكوماتها، ونسبة أهل الأرض إلى استعداد الأرض نفسه، فلا أطيل به، وهو يرجع إلى أن تستخرج جميع القوى والقدر في الناس كما تستخرج جميع المنافع من الماء والأرض والهواء، والأمم كلها متعاونات، وإلا فهنّ جميعاً فاسقات.

الفصل السادس: في نظام القرآن

أما نظام القرآن فإنه هو الذي كتبته في كتابي «أين الإنسان»، يقول الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ويقول: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ويقول: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فتارة يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فذكر الاسم الظاهر، وتارة يذكر بضمير المتكلم مع العظمة والجلال، وتارة يطوي الفاعل ويذكر الفعل مبنياً للمجهول، فهو يشير بالأولين إلى أنه هو وضع كل شيء موضعه وأحكم الوجود، فكما جعل طير الهواء وأنعام الفلوات وسمك البحار كلاً في مقره، هكذا أوجب على الأمم أن تضع كلاً في مقامه بحسب استعداده لأنه قال: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولم يقل: لا تكلف نفس إلاّ بحسب نسبها، كلا، بل ذكر الوسع، وهذا عينه هو الذي شرحته في كتابي «أين الإنسان»، حينئذ يكون الناس جارين على النظم

الإلهي والحكمة الطبيعية التي سنها مبدعها، فإذا جعل المسلمون كل امرئ فيما خلق له من الاستعداد أصبح أبناء الأمة جميعاً في رغد من العيش والسعادة، ويكونون في أعمالهم فرحين، كما نرى الطير فرحات، والحشرات مغرّدات، والسمك جاريات، والأنعام راتعات مهنآت، كلّ في نعمة ربه جارٍ على سننه لم يتعدّ طوره ولم يشارك غيره في نظامه، فلم تر الفيلة تشارك الطير في الهواء، ولا السمك جرى في الفلوات مع الأنعام، تقسيم عادل ونظام شامل وحكمة نسجت بيد حكمت وابتهج بها المبتهجون.

هذا هو نظام الله، وهذا نظام القرآن، رجع القرآن الذي قاله الله إلى نظام الوجود الذي خلقه الله، فكلامه وافق فعله، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ ﴾[الطلاق: ١]، والأمم المسلمة وغير المسلمة كلها متعديات حدود الله، لأنهم لم يدرسوا نظام الطبيعة دراسة تامة بحيث يقيسون عليها نظام الإنسان، بل درسوها للمنافع المادية وهم عن آياتها العلمية معرضون.

أيتها الأمم الإسلامية، اسمعي اسمعي، أيتها الأمم الإسلامية، اقلبوا نظام بلادكم رأساً على عقب، ولن يكون هذا إلاَّ أن تبتدئوا بالتعليم العام ابتدائياً وثانوياً وعالياً وصناعياً وتجارياً وسياسياً، وتصطفوا التلاميذ لما خلقوا له بحسب أميالهم، وأميالهم تعرفه بدرجات العلوم في الامتحان، فمن كان في الابتدائي يميل إلى الصناعة أو التجارة أو نحوهما حوّل إلى ما مال إليه، ومن كان أميل إلى علم من العلوم خصّ به، وهكذا فيوضع التجار والزارعون وأهل الصناعة والسياسة كلّ فيما استعد له، ثم يوزع هؤلاء الأفراد على الأعمال ومن أهمها استخراج ما في باطن الأرض من كنوزها ومعادنها وآثارها، هنالك يخرج جيل جديد، هذا الجيل هو الذي يعرف معنى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وهذا الجيل هو الذي يعيش على مقتضى نظام الطبيعة الذي جعله الله كتاباً لنا.

هذا الكتاب الذي أنزله الله للناس قبل أن يرسل الرسل، ولما علم الله قبل أن يخلق الناس أنهم ناسون للنصائح مهملون لعقولهم أرسل لهم الأنبياء ليذكروهم.

الفصل السابع: في ديانات الأمم

سيأتي في سورة «الأنبياء» عند قصة إبراهيم عليه السلام إذ يقول لأبيه وقومه: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾[الآية: ٥٢]، وعند قوله تعالى قبل هذه القصة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ ﴾[الآية: ٢٥] الخ، ذكر ملخص ديانات الأمم السابقة كديانة قدماء المصريين وكتاب الفيدا في الهند والبراهمة وأتباع «خريستا» وأتباع «بوذا»، وهكذا ديانات أهل الصين وآخرها دين «كونفشيوس»، وهكذا دين المجوس ودين «زردشت» الذي قال إنه مرسل للإيرانيين، وكيف اختلط هذان الدينان في آخر الأمر بدين البابليين والآشوريين.

سأذكر تلك الديانات هناك، فما كان مذكوراً من قبل أشرنا إليه، وما لم يكن مذكوراً من قبل وضحناه أيّما إيضاح، والغرض من ذكر هذا هنا أن تلك الديانات كلها مذكرات بنظام هذا الوجود في أول أمرها وذات خرافات في آخر أمرها، ثم يكون الانقراض من الوجود، وإنّما الذي يهمّ الآن أن الفطرة الإنسانية كلها معترفة بالدين، والذي عرف الأمم الآن هذه الآثار التي كشفوها، فقد تطابقت الآثار في القارات كلها وفي الجزائر النائية أن جميع الأمم لها اتجاه ديني، وكلها تؤمن باليوم الآخر،

وهذا الإجماع من تلك الأمم برهان قاطع على وجود مدبر للعالم وبقاء الأرواح بعد الموت لأننا لم نر هذه النفوس الحيوانية أجمعت على ضلال.

هاهي ذه غريزة الطعام والشراب والاستكنان من الحر والبرد والسعي على الرزق وحب الحياة والذرية وتقابل الذكر والأنثى، كل ذلك فطرة صادقة، ومسألة الدين إحدى تلك الفطر، وليس ينافي هذه الفطرة أن يخرج عن الدين وينكره بعض المتعلمين في المسلمين والمسيحيين واليهود والبوذيين الخ.

أقول: إن هذا الخروج من هؤلاء لا ينافي أن الدين فطرة كفطرة الغذاء، كما لا ينافي غريزة تحابّ الذكر والأنثى شذوذ الرهبان، ولا غريزة التغذية انقطاع بعض العباد عن الأكل تعبداً، فالفطرة غالبة ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١].

الفصل الثامن: عدل الله بين الناس في اليوم الآخر

إنك أيها الذكي حين قرأت الفصول الست الأولى وجدتها متناسقة، ولكن الفصل السابع يظهر بادئ بدء أنه أجنبي عنها غريب بعيد، فأين الدراسات ودرسها؟ وأين مسألة النظام وتوزيع الأعمال؟ أقول: إن الفصل السابع مقدمة لا بد منها لنذكر العدل في اليوم الآخر.

لقد علمت أيها الأخ نظام الله في الحيوان، وعلمت نظام الهند ومصر قديماً، وعلمت آراء أفلاطون والفارابي وما كتبته أنا وما أريد من المسلمين في نظامهم وفي أنفسهم وفيهم هم مع الأمم التي يعيشون معها، فهاأنا ذا الساعة أحدثك في أمر عظيم كما قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[النبأ: ١، ٢]، فنبأ الحياة بعد الموت، ونبأ الجنة والنار، هو الأمر الذي حيّر العقول، فجميع العقلاء في الأرض يسألون هذا السؤال: إذا كان الله هو الذي خلقنا فلماذا هذا العذاب المؤبد وأيّ رحمة فيه؟ وإذا خلق الله بعض الناس للعذاب فخلقهم إذن لتعذيبهم فعدم خلقهم يكون أوفق للرحمة.

أقول: إن الجواب على هذا السؤال عسير وصعب؛ ذلك لأننا خلقنا في هذه الأرض وهي عالم متأخر كما قدمنا، فليس من المعقول أن تكون عقولنا كعقول سكان كوكب أكبر من شمسنا كالسماك الرامح الذي يبعد عن شمسنا مائتي سنة بسير النور، فعلينا أن نقرّ في الأرض بأن هذه العقول الإنسانية بالنسبة لعوالم أخرى، كنسبة عقل الناموسة إلى عقل الإنسان، كما تقدم في هذا التفسير نظيره عن العلامة «أوليفر لودج» الإنجليزي، فمثلنا إذا تكلم عن عدل الله ليس له إلاّ أن يذكر ما يقنع عقله الذي يناسب أرضه، أما الحقائق الجميلة فنحن بعيدون عنها في هذه الأرض، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[الإسراء: ٨٥]، فتارة أقول لك: اقرأ ما كتبنا في آخر سورة «هود»، فهناك نقلنا عن أكابر الحكماء الإسلاميين، ولكن لم نتقيد برأيهم كبعض الصحابة وكابن تيمية، أن النار ستفنى، وتارة نقول لك: اقرأ كتاب «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» للغزالي، فهناك تراه يجعل أكثر الناس ناجين، لأن الدعوة الصحيحة للدين لم تبلغهم، وبرهن على ذلك وأطال، ولكن نحن لم نتقيد به وتركنا المسألة لمن بعدنا يفكرون فيها، فأما هنا فأقول: إن الله وضع نظاماً في أرضنا وأراه لنا، وألهم العلماء فألفوا، فهم ما بين مقترب من نظام ربه ومبتعد عنه، وأقربهم إلى نظام الله من يفعل ما ذكرناه، ونظام الله أن يضع كلاً في مقامه الخاص به فهو رحيم وحكيم، وما مثل أهل الجنة والنار المذكورين في الديانات إلاّ كمثل نظام الحيوان على الأرض.

اللهم إنا نحمدك على الفهم وعلى العلم وعلى السعادة الفكرية العقلية بالنور البهي والحكمة التي رأينا بصيصها في هذا الوجود، أنت قلت للطير اخترقي الجو، وللأنعام سيري في الأرض، وللسمك كن في البحر، ولم نر حيواناً من هذه تحسر على ما فاته عند سواه، فلم يتحسر الطير على أنه لم يستقر في قرار مكين كالأنعام، ولم تتحسر الأنعام على أنها لم تطر في جو السماء، فقال صاحبي: هذا منك عجب من أين جاء لك هذا؟ فقلت: سل الرجال من نوع الإنسان وسل النساء، وقل للرجل: هل تحب أن تكون امرأة، فإنه يرى هذه منك سبة وإهانة، وسل المرأة وقل لها: هل تحبين أن تكوني رجلاً؟ فإنها تقول لك: لا لا، وكيف تزيل بهجة وجهي بشعر خشن وتقبح وجهاً نضر الله خلقه وحسنه، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]، إذن بالقياس على الرجل والمرأة يكون كل حيوان راضياً بقسمته مسروراً بمقامه. فالسؤال المشهور الذي يوجهه الجمهور في كل حين هو: لم كان هذا فاضلاً وهذا مفضولاً، يصبح لا قيمة له، إن النظر لهذه العوالم التي حولنا يرينا أننا نرى الأمر ليس قاصراً على ما ذكرناه من الحيوان في الوضع، بل هناك هوام لا تعيش إلاّ في التراب، وهناك الحيوانات الذرية وهي لا تظهر للناس، فإذا قلنا الطير في السماء تقول الحيوانات الذرية في ظلمات الطبيعة بأرضنا ماذا فعل الله بها؟ وضعها في مستقرها الذي يوافقها، إذن كل حيوان وضع فيما يوافق مزاجه، وما مثل هذا النظام إلاّ كمثل النظام في ممالك أهل الأرض إذ يجعلون من لا يصلحون لخدمة المجموع من القتلة والسرّاق وقطاع الطرق في سجون، فهم أشبه بالحيات والعقارب تعيش في ظلمات التراب والشقوق والجحور، ولكن الفرق أن فعل الله جارٍ على سنن الطبيعة، وفعل الناس جارٍ بطريق القانون المدني، أفلا يقال إن أهل النار أشبه بالحيات والعقارب بالنسبة للصالحين، هانحن أولاء نشاهد حيواناً مختفياً لا يظهر، محتقراً منبوذاً كالعقارب، وحيواناً يطير مغرداً في جونا، ولم نر في هذا خروجاً عن النظام، بل رأيناه عدلاً، لأن لكل من الحيوانين وظيفة يقوم بها، وإذن نظام الجنة والنار يشبه بعض المشابهة عالمنا، وكما قلنا هناك حيات وعقارب وطير، نقول هناك أهل نار وأهل جنة. فقال صاحبي: هل هذا مجرد رأي طرأ لك أم لك دليل عقلي أو نقلي؟ فقلت: ألم أقدّم لك أننا هنا على الأرض في مثل هذا نكتفي بنور ضئيل من العلم، وأننا لم نؤت من العلم إلاّ قليلاً، وهذه المسائل أعجزت أكابر الحكماء والعلماء، ولكن يظهر لي أن زماننا وما بعده ستظهر فيه هذه الحقائق بقدر ما تتحمله عقولنا على هذه الأرض. فقال: كيف هذا؟ فقلت: هاهو ذا علم الأرواح قد جرى في هذه المسألة شوطاً بعيداً. فقال: هذا العلم غير موثوق به. قلت: نعم ولكن إذا رأيناه ينحو نحو الدين ذكرناه على سبيل أنه يكون موضع بحث وتنقيب لمن بعدنا. فقال: هات ما وقفت عليه. فقلت: يقولون إن هذه الحياة الدنيا لا تتم إلاّ بنظام أدبي ومدني مع الناس، وجميع الناس متساوون في الظاهر صالحهم وطالحهم، فهم جميعاً يتعاملون ببشاشة ومودة ولكن تختلف قلوبهم، فمن كان عنده قوة روحانية، أي: أنه يصنع المعروف من أجل الله الذي خلق السماوات والأرض ولأجل حب الناس، كما يفعل الأبوان مع الأبناء، فهذا من أهل الجنة، ومن يكون صالحاً ظاهراً ولولا القانون أو الصيت والذكر الحسن ومراعاتهما لاستحوذ على مال غيره أو زنى أو سرق الخ، فهذا من أهل جهنم، وهم درجات بعضها فوق بعض، ويقولون: إنهم شاهدوا أن الذين زهدوا في الدنيا وانقطعوا عن الناس درجاتهم في عالم الأرواح منحطة متأخرة،

لأنهم لم ينفعوا الناس ولم يظهروا ما كمن في نفوسهم من القوى والقدر والعواطف التي جعلت الدنيا لإظهارها، وهي أجنحة يطير بها الناس في عالم الأرواح، فللأرواح هناك أعمال وإدارات في نظام ثابت، ولكل امرئ من العمل على مقدار ما استعد له في الدنيا، فهم يقومون بأمر ربهم في إدارة عوالم يجهلها أكثر أهل الأرض، ولن يكون هناك أحد في عمل إلاّ ما استعد له في الدنيا، وعلى مقدار العلم وحب الخير والصدق والإخلاص يكون الارتقاء، وليس المعنى أن ذلك أعمال تكليف، كلا وإنّما هي أعمال تكون سليقة في النفس لذيذة، كما في الحديث: «يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون أنتم النفس»، ولذلك تكون النفوس المنحطة في الدنيا التي لا عمل لها إلاّ الغيبة والنميمة أو السرقة أو إيذاء الناس في أعمال أشبه بما كانت عليه في الدنيا، وذلك في جهنم فهم دائماً في تشاجر ومقاتلة وعذاب واصب، وبعضهم يلحق بالجن فيلقي بالوساوس في صدور من استعدوا لذلك من الناس في الأرض، فهم هناك أشبه بالحيوانات الذرية في أرضنا لهم وظائف، إذ لا معطل في الوجود، حتى قال بعض علماء الأرواح وهو الأستاذ «سونبرج» في صفحة ١٥٨ ما ملخصه:

«إن الغم والكدر الذي يحس به الإنسان إنّما يحصل غالباً من أرواح شريرة كانت في الدنيا وصارت بعد الموت ملحقة بالجن، فهذه الأرواح مغرمة بإلقاء الغم في النفس عند استعدادها لذلك بفساد الطعام في المعدة، وفساد الطعام فيها، وعدم هضمه، عند تلك الأرواح الشريرة، أشبه بقذارة العين عند الذباب، فكما يقع الذباب على العين لقذارتها، تقع هذه الأرواح الشريرة على النفوس التي لم يهضم طعامها فتلقى الغم فيها». انتهى ملخصاً.

وهكذا قال في موضع آخر من الكتاب: «إن تلك الأرواح الشريرة تشم روائح الشر والاستعداد له كما تشم الكلاب رائحة الرمم في الأرض».

وأيضاً قال: «إن بعضها يجلس في مؤخر الرأس ويوسوس للإنسان».

أقول: ومن عجب أنه ورد في بعض الأحاديث ما يفيد أن الشيطان هو الذي يغري الإنسان بعدم الاستيقاظ من النوم، وذلك مذكور في كتب الشافعية في كتاب الطهارة فراجعه إن شئت، وفيه: «إن الشيطان يقعد على رأس أحدكم» الخ.

ويقولون: إنهم شاهدوا أرواحاً لما ماتت طلبت من الملائكة وهم استأذنوا من الله أن يدخلهم الجنة، فأجيبت تلك الأرواح إن الله لا يمنع أحداً من دخول الجنة لا طائعاً ولا عاصياً، والمانع هو الاستعداد، فانطلقت إلى باب الجنة فضاقت صدورها ولم تقدر أن تتنفس في ذلك الجو اللطيف فرجعت حالاً. فقال صاحبي: إنك بما قدمت من أن كلام الأرواح المذكور يكون محل بحث قد خرجت من عهدته، ووكلت الأمر إلى النظر العام، ولكن أسألك سؤالاً واحداً، هل ما ذكرته عنهم من أن الانقطاع عن العمل إلى العبادة مؤخر للناس بعد الموت، حق أنا أسأل هذا السؤال، لأن الناس حينما يقرؤون هذا القول يؤثر في نفوسهم بعض الأثر، فيظنون أن الانقطاع للعبادة محرم، وهذا لا يقول به أحد من المسلمين، إن المنقطعين للعبادة هم أو كلهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقلت: اعلم أن الأمم الإسلامية المتأخرة كثير منها قد حجب عن حقيقة الدين الإسلامي الذي كان عليه الصحابة والتابعون، فاقرأ كتاب «بداية الهداية» للإمام الغزالي، فإنه يقول في أوله ما

ملخصه: «على الطالب أن يجدّ في العبادة في أول أمره حتى تصير له سجية سهلة وملكة راسخة، وحينئذ يطلب العلم، وليقتصر من العبادة على ما هو المعتاد المعروف فيها، فإن عجز عن العلم فليساعد الناس بالأعمال العامة والخاصة كالأهل والأقارب والوطن، فإن عجز عن هذا وذاك فليلزم العبادة، فما تقوله تلك الأرواح هو ما سمعته عنه لأنهم يقولون إن ارتقاء الروح بوجدانها لا يتم في محراب الصلاة إلاّ بانضمام عمل الخير وفهم الحقائق إلى العبادة، فأما إرادة الخير للناس بلا عمل فلا نتيجة له، فحب الخير للناس والعمل له ومعرفة الحقائق الإلهية كل ذلك هو المعراج بعد الموت ويوم القيامة». انتهى.

قال: قد اكتفيت بهذا فأرجو أن تتم ما تقوله عن الأرواح.

فقلت: إن تلك الأرواح كما قلت لك التي لم تقدر على دخول الجنة هوت حالاً إلى جهنم ورجلاها أعلاها ورؤوسها أسفل. فقال: وهل ورد في ديننا هذا؟ فقلت: قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[الإسراء: ٧٢] وقال: ﴿ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴾[الشعراء: ٩٤-٩٥] وآيات كثيرة في ذلك. ثم قلت: ويقولون طلبت أرواح أخرى من الأشرار أن تدخل الجنة فلم تقدر، فسألت عن المانع لها، فقيل هو استعدادك وأخلاقك وعوائدك وأحوالك، فقالت: انتزعوها مني، فانتزعوها فأصبحت تلك الأرواح كالمغشي عليه من الموت فهي في الجنة لا تحس ولا تعي، فاضطرت الملائكة بإذن ربها أن ترجع لها أخلاقها، فاستيقظت وطرحت نفسها حالاً في جهنم بدون اعتراض منها لأنها علمت أن هذا في حيز الذي لا يمكن.

يقولون أيضاً: كم من الأرواح جاءت إلى الجنة ودخلت وضاق نفسها فرجعت أسرع من البرق إلى جهنم مع أمثالها، وفرحت بلقاء الأشرار تقاتلهم ويقاتلونها كما كانوا في الدنيا وكل منهم عذاب للآخر، وهم في عذاب واصب وليس هناك لهؤلاء قدرة على حياة غير هذه، قالوا: وهذه النفوس لا تقدر أن تتحول عن أخلاقها بعد الموت، فأما حياتنا الدنيا فهي الفرصة الوحيدة لتهذيب الأخلاق وتقوية المدارك الروحية والعلم بالله وبعوالمه. فقال صاحبي: هل رأيت أحداً في الإسلام قال ذلك؟ قلت: الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة»، قال: إن كلاً من أهل المدينة الفاضلة يعيش في وظيفته الخاصة به فرحاً بها، وبعد الموت يكونون متحابين على نظام جميل، أما الأشرار فهم جميعهم في عذاب واصب يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً، ويقرب منه الإمام الغزالي في الإحياء، فلقد ذكر أن العبادة والأعمال الصالحة إذا كانت لأجل الثواب في الآخرة لا غير وليست معها معارف قلبية وحب لله تعالى فإن صاحبها بعد الموت يدخل الجنة الحسية ذات الأكل والشرب ونحوهما، أما أعلى الجنة ومسكنها النفوس العالية التي تكون قريبة من ربها فذلك خاص بنفوس عارفة أمر ربها مستغرقة في جماله وكماله، فاقرأ ما نقلته عنه في أوائل سورة «البقرة» عند ذكر الجنة والنار، وأن العارفين هم الذين يفرحون هناك بالعجائب الإلهية، وأما سواهم من العامة وعلماء الدين الذين هم أقرب إلى العامة فهم إذا صلحوا يكونون في تلك الدرجة المذكورة.

فقال صاحبي: ما ملخص هذا المقال؟ فقلت: ملخصه أن نظام الله في الدنيا وفي الآخرة نظام واحد وعدله عدل منظم لا تفاوت فيه، فأهل النار لا يقدرون أن يعيشوا في الجنة، كما أن الحيات لا

تعيش مع الناس في الدنيا، إذن العدل ظاهر واضح على مقدار عقولنا نحن في الأرض الآن، فالعدل في الجمهورية اقتضى وضع الزراع والصناع تحت أمر الجند وحراس المدينة، ووضع الجند تحت أمر الحراس وبغير ذلك لا يكون عدل، وهكذا الطير والحيات والسمك في هذه الطبيعة وضع كلّ منها في موضعه، وهكذا أهل الجنة والنار نفوس تربت في الأرض على حب نفسها وحظوظها لا تقدر أن تعيش في الجنة وإذا فقدت صفاتها صارت كالميتة، ونفوس عاشت محبة لله وللناس فهذه تكون مشاهدة لربها تعيش مع ملائكته فهذه لا تقدر أن تعيش في النار وإنّما تعيش بجوار ربها.

هذا قصارى الأمر وحماداه، فرجع أمر الدنيا إلى العدل ووضع كل شيء في موضعه، إذن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ الخ [النحل: ٩٠]، موافق لما تقدم في هذا المقام من ذكر النحل وذوات اللبن والطير، فقد ذكرها أولاً لنقرأها فنعرف عدله في وضعها ونقيس عليه العدل في مدننا كما ذكره أفلاطون، وهكذا عدله في جنته وناره، فرجع الأمر إلى الإمكان وعدم الإمكان وقدرة الله لا تعلق لها إلاّ بالممكن، فالله لا يخلق المستحيل، وعلماء الأرواح يقولون: إن رجوع الروح الشريرة عن أخلاقها مستحيل بعد الموت كما يستحيل أن تتغير أخلاق الحيات والعقارب والحيوانات الذرية، ولا تغيير لها إلاّ بإعدامها من الوجود، هذا ما فتح الله به في مسألة العدل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النحل: ٩٠] الخ، والحمد لله رب العالمين.

النظرة الثالثة

وهي الكلام على تلخيص المقالة الأولى والثانية من كتاب السياسة المدنية، أوضح مما تقدم إنه افتتح المحاورة بكلام جرى بين «سقراط» و«سيفالوس» في الشيخوخة وحذر الموت، فأدّاهم سياق المحادثة إلى ذكر العدالة وما هي، فقال بعض الحاضرين: إنها الصدق في القول وأن تردّ لكل أحد ما هو له، فعارضه «سقراط» بأنه لا يسوغ أن ترد السلاح لمالكه إذا جنّ الليل، ولا أن تصدق مع من أشرف على الموت بأن تقول له ما هو عليه من خطر الهلاك، ثم قال بعض الحاضرين: إن العدل إنّما هو مصلحة القوي القادر، فمن كان أكثر قدرة كان أكثر حقاً، وتمثل لذلك بما يقع في المدينة فإن الأحكام فيها إنّما هي عبارة عن رأي الأكثر، أو من بيده زمام الأمور فيما يفعله فهو عن عدل، ويؤيده رأي الجمهور في ذلك، فقد نشاهد القوي الجائر سعيداً مغبوطاً والعدل الضعيف شقياً محتقراً، وبالجملة فلا سعادة ولا عدل إلاّ في القدرة والقوة، ولا اعتبار فيه بالحقوق، فعارضه «سقراط» بأن القصد لمن له الرياسة في المدينة غما هو مصلحة الرعية، كما أن قصد الراعي إنّما هو مصلحة القطيع الموكول لحراسته، وقصد الطبيب مصلحة المريض، وقصد الملاح مصلحة السفينة، وعلى ذلك فمن له ولاية على غيره لا يقصد مصلحته الخصوصية من حيث هو مولى على غيره، بل منفعة من تولى عليه، وذلك عبارة عن مصلحة الضعيف المفتقر إلى الولاية لا لمصلحة من تولى عليه، فإن تعدى وجار لم يكن بوالٍ حقاً، كما لا يكون الطبيب طبيباً، ولا الراعي راعياً، إذا كان له مقاصد غير مصلحة المريض والقطيع، فلا يطلق عليه حينئذ اسم الطبيب والراعي، وعلى فرض إمكانه، فإن مثل ذلك الوالي لا ينال غرضه من السعادة والراحة، إذ يكون حاله أسخف بكثير ممن لازم الحق وأوفى بما يجب عليه، وبيانه أنه لا يمكن لشركة ولا لاجتماع إنساني كائناً ما كان أن يستقيم

ويدوم إلاّ بإقامة العدل، فاللصوص وقطاع الطريق إذا اشتركوا جعلوا فيما بينهم نوعاً ما من العدل، وإلا فلا تدوم شركتهم ولا ساعة واحدة، وإذا سلمنا قول القائل: إن الجوهر هو عين الحق والسعادة، وأخذ جميع الناس بهذا القول فاعتادوا التعدي بعضهم على بعض، فقد يصير الاجتماع الإنساني إلى الفتنة الدائمة والحرب المستمر، فأي سعادة في مثل هذه الهيئة؟ وإذا فرضنا أن يتغلب الواحد على الباقين ويتسلط عليهم بقوته، فإنه لا ينال من السعادة ما كان يقصده، إذ لكل حيوان ولكل شيء في الوجود غاية يقصدها، وهو قد تهيأ لها بطبيعته، فالعين معدّة للإبصار والسكين للقطع والفرس للسبق، والغاية التي أعدّ لها الشيء هي قدرته التي فيها خيره، فنفس الإنسانية قد أعدت للفكر والتدبير والمعرفة، فهذه قدرتها التي فيها خيرها وسعادتها بخلاف ما إذا جارت وفسدت، فإنها قد تخرج عن وظيفتها واستعدادها الذاتي فلا تعيش سعيدة، وبهذا ختم سقراط قوله في المقالة الأولى، فأنشأ اثنان من الحاضرين في معارضة سقراط في صدر المقالة الثانية فقالا: إن العدل ليس بشيء طبيعي للإنسان، وإنّما هو أمر وضعي قد تواطأ عليه الناس طلباً للراحة من شر بعضهم وخوفاً من العقوبة، ومصداقه أنه لو تيقن أحدهم الأمن من العقوبة كما لو كان بيده خاتم يغيب به عن رؤية الحاضرين لارتكب كل فاحشة بلا توقف، ثم ما نشاهده في الحالة الراهنة، ألم نر أن الغني الظالم محسوداً متسلطاً على غيره قادراً على الخير والشر؟ ألم نر الرجل العدل القويم في سيرته متروكاً في زاوية الخمول مضغوطاً إذا كان فقيراً وضعيفاً، فهذا يدل على ما يعتقده الجمهور في خصوص العدل وخلافه، وإذا رأى الصبي الحديث السن مثل ذلك كيف يختار العدل وما يتبعه من الذلة والمتاعب والعجز عن الخير، وهو يشاهد ميل الناس إلى خلافه، فإذا كان ذكياً فطناً اكتفى من الاستقامة بظاهرها وسعى أن يرى رجلاً خيراً، واتبع هواه في الباقي فكان عاقلاً سعيداً، ومن سواه فهو إما عاجز وإما مجنون، فأجاب سقراط: إن مثل هذه الإشكالات لا تنحل إلاّ بعد استقصاء البحث عن العدل وجوهره بدون التفات لما تراه العامة في خصوصه، أو إلى كونه نافعاً أو مضراً، فإنا إذا ظفرنا بتعيين ماهية العدل ونسبته إلى نفس الإنسان فقد يمكن معرفة ما ينفع وما يضر حقيقة، وهل ينبغي اختيار الجور عليه؟ وعلى ذلك يكون مدار البحث على أمرين: أولهما: ماهية العدل. ثانيهما: هل سعادة الإنسان موقوفة على العدل أم على غيره؟ قال: لما كان الإنسان والمدنية طبيعة واحدة فقد يسهل علينا معرفة العدل الإنساني إذا تأملناه في المدينة، كما يسهل قراءة الكتاب إذا كان مكتوباً بحروف كبيرة غليظة، فإذا وجدنا ما هو العدل في المدينة، لا يصعب معرفة ما هو في الأفراد، فابتدأ قوله في البحث عن منشأ الاجتماع الإنساني وأن الأصل فيه إنّما هو افتقار البشر بعضهم إلى بعض لسد حاجة كل منهم من مأكل وملبس ومسكن، فأداهم ذلك إلى الاجتماع للتعاون والتمانع وتوزعت بينهم الأشغال، فمنه نشأ اختلاف الصنائع ثم المقايضة والمعاوضة والتجارة، وصورة العدل في مثل هذه الدرجة من الاجتماع إنّما هي حفظ المساواة والمعادلة فيما يتقارضونه من نتائج أشغالهم، ثم نما التمدن وكثرت أسباب الثروة، فدعت الحاجة إلى إقامة حكام محافظة على العدل، وإقامة حراس لدفع العدوان والظلم وحراسة المدينة من أعدائها، فهذه أول المسائل التي تعرض لنا في تأسيس المدينة، وهي مسألة ترشيح أهل هذين الصنفين، أي الحكام والحراس. انتهى.

هذا ما أردت نقله من كلام أفلاطون، والمطلع على قوله يرى أنهم يصلون إلى درجة القرب من الحق تعالى، وهذا عجيب في أمم جاءت قبل الإسلام بتسعة قرون، مما يدلنا أن الله عزَّ وجلَّ تجلى على أمم قبلنا وأنار البصائر لكثير من الناس فهو الأول والآخر، ولكن أفلاطون كان غرامه في العلم بالعلوم الرياضية ومنها الفلك، وبعلم الأخلاق، أما علوم الطبيعة فلم تكن له بها عناية، وهنا في القرآن جاء ذكر علوم الطبيعة قبل هذه الآية، والتعليم العصري في أوروبا يفوق ما عند اليونان ببزوغ شمس الطبيعة في أفق المدنية الحاضرة، فانظر وتعجب كيف سبق القرآن كل أمة، وكيف شرح علم الطبيعة ثم أتبعه بالعدل والإحسان، فما أعجب العلم والدين! ويا ليت شعري، هل يعلم المسلمون بعد اليوم هذه العلوم؟ وهل يفتشون على علوم الأمم فيأخذون بالأحسن منها؟ وهل يعرفون أن القرآن في هذا الأسلوب تخطى حكماء اليونان وجاوزهم، وأتى بآخر أسلوب للتعليم، فهو يجمع بين الرياضي والطبيعي، فأما أفلاطون فغرامه بالرياضي، أفلا ترى هذه السورة وكيف جمع فيها الطبيعيات مع الرياضيات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[النحل:١٢]، وفي قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل:١٦]، فهاهو ذا مزج الطبيعي بالرياضي، إن المسلمين والله لغافلون عن هذا القرآن وعن علوم العالم كاليونان وكأوروبا وأمريكا، إن هذه التعاليم عندهم، ونحن ساهون لاهون، فانظر كيف كانت هذه الكلمة قد ألفت عليها كتب ونشرت لها علوم، نعم إن الأمة الإسلامية عندها علم الفقه وقد تبحروا فيه، ولكن نريد أن تزيد المباحث وأن يكون القرآن مرجع هذه الحكم.

ومما بحثه أفلاطون في كتابه أنه يجب على القائمين بالعدل في الدولة أن يمنعوا الناس من كثرة الضحك لأنه يضعف قلوبهم، وأيضاً لا يخوفونهم من الموت لئلا يجبنوا عن لقاء العدو، بل ينشرون ما يزيل ذلك الخوف، وجاء في الحديث الشريف النهي عن كثرة الضحك، وجاء في القرآن بشارات للمجاهدين وللذين قتلوا في سبيل الله. انتهى الكلام على العدل مختصراً.

الإحسان

أما الإحسان فهو على مناحٍ شتى: كالإحسان في الصناعات والأعمال، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧]، والإحسان في الطاعات، وهذا على قسمين: الأول: الزيادة فيها بالنوافل، ويدخل فيه الإحسان للناس. والثاني: إتمامها، كحضور القلب في الصلاة والإخلاص في الصدقات، وأما إيتاء ذي القربى فهو معلوم مما تقدم.

(١) إذا علمت هذا وسمعت قول ابن عباس: «العدل شهادة أن لا إله إلاّ الله، والإحسان أداء الفرائض»، فاعلم أن ذلك داخل فيما ذكرناه، لأن هذه شهادة حق وهي من العدل، وأداء الفرائض عمل، والعمل أحقّ بالإحسان.

(٢) وإذا سمعته يقول: «العدل خلع الأنداد، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»، فالأول ظاهر والثاني كذلك، لأن العابد إذا غفل في الصلاة عن المعبود وغاب عنه قلبه، فذلك لم يحسن ولم يتقن عمله، فليس عمله حسناً، والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧] فالإحسان في الصنعة أن تكون نضرة بهجة متقنة، فهكذا في الصلاة.

ولعمري أيّ حسن في صلاة غفل صاحبها عن مخاطبة محبوبه الجميل، وهذه المخاطبة جميلة ومحبوبة ولها لذة وبهجة، ولكن لا يعقل ذلك الناس بل لا يصدقونه إلاّ إذا مرنوا زمناً طويلاً وتكلفوا ذلك التوجه في الفاتحة وفي أركان الصلاة وفي الدعوات بحيث يخاطبون ربهم كأنه أمامهم، وهناك يعرفون كيف أحسنوا أعمالهم، ويفهمون قوله صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه» وهذا خير إحسان.

أقسام الإحسان

واعلم أن أعمال الدين بضع وستون شعبة، أعلاها لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى من الطريق، وهذه البضع والستون قد ذكرها كلها صاحب النقاية وشرحها شرحاً وافياً، وليس المقام مقام نقل كتب ولكن لا بد من فهم الغرض منها كما فعلنا في جمهورية أفلاطون، لئلا يشذ عنك شيء ينبغي الاطلاع عليه، ولتقف على عجائب العلم في هذا القرآن.

فانظر كيف يقول الحديث: إن الإسلام بضع وستون شعبة، وكيف جعل لها أعلى وأسفل، وجعل الأسفل إماطة الأذى من الطريق والأعلى لا إله إلاّ الله، أفلست ترى أن جميع أعمال الحياة دخلت في هذا القول، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»، فإنه ذكر لنا شعبة واحدة من شعب الدين ليمثل لنا الإحسان، والإحسان يشمل الشعب كلها من إماطة الأذى من الطريق إلى عبادة الله كأننا نراه، إن عبادة الله كأننا نراه يستحيل أن تتم ولا تنتظم إلاّ ببقية شعب الإيمان، فلا بد من نظام الأمة كله، فالطرق منظمة والجنود مكملة والحكومة قائمة والثغور عامرة وكل شيء تام، وما مثل الدين وشعبه إلاّ كمثل الجسم الإنساني لا يتم له تفكير إلاّ بعد أن تكون له معدة وأمعاء وحواس ويدان ورجلان، فهذه كلها آلات للحياة، ولا فكر للإنسان إلاّ إذا وجدت هذه كلها فالدين كذلك، فالعبادة وإحسانها أشبه بعقل الإنسان، وبقية الشعب كبقية الجسم، وكما لا يتم التعقل إلاّ بتمام الجسم ولوازمه، هكذا لا تستقيم لنا عبادة وحضور قلب مع ربنا إلاّ بإحساننا كل شيء في أمتنا، وإلا فبالله كيف يستقر لنا قرار في مساجدنا وفي مصلانا والفرنجة كالإنجليز يريدون تحويل ماء النيل عن بلادنا، فإذا حولت فأين المصلون وأين العبادات؟ فضلاً عن اتجاه القلوب للمعبود، هناك لا عبادة ولا صلاة ولا دين ولا متدين، بل تزهق النفوس ويهلك الحرث والنسل، فليحسن المسلمون جميع أعمالهم وصناعاتهم، وإلا فليرحلوا من هذا العالم، وليخلق الله أمماً أخرى يقرؤون هذا القرآن ويفهمون كما نكتب الآن وفوق ما نكتب من علوم مخزونة عند الله تعالى.

(٣) وإذا سمعت ابن عباس أيضاً يقول: «الإحسان أن تحب للناس ما تحب لنفسك»، فهو ظاهر لأن هذا من شعب الإيمان وكلها يجب فيها الإحسان.

إن الشارع الذي أمر بنظافة أهم الأعضاء في الوضوء عمم جميعها في الغسل، لأنه يريد نظافة عامة هكذا في الأعمال، فإذا قال أحسن في عبادة ربك وتوجهك إليه، فإنه يقول أحسن في معاملتك مع الناس، بل أحسن في جميع أمور الحياة، فإذا لم يحسن المسلمون جميع الصناعات كما أحسنه الفرنجة أو أكبر فقد خالفوا ديننا، ولا فرق بين الإحسان للناس والإحسان في مخاطبة الله وإحسان الأعمال الصناعية والتجارية والكيمائية وغيرها، غاية الأمر أن العلم أرقى، ومخاطبة الله والتوجه إليه

والقرب منه هو المقصود الأعظم . وقد قلنا إن الإحسان فيه يستحيل إلاّ بدولة تحافظ على الناس حتى يقيموها ، ونرى أصحاب الديانات القديمة المنسوخة آمنين مطمئنين يؤدون عباداتهم في مصر ، ونحن في شغل شاغل لأننا لم نحسن سائر الأعمال حتى نحسن العبادات .

(٤) وإذا سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : « الإحسان أن تحب أن يزداد المؤمن إيماناً وأن تحب أن يكون الكافر مؤمناً ليكون أخاك » تكميلاً لكلامه السابق ، فهذا داخل فيما ذكرناه ، فيحب الإنسان الناس قاطبة .

(٥) وإذا سمعته في رواية أخرى يقول : « العدل التوحيد والإحسان الإخلاص » فهو فيما تقدم .

(٦) وإذا سمعت بعضهم يقول : « العدل المكافأة خيراً وشراً ، والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه » .

(٧) أو سمعت من يقول : « العدل الإنصاف باعترافك بالنعمة للمنعم ، والإحسان أن تحسن لمن أساء إليك » .

(٨) وإذا سمعت قول ابن عيينة : « العدل استواء السر والعلانية ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر والبغي أن تكون علانيتك أحسن من سريرتك » .

وهكذا من الأقوال المختلفة ، فاعلم أن هذا وعشرات أمثاله داخل فيما قررناه ، فكل عالم فكر في مسألة جزئية والقرآن أعمّ ، فأما النبوة لجلالة قدرها فورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عبادته كأننا نراه ، فذكر الأعلى وذكر بعض الشعب كأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك .

وبالإجمال ، الإحسان في كل شيء : العبادة والصناعة والتجارة والزراعة ، وكل هذا دين الإسلام وهذه كلها فروض كفايات فلا بد من إتقانها وإلا فلا حياة ، فهذا هو الدين وهذا هو العقل ، فليحسن المسلمون جميع الصناعات وإلا فليرحلوا من هذه الأرض الجميلة التي خلقها الله لأهل الجمال ، فأما الغافلون فخدم لعباده أهل الكمال والجمال والعلم والأخلاق ، فبذلك فليفرح المسلمون بما آتاهم الله في كتابه من العلوم النافعة ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف : ١٨٧] .

مزايا هذه الآية

قال ابن مسعود : إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية ، وقال أهل المعاني : لما قال الله تعالى في الآية الأولى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[النحل : ٨٩] ، بيّن في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الإجمال ، فما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يترك أو يؤتى إلاّ وقد اشتملت عليه هذه الآية .

وروى عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل : ٩٠] إلى آخر الآية ، فقال : يا ابن أخي ، أعد عليّ ، فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر .

وهذه الآية كانت سبب إسلام عثمان بن مظعون فإنه قال : ما كنت أسلمت إلاّ حياء منه عليه الصلاة والسلام لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام ، ولم يستقر الإيمان في قلبي حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده ، فاستقر الإيمان في قلبي .

وقال أبو جهل: إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق، وهي أجمع آية في القرآن للخير والشر ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر في آخر كل خطبة لأنها جامعة. هذا ما جاء في كتب التفسير. اهـ.

ثم أتبع هذه الآية بفروع تتفرع عليها وهي:

أولاً: نقض العهد وهو ضد العدل وقرين المنكر والبغي.

وثانياً: العمل الصالح وهو من الإحسان، ونتيجته الحياة الطيبة في الدنيا والثواب في الآخرة، والعمل الصالح هو الذي تم فيه الإحسان، وهو يعم جميع ما قررناه في الإحسان، وهو جميع أعمال الدولة وأعمال الإنسان نظافة وأدباً وأعمالاً عامة وهامة.

وثالثاً: أن العمل الصالح كما ينفع في الأمور المعيشية ينفع في دفع الوساوس الشيطانية، فإن الشيطان لا يجد وسيلة يدخل بها على الذي رتب أوقاته ونظمها وأحسن أعماله، لأن الحسن والجمال في الأعمال يعوّد النفس الجميل فلا تقبل القبيح، إن الشيطان لا سلطان له إلاَّ على الجهلاء والفسقة والبطالين، لأنهم معه، لأن أفئدتهم هواء، ومتى كان الهواء في الإناء دلّ على أنه ليس فيه ماء، وإذا أدخلنا الماء خرج الهواء، هكذا العقول متى أدخلنا فيها العلم والإرادة وكانت الأعمال وصحت العزائم لم يبق مجال لإبليس ولا الهوى، فالعمل هو السعادة، والنوم والكسل بلادة.

ورابعاً: قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾[النحل: ١٠١]، لجهلهم بحكمة التشريع في الآيات الناسخة والمنسوخة، وهذا من نوع المنكر والبغي والفحشاء أيضاً، لأنهم نطقوا بالقبيح وهو فحشاء، وظلموا بإنكار الحق وأضلوا غيرهم، فقد جمع هذه المنكرات.

وخامساً: أن هذا القرآن نزله روح القدس وهذا من نوع الإحسان.

وسادساً: أن قوماً لا يؤمنون بآيات الله اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه القرآن بواسطة روح القدس أنه ما علمه روح القدس، وإنّما علمه أعجميان هما سلمان الفارسي وعمار، وهذا غاية البغي.

وسابعاً: بيان أن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يخرج عن العدل ولم يدخل في باب المنكر والبغي، كأنه لما بيّن الأقسام المتقدمة ذكر ما اشتبه أمره ومن أي الأقسام هو فبيّنه هنا.

وثامناً: من شرح الصدور بالكفر وذلك من البغاة الظالمين.

وتاسعاً: مجادلة النفس أمام الخالق يوم القيامة عن نفسها، وهذا من العدل المنصوب بين الله وخلقه.

وعاشراً: القرية التي كانت آمنة مطمئنة ثم طغت وبغت فأهلكها الله، فهذا من البغي.

الحادي عشر: عدم العدل في الدين بتحريم الحلال في الأنعام والحرث، وهذا افتراء وكذب وبغي.

الثاني عشر: قصص إبراهيم الخليل عليه السلام ومزاياه الشريفة، واتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم له في طريقه، وهذا من الإحسان.

ختام السورة

ثم ختم السورة بما يجمع سائر ما فيها، فإن الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة تَجمع كل ما تقدم كما أوضحناه سابقاً، وأما قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] الخ ففيه تطبيق على آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[النحل: ٩٠]، فقوله: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾

هو العدل، وقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[النحل: ١٢٦] راجع للإحسان، ويتبعه قوله: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾[النحل: ١٢٧] الخ.

ثم ختم السورة كلها ما يفيد ما تقدم جميعه وما أطلنا به من نقل كلام العلماء والحكماء، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]، وقد عرفت الإحسان فيما قدمناه، فالله يكون مع المحسنين في أقوالهم وفي أفعالهم وفي صناعاتهم، فليتقن المسلمون صناعاتهم وليحسنوها، وليزيدوا في إكمال كل شيء، فقد تقدم أن الإحسان يشمل جميع وجوه الحياة كما أوضحناه.

تنبيه

وقد فاتني أن أنبه على العهد وإخلافه وقد أوضحناه في سورة «التوبة»، ولقد شدد الله في أمر العهد، ونام المسلمون عن العهود، وهذا هو الذي أوقعهم في نحس الطالع وسوء النكال، فترى بعضهم يكذبون في معاملاتهم ولا يصدقون في بيعهم وشرائهم، والأمم حولنا قد أدركت ذلك السر فعلموا أبناءهم صدق الوعد وعدم إخلاف العهود، فترى أمم أوروبا كاذبة في عهودها مع المسلمين لضعفهم، صادقة مع دول أوروبا لقوتها ومنفعتها، وترى تجارهم قد ضللوا الشرقيين حتى إنك ترى التاجر الأوروبي يشتري البضاعة من الصانع المصري ويبيعها ذلك الأوروبي على المصريين، لأنه عندهم أصدق من المصري وإن كان خادعاً لهم، وقد كسب في البضاعة مثلي ثمنها كما أخبرني بذلك صانع أحذية مصري، وذلك لأن الفرنجي يجعل الثمن واحداً وقد علاه كثيراً، فأما المسلم فإنه يحب أن يغالب في الممارسة ويكثر من المشاكسة والمساومة، فالبيع إنما هو مغالبة، وذلك يورث عدم الثقة وأيضاً يخلف الوعد ولا يصدق في معاملته، وإخلاف الوعد اليوم هو الداء الوحيد في هذه الأمم الشرقية، فإذا أخلفوا وعودهم لم يأمن بعضهم بعضاً في المعاملات لأنهم لا يثقون بموعد، فيهرعون إلى الفرنج، والفرنج هم الآكلون لأهل الشرق، هذه هي الأحوال العامة، ولكن الحمد لله في هذه الأيام قد ظهر في مصر وفي غيرها تجار عظام يفوقون الفرنجة في الموعد والنظافة والترتيب وإتقان العمل، وسيكون لهذه الأمة شأن إن شاء الله تعالى، وليس هذا الموضوع وما قبله بخارج عن قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨]، فالتقوى ترجع إلى الاحتراس من الفساد في العقائد والأقوال والأفعال، والإحسان راجع إلى الأعمال الجميلة، فالتقوى تخلية والإحسان تحلية، فليس يكفي في هذه الحياة الدنيا أن يكون المرء تاركاً للشر فإن الحجر كذلك، ولكن الرجل إنما هو النافع لغيره بعد نفع نفسه وإحسان أخلاقها، فالتقوى في هذه الآيات شملت كل ما جاء في السورة من أعمال السوء والاحتراس منها ومن جميع المنهيات، والإحسان شمل نظام كل شيء من عبادة ومعاملة مع الناس وعلوم وأخلاق، فالله مع من أحسنوا علومهم الرياضية وعلومهم الطبيعية وصناعاتهم المدنية وعباداتهم الإلهية وصلواتهم الدينية، وأحسنوا في طهاراتهم ونظافة ثيابهم ومعاشرة أهلهم، فكيف لا يكون الله معهم وهو يتولى الصالحين الذين صلحت نفوسهم وصلحت أعمالهم فكانوا للناس نوراً به يهتدون وغيثاً به يستبشرون، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

مذكرة عامة لسورة النحل وإيضاح لما سبق في السورة

لقد سميت هذه السورة باسم النحل كما سميت أخرى بالنمل وأخرى بالعنكبوت وأخرى بالبقرة وأخرى بالأنعام وأخرى بالفيل وأخرى ذكر فيها العاديات وهي الخيل.

فيا ليت شعري، كيف نام المسلمون قروناً وقروناً عن درس هذه المخلوقات درساً دينياً، وكيف نرى الفرنجة يعلمونها لأطفالهم في مدارسهم وبهذه الملاحظات ارتقت عقولهم.

اللهم إنك أنزلت القرآن وأظهرت هذه الحكم للمسلمين فعرفوها في القرون الأولى، وأخذ الملوك في أوائل الدولة العباسية يهرعون إلى ترجمة الحكمة عن اليونانية، كالمنصور والمأمون، ثم في أواخر القرن الرابع عشر كما هو واضح في سورة «الأنعام» سابقاً اعترى هذه الأمة مرض الجشع والشهوات والكسل، واكتفوا من العلوم بالشعر والغزل إلاّ قليلاً، فأزحت العلم من الشرق إلى الغرب لما حقر أهل بغداد وأهل قرطبة ـ أي الشرقيون والغربيون من المسلمين ـ العلم والحكمة، وحرق بعضهم كتب الغزالي، والآخرون حقروا علم ابن رشد، هنالك أخذت علومك منهم وأعطيتها للفرنجة، فنبغوا فيها وعرفوا سر النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من الحيوانات التي سميت بها السور إيقاظاً للناس، ولما عرفوها وعرفوا سائر العلوم ارتقت عقولهم فصاروا أعلم منا ونحن نائمون ثم إنك سلطتهم علينا كأنك تقول هاهم أولاء تلاميذ آبائكم صاروا أسبق منكم للعلم والحكمة، وارتقاؤهم إنّما كان بفضل القرآن، وليس معنى هذا أنهم قرؤوا الحيوانات لأجل القرآن، بل إن القرآن كان سبباً في إيقاظ العرب، وإيقاظ العرب أيقظ أوروبا تبعاً، ولما استيقظت أوروبا بعقولها لا بدينها أرسلتها إليكم لتذلكم فتستيقظون لهذه الدنيا وتعرفون مقصود كلامي، ولم سميت سور كتابكم بأسماء الحيوانات وأن هذه عناية مني بذلك، وكيف غفلتم عن حكمتي في التسمية، أنا لم أسم سورة باسم الصلاة ولا الزكاة ولا الوضوء ولا البيع ولا الميراث ولا القضاء، بل كان جلّ عنايتي بالتسمية راجعة إلى الحيوان وإلى عجائب خلقي، ذلك لأريكم أني لطيف بالعباد لا أفرق في العناية بين الفيل والبقة في نظام أعضائها، ولتعرفوا حكمتي فتحبوني وتحبوا لقائي وتنظموا مدنكم وترقوا شعوبكم، فلما طغيتم وبغيتم أمتكم قروناً وقروناً، وهاأنا ذا أسلط عليكم عبادي لترجعوا إلى القرآن والدين، فتدرسوا هذه الدنيا وعلومها دراسة أعلى.

يقول مؤلف هذا التفسير: إن كل من اطلع على هذا القول مسؤول عن أمته وعن دينه أمام الله، فلينشر كل من أهل العلم والجاه هذه الفكرة، وليعلم أن الطفل في بلاد أوروبا يعرف من هذا الجمال والحكم ما يجهله الكبار في بلاد الإسلام، ويعرف ذلك من درس كتبهم واطلع على علومهم، فليقرن المسلمون العلم بالعمل، ولتؤلف كتب للصغار وأخرى للكبار، فأما للصغار فليكتب شذرات من عجائب هذا العالم، وأما للكبار فليدرس نفس علم الحيوان والنبات وغيرها، إن كتابتي لهذا أصبحت فرض عين عليّ لإلمامي بها، وقراءته إما فرض كفاية أي لمن يقرؤون العلوم للمنافع الدنيوية وفرض عين على كل من أمكنه الازدياد من العلم، ولا مانع يمنعه ليكون زيادة في توحيده وشكراً لربه، فهذا من أعظم الشكر كما هو موضح في كتاب الشكر من الإحياء للإمام الغزالي. اهـ.

نظرة عامة في هذه السورة

اعلم أن هذه السورة قد ملئت بالعلوم والمعارف والحكمة، فقد جاء بها خلق الأنعام والبهائم والإنسان والزروع والبحار وما فيها من الحلي الجميلة وكذا الحشرات والطير، تذكيراً للمسلمين وتعليماً للجاهلين، وذكر الرأفة والرحمة عند ذكر الأنعام اللاتي فيها الدفء والمنافع والأكل، وأتم تعداد النعم بذكر دروع الحرب وأعقبها بأنه يتم النعمة علينا، فهاهنا أمران: رأفة ورحمة في أول السورة، وتذكر بالنعم قبيل آخرها.

هاهو ذا سبحانه لم يذكر إتمام النعمة علينا إلاَّ عقب ذكر الدروع في الحرب، وهاهو ذا يقول في أول السورة: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ٧]، مؤكداً بـ« إن » و« اللام »، ظهرت رأفة الله ورحمته في خلق الأنعام إذ نأكل ونشرب ألبانها ونتجمل بها وهكذا.

إن هذه الرحمة واضحة للجاهل والعالم، ولكن صناعة الحرب والوقاية منها أمرها مزدوج يعسر فهم الرحمة فيه، فلذلك عبر بالنعمة، والنعمة قد تكون بمكروه وقد تكون بمحبوب، فالطبيب نعمة على المريض وإن كان الدواء مراً، والمعلم على المتعلم نعمة وإن منعه الراحة.

إذن النعم التي في هذه الدنيا إما ظاهرة الرحمة فيها وإما أن تكون خفية، فما ظهرت الرحمة فيها يعرفها الناس، وما لم تظهر فيها الرأفة والرحمة لا تعرف إلاَّ بالبحث والتنقيب، فالنعمة تكون بما تألفه النفس وما لا تألفه، والرحمة أكثر ظهورها فيما تألفه النفس، وهذا نفس ما جاء في « الفاتحة »، فالله ربى العالمين بأمرين: الرحمة والقهر، وللأول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وللثاني: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، هكذا الوالدان الأم للرحمة والرأفة، والأب للتربية العملية فيوجهه للمطالب النافعة له مراعياً المصلحة لا الرأفة به، الله والعوالم والأب والأم.

وكما أن الأم للشفقة المتناهية التي ترجع أكثرها إلى مصلحته وتغذيته وتنميته، والأب لإصلاح عقله وترقيته ناظراً لمستقبله، هكذا بعد أن يستقل في أمور الحياة يتخذ له أماً أعظم من أمه، ويقوم الرب بالعناية بارتقائه بدل أبيه، وبيانه أن ما ذكر في هذه السورة من الأنعام والبهائم واللبن والعسل والشعر والصوف كل ذلك أعدّ للإنسان بعد فراقه لبن أمه، فبعد أن كان يعيش على لبن أمه أصبح يعيش بأغذية الأم الكبرى وهي الأرض، ففيها النبات والحيوان وأنواع الأغذية، أعدها الله له في أمه الكبرى، فكما أمدته أمه باللبن أمدته الأرض بهذه الأغذية، وكما أن أمه الصغرى لم تذره بلا عمل بل كانت تكلفه أمه أن يقدم فمه إلى ثديها ليرضع، وهذه كلها أعمال تناسب الأطفال، هكذا أمه الكبرى كلفته أعمالاً مناسبة لقوته وللفائدة التي سيجنيها من الأغذية التي عليها، وكما رأينا أباه وجهه إلى العمل والدرس والصناعة وأتعبه في ذلك وشغله، هكذا نرى الله الذي قام برعايته أكثر من أبيه قد فتح له مدارس الحوادث الجوية والحر والبرد والصواعق والحيوانات المفترسة والقاتلة كالتي تحدث الطاعون والتيفوس والكوليرا، وهكذا فإن هذه سلطها الله على هذا الإنسان ليجدّ وينصب في اتقاء شرّها ودفع أذاها، فيتقي الحر والبرد بالملابس، والأسود والنمور باتخاذ المساكن وحفظ البلاد والاستعداد للطوارئ ويتقي الحيوانات الذرية المحدثة للطاعون بأدوية قاتلة لتلك الحيوانات الداخلة في جسمه المهلك للجموع الكبيرة من نوع الإنسان، ويتقي الأعداء من نوع الإنسان بالحصون والدروع الخ، وذلك

ليدربه على التعقل والتفكر والأعمال الصناعية والعلمية ، فلولا اتقاء الحر والبرد وحب التجمل والزينة لم تكن تلك المعامل التي تصنع فيها الأنسجة ، ولولا أنواع الأوبئة والطاعون التي تحصد الناس حصداً ما نبغ النابغون في علم الطب وظهرت في الإنسان قوى انتفعت بها الإنسانية ، ولولا الحرب بين الدول والممالك ما ظهرت تلك الصناعات العظيمة في بناء السفن في البحار والحصون في البلاد والأسلحة العظيمة ، وكل ذلك استخراج لأسرار المادة والعقول .

أفلست ترى أن ذلك من الله استخراج للقوى والقدر في نوع الإنسان وفي الأرض ، وكما أن الأرض في إعدادها الأغذية والمنافع المذكورة في هذه السورة بإذن الله أبرّ بالإنسان من أمه وأرحم ، هكذا الله عزّ وجلّ في إرسال الصواعق والحوادث الجوية على الإنسان في الأرض ، وإيقاد نيران الحرب بين الأمم ، وحصد أرواحهم بأنواع الطاعون والوباء ، قد علم الإنسان وفتح له أبواب التبصرة والتذكرة أكثر من تعليم أبيه له وتدريبه على زراعة أو صناعة ، فإذا كان نظر الأب قد أدرك العاقبة فحسب حساب مستقبله فحمله على العمل ، فالله لم يذره في راحة وطمأنينة تورثه الخيبة والذل والهوان ، بل جعل له في مقابل كل نعمة نقمة ، فإذا خلق له الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير فقد خلق له نظيرها أسوداً ونموراً وذئاباً ووحوشاً أخرى ، وإذا خلق له النحل ليشرب عسله ويتعجب من هندسة بيوته ، وهكذا حشرات أخرى كثيرة لتلقح زرعه وحيوانات ذرية « المكروبات » تنفع في تحليل المادة في الأرض لتستعدّ لتغذية الزرع بها ، والكرات الحمراء في دمه لحياته وصحته ، هكذا خلق له في مقابل ذلك كله الحيات والعقارب والحيوانات الذرية التي تحدث الطاعون والتيفوس والجدري والحصباء ، وإذا جعل الله الأمم ينفع بعضهم بعضاً وهذا رجال الأمة الواحدة يتعاونون والأهل والأقارب والأرحام كل لكل مساعد ، فهاهو ذا سبحانه قابل كل نعمة من هذه بنقمة من جنسها ، فالدول تقع بينها الحروب والأصحاب معرّضون للخلاف والشقاق والعداوة القضايا ، أما الأقارب فحدّث عن الحسد ولا حرج .

أقول : أنا أعتقد أيها الأخ الذكي أنك الآن أمامك صورة واضحة مشاهدة معلومة من هذا الوجود تستبين بها أن الله جعل نقمة في مقابلة نعمة ، وأن هذه النقم مدارس يربى فيها الناس ، وهذه التربية التي ليست بحرف ولا صوت بل هي تربية صامتة أرقى من تربية الأب الذي لا يفكر إلاَّ في أن يعلمه كيف يحصل قوته ويحفظ أسرته بعد موته ، فثبت بهذا أن الأرض وضعها الله بدل الأم وهي أرحم بالإنسان من أمه ، وأشار لذلك بقوله في أول السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ٧] وأن الله بما خلق من أصناف المؤذيات المهلكات في مقابلة النعم بحيث لم يذر نعمة إلاَّ قابلها بنقمة قد أعد له بذلك مدارس منظمات مفتوحات لا تذره ينام لحظة ، فإن سار في الأرض بلا احتراس افترسته السباع ، وإن جلس في مكان وهو ساه لدغته الحيات ، وإن نام في فراشه أو جلس في بيته وهو غير مستيقظ لنظافة بدنه أو ثوبه أو مكانه تلقته تلك الجموع من القمل والبراغيث والبق ، وإن نامت الأمة وادعة ساهية لاهية تألبت عليها جيرانها من الدول وأقبلت إليها يقتسمونها فيصبحون عبيداً بعد أن كانوا سادة مكرمين ، وإن تركوا علم الطب وناموا على وساد الراحة الوثير تحالفت عليهم جيوش الحيوانات الذرية ففتكوا بهم فتكاً ذريعاً فأفنوا أكثرهم وهم ساهون لاهون ، فهذه مدارس الله التي أزعجت

الناس فارتقوا في الطب والصناعات وفتحت بصائرهم . أليس هذا هو معنى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، فالرحمة المذكورة في « الفاتحة » والمذكورة في أوائل سورة « النحل » هي التي قامت بها الأمم وقامت بها الأرض مما ذكر في هذه السورة وغيرها ، والشدة المأخوذة من قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ومن قوله : ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ ﴾[النحل : ٨١] ، في هذه السورة نعمة ، فالوقاية بالدروع من الحرب نعمة والسلاح والكراع نعمة ، ولا جرم أن لابس الدرع محارب ، فتكون القدرة على الحرب نعمة ، وهكذا كل ما أحدث لنا جداً وعملاً لنحترس منه ، كل ذلك نعمة كنعمة اتقاء الهلاك بالدروع .

فانظر وتعجب ، رحمة وشدة في « الفاتحة » مرتبتان ذكرا كما رتبتا وضعاً ، هكذا هما في النحل رحمة ثم نعمة مقرونة بالحرب ، وهكذا أم الولد أولاً ثم أبوه يتلقاه لترقية قواه ، تشابه الوضع الطبيعي والوضع العلمي الديني ، رحمة فشدة في « الفاتحة » وهكذا في سورة « النحل » وفي سير حياة الإنسان .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذا المقال حسن ، ولكن ليس ببليغ ، إن البلاغة أن يطابق الكلام مقتضى الحال ، وليس مقتضى الحال أن تشرح النعمة والنقمة واللين والشدة وتطابق الأمور وتترك القول سبهللاً ، جعلت النقم والحوادث والمصائب في الطبيعة أشبه بشدة الأب على ابنه ، وجعلت نعم النبات والحيوان والأغذية أشبه بالرأفة المتناهية والرحمة ، هذا كل ما قلته ، ولكن مقتضى الحال أن تثبت ما تقول ، إن كثيراً من المؤلفين يحلو كلامهم وتجود عباراتهم ، ولكن القارئ يخرج من ذلك ولا علم عنده ، وإنّما هي صور في الخيال لا تحقيق ، ومن ذا الذي يقول إن الحيوانات الفاتكات بالإنسان نعمة ؟ وأيّ عاقل وأيّ حكيم يحكم بأن من أعطاك ثوباً ثم أردفه بضرب السياط والشتم يكون محسناً كريماً ، والله يقول : ﴿ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ ﴾[البقرة : ٢٦٣] ، فهل في إعطائنا الإبل والبقر والغنم ، ثم في مقابلتها تكون السباع المفترسات نعمة تامة أم ذلك صدقة تبعها أذى ؟ إن الله عزّ وجلّ حكيم ، والحكيم يوافق قوله فعله ، وأنا لا أفهم الموافقة هنا . فقلت له : ليس كل ما يؤذي الإنسان نقمة ، فمن الإيذاء ما يكون نعمة كما تقدم ، وليس منع الأب ابنه عن الراحة ووضعه في عمل إيذاء وهكذا تأديبه بالتوبيخ والضرب ليس إيذاء بل هو نعمة عليه . فقال : هذا كلام إقناعي فائتني ببرهان يشرح صدري ويقنعني . قلت : إذن أسمعك :

رسالة منسوبة إلى أرسطاليس للإسكندر في السياسة

هذه الرسالة نقلت من النسخة الخطية في الفاتيكان بإيطاليا في زماننا هذا ، ونشرت في بعض المجلات العلمية في برلين وفي مجلة الشرق ، ويرجح العلماء أنها مترجمة بقلم حنين بن إسحاق ، فلأذكر نبذاً منها بالحرف لمناسبة المقام :

(١) قال : وقد انتهى إلينا أنك بعد الواقعة الكائنة لك ببابل ، وظفرك بدارا ومن لحق به ، وما ركبت من أهوال الحروب وكابدت من شدائدها ، استأنفت أشغالاً أخر بأمور سموت لها وتطلعت إليها ، فقد ينبغي لك قبل ذلك أن تفرّغ نفسك للنظر في مصلحة أمور المدن وتقويم سننها ، فإن هذا أمر كبير يجب عليك النظر فيه ، ويذهب لك الصوت والذكر الجميل ، فقد تعلم ما نال من ذلك « لوقرغس » بتقويمه سنن مدنيته ، وعلى حسب سعة ملكك وعدد مدائنك سيكون فضلك على من

أصلح مدينة واحدة بقاء الذكر والثناء عليك، لأن إقامة السنن صلاح العامة ودوام السلامة والهدوء في الرعية.

(٢) وقد ظن كثير من الناس أنه إنّما يحتاج إلى المدبر القائم بالسنة في الحرب، فإذا انقضت الحروب واستفاض الأمن والسكون استغنى عنه، والذي سيرهم إلى ذلك ظنهم بأن الاستمتاع بالخيرات سهل ممكن لإفناء الناس، وأن معاناة الشدائد الصعبة لا يقوى عليها كل أحد، ولست أرى هذا صواباً، بل الصواب عندي خلافه، وذلك أن الناس إذا مستهم الشدائد تحنكوا وتيقظوا لما فيه مصلحتهم، فإذا أظلتهم الأهوال تحركوا فيما يدفع ذلك عنهم، وإذا صاروا إلى الأمن مالوا إلى الشره والفساد وخلعوا عذار التحفظ، وما أعسر أن تكون مع رخاء البال صيانة العقول، بل يذهب ذلك بالعقل كثيراً ويذهله، فأحوج ما يكون الناس إلى السنن إذا ساروا إلى الخفض والدعة، فإنه إن كانت الحروب قد تحدث فيها الأحداث فإن ذلك يحدث والناس متحفظون سائرون في حال الخفض، فتحدث أحداث كثيرة والناس قارّون مهملون لأمرهم.

عند ذلك يحتاج العامة إلى الأدب والسنة، والسنة إنّما تكون سنة إذا عمل بها، وإنّما يعمل الناس بالسنة إذا كان لهم مدبر يحملهم عليها، وإنّما يقوى على ذلك من كانت رياسته سنة إجماعية ولم تكن رياسته فتنة واغتصاباً، فليس الاستمتاع بالهدوء والخفض مما يحتمله كل أحد كما ظن هؤلاء، ولو أنه كان ذلك كذلك لوجب على الآباء أن يملكوا أبناءهم أموالهم من أول نشئهم، فكما أنه لا ينبغي أن تفوّض الأموال إلى الصبيان كذلك لا ينبغي أن تفوّض الأمور إلى العامة، فإن أخلاق العوام شبيهة بأخلاق الصبيان وكلا الصنفين يحتاج إلى الرقباء والمدبرين.

والعبرة في ذلك أيضاً قد ترى من تصرف الأحوال وتنقل الدول، فما بال الرياسات لا تثبت ولا تدوم لصنف واحد وفي مدينة واحدة؟ كالذي رأينا من نقلها في بلاد آسيا وفي بلاد أوروبا وفي غيرها من المدن، فقد ملك «أشور» حيناً لأهل الشام وسورية، ثم خلف بعدهم أهل «ماه»، ثم خلف بعدهم أهل فارس، وذلك تجده في سائر الأمم.

فالقلعة في هذا كله واحدة هي التي ذكرنا من أن التقلب في الخيرات أصعب من مقاساة الشرور، وكذلك تجد الذين نالوا الرياسة بنصب ومشقة ثم زيدوا فيها شيئاً بعد شيء، قد حنكتهم وثقفتهم التجارب أكثر ذلك ما تطول مدتهم ويؤول إلى السعادة وحسن العاقبة أمرهم، وتجد الذين نشؤوا في الخفض ووافقتهم الأمور عفوا فلم تصبهم شدة ولم يمسهم خوف يصيرون إلى ضد ذلك.

وكذلك ترى المدائن تعمر وتعظم بالمشقة والنصب، وتصير إلى الخراب والبوار بالرفاهية والخفض داعية إلى البطالة، والناس في أكثر ذلك مائلون إلى البطالة مستلذون بها، ذلك أنهم يكرهون الأدب والسيرة الحسنة هرباً من المشقة، ويؤثرون الفراغ والبطالة طلباً للتودّع، ويفنون أعمارهم في طلب اللعب إلى الشقوة، وليس يكون مع البطالة وتعطيل الأدب بقاء ملك ولا ذبّ عن حريم ولا صلاح عامة، فالأمر على ما وصفت أولاً من الحاجة إلى سنة مقومة ومدبر يقوم بها، فيحمل العوام على حسن السيرة والصلاح، أما أهل الدناءة ولؤم الطباع فبالخوف، وأما الأشراف فبالحياء، وكيف تكون سنة عامة إلاّ بمدبر عام، ومن ذا الذي يجمع الناس على الألفة والاستقامة وينصر السنة ويقيمها

إلاَّ رجل له قدر كبير وقدرة ظاهرة تكون في مصر عظيم، فيكون ظهيراً للسنة رباطاً للألفة، فبمثل هذا الرجل يقدر على استدامة حسن السيرة في المدن ونفي الفواحش عنها، وليس تصلح المدن إلاَّ بصلاح الرؤساء والمدبرين.

وينبغي أن يكون هذا الرجل جزلاً كاملاً، ليس في الشجاعة والعدل وأصناف الفضائل فقط، ولكن في القوة والعدة أيضاً ليقوى على ضبط العامة وحملهم على السنة، فإن كثيراً من العوام لا يذعن للعدل ولا ينقاد للحق، فإذا لم يكن عليهم خوف مالوا إلى البطالة وتعطيل السنة، فلا بد من مدبر عام يجمع أمر العائلة كهؤلاء سيما « الياذه ومدائنها »، فإنها اتصلت كلها مدينة واحدة، وليس يؤتى صلاح المدائن إلاَّ من صلاح الرؤساء والمدبرين، كالذين رأينا في مدائن « لقذيمونه » و« اثيناس » فإنه كان في بعضها سلاطين جبابرة وضعوا سنناً، وفي بعضها قوام عدول، فبنيت لذلك هذه المدائن وبعد صوتها، وكذلك المدائن التي دخلها الخلل والفساد والانتشار، إنَّما أتيت من سوء أثر الرؤساء والمدبرين، فصرفوا همتهم إلى اللذات الزمنية فأهملوا التدبير الباقي أثره وذكره على وجه الأرض إلى الدهر، فقد ينبغي للمدبر أن لا يتخذ الرعية مالاً ولا مأكلاً ولا قنية، ولكن يتخذهم أهلاً وإخواناً، وأن لا يرغب في الكرامة التي من العامة كرهاً، ولكن في التي يستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير. انتهى المقصود منها.

وبقية الرسالة نصائح للملوك ومدبري المدن مثل: إنك يا إسكندر تريد أن تغزو غزوات أخرى، فأذكرك بأن للبشر آفات تعرض لهم في أحوالهم، ومثل أن السلطان إذا كان رئيساً لأحرار خير من أن يكون رئيساً لعبيد أذلاء، وإذا أذلهم وكرهوه لا تدوم رياسته، وأن الرئيس إذا أذل رعيته فقد اختار أن يرأس البهائم لا أن يسود الرجال، ومثل غاصب الملك كشكل المولى، وأما الملك فيكون في شكل الأب، وأن ملك فارس كان يسمي كل واحد عبداً حتى ولده، وهذا يصغر قدر الرياسة، فرياسة قليل من الأحرار خير من التسلط على كثير من العبيد. ويقول: إن صغير الهمة من الرؤساء يكرمه العامة للخوف منه، وعالي الهمة يكرمونه لحسن أثره، والكرامة الأولى مضمحلة، والثانية باقية. ثم نصحه بأمرين هما: العدل ولين الجانب، وبهما دوام الرياسة، والفضلاء يخضعون بالحياء والمحبة، والسفهاء بالخوف، والسلطان إذا لم يكن عدلاً فهو يسمى غاصباً لا سلطاناً، ونصحه بأنه إذا حارب قوماً وانتصر عليهم أن يجعل الرحمة حالّة محلّ الغضب، وأن لا يحقد على الأشراف، ويقول: إن ضيمهم في مراتبهم أشد من ضيمهم في مالهم وأبدانهم، ونصحه بأن لا يكون شديد الغضب كالسباع ولا ضعيفاً كالصبيان، وأن يكون مستشاره مائلاً لفعل الخير، وحذره من استشارة المموّهين الخادعين.

وختم المقال بثلاث نصائح تكسب السلطان حسن الذكر، وهي: حسن السيرة، والبلاء في الحروب، وعمران المدائن. اهـ.

هاأنا ذا أيها الذكي ذكرت لك المقصود من هذه الرسالة بالحرف، ولخصت الباقي ليفرح بها الأذكياء، وملخص المقصود منها: ما رأيت من أن البطالة والرفاهية والكسل وإهمال الأجسام والعقول مضيعة للأمم.

وبالإجمال: إن ما يظنه الناس من أن الراحة سعادة والنصب والتعب شقاء قضية فاسدة، فالحكمة عكست آراء العامة وذلك بالبراهين المعلومة في التاريخ، وأن المدن التي مالت إلى الراحة يقهرها الغاصبون، والرجل الذي جاءت إليه المناصب أو الأموال عفواً تذهب بمنصبه وبماله عواصف الحوادث ومصائب الأيام.

فهأنا ذا أسمعتك حكمة الحكماء في هذه الأرض في سياستها ونظامها، أفلست ترى أن هذه السياسة بنصها وفصها مأخوذة من سياسة الله في الأرض؟ فإذا قلت لك إن الله خلق الناموس والحشرات المؤذية والحيوانات الذرية المهلكة بالطاعون وبالتيفوس الخ ليرقي عقول الناس ويستخرج مواهبهم، فهي هي بعينها سياسة الأمم في الأرض.

الله أكبر، طابق نظام السياسة العالية في الأرض نظام الله في الحيوان، إذن تكون هذه الرسالة وأمثالها تفسيراً لقوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]، أي: إن سياسة أهل الأرض الصادقة أفهمتنا لماذا جيء بذكر إتمام النعمة في الآية بعد ذكر الحرب وسرابيله، مع أن السورة كلها نعم في البر والبحر.

إذن الله تعالى يقول لنا: هاأنا ذا يا عبادي أغدقت عليكم النعم من الأنعام والحرث وأصناف الكرامات، ولكن إذا تركتكم بلا موقظ يوقظكم صرتم أذلاء، فجعلت في مقابل كل نعمة نقمة لأتم النعمة عليكم، فليس إنعامي بالحيوان والنبات كل شيء، بل الاقتصار عليه إضعاف لهممكم وتنزيل لها إلى مراتب الحيوانية، هذا هو المعنى الذي يؤخذ من وضع هذه الجمل، فإذا جعل الله الشدة بعد الرحمة في «الفاتحة»، وجعل الحرب والأنعام بها في أواخر النعم في سورة «النحل» بعد ذكر الرأفة والرحمة في أوائلها، وإذا جعل الأب له تربية الولد بعد حضانة أمه له، فقد اتضح سر هذا كله هنا واتفقت النظم، وهذا قوله تعالى في سورة «الأنبياء»: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الآية: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

فتعجب من هذه الآية كيف كانت ملخص الرسالة المتقدمة، يجعل الله ترادف النعم ليس نعماً ويقول: كلا، ثم أردفها بأن الناس مقصرون في عمل الخيرات كإكرام اليتيم والحض على طعام المسكين وهذا ملخص الرسالة المذكورة لأنها قسمان: قسم يذم التنعم وقسم يأمر بالعمل، فأول الآية للأول وآخرها للآخر. يا سبحان الله ويا سعدانه، أهذا هو القرآن الذي نقرؤه وحفظناه عن ظهر قلب ونحن أطفال لا نعقل شيئاً؟ هل هذا هو كتابنا المقدس؟ وهل هذه السياسة التي حفظها التاريخ وبقيت في خزائن الأمم العلمية توافق نص الآية؟.

اللهم إن هذه الآيات يقرؤها جميع أطفال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فصارت أشبه بالشيء المعتاد، فهي كالأجسام الإنسانية يعيش فيها أكثر الناس وهم لا يعلمون عنها شيئاً.

هذا القرآن يستحيل أن ينتفع به المسلمون إلاَّ إذا قرؤوا جميع العلوم، ومن أين يعرفون معنى هذه الآيات التي تعرض على العامة والأطفال، لأنها في السور الصغيرة المعروفة لكل قارئ، إلاَّ بالعلوم والمعارف، وأرجو أن يتم ذلك بعد انتشار هذا التفسير.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد شفيت ما في صدري، وعرفت أن النعم المذكورة في هذه السورة إن لم تصاحبها هذه الموقظات في عالم الطبيعة كالحرب والحيوانات المؤذية كانت الحياة وبالاً، وأدركت بعض سر قولنا في الصلاة: «فلك الحمد على ما قضيت»، وعرفت أن القضاء بالشر نعمة مخفية، وأن حمدنا عليه باللفظ لا يفيد، وإنّما هذه الألفاظ جاءت في الدين لتذكيرنا بأن نعرف أمثال ما تذكره أنت الآن، أن ما جاء في الصحاح من أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ البيعة على المسلمين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة الخ، ويختمه بقوله: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله»، إنَّما جاء أمثال هذا الإيمان ليفتح لنا أبواب العلم الذي اطلعنا على بعضه الآن، وهذا ذكرني بما ذكرته أنت فيما تقدم من «لغز قابس» المذكور تارة مختصراً وتارة مطولاً لأغراض مختلفة في هذا التفسير، وهكذا ما أشرت أنت إليه من كتاب «الكوخ الهندي»، فهذان الكتابان نتيجتهما واحدة. إن السعادة لا وجود لها إلاَّ بالصبر على ما يؤلم، وهكذا كتاب «أبكتاتوس» المذكور في آخر سورة «الحجر»، ثم قال: ولكن أريد أن أعرف معرفة أتم اقتران النقم بالنعم، لقد اتضح فيما ذكرته وجود الحيوان الضار بإزاء النافع وهكذا، ولكني أريد ما هو فوق ذلك، أريد أن أعرف الخير والشر يكونان متكافئين معاً في حيوان واحد. فقلت: نعم هذا موجود موضح للعدل العام. قال: فأوضحه أيّما إيضاح. قلت: اعلم أن العقارب والحيات والحيوانات الذرية الجالبة للطاعون وللتيفوس وللوباء العام المسمى «كوليرا» هذه كلها جعل خيرها مكافئاً لشرها، وضرها مكافئاً لنفعها، وإنّما جعلها الله كذلك لتكون درساً مجسماً أمام الحكماء في أمة الإسلام في مستقبل الزمان، لتدلهم على أن العدل في نظام المدينة وفي أخلاق الناس وملوكه، وهكذا نظام هذا العالم كله يرجع إلى هذا الدرس الصغير المجسم الذي كافأ خيره شره ونفعه ضره. فقال: هذا القول يحتاج إلى برهان. فقلت: اعلم أني قرأت في كتب الطب القديمة قاعدة أن لحم كل حيوان سامّ ترياق لسمه، وفرعوا على هذه القاعدة أن جسم الحية ترياق لسمها باللدغ، وجسم العقرب كذلك. وبعد سنين قابلني ضابط من الجند المصريين كان مقيماً بالسودان، فذكر مرة أنه لدغته عقرب بمقدار كف الإنسان في ظهره، قال: فضربت بيدي بقوة على موضع الألم فتهرأت العقرب من الضربة فسكن الألم حالاً. فقال صاحبي: هذا لا يقنعني. فقلت: هاك اسمع ما جاء في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» تأليف العلامة موفق الدين أبي العباس أحمد بن قاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ بصرخد من بلاد الشام، الذي ألف كتابه المذكور سنة ٦٤٣ في مدينة دمشق، قال: إن «أندروماخس الثاني» وضع لحوم الأفاعي في الترياق، قال: والذي نشطه لذلك وأفرد ذهنه لتأليفه ثلاثة أسباب جرت على غير قصد، وهذا كلامه قال:

التجربة الأولى: إنه كان يعمل عندي في بعض ضياعي في الموضع المعروف بـ«بورنوس» حراثون يحرثون الأرض للزرع، وكان بيني وبين الموضع نحو فرسخين، وكنت أبكر إليهم لأنظر ماذا يعملون، وذكر أن غلامه كان يحمل لهم زاداً وشراباً، فأحضر لهم يوماً خمراً طيباً في إناء من طين لم يفتح، فلما فتحوها وجدوا فيها أفعى قد تهرأت، فقالوا: إن هاهنا رجلاً مجذوماً يريد أن يموت فإذا سقيناه أرحناه من الحياة ولنا ثواب عند الله، فمضوا إليه فأعطوه زاداً وسقوه الخمر موقنين أنه لا يعيش

يومه، فلما قرب الليل انتفخ جسمه انتفاخاً عظيماً، فلما كانت الغداة سقط جلده الخارجي وظهر الجلد الداخلي الأحمر، ولم يزل حتى صلب جلده وبرأ وعاش دهراً طويلاً من غير أن يشكو علته حتى مات الموت الطبيعي، قال: فهذا دليل قاطع على أن لحوم الأفاعي تنفع من الأوصاب الشديدة والأمراض العتيقة في الأبدان.

وأما التجربة الثانية: فإن «أندروماخس» كان له أخ يسمى «أبولنيوس»، وكان مساحاً من قبل الملك على الضياع، فصادفه يوماً في حمارة القيظ أنه نام فنهشته أفعى في يده، وكان قد ألقى يده على الأرض من شدة تعبه، فانتبه ففزع وعلم أن الآفة قد لحقته، ولم يكن به على القيام طاقة ليقتل الأفعى، وأخذه الكرب والغشي فكتب وصية وضمنها اسمه ونسبه وموضع منزله وصفته، وعلق ذلك على الشجرة كي إذا مات واجتاز به إنسان ورأى الرقعة يأخذها ويقرؤها ويعلم أهله، ثم استسلم للموت وكان قد غلبه العطش، فشرب من ذلك الماء شراباً كثيراً، فلم يلبث الماء في جوفه حتى سكن ألمه، وما كان يجده من ضربة الأفعى، ثم برأ فبقي متعجباً ولم يعلم ما كان في الماء، فقطع عوداً من الشجرة وأقبل يفتش به الماء لأنه كره أن يفتشه بيده لئلا يكون فيه أيضاً شيء يؤذيه، فوجد فيه أفعيين قد اقتتلا ووقعا جميعاً في الماء وتهرأا، فأقبل أخي إلى منزلنا صحيحاً مسلماً أيام حياته، وترك ذلك العمل الذي كان فيه، واقتصر على ملازمتي، وكان هذا دليلاً على أن لحوم الأفاعي تنفع من نهش الأفاعي والحيات والسباع الضارية. قال:

وأما التجربة الثالثة: فإنه كان للملك «بيولوس» غلام وكان شريراً غمازاً خماناً فيه كل بلاء، وكان كبيراً عند الملك يحبه لذلك، وكان قد آذى كثيراً أكثر الناس، فاجتمع الوزراء والقواد على قتله، فلم يتهيأ لهم ذلك، فصمموا أن يضعوا السم في شرابه حتى إذا مات حملوه إلى الملك ليس به جراح، فلما وضعوه في الشراب لم يلبث إلاّ قليلاً حتى مات، فتركوه في بعض البيوت وختموا عليه ووضعوا الحراس عليه، وتوجهوا للملك، فلما ساروا بأجمعهم إلى الملك رأى الفعلة أفعى قد دخل إلى البيت الذي فيه الغلام، فلم يتهيأ لهم أن يدخلوا خلفه ويقتلوه، لأن الباب كان مختوماً، فلم يلبثوا إلاّ ساعة والغلام يصيح بهم: لم أقفلتم الباب عليّ أغيثوني قد لسعني أفعى، فكسروا الباب، وخرج ليس به مرض. قال: وكان هذا دليلاً على أن لحوم الأفاعي تنفع من شرب الأدوية القتالة المهلكة، هذا جملة ما ذكره «أندروماخس». انتهى.

وقوله: لحوم الأفاعي، لعله جعل اللحوم كالسموم كلاهما ينفعان من شرب الأدوية القتالة، أما علماء العصر الحاضر فإنهم وجدوا أن الحيوانات الذرية الميتة إذا حقنوا بها من أصيبوا بسموم تلك الحيوانات أبرأتهم، وكيفية ذلك أن الأطباء في أوروبا لا سيما في ألمانيا في زماننا الحاضر قد يربون الحيوانات الذرية المحدثة للطاعون ولحمى التيفوس وللكوليرا، فتنمو وتكثر في أقرب زمن، ثم يضعونها على النار بحيث تكون درجة الحرارة ٥٦ لا أنقص ولا أكثر، وتبقى تلك الحيوانات على النار ٤ ساعات ثم يرفعونها عن النار، فإذا أصيبت أمة بمرض من هذه الأمراض الثلاثة أتوا بأجسام الذرات الميتة التي من نفس نوع الإصابة، وحقنوا المرضى بها فيبرؤون.

فإذن أصبح جرم الذرات المحدثة للطاعون وما معها مانعاً من أضرار سم الأحياء منها في جسم الإنسان، إذن القاعدة واحدة، تكافأ الخير والشر في الحيات والعقارب والحيوانات الذرية، أي المكروبات وهذا كله معنى العدل، فالعدل هنا تكافؤ السم والترياق، وفي الناس تكافؤ القوى الشهوية والغضبية والعقلية، بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى، وفي الملوك تكافؤ اللين والشدة، وفي المدن انتظام العمال والجند ورجال الحكومة وقيام كل بما استعد له وخضوع الأدنى للأعلى، وكل ذلك تفسير لنعمة السرابيل في الحرب وجعلها خواتم النعم، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٧].

فقال صاحبي: هذا حسن، ولكني أريد أن تذكر لي مسألة واحدة تختم بها النظام في عالم المادة. فقلت: وما هي؟ فقال: إن هذه المقالة دخلت فيها علوم كثيرة، ومن تلك العلوم مسألة الحرب، كيف جعلت الحرب التي دخلت ضمن ذكر السرابيل في الآية نعمة مع أنك قلت مرات كثيرة في هذا التفسير: «أيها المسلمون، اقرؤوا العلوم وعمموا التعليم ثم قودوا الأمم إلى السلم العام»، فإذن ما قلته الآن ينافي ما قدمته في هذا التفسير. فقلت: إن الأمر سهل يسير، الحرب موقظة مرقية للشعوب كما أوضحناه، ولكن إذا ارتقت أمم الأرض، واتحدوا على المنافع العامة، وأبطلوا الحرب، فليس معنى هذا أن الأمم تصبح فارغة من الهم، كلا، فستجد لهم أعمال وأعمال تكون أكثر عملاً من الحرب.

ألا ترى أن الناس كانوا يمشون على أقدامهم في الطرقات ويمتطون الدواب؟ فلما كثرت القطرات في الطرق وعربات النقل ورخصت قيم النقل لم تمنع تلك الراحة الناس من الأعمال التي شغلت جميع أوقاتهم وسائر أيامهم، فهانحن أولاء نركب القطار في راحة ونعيم، ولكن عندنا أعمال لا حدّ لها لم يعرفها آباؤنا، فإذا فرضنا أن الحرب زالت فكم في استعداد الناس من أعمال لا تدعهم يهدؤون ولا هم يسكنون كالمبارات في استخراج الخيرات من ضوء الشمس ومن الهواء ومن باطن الأرض ومن الماء ومن كل شيء. فقال: ألا حيا الله العلم والحكمة التي أنعم الله بها علينا في تفسير هذا القرآن، ألا بارك الله في أقوام أنصبوا أنفسهم واستخرجوا لنا هذه الكنوز العلمية والمصابيح الفنية والنجوم اللامعة والشموس المشرقة والجواهر المكنونة والعلوم المخزونة، فكم من أناس يعيشون ويموتون وهم يرون بأعينهم الحيات والعقارب وتعم الأمراض وأنواع الطاعون بلادهم، ويرون هذه الدنيا وقد ملأتها الخيرات والشرور فيكونون فيها أشبه بقطيع من الغنم يسوقه الرعاة وهم لا يذكرون.

فقلت: نعم، إن هذا الإنسان أكثره مسوق بعاداته موثق في شهواته، تمر بهم الحوادث وتنهشهم الأفاعي وهم لا يعلمون عجائبها.

أوَلا يعلمون أن الله لم يذر الإنسان يأكل الطعام ويشرب الشراب من تلقاء نفسه، بل سلط عليه جند الجوع والعطش وجند الشبع وكراهة الماء، فلا يأكل ولا يشرب إلاَّ إذا أحس بسياط يسوقه بها جند العطش والجوع، ولا يذر الطعام والشراب إلاَّ إذا أحس بسياط جند كراهة الطعام والشراب، فكان من حق هذا الإنسان أن لا يدع ألماً إلاَّ إذا عرف سرّه، ولا مسرة إلاَّ أدرك كنهها.

ولعمري لم يرسل الله الحيات على الناس إلاَّ ليتذكروا، ولا الطاعون إلاَّ ليعلموا بعض سر هذا الوجود، ولكنك ترى أن نفس الأطباء الذين يعرفون ما تقدم، يجهل أكثرهم نظام العدل وحكمة الوجود في تكافؤ الداء والدواء في جسم الحيات وفي الحيوانات الذرية، ولا يعنيهم إلاَّ مداواة الأجسام

وشفاء العلل والأسقام، فأما البهجة بالحكمة وشفاء القلوب بالعلم فأكثر الناس ومنهم الأطباء عن آياتها معرضون ولا هم يذكرون.

عموم نظام العدل في عالم المادة وعالم الأرواح

فقال صاحبي: قد رأينا العدل والنظام في جسم الإنسان وفي قواه وفي بدنه وفي أنواع الحيوان، لا سيما الحيوانات السامة والقاتلة، فإذا كان هذا حقاً في عالم المادة أفلا تكون هكذا عالم الأرواح؟ وإذا رأينا تكافؤ الدواء والداء في الحيوانات الذرية كالطاعون كما وجدناه في الحيات، فإننا بهذا وصلنا إلى أدق وألطف ما في المادة، فلم يبق بعد ذلك إلاّ عالم الأرواح.

فقلت له: عالم الأرواح لا يمكننا الحكم عليه، لأنا في عالم الأجسام، وليس لنا سبيل إليه إلاّ من طريق الديانات قديماً ومن علماء الأرواح حديثاً. فقال: نعم، وإذا تطابق العلماء في إثبات ما يشابه الذي رأيناه في المادة، كان ذلك صواباً، لأن علماء الأرواح لا علاقة لهم بعلماء الدين، فإذا تلاقى الحزبان كان ذلك دليل الحق واليقين.

فقلت: قد ثبت في دين الإسلام أن لكل امرئ ملائكة يلهمونه وشياطين يضلونه. فقال: نعم هذا مشهور في الحديث وفي القرآن، ولكني أريد أن أسمع مقالاً لأكابر العلماء في ذلك.

فقلت: قد تقدم في مواضع من هذا التفسير ولعلك ستقرأ ذلك قريباً في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[مريم: ٨٣] في سورة «مريم». قال: أريد قبل ختام تفسير هذه السورة أن تذكر علاقتها بما قبلها وما بعدها.

فقلت: أما علاقتها بما قبلها فأذكر الآن منها أمرين: الأول منها: أن سورة «الحجر» جاء في آخرها الزهد في الدنيا، وأنه صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن لا يجعل الدنيا محط آماله ولا يعجب بما فيها، إذ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الخ [طه: ١٣١]، وأمته تبع له، وهذا الإعراض يفتح للإنسان باب العلم إما بالوحي للأنبياء وإما بالإلهام للحكماء والأولياء والعلماء، ويرقيه يوم القيامة الصغرى ـ وهي الموت ـ ويوم القيامة الكبرى، لذلك ذكر في أول سورة «النحل» أن القيامة اقتربت وأن الله ينزل الملائكة بالروح من أمره. الأمر الثاني: أن سورة «الحجر» ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٩]، واليقين أخص من العلم لأنه العلم الذي لا يتطرق إليه الشك.

ولا جرم أن الموت يوقن به الناس جميعاً، لذلك اعتاد المفسرون أن يفسروا به هذه الآية، ومعلوم أن اليقين يزيد، إذ ما من كمال إلاّ وعند الله أكمل منه، والعلم اليقيني لا نهاية له، إذ العلم لا نهاية له، والدليل على ذلك أمران: الأول: أنه جاء في حديث الرجل الذي مدحه الصحابة في إحدى الغزوات، وقالوا: إنه أبلى بلاء حسناً، أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إنه في النار، فلازمه رجل أمداً طويلاً وهو يقاتل ويميت من الكفار عدداً كبيراً، حتى إذا جرح رآه قتل نفسه بسلاحه، فرجع إليه صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله، لا يزال الله يزيدنا بك يقيناً وقصّ ما تقدم»، فمقتضى هذا أن اليقين يزيد. الأمر الثاني: أن اليقين كالغنى، فكما أن الغنى لا حد له هكذا العلم واليقين لا حد لهما، ولا جرم أن كل غني يطلب مطلباً أوسع من ماله، فإذا ناله طلب ما وراءه وهكذا، هكذا طالب العلم

لا يزال يطلب مطلباً فإذا وصله طلب ما وراءه، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦]، فهذه قضية كلية لا تذر علماً إلاَّ وجدنا وراءه آخر، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾[الضحى: ٤]، يقول العلماء: إنه يترقى في كل لحظة عما قبلها في الحياة وبعد الموت، لأن علم الله لا نهاية له، ويقول الإمام الغزالي: إن قرب التلميذ من أستاذه إنَّما يكون بالعلم، ولكنه قد يرتقي عن أستاذه، وقرب العبد من الله بالعلم، ولكنه لن يصل لنهاية علم الله إلى الأبد، إذن يكون اليقين هنا هو العلم، وكلما زاد الإنسان عبادة ازداد يقيناً فيجدد العبادة لازدياد اليقين، فيكون اليقين مراحل كل مرحلة تحتاج لاجتهاد جديد، ولا جرم أن هذا يناسب قوله تعالى في أول سورة «النحل» من ذكر يوم القيامة، لأن ظهور الحقائق العلمية فيها أتم، وذكر الوحي للأنبياء، ذلك لأن الوحي إنَّما يكون على مقدار قبول نفس الموحى إليه، فلن ينزل الوحي على غير من يستعد له ويقبله، وإلا لكان الناس كلهم أنبياء، فازدياد اليقين بالعبادة يعدّ نفوس الأنبياء لعلوم أوسع مما عرفوه، ونفوس تابعيهم إلى ما لم يعلموه من قبل، وهذا معنى ما ورد: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»، وذلك لأن العلم لا يكون إلاَّ بالاستعداد له كما ذكرنا، وأما مناسبتها لما بعدها فستراه في غضون تفسير سورة «الإسراء» موضحاً. والحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة «النحل».

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثامن من كتاب
«الجواهر» في تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء التاسع
وأوله: تفسير سورة «الإسراء»



فهرست الجزء الثامن
من تفسير الجواهر

سورة الحجر وهي مكية، وهي تسع وتسعون آية ٣
القسم الأول: في بدء الخلق ومقدماته ١١
فصل في قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) ١٣
تحقيق في قوله تعالى: (إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) ١٤
لطيفة في أن القرآن أقرب للعلم الحديث من العلم القديم ١٧
تحقيق الكلام على الشهب عند القدماء وعلماء أوروبا في علم الآثار العلوية من علم الحكمة ١٧
الكرات النارية ١٨
الكلام على تفسير: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) ١٨
الجذور وامتصاصها ١٩
جوهرة في قوله تعالى: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) ١٩
الكلام على نحو الفتوحات المكية لابن عربي ٣٤
الكلام على قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) ٣٥
كيف كان خلقنا ٣٧
خطاب الله للملائكة والجن ٣٨
بماذا وصف النار وبماذا وصف الجنة ٤٠
اللطيفة الأولى: (وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) إلى قوله: (وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) ٤١
عجائب مما رزقنا الله ولسنا له برازقين ٤١
اللطيفة الثانية: في الرياح وإلقاحها ٤٢
جمال النبات وبهجته في الأزهار ونظامها ٤٢
الكلام على الزهر وأنواعه، الزهر ذو المفاتيح والأقفال، والزهر ذو الحراس ٤٦
الزهر ذو الحارس ٤٦
الزهر ذي السياسة الحقيقية والوهمية ٤٧
الزهر المنظم كالجند ٤٧
نوم الزهر ٤٨
فائدة في الحلم ٥٠
جوهرة في قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ٥٢
جوهرة في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) ٥٥
الإنسان الأول والإنسان الحالي والإنسان في المستقبل ٥٩
الفصل الأول: غشّ اللبن ٦٢

الفصل الثاني : الغش في البن ٦٣
الفصل الثالث : مباحث الدكتور «بارودي» الكيماوي بوزارة المعارف المصرية ٦٣
عموم الغش في المدنية الحاضرة ٦٥
القسم الثاني : في القصص ونتائج ما في السورة والإرشاد والإنذار ٦٥
جوهرة في قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) ٦٧
موازنة بين أمم الإسلام اليوم وأمم الفرنجة بطريق الفراسة الخاصة بالمتوسمين ٦٨
كيف تجري الطيارة ألف ميل في الساعة ٦٩
أمم الإسلام في نظر المتوسمين من علماء الإسلام ٧٠
جوهرة في قوله تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) ٧٣
عجائب الفلسفة اليونانية والرومانية وكيف أتى بها وبخير منها القرآن ٧٣
سورة النحل مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية ٧٩
القسم الأول : من أول السورة ، إلى قوله : (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ٧٩
إيضاح لتفسير آية : (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا) ٨٣
إيضاح هذا المقام ، وفيه سبع لطائف ٨٤
فصل في بقية تفسير الآيات في هذا القسم ٨٥
البلاغة ٩٠
ما هي الحكمة ، وما هي الموعظة الحسنة ، وما هي المجادلة ٩٣
اللطيفة الأولى : في دائرة الوجود المشتملة على مملكة المعدن والنبات والحيوان ٩٤
إيضاح كلمات مضت في الدائرة ٩٥
اللطيفة الثانية : في البهائم والأنعام ٩٦
إشراق النفس الإنسانية تمثله الكهرباء والمغناطيس ٩٨
جمال اللطيفة الثانية وذلك في ست فرائد : الفريدة الأولى : استخدام الكهرباء في الزراعة ١٠٠
عجائب الأنوار الربانية ١٠٢
الفريدة الثانية : المرقب الذي لا سلك له ، أدهش اختراعات هذا العصر ١٠٢
الفريدة الثالثة : غرائب التلغراف والتلفون اللاسلكي ١٠٤
الفريدة الرابعة : الفلاحة والكهرباء ، والفلاح عندنا وعندهم ١٠٤
الفريدة الخامسة : سفينة الصحراء ١٠٦
الفريدة السادسة : السفر في الهواء ١٠٧
الآلة المحركة التي هي أثقل من الهواء المسماة «ألواح الهواء» ١٠٨
السير فوق الماء ١٠٩
اللطيفة الثالثة : في النبات ١٠٩
اللطيفة الرابعة : في الحلية المستخرجة من البحر والدر والمرجان ١١١
حيوان يشبه المرجان وهو أعجب منه وهو « الهيدار» ١١١
الحياة الفردية والحياة الاجتماعية للمرجان ١١٢

اللطيفة الخامسة : في النجم والاهتداء به ١١٤
اللطيفة السادسة : في السفن وجريها بالرياح ١١٤
زيادة إيضاح قوله تعالى : (وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) ١١٦
البلاغة في مشاهد الطبيعة وفي لسان العرب ١١٨
اللطيفة السابعة : في الظلال ١١٩
الموعظة الحسنة ١١٩
المجادلة بالتي هي أحسن ١١٩
بهجة الجمال في قوله تعالى : (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ) ١٢٠
عجائب ألوان حشرة أبي دقيق ١٢١
فوائد الألوان في الطب ١٢٤
بهجة العلم في قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) ١٢٦
تذكرة في قوله تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) ١٢٧
الحشائش المؤذية في الأرض كالأخلاق التي لم تهذب ١٢٩
أخلاق الناس ١٣٠
جمال العلم ومنظر الشمس والأرض وأسنان نوع الإنسان في عالم الخيال ١٣٠
العظمة والحكمة ١٣١
الكلام على كتاب التفاحة المنسوب لأرسطو ١٣٢
تذكرة : في قوله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ١٣٣
القسم الثاني : من قوله : (وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ) إلى قوله : (وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) ١٣٧
التفسير المعنوي ١٤٣
فصل في قوله تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) ١٤٦
الذكورة والأنوثة ١٤٧
تفصيل عجائب السماء والأرض في عشرة وجوه ١٤٩
الوجه الأول : في قوله تعالى : (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً) ١٤٩
نظام الهضم في المعدة والأمعاء ١٥٢
التناسل ١٥٣
الحشرات ونحوها ١٥٤
الوجه الثاني : في وصف الحيوان ١٥٤
الوجه الثالث : في اختلاف الحيوان في الحركات ١٥٥
الوجه الرابع : في قوله تعالى : (وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ) ووجوب علم التشريح ١٥٦
فصل في وصف فقرة واحدة من فقرات الظهر ١٥٧
الوجه الخامس : في وصف أعضاء الحيوان وأن منها الخادم والمخدوم ١٥٨
الوجه السادس : في الطير ١٥٩
الوجه السابع : في تربية الطيور لأولادها ١٥٩

الوجه الثامن : في تقسيم الحيوان ١٦١
الوجه التاسع : في الحشرات ومنها النحل والعنكبوت ١٦٣
تفصيل الكلام على النحل ١٦٤
يعسوب النحل ١٦٧
المملكتان المتشابهتان : مملكة النحل ، ومملكة الأرضة وهي دابة الأرض ١٦٨
النحلة وخدمها ١٦٩
العنكبوت ١٧٠
الوجه العاشر : في الظلال وما عطف عليها ١٧٢
أعجب ما ذكر في هذه الآية وبعض رموزها ١٧٣
جوهرتان : الجوهرة الأولى في قوله تعالى : (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) ١٧٤
محاورات بين الدودة والغزالة والإنسان والملك في السعادة والشقاوة ١٨٠
الجوهرة الثانية : في قوله تعالى : (وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) ١٨٢
عجائب الإنسان وحربه وقتاله ١٨٢
القسم الثالث : من قوله : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) إلى آخر السورة ١٨٣
جمهورية أفلاطون والعدل ١٩١
العدل في الأخلاق الشخصية ١٩٢
نظرة في موازنة نظام المدينة الفاضلة عند أفلاطون بنظام هذا العالم الذي نعيش فيه ١٩٣
نظرة فيما لاحظته على الإنسانية العامة في أيامنا هذه في القرن العشرين ١٩٦
الفصل الأول : نظام الحيوان في هذا العالم ١٩٧
الفصل الثاني : في قدماء المصريين ١٩٨
الفصل الثالث : في جمهورية أفلاطون المتقدم ١٩٨
الفصل الرابع : فيما قاله الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» ١٩٩
الفصل الخامس : في كتابي أين الإنسان ١٩٩
الفصل السادس : في نظام القرآن ١٩٩
الفصل السابع : في ديانات الأمم ٢٠٠
الفصل الثامن : عدل الله بين الناس في اليوم الآخر ٢٠١
نظرة في نقل ما ترجم من آراء أفلاطون المتقدمة ٢٠٥
الإحسان ٢٠٧
أقسام الإحسان ٢٠٨
ختام السورة ٢١٠
مذكرة عامة لسورة النحل وإيضاح لما سبق في السورة ٢١٢
نظرة عامة في هذه السورة ٢١٣
رسالة منسوبة إلى أرسطاطاليس للإسكندر في السياسة ٢١٥
عموم نظام العدل في عالم المادة وعالم الأرواح ٢٢٢